الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

249

Ahmed Mady

كليوباترا

سيرة حياة

ستايسي شيف
الروائية الفائزة بجائزة بوليتزر الأدبية الرفيعة

كليوباترا

CLEOPATRA

كليوباترا

CLEOPATRA

سيرة حياة

ستايسي شيف

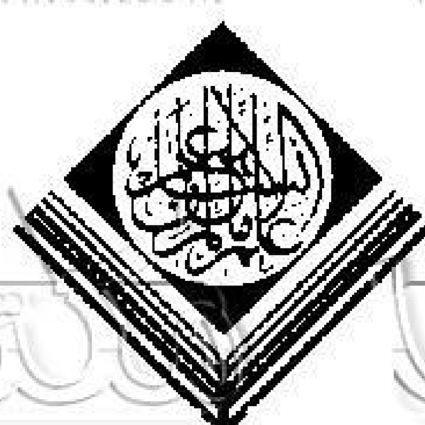
Stacy Schiff

ترجمة

سعيد الحسنية

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



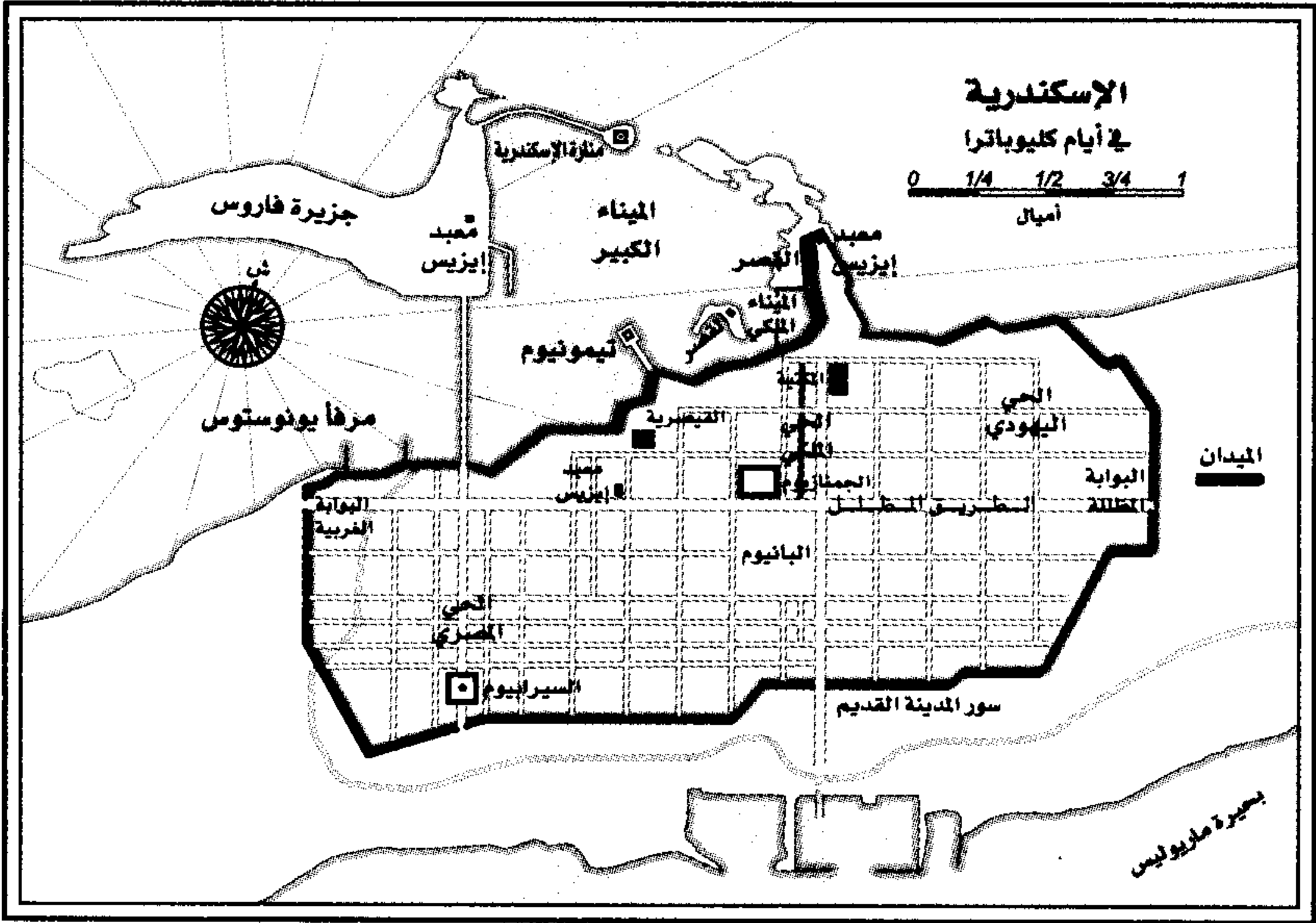
الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L


الإهداء

أخيراً، إلى ماكس، وميلي، وجو.


المحتويات



الإسكندرية
في أيام كليوباترا
0 1/4 1/2 3/4 1
أميال
منارة الإسكندرية
جزيرة فاروس
معبد
إيزيس
الميناء
الكبير
معبد
إيزيس
تيمونيوم
مرفأ يونوستوس
القيصرية
الحي
اليهودي
الميدان
البوابة
البوابة
الغربية
البانيوم
الحي
المصري
السيرابيوم
سور المدينة القديم
بحيرة مريوطيس



البحر الأسود
تراقيا
البنط
ارمينيا
ميديا
آسيا
برغاموم
إفيسوس
كابادوكيا
بارثيا
نهر الفرات
أنطاكيا
سوريا
ثغرة سوريا
رودس
دمشق
بيريتوس (بيروت)
أريحا
القدس
البحر الميت
ماسادا
فلسطين
فينيقيا
الإسكندرية
بيلوسيوم
(بور سعيد)
بلاد الأنباط
منفيس
نهر النيل
البحر الأحمر
دانديرا (قنا)
طيبة
هيرمونثيس
(أرمنت)
فيلاي
30°
40°
20°



10°
20°
20°
30°
20°
روما
بيوتيولي
بومبي
مقدونيا
فيليبي
بحر
تيرانة
خليج أبراشيا
اليونان
خليج
البحر
الأيوني
صقلية
مضيق
ميسينا
كورنث
البحر المتوسط
ش
طرابلس
ليبيا
البحر المتوسط
في أيام كليوباترا
إمبراطورية كليوباترا في ذروة أمجادها
0 250 500
أميال
0 250 500
كلم

الفصل الأول

امرأة مصرية

"إن المزية الأكثر أهمية عند الإنسان هي الإحساس المرهف تجاه الأمور التي يجدر به ألاّ يصدقها".

يوريبيديس



حكمت كليوباترا السابعة، وهي من بين أشهر النساء اللواتي ظهرن على مسرح التاريخ، مصر لفترة عشرين سنة. أضاعت مملكتها مرة، واستعادتها، وكادت تفقدها مرة أخرى قبل تمكّنها من بناء إمبراطورية وخسارتها بأكملها. حازت في طفولتها على معاملة كالأسياد المبجلين، وتربعت ملكةً على عرشها عندما بلغت سن الثامنة عشرة من عمرها لتنضم إلى صفوف المشاهير منذ ذلك الوقت. دخلت كليوباترا، وحتى في حياتها، دائرة التخمينات، والتبجيل، والشائعات والأساطير. حكمت تلك الملكة في أوج سيطرتها منطقة الساحل الشرقي للمتوسط بكاملها تقريباً، وهكذا تربعت على عرش آخر مملكة مصرية عظيمة في بلادها، وأمسكت بيديها مصير العالم الغربي، وإن كان ذلك لفترة وجيزة. أنجبت كليوباترا طفلاً من رجلٍ متزوج، وثلاثة أطفال آخرين من رجلٍ آخر. ماتت في عمر التاسعة والثلاثين، وكان ذلك قبل جيلٍ واحد من مولد السيد المسيح. كانت نهاية كليوباترا مفاجئة ومثيرة، وهكذا عززت مأساتها الشهرة التي اكتسبتها، وضمنت لها مكاناً في خيالاتنا منذ ذلك الحين. دافع عنها كثيرون، بمن فيهم كتّابٌ مسرحيون وشعراء، كما أجرينا على لسانها أحاديث لا تحصى منذ ما يقارب ألفَي عام. أُطلِق اسمها بعد مماتها على كويكب، وعلى لعبة

من ألعاب الفيديو، وعلى مفاهيم شائعة، وماركة سجائر، وعلى آلة، وعلى نادٍ، واقترن اسمها مع اسم إليزابيت تايلور، كما أضاف شكسبير بعداً آخر من أبعادها المتنوعة التي لا حصر لها، لكنه لم يفِها حقها.

اكتسبت كليوباترا اسماً خالداً، لكن صورتها بقيت مشوشة. إننا لا نمتلك سوى فكرة بسيطة عن صورة هذه المرأة التي يُحتمل أنها تُعتبر إحدى أبرز الشخصيات في التاريخ. يتفق المؤرخون في ما بينهم على أن صورتها التي تظهر على العملة التي سكّتها في حياتها هي الصورة الوحيدة المقبولة. لكننا اعتدنا أن نتذكرها لأسباب مغلوطة؛ على أنها الملكة المقتدرة ذات النظرة الثاقبة التي عرفت كيف تبني أسطولاً، والتي تمكنت من قمع التمرد، ومن التحكم بالعملة، ومن تخفيف المجاعة. قدّم لها أحد كبار قادة الرومان دعماً مكّنها من إحكام قبضتها على الشؤون العسكرية. وقد برزت في زمنٍ لم تندر فيه النساء الحاكمات، لكنها كانت الأنثى الوحيدة في العالم القديم التي حكمت بمفردها، والتي تمكنت من لعب دورٍ في شؤون الغرب. كانت أكثر ثراء بكثير من أي شخصٍ آخر في منطقة البحر المتوسط، كما تمتعت بتقدير أكبر بكثير من ذلك الذي تمتعت به أي امرأة أخرى في مثل عمرها، وهذا ما ذُكّر به ملك منافس وشهير عندما دعا إلى قتلها عندما كانت في بلاطه. (لم يتم الاغتيال بالنظر إلى منزلتها). تحدرت كليوباترا من سلالة طويلة من القتلة، لكنها تمكنت من الحفاظ، وبكل إخلاص، على تقاليد أسرتها، وكانت متزنة جداً بالنسبة إلى زمانها ومكان حكمها. بقيت، مع ذلك، تلك الفاتنة الطائشة، لكنها لم تكن آخر امرأة ذات سلطة حقيقية تتحول إلى امرأة مغرية من دون حياء.

تعرضت حياة كليوباترا للتشوش والخيبة، كما هي الحال مع أولئك الذين يعيشون حياة شاعرية، وهي التي نشأت وسط أجواء ترفٍ لا توصف، وما لبثت أن ورثت إمبراطورية تعيش في مرحلة الانحدار. نصّب أسلافها أنفسهم فراعنة على امتداد عشرة أجيال. كان البطالسة، في واقع الأمر، من

المقدونيين الإغريق، وهو الواقع الذي يجعل كليوباترا مصرية إذا كانت إليزابيت تايلور كذلك. تمكنت كليوباترا، وهي لا تزال في عمر الثامنة عشرة، وشقيقها الذي كان في العاشرة من عمره، من التربع على عرش بلاد تمتلك ماضياً مجيداً ومستقبلاً متقلباً. فصلت ألف وثلاثمئة سنة بين نفرتيتي وكليوباترا، كما حملت الأهرامات الرسومات التي قامت كليوباترا، وبشكلٍ شبه مؤكدٍ تقريباً، بتعريف يوليوس قيصر عليها. سبق لتمثال "أبو الهول" في هذه الأثناء أن خضع قبل نحو ألف سنة لعملية ترميم هامة. كان مجد الإمبراطورية البطليموسية - أو البطلمية - قد خبا في هذه الأثناء، لكن كليوباترا ظهرت في عالم تهيمن عليه روما، وهو العالم الذي وصل، في أثناء فترة طفولتها، إلى حدود مصر. ذكّر يوليوس قيصر ضباطه، في الوقت الذي بلغت فيه كليوباترا عامها الحادي عشر، بأنهم إذا لم يشنّوا الحرب، ولم يحصلوا على الكنوز ويحكموا الآخرين، فلن يكون في وسعهم اعتبار أنفسهم رومانيين. وقد فصّل أحد ملوك الشرق، الذي شنّ معركةً ملحمية من جانبه على روما، ما أصبح بعد ذلك محنة كليوباترا بطريقة مختلفة عندما قال: "يمتلك الرومان عقلية الذئاب، وكانوا يكرهون الملوك العظام، كما أنهم استولوا بالقوة على كل شيء يملكونه. أرادوا الاستيلاء على كل شيء، كما كانوا على استعداد إما لتدمير كل شيء، أو الهلاك في أثناء محاولتهم هذه". كانت الإمكانيات التي تمتلكها آخر البلدان الغنية التي تدور في فلك روما واضحة للعيان. وقد تمكنت مصر من التميّز بمهارتها في التفاوض؛ وهي المهارة التي مكّنتها من الحفاظ على استقلاليتها. ليس هذا فحسب، بل تمكنت كذلك من إقحام نفسها في شؤون روما.

تمكّن والد كليوباترا من حيازة لقب صديق شعب روما وحليفه، وذلك مقابل مبلغٍ كبيرٍ من المال. اكتشفت ابنته في ما بعد أنه لا يكفي أن يكون المرء صديقاً للشعب ومجلس الشيوخ الذي يمثله، بل كان

من الضروري أن يكون صديقاً لأقوى قائدٍ في روما. كانت تلك مهمة صعبة في تلك البلاد التي كانت جمهورية، والتي نهشتها الحروب الأهلية. استمرت هذه الصراعات بالتفجر بانتظام طيلة حياة كليوباترا، كما عانت سلسلة متعاقبة من قادة الرومان من التحريض ضد بعضهم بعضاً لخوض صراعات محمومة من أجل تحقيق الطموحات الشخصية. حُسمت معركتان من هذه المعارك فوق الأراضي المصرية. وقد أسفرت كل التحركات من هذا النوع عن مسارعة العالم المتوسطي إلى تصحيح ولاءاته، وإعادة توجيه مسار الجزية التي يدفعها. ألقى والد كليوباترا بثقله وراء بومبي العظيم؛ ذلك القائد الروماني البارع الذي بدا أن الحظ سيحالفه إلى الأبد. تحوّل الرجل إلى راعي الأسرة، ودخل هذا القائد حرباً أهلية ضد يوليوس قيصر في الوقت الذي تربعت فيه كليوباترا على العرش في الجانب الآخر من المتوسط. ألحق يوليوس قيصر في صيف العام 48 قبل الميلاد هزيمة ساحقة ببومبي في معركة جرت في القسم الأوسط من اليونان. هرب بومبي على إثر هذه المعركة إلى مصر حيث لقي مصرعه مطعوناً، ومقطوع الرأس على أحد الشواطئ المصرية. كانت كليوباترا في الحادية والعشرين من عمرها في ذلك الحين، ولم تجد بداً من التزلّف إلى ذلك السيّد الجديد للعالم الروماني. أقدمت الملكة على هذا التزلّف بطريقة تختلف كثيراً عما فعله عدد كبير من الملوك التابعين الذين أغفل الزمان ذكر أسمائهم لأسبابٍ وجيهة. ناضلت كليوباترا في الأعوام التالية من أجل تحويل المد الروماني لصالحها، وغيّرت ولاءاتها بعد اغتيال يوليوس قيصر، وهكذا انتهت إلى التحالف مع أحد تابعيه، أي مارك أنطونيو. بدا لوهلة أنها تمكنت من إنقاذ حكمها، إلا أن قصتها انتهت قبل أن تبدأ، فالأمر لم يكن كذلك بالنسبة إليها. وقد تحولت مصر بعد موتها إلى مقاطعة رومانية، ولم تتمكن من استعادة استقلالها حتى القرن العشرين.

أيمكن قول أي شيء حسن عن امرأة عاشرت اثنين من أقوى الرجال في زمانها؟ يُحتمل ذلك، وإن يكن ذلك قد جرى في عصرٍ حازت فيه روما على الكلمة العليا. ظهرت كليوباترا في واحد من أخطرِ التقاطعات التي شهدها التاريخ؛ أي النساء والسلطة. حذّر يوريبيديس قبل مئة عام من ذلك الزمن بأن النساء الذكيات يشكّلن خطراً. اكتفى أحد المؤرخين الرومان في ذلك الزمان بوصف ملكة يهودية على أنها مجرد رمز، لكنه انتقل بعد ست صفحات إلى إدانتها نتيجة طموحاتها التي تتصف بالتهوّر، وتمسكها بالسلطة بطريقة غير لائقة. بعد ذلك ظهرت صيغة أخرى أكثر جاذبية من التمسك بالسلطة؛ وعدت عروسٌ في عقد زواجها الذي جرى في القرن الأول قبل الميلاد بأن تكون مخلصة وحنوناً. وأقسمت كذلك بألاّ تضيف جرعات حبٍ إلى طعام زوجها أو شرابه. لا نعلم على وجه التأكيد ما إذا كانت كليوباترا قد أحبّت أنطونيو أو قيصر، لكننا نعلم بأنها حملت كل واحد منهما على طاعتها. يرى الرومان أنها استعبدت كلا الرجلين. كانت تلك لعبة خاسرة بالنتيجة: سلطة امرأة استتبعت خداعاً لرجل. طُرح سؤال على زوجة أغسطوس، أول الأباطرة الرومان، عن كيفية حصولها على كل ذلك النفوذ على زوجها، فزعمت أنها تمكنت من ذلك "عن طريق تعففها المفترض، والإقدام على كل ما يرضيه، وعدم التدخل بأي شأنٍ من شؤونه. وهي فعلت ذلك على الأخص عن طريق عدم سماع - أو ملاحظة - محظياته". لا يوجد أي سبب يدعونا إلى قبول تلك الصيغة كما هي. أما كليوباترا فهي، في المقابل، من نسيجٍ آخر؛ إذ لم تجد تلك الملكة حرجاً من السماح لأبرز قائد روماني بالقيام بما يحبه، وذلك في أثناء رحلة صيد مترفة تحت أشعة شمس الإسكندرية المتكاسلة.

كان الاستهتار والخروج على القانون من ميزات الإغريق بالنسبة إلى الرومان، وهذا هو السبب الذي جعل من كليوباترا مشبوهة مرتين. المرة الأولى، لأنها تحدرت من مجتمعٍ عُرف "بمهارته الفطرية بالخداع".

والمـرة الأخـرى، بسـبب لهجتهـا التـي تميّز سـكان الإسـكندرية. كان من الصعب على الروماني التفريق بين الجاذبية والإغراء. كانت كليوباترا تمثّل الشرق الغامض والساحر، وذلك بتأثير بلادها الغنية والمثيرة، وما فيها من التعرّج والأصالة اللذين يثيران الدهشة التي يثيرها مشهد نهرٍ من الأنهر. أما الرجـال الذيـن عرفوهـا عن قرب فبدا أنهم أضاعوا فيها رشـدهم، أو على الأقـل عمـدوا إلـى إعـادة التفكير في برامجهم. جاء في السـيرة التي كتبها بلوتـارك عـن مـارك أنطونيـو بأنها فرّت معـه. أثارت الملكـة الانطباع ذاته عند أحد مؤرخي القرن التاسـع عشـر الذي وصفها عندما التقت يوليوس قيصر على أنها "فتاة مستهترة في السادسـة عشـرة من عمرها". (كانت في الواقع امرأة رصينة في الحادية والعشـرين من عمرها). لكن نداء الشـرق الساحر سبق كليوباترا بكثير، كما أنها تحدرت من بلاد الخير والخصوبة. لا يصعب علينا، في هذه الحالة، فهم السـبب الذي جعل قيصر جزءاً من التاريخ، بينما تحولت كليوباترا إلى أسطورة.

لكن ما يزيد رؤيتنا غموضاً هو واقع أن الرومان الذين أوردوا قصة كليوباترا كانوا على معرفة جيدة بتاريخهم القديم الذي ينسـاب تكراراً في رواياتهـم. إننـا نعمـد أحياناً إلى تفضيل القصص المنسـوخة على القصص الأصليـة، أي كمـا فعـل مـارك توايـن بالنسـبة إلى تاريخ الفاتيـكان العظيم والزاخـر، وهـو مـا فعلـه الكتّاب الكلاسـيكيون. إذ خلطـوا الروايات التي تـدور حولهـا، وجـدّدوا القصص القديمـة، كما أثقلوا كليوباترا بمسـاوئهم وأخطائهـم. وُجِـد التاريـخ كـي يُـروى مجـدّداً، وإن كان بأسـلوبٍ أكثـر تشـويقاً، وليس بالضرورة أن يترافق ذلك مع دقة أكبر. أظهرت النصوص القديمـة الأشـرار وهم يرتدون ملابـس أرجوانية اللون مبتذلة على الدوام، ويتناولـون لحـوم الطواويـس المشـوية، ثم يدهنون أنفسـهم بمراهم نادرة، ويذوّبـون اللآلـئ. صـوّرت هـذه النصوص الناس بمظهـر فيه قدر كبير من الترف والإسراف سواء أكانوا من الخارجين على القانون، أو ملكة مصرية

متعطشة للسلطة، أو قرصاناً عديم الرحمة. سار الترف والفساد جنباً إلى جنب، وشعّ العالم بالأرجوان والذهب. نلاحظ كذلك أن التاريخ قد تحول إلى أساطير، ومزج بين ما هو بشري وما هو مبجّل. كما سمح عالم كليوباترا بمشاهدة ما تبقى من قيثارة أورفيوس، أو برؤية البيضة التي خرجت منها والدة زيوس (حدث ذلك في إسبارطة).

لا يقتصر الأمر على أن التاريخ يُكتب بأيدي الأجيال التالية، لكنه يُكتب لها. لم تلتقِ أكثر مصادرنا موثوقية بكليوباترا قطّ. وُلد بلوتارك بعد مضي ستة وسبعين عاماً على وفاتها. (عمل بلوتارك في زمان متّى، ومرقص، ولوقا، ويوحنا). كتب آبيان عنها بعد مرور ما يزيد على قرنٍ من الزمن، أما ديو فقد كتب عنها بعد ما يزيد على قرنين من الزمان. تختلف قصة كليوباترا عن قصص معظم النساء في أن الرجال الذين صاغوا هذه القصة عمدوا إلى تضخيم دورها بدلاً من التقليل منه، وذلك لأسبابٍ تخصهم. كانت قصتها مع مارك أنطونيو هي الأكثر طولاً في حياتها، لكن علاقتها مع منافسه أغسطوس أوكتافيوس كانت الأشد تأثيراً. فقد تمكّن الرجل من إلحاق الهزيمة بأنطونيو وكليوباترا. اعتبرت روما أنه أنقذ تلك الملكة المصرية من نزعاتها النهمة، والغادرة، والمتعطشة للدماء وللسلطة، وذلك كي يوصلها إلى العظمة. رفع أغسطوس كليوباترا إلى أبعادٍ مبالغٍ فيها، وذلك كي يتمكّن من فعل الأمر ذاته بالنسبة إلى النصر الذي أحرزه، وبهدف إخراج عدوّه الحقيقي ووالد زوجته السابقة، من ميدان الأحداث. أتت النتيجة النهائية لكل هذا مشابهة لقصة نابليون كما كُتبت في القرن التاسع عشر، أو لتاريخ أمريكا في القرن العشرين كما سيكتبه الرئيس ماو.

يمكننا أن نضيف إلى فريق المؤرخين المتحيّزين بشكلٍ استثنائي سجلات غير موثوقٍ بها. إننا نعرف أنه لم تتبقَ لدينا أي ورقة بردي من الإسكندرية، كما أنه لم يصمد أي جزء من أجزاء تلك المدينة القديمة

فوق الأرض. إننا نمتلك كلمة مكتوبة واحدة، ولربما كانت الوحيدة، من كليوباترا. (وقّعت الملكة، أو أحد كتَبَتها، مرسوماً ملكياً بكلمة ginesthoi التي تعني "للتنفيذ"). لا يكترث الكتّاب الكلاسيكيون للإحصاءات، وحتى للمنطق أحياناً، كما أن رواياتهم تحمل التناقض في بعض الأحيان. نلاحظ أن آبيان لا يعبأ بالتفاصيل، أما يوسيفوس فميؤوس منه بالنسبة إلى تأريخ الأحداث؛ أي زمن حدوثها. نلاحظ كذلك أن ديو يفضّل البلاغة على الدقة. تبدو الثغرات في روايات هؤلاء المؤرخين متعمدة نتيجة تواترها، ونلاحظ فترات صمتٍ ترقى إلى حد التآمر. أيُعقل أننا لا نمتلك تمثالاً نصفياً موثوقاً به لكليوباترا في زمن ازدهر فيه فن رسم الأشخاص بصورة واقعية؟ أيُعقل ألاّ تُنشر أبداً الرسائل التي كتبها شيشرون عن الأشهر الأربعة الأولى من العام 44 ق.م، أي عندما تواجد قيصر وكليوباترا معاً في روما؟ أما أطول تاريخ إغريقي لهذه الفترة فيتجاهل تقريباً تلك الفترة الصاخبة، ولذلك يصعب علينا تحديد الأمور التي نفتقدها أكثر من غيرها، كما أن آبيان يعدنا بسرد المزيد عن قيصر وكليوباترا في كتبه الأربعة التي كتبها عن التاريخ المصري، وهي الكتب التي لم تسلم قطّ من الضياع. أما رواية ليفي فتقفز عن قرنٍ بأكمله سبق كليوباترا. إننا نعرف أعمال طبيبها الخاص بشكلٍ مفصّل - وذلك بفضل ما كتبه بلوتارك عنه - أما التاريخ الذي كتبه ديليوس فقد اختفى بالكامل، واختفت معه تلك الرسائل المثيرة التي يُقال إن كليوباترا قد بعثتها إليه. ونلاحظ كذلك أن لو كان أيضاً كان يتوقف في ملحمته الشعرية، وبشكلٍ مفاجئ ومثيرٍ للدهشة، ويترك قيصر محتجزاً في قصر كليوباترا في بداية حرب الإسكندرية. تغتنم الأساطير فرصة غياب الحقائق فتدخل عظمة التاريخ.

تمثّل الفجوات في السجلات التاريخية مخاطرة، أما ما ننسجه حول هذه الفجوات فيشكّل مخاطرة أخرى. غابت قضايا الدولة عن هذه السجلات، وهكذا لم يبقَ لدينا سوى قضايا القلب. وكانت النتيجة ظهور

امرأة قوية ملمة بالسياسة، والدبلوماسية، والحكم، وملمة أيضاً بتسع لغات، وفصيحة، وذات شخصية مؤثرة. لكن كليوباترا ظهرت، بالرغم من ذلك، وكأنها من صنع مشترك ما بين المسؤولين الرومان عن الدعاية ومخرجي هوليوود. تُركت الملكة كي تضع علامةً فارقة على شيء كنا على علم بوجوده على الدوام، ألا وهو الإغراء الأنثوي الفعّال. لم يكن وقت ظهورها مناسباً مطلقاً، ولا يعود ذلك فقط إلى كتابة تاريخها على يد أعدائها، بل إلى أن سوء حظها شاء لها أن تعلق في أذهان الجميع كما صوّرها الشعر اللاتيني على هواه. بقيت صورة كليوباترا في الأعمال الأدبية معادية لها، وانتشرت الروايات الكثيرة التي تدور حولها. أطلق جورج برنارد شو العنان لخياله عندما تحدّث عنها في مسرحية قيصر وكليوباترا، لكن عدداً آخر من المؤرخين فضّل الاعتماد على شكسبير، وهو أمر مفهوم تماماً، لكن الاستناد عليه يشبه اعتماد ما يقوله جورج. أس. سكوت عن باتون.

تتطلب عملية إعادة كليوباترا إلى صورتها الحقيقية استعادة بعض الحقائق، واستبعاد الأساطير التي حيكت حولها، وكذلك عناصر الدعاية القديمة. كانت كليوباترا امرأة يونانية ارتبط تاريخها برجال ارتبط مستقبلهم بروما، وكان معظمهم من الشخصيات الرسمية للإمبراطورية. تبدو الطرق التاريخية التي استخدموها غامضة بالنسبة إلينا، كما أنهم نادراً ما كانوا يُفصِحون عن أسماء مصادرهم، وذلك لأنهم اعتمدوا كثيراً على الذاكرة. لذا، يمكننا اعتبارهم من المجادلين المحترفين بحسب المعايير الحديثة، ومن المدافعين المتحمسين، والأخلاقيين، والقصّاصين، ومن الذين يعيدون صياغة الأحداث، ويعيدون ترتيب أزمان حدوثها. لم تحظَ كليوباترا المصرية بمؤرخٍ منصف بالرغم من سعة اطلاعها، إذ يمكن للمرء أن يقرأ تاريخها علىٰ هذا الأساس؛ أي مع علمه بأن المصادر قد تكون على خطأ، وهي الوحيدة التي تتواجد في متناول أيدينا. لا يوجد اتفاق شامل بين المؤرخين حول أهم التفاصيل الأساسية لحياتها، ولا إجماع حول

هوية والدتها، ولا على المدة التي عاشتها كليوباترا في روما، ولا عن عدد المرات التي حملت فيها، ولا حول ما إذا كانت قد تزوجت من أنطونيو، ولا عن الأمور التي رشحت عن المعركة التي قررت مصيرها، ولا عن كيفية موتها(*). حاولت في هذا المجال أن آخذ بعين الاعتبار مَن من المؤرخين كان أمين مكتبة سابقاً، ومَن منهم كان كاتباً، ومَن منهم رأى مصر حقيقة، ومَن منهم كره ذلك المكان مع أنه وُلد فيه، ومَن منهم كان يعاني من مشاكل مع النساء، ومن منهم كتب بحماسة الرومانيين، ومَن منهم أراد تصفية حساب معين، ومَن منهم أراد إرضاء الإمبراطور، ومَن منهم أراد تصحيح أوزانه الشعرية. أما أنا، فقد اعتمدت قليلاً على لوكان لأنه كان قريباً من مسرح الأحداث، أي أنه كان هناك قبل بلوتارك، وآبيان، أو ديو. كان الرجل شاعراً كذلك، ويعتمد على أدلة حسّية. نلاحظ هنا أن الروايات تكون عادة مبالغاً فيها؛ حتى عندما لا تكون متحيّزة أو معقدة. وقد سبق لنا أن قلنا إنه لا وجود لروايات مبسطة وغير مزوّقة في التراث القديم. إذ كانت غاية الكتاب الإدهاش. وأنا من جهتي الخاصة لم أحاول ملء فراغات، بالرغم من أنني اضطررت أحياناً إلى تجميع الاحتمالات. أما ما يبدو محتملاً فقط، فإنه يبقى هنا محتملاً فقط؛ بالرغم من أن الآراء تختلف كثيراً حتى حول الاحتمالات، وكذلك الحال بالنسبة إلى الأمور المتناقضة فهي تبقى كذلك، وإن بذلت محاولات لاستعادة السياق. صحيح أن كليوباترا قتلت أشقاءها، لكن الصحيح كذلك هو أن هيرودس قتل أولاده، ومن ثمّ ندب حظه بوصفه أسوأ الآباء حظاً. ذكّرنا بلوتارك في هذا المجال بأن هذا السلوك كان عادياً بين الملوك والحكام. لم تكن كليوباترا جميلة بالضرورة، لكن ثروتها وقصرها أثارا مطامع الرومان. يفسّر كل جانب من جوانب البحر المتوسط الأمور بطريقة مختلفة. أما الأبحاث

(*) لا يتفق حتى كتاب الروايات الخيالية على العلاقة بين قيصر وكليوباترا. إنه يحبها بحسب هاندل، وهو لا يحبها بحسب شو، وهو يحبها بحسب ثورنتون وايلدر.

التي جرت في العقود الحديثة حول النساء في العهود الماضية، وحول مصر في العهد الهلينستي، فقد أضاءت صورة الأحداث كثيراً. وقد حاولت في هذا المجال نزع الغموض الذي يكتنف آخر مشاهد حياتها، وهو الغموض الذي يقلّص من شأن المؤرخين الرصينين ويضعهم في مصاف كتاب المسلسلات الدرامية. ونلاحظ أحياناً أن الروايات التي تحمل في طياتها بعض المبالغة تأخذ حظّها من البقاء طويلاً، إذ عاشت كليوباترا في حقبة تسود فيها المبالغة في كل شيء، وفي عصرٍ كثُر فيه المتآمرون. كما نلاحظ أيضاً أن كبار لاعبي العصر يختفون في نهاية الأمر، وينهار من ورائهم عالم بأكمله.

تبقى هناك أمور كثيرة نجهلها حول كليوباترا، وتبقى هناك أمور جهلتها هي بدورها. فهي لم تعرف أنها كانت تعيش في القرن الأول قبل الميلاد، ولا أنها كانت تعيش في العصر الهلينستي، وذلك لأنهما أخذا تسميتيهما في ما بعد - يبدأ العصر الهلينستي مع موت الإسكندر الكبير عام 323 ق.م، وينتهي في العام 30 ق.م مع موت كليوباترا. أما أنا، فأفضل أن نسميه الحقبة الإغريقية التي لم يلعب فيها الإغريق أي دور - لم تعلم كذلك أنها كليوباترا السابعة، وذلك لأسباب عدة، وأحد هذه الأسباب أنها كانت في الواقع كليوباترا السادسة. وبالإضافة إلى ذلك لم تعرف أي رجل يدعى أوكتافيوس؛ الرجل الذي قهرها وخلعها عن الحكم، وهو الذي تسبب بانتحارها، وساهم هكذا في تعزيز شهرتها إلى حدٍّ كبير على مدى الأجيال. فقد كان هذا الرجل يُعرف في البداية على أنه غايوس أوكتافيوس. وقد تعمّد هذا الرجل عندما أقحم نفسه في حياة كليوباترا أن يسمي نفسه غايوس يوليوس قيصر على اسم والد عمّ والده ذائع الصيت، وعشيقها، والذي ذكره في وصيّته، والذي نعرفه هذه الأيام باسم أغسطوس، وهو اللقب الذي اختاره بعد مرور ثلاث سنوات على وفاة كليوباترا. يظهر هذا الرجل هنا باسم أوكتافيوس بعد أن أخذ اسم

قيصر مرتين علماً أن قيصراً واحداً يكفي بحد ذاته.

تغيّرت أسـماء الأماكن منذ تلك الأزمان، ولذلك اتبعت نهج ليونيل كاسـون في اختيار الأسـماء المألوفة على الأسـماء الكلاسـيكية؛ وهذا هو السـبب الذي دفعني إلى تسـمية بيريتوس باسـم بيروت، ومثال على ذلك لـم تعـد بيلوسـيوم موجـودة اليوم لأننا نعرفها حالياً باسـم بور سـعيد التي تقع على مدخل قناة السويس، لكنها مع ذلك تظل بيلوسيوم. اخترت، لهذا السبب، التهجئة الإنجليزية بدلاً من الترجمات الصوتية. يظهر منافس قيصر هنا باسـم بومبي بدلاً من غنايوس بومبيوس ماغنوس، ونائب قيصر باسـم مـارك أنطونيـو بـدلاً من ماركوس أنطونيوس. نلاحـظ كذلك أن الجغرافيا قد تغيّرت، كما غرقت بعض السـواحل تحت سـطح الماء، وجفّت بعض المستنقعات، وتعرضت بعض التلال للانهيار. أما الإسكندرية فقد أصبحت أكثر تسطحاً هذه الأيام عما كانت عليه في زمن كليوباترا، وتغيّرت شوارع المدينة اليوم عما كانت عليه في الماضي، ولم تعد تتوهج باللون الأبيض. أما نهر النيل فقد ابتعد نحو ميلين إلى الشرق، لكن الهواء الرطب والحار، والمليء بالغبار الذي كان يهب من البحر قبالة الإسكندرية، فقد بقي كما هو، وكذلك بقي منظر مغيب الشمس الأرجواني على حاله. بقيت الطبيعة الإنسـانية كمـا هـي، أمـا فيزياء التاريخ فقد بقيت ثابتة. اسـتمرت الروايات العيانية بالاختلاف كثيراً(*). تمكنت الأساطير منذ مدة تزيد على ألفي عام مـن تجـاوز الحقائـق والبقاء أكثـر منها. إن كل التواريخ التي تظهر هنا هي قبل الميلاد عدا تلك التي أشرنا إليها بخلاف ذلك.

(*) استمرت الحال كذلك منذ عهود طويلة. صاح ثيوسيديس قبل نحو أربعمئة سنة من زمن كليوباترا قائلاً: "كانت الجهود التي تهدف إلى التثبت من هذه الحقائق شاقةً، وذلك لأن شهود العيان على أحداثٍ عدة لم يعطوا تقارير متطابقة عن الأحداث ذاتها، وإنما اختلفت بحسب أهوائهم وميلهم إلى جهة دون أخرى، أو أنها اختلفت بحسب ما تذكروه منها".

الفصل الثاني

الأموات لا يعضّون

"إنها هبة من الله، ومن حسن الحظّ، أن تكون للمرء علاقات قليلة".

ميناندر



حشدتْ كليوباترا في ذلك الصيف مجموعةً من المرتزقة في معسكرٍ صحراوي يقبع تحت وهج شمس سوريا اللاهبة. كانت يتيمةً ومهجرة، وفي الحادية والعشرين من عمرها، وقد سبق لها أن عرفت طعم الثراء المفرط وما يرافقه من معاشرة أناس كثر، ومن الكوارث أيضاً. كانت معتادة على أكبر مظاهر الترف في أيامها، ولهذا اختارت عقد الاجتماع في مكانٍ يبعد مئتي ميلٍ عن منزلها بما فيه من أبوابٍ مصنوعة من خشب الآبنوس، وأرضيات الأونيكس. نصبت خيمتها وسط أجمات صحراوية، وهي الخيمة التي كانت أقرب مكانٍ لها إلى منزلها منذ نحو عامٍ من الزمن. كافحت طيلة كل تلك الشهور للبقاء على قيد الحياة بعد أنّ هربت عبر مصر الوسطى، وفلسطين، وعبر سوريا الجنوبية. يُضاف إلى ذلك أنها أمضت ذلك الصيف المليء بالغبار في إنشاء جيش.

كانت نساء أسرتها ماهرات في مهام كهذه، كما كانت هي نفسها جاهزةً بما يكفي لمواجهة جيش خرج لملاقاتها. كانت قريبة المنال بشكلٍ خطر، أي إنها كانت غير بعيدة عن قلعة بيلوسيوم - بور سعيد اليوم - الساحلية، والتي تقع على حدود مصر الشرقية، وحيث يتمركز نحو عشرين

ألفاً من الجنود المخضرمين؛ الجيش الذي يبلغ تعداده نحو نصف تعداد الجيش الذي توجّه به الإسكندر الكبير إلى آسيا قبل ثلاثة قرون. كان ذلك الجيش تجمعاً رهيباً من القراصنة وقطاع الطرق، والخارجين على القانون، والمنفيين، والعبيد الهاربين، وكان تحت القيادة الاسمية لشقيقها الذي يبلغ الثالثة عشرة من عمره. ورثت هي وشقيقها عرش مصر، لكنها ما لبثت أن أزاحته جانباً، لكنه أبعدها بدوره عن المملكة التي كان من المفترض أن تشترك معه في حكمها بوصفهما زوجين. سيطر جيش شقيقها على أسوار بيلوسيوم بأحجارها ذات اللون القرميدي، وعلى أبراجها الضخمة شبه الدائرية التي يبلغ ارتفاعها عشرين قدماً. أما هي، فقد أقامت معسكرها إلى الشرق من هذه القلعة، وكان بمحاذاة ساحل منعزل يقع على أطراف بحر واسع من الرمال الكهرمانية اللاهبة. لاحت في الأفق ملامح معركة قادمة، لكن وضعها كان ميؤوساً منه في أحسن الأحوال. وقفت كليوباترا السابعة للمرة الأخيرة خلال ألفي سنة خارج المسرح. كانت ستمضي في غضون أيام قليلة إلى أحضان التاريخ، وذلك لأنها واجهت ما هو محتوم، وسوف تخوض معركة مع ما هو غير محتمل؛ وكان ذلك في العام 48 ق.م.

انتشر في أجواء المتوسط جنون غريب، وراجت توقعات متطرفة تنذر بالشؤم، وقد ساد الغضب الشديد أمزجة الناس. لم يكن من النادر، في مثل هذه الحالة، أن يشعر المرء بالقلق والابتهاج، بالقوة وبالخوف، وكل ذلك خلال مساء يوم واحد. في حين أثبتت بعض الشائعات صدقيتها. سمعت كليوباترا في وقت مبكرٍ من شهر تموز أن الحرب الأهلية، الدائرة في روما، والتي كانت آنذاك صِراعاً شنّه يوليوس قيصر الذي لا يُقهر ضد بومبي العظيم الذي لا يُهزم، على وشك أن تتقاطع مع الحرب التي تشنّها هي. كانت تلك أخباراً مقلقة، خاصة وأنها كانت تسمع منذ نعومة أظفارها أن الرومان كانوا حماة ملوك مصر. دان أولئك الملوك بعروشهم إلى تلك

السلطة الهائلة، والتي تمكنت في غضون أجيالٍ قليلة من قهر معظم أرجاء العالم المتوسطي. تذكرت كذلك، ومنذ أن كانت فتاة صغيرة، أن بومبي كان صديقاً حميماً لوالدها. كان بومبي قائداً لامعاً، وهو الذي تمكن من إحراز انتصارات كثيرة برّاً وبحراً على مدى عقودٍ من الزمن، كما تمكن من قهر أمةٍ إثر أمة في أنحاء أفريقيا، وآسيا، وفي أوروبا. كانت كليوباترا وشقيقها المبعَد بطليموس الثامن كلاهما مدينين له.

اكتشفت كليوباترا بعد أيام قليلة أن فرص التعرض للاغتيال على يد شخص تدين له تساوي فرص التعرض للاغتيال على يد أحد أفراد أسرتها المقربين. ظهر بومبي قبالة ساحل بيلوسيوم - بور سعيد - في 28 أيلول، وذلك بعد أن دحره قيصر. كان رجلاً يائساً يبحث عن ملجأ يلوذ به، ودفعه التفكير المنطقي إلى تذكّر الملك الشاب الذي دعم أسرته التي أصبحت مدينة له والتي لا يمكن لها أن ترفض له طلباً يقدمه لها بنيةٍ طيبة. لكن الأوصياء الثلاثة - الذين كانوا يحكمون نيابة عن بطليموس الشاب؛ أي ثيودوتس الذي كان يعلّمه الخطابة، وآخيل؛ ذلك القائد الشجاع للحرس الملكي، وبوثينوس؛ ذلك الخصي الذي ما فتئ يتحدث بطلاقة عن دوره في تعليم كبير الوزراء عندما كان صغيراً - رفضوا ذلك الطلب. لقد أجبرهم هذا الظهور المفاجئ للقائد الروماني على اتخاذ قرار صعب بعد مناقشة حادة جرت بينهم، حيث اختلفت الآراء حول هذا الموضوع. فإذا كان قرارهم استبعاد بومبي، فإن ذلك سوف يجعل منه عدواً. أما إذا استقبلوه، فإن ذلك سوف يجعل منهم أعداء قيصر. أيجدر بهم القضاء على بومبي الذي لا يستطيع تقديم أي مساعدة إلى كليوباترا التي كانت ستستقبله بحفاوة؟ لا يستطيع ذلك القائد تنصيب نفسه على عرش مصر. جاءت نصيحة ثيودوتس القاطعة على الشكل التالي: "الأموات لا يعضّون". قال معلم الخطابة هذه العبارة مرفقاً إياها بابتسامة، وهو الذي برهن بالقياس المنطقي البسيط أنهم لا يستطيعون مصادقة بومبي ولا إغضابه. بعث

الرجل برسالة ترحيبية، وبقاربٍ صغير من نوعية رديئة إلى القائد الروماني. لم يكد بومبي يطأ الشاطئ بقدمه، ويسير بضع خطوات فوق مياه بيلوسيوم الضحلة، حتى أقدم شخص ما على طعنه حتى الموت، وذلك قبل أن يفصل له رأسه عن جسمه. وقد حدث ذلك تحت أنظار جيش بطليموس؛ ذلك الملك الصغير الذي يرتدي عباءته أرجوانية اللون.

حاول قيصر في ما بعد أن يفهم القصد من وراء هذا العمل الشنيع، ثم أقرّ بينه وبين نفسه أنه ليس من المستغرب أن يتحوّل الأصدقاء إلى أعداء في أوقات الكوارث. كما لاحظ في الوقت ذاته أنه يُحتمل في أوقات الكوارث أن يحوّل الأعداء أنفسهم إلى أصدقاء. أقدم مستشارو بطليموس على قطع رأس بومبي كي يقدموا خدمة لقيصر، وهل توجد طريقة أفضل تقربهم من ذلك القائد الذي برهن أنه سيّد العالم المتوسطي من دون منازع؟ أقدم الثلاثة بهذا المنطق ذاته على تبسيط الأمور أمام كليوباترا التي بدا أنها قد اختارت الجهة الخاسرة في هذه الحرب الأهلية الرومانية التي كانت كناية عن صراع لاهب بدا وكأنه طاعون، أو طوفان، أو حريق، أكثر من كونه نزاعاً مسلحاً.

غامر يوليوس قيصر بالنزول على شاطئ العاصمة المصرية، وذلك بحثاً عن غريمه. وصل قيصر قبل جموع جيشه. كانت الإسكندرية آنذاك حاضرةً عظيمة، ومركزاً للدهاء، وللسلوكيات المريبة، وللسرقات الكبيرة. اشتهر سكانها بسرعة الحديث، وكانوا يتحدثون بلغاتٍ عديدة في الوقت ذاته. كانت مدينتهم مدهشة بحدة طباع سكانها وتعقيداتهم، وبأذهانهم المتوقدة بالأفكار، إذ كانت المدينة في مرحلة ما قبل الغليان، والصراع على السلطة. كان قيصر حريصاً على التخفيف من ابتهاجه بهذا النصر، واستمر على هذا النحو. قدّم له ثيودوتس رأس بومبي الذي قُطع قبل ثلاثة أيام، فما كان منه إلا أن أشاح بوجهه رعباً. انفجر بعد ذلك بالبكاء، وفاضت الدموع من عينيه. كان القليل من هذه الدموع صادقاً، لأن بومبي

كان في وقتٍ ما ليس حليفه فقط بل زوج ابنته [صهره] كذلك. أخطأ مستشارو بطليموس لأنهم اعتبروا أن هذا الاستقبال المرعب سيوقف قيصر. ويصدق الأمر ذاته على قيصر، إذا اعتقد أن قتل بومبي يُعتبر تصويتاً لصالحه؛ وعلى الأقل من وجهة نظر سكان الإسكندرية. لقي قيصر أعمال شغبٍ بانتظاره عندما نزل على الشاطئ حيث كان الرومان يلقون أقل قدرٍ من الترحيب؛ وعلى الأخص ذلك الشخص الذي يُمسك بمقاليد السلطة. اعتبر السكان أن قيصر في أفضل الأحوال سوف يتدخل في شؤونهم، لكن أسوأ الاحتمالات كان يدل على أنه يفكر في إخضاع البلاد. سبق لروما أن عادت ونصّبت على عرشها ملكاً غير محبوب زاد من فرض الضرائب كي يدفع الديون التي ترتبت عليه نتيجة استعادته للعرش، وهو الأمر الذي زاد الأمور سوءاً. لم يكن سكان الإسكندرية على استعداد لدفع ثمن عودة ملك لم يكونوا راغبين فيه أساساً. ولم يكترثوا كذلك بأن يصبحوا مواطنين رومانيين.

أنشأ قيصر سرادقاً بأمان في الفناء التابع لقصر البطالسة، وكان في مكان يجاور موقع بناء السفن الملكية، أي في القسم الشرقي من المدينة. استمرت الاضطرابات، وتعالت الصيحات والمشاجرات التي حصلت في الشوارع التي تنتشر الأعمدة على جوانبها، لكنه كان آمناً في فناء القصر من تأثيرات كل هذه الاضطرابات. سارع قيصر في طلب تعزيزات، وعمد بعد ذلك إلى استدعاء الشقيقين المتخاصمين، إذ شعر بأنه ملزمٌ بتسوية النزاع بينهما، أي كما فعل هو وبومبي معاً مع والدهما قبل نحو عقدٍ من الزمان. كان استقرار مصر يُعتبر مصلحة حيوية جداً لروما، ويصدق ذلك أكثر عندما تتزايد الديون المترتبة على مصر. قال قيصر لمنافسه قبل فترة قصيرة إن الوقت قد حان "لوضع حدٍّ لسلوك الفريقين المتحاربين المشين، والتخلي عن نزاعهما المسلح، وأنه يجب عليهما ألاّ يغامرا بحظوظهما أكثر من ذلك". وتعيّن على كليوباترا وشقيقها أن يرحما نفسيهما وبلدهما.

لقد رتّب هذا الاستدعاء على كليوباترا تقديم بعض الإيضاحات والحسابات، كما امتلكت كل الأسباب كي تدافع عن قضيتها بكل صراحة، وذلك قبل أن يتمكن مستشارو شقيقها من إعاقة مسعاها. نجح جيش شقيقها في إبعادها عن مصر، وذلك بالرغم من أن قيصر طلب من بطليموس أن يحلّ ذلك الجيش، لكنه لم يبذل أي جهدٍ في هذا الاتجاه. كانت المخاطرة بتحريك جيشها غرباً عبر الرمال الذهبية للصحراء، والسير به نحو الحدود، ونحو أبراج بيلوسيوم العالية، تعني إمكانية حدوث مواجهة. ذكر في إحدى الروايات أنها اتصلت بقيصر عن طريق أحد الوسطاء، وقد اقتنعت بعد ذلك بأنها تعرضت للخيانة - لم تكن محبوبة بين حاشية القصر - ولهذا صممت على بسط قضيتها بنفسها. فرض قرارها هذا التفكير في كيفية التسلل من أمام خطوط العدو، وعبور جبهةٍ تحرسها الدوريات، ودخول قصرٍ تحميه الحواجز، وكل ذلك بطريقة سرية بحيث تتمكن من الحفاظ على سلامتها. ارتكزت شهرة كليوباترا على مهارتها في مظاهر الأبهة، لكن التحدي في أول وأكبر مغامرة سياسية لها تمثّل في مهارتها في التخفي؛ كانت مهمتها هذه مهمة مثيرة حتى بالمعايير الحديثة، وقد تعيّن على هذه المرأة، إذا أرادت إحراز النجاح في بدء قصتها، أن تلوذ بالفرار في طريق عودتها إلى المنزل.

أجرت كليوباترا بعض المشاورات حول هذا الموضوع، فيقول لنا بلوتارك في هذا الموضوع: "لم تكن متأكدة من كيفية دخول المنزل من دون أن يكتشفها أحد". استمر ذلك إلى أن اهتدت - هي أو أحد مرافقيها المؤتمنين عليها - إلى حيلة بارعة. تطلب الأمر التمرن على ارتداء ملابس جديدة. تطلب الأمر كذلك الاستعانة بمساعدين عدة لا يفتقدون إلى المهارة. كان أحد هؤلاء خادماً مخلصاً من صقلية يدعى أبولودوروس. توجد منطقة مستنقعات خطرة مليئة بالعث والبعوض بين شبه جزيرة سيناء - حيث تتمركز كليوباترا - وبين قصر الإسكندرية،

حيث نشأت. وقد تمكنت هذه المنطقة المليئة بالمستنقعات من حماية مصر من الغزوات الآتية من الشرق. أخذت هذه المنطقة اسمها من قدرتها على ابتلاع جيوشٍ بأكملها، وهو الأمر الذي فعلته الرمال المتحركة بدقة مخيفة. سيطرت قوات بطليموس على المنطقة الساحلية التي تعفّن فيها جسد بومبي في قبرٍ أقيم على عجل. لم يكن ذلك الطريق أفضل طريق إلى الغرب عبر مستنقعات بيلوسيوم الموحلة والأكثر سهولة، وكذلك هي الحال إذا سارت بمحاذاة شاطئ المتوسط حيث ستكون مكشوفة للعيان، ومعرضة لتيار المياه القوي. كان من الحكمة الاتجاه جنوباً، والصعود مع نهر النيل حتى ممفيس، ثم الإبحار رجوعاً إلى الساحل؛ وهي الرحلة التي ستستغرق ثمانية أيام على أقل تقدير. لم يكن طريق النهر خالياً من المخاطر بدوره، وذلك لأن المرور عبره كان كثيفاً، عدا عن كونه مراقباً بعناية من قِبل وكلاء الجمارك. يُفترض أن تكون كليوباترا قد أبحرت في منتصف شهر تشرين الأول عبر مياه النيل المتعكرة. ورافقتها في هذه الرحلة رياحٌ قوية وجيش من البعوض. عارض مستشارو بطليموس في هذه الأثناء طلب القيصر؛ إذ كيف يتجرأ قائد روماني على استدعاء ملك؟ كان من المفترض أن تطلب الجهة الأقل رتبة مقابلة الجهة الأعلى رتبة، وهو الأمر الذي يُفترض بقيصر أن يعلمه جيداً.

تمكن أبولودوروس من المناورة بهدوء نحو ميناء الإسكندرية الشرقي، وأكمل طريقه من تحت جدار القصر، وذلك في زورقٍ ضيقٍ بمجذافين، وبعد غروب الشمس بقليل. كان الظلام قد خيّم على الشاطئ بينما كان ساحل المدينة الأقرب إلى البحر يظهر مضاءً من بعيد بمنارة المدينة المهيبة التي يبلغ ارتفاعها أربعمئة قدم، وهي من عجائب العالم القديم السبع. وقف ذلك العمود المتوّج بشعلة كبيرة على بعد نصف ميلٍ من كليوباترا، وفي نهاية طريق شقّته يد الإنسان فوق جزيرة فاروس. لم يكن من المستطاع رؤيتها حتى مع وهج المنارة الساطع. زحفت

كليوباترا، قبل أن يرسو أبولودوروس بقاربه، إلى داخل كيس كبير من القنب أو الجلد، واستقرت فيه مطوّلاً. لفّ أبولودوروس هذه الحزمة، وأحكم ربطها بشريطٍ من الجلد، ثم حملها فوق كتفه، وكان هذا الكيس هو الإشارة الوحيدة على حجم كليوباترا. مشى عبر الموج الهادئ نحو منطقة القصر، والتي كانت عبارة عن مجمّعٍ من الحدائق، والمنازل متنوعة الألوان، والأروقة التي تحيط بها الأعمدة المنتشرة فوق مساحة تقرب من الميل، وهو ما يشكّل ربع مساحة المدينة. كانت تلك منطقة يعرفها أبولودوروس جيداً مع أنه لم يبحر وحيداً من الصحراء. لكن، من المؤكد أنه هو الذي خطّط طريق عودة مليكته. عبرت كليوباترا، وهي لا تزال فوق كتفه، بوابات القصر، ثم اتجهت مباشرة نحو جناح قيصر، ودخلت الغرف التي كانت حقاً لها. كانت تلك العودة إلى المنزل من بين الأغرب التي سجّلها التاريخ. ظهرت ملكات عدة من عوالم منسية، لكن كليوباترا هي الوحيدة التي ظهرت على مسرح العالم من داخل كيسٍ متين، وكان من نوع الأكياس التي كانت تُستخدم عادة في تكديس لفافاتِ أوراق البردي، أو في نقل مقدارٍ صغير من الذهب. كان من السهل على كليوباترا التفكير في حيل أو وسائل التخفي كهذه، وهي التي سبق لها أن أقدمت في مناسبة أخرى على مساعدة امرأة أخرى كانت في وضعٍ خطر على الهرب في تابوت.

لا نعلم إذا كان قيصر قد شاهد خروجها من الكيس، لكننا نستبعد أن تكون كليوباترا قد ظهرت بمظهرها الملكي (كما ورد في أحد المصادر)، أو أنها كانت تضع مجوهرات أو ذهباً (كما أوحى مصدر آخر)، أو حتى بتسريحة شعرها اللائقة بها. لكن الخيال الذكوري، وخمسة قرون من تاريخ الفن، ومسرحيتين من أعظم المسرحيات في الأدب الإنجليزي، أظهرتها بملابسها الكاملة، أي بعباءتها الكتانية الضيقة والطويلة التي كانت من دون كمين. كانت الزينة الوحيدة التي احتاجت إليها هي تلك التي كان يحق

لها أن تضعها دون سائر النساء المصريات؛ والتي كانت عبارة عن عصابة ملكيـة؛ التـاج، أو عصابـة كتانيـة عريضـة بيضـاء اللون، وتشـير إلى حاكم هلينسـتي. نسـتبعد، في هذه الحالة، أن تظهر كليوباترا أمام يوليوس قيصر مـن دون أن تربـط هـذه العصابـة الملكية علـى جبهتها وتثبتها من الخلف. إننـا نمتلـك، مـن جهـة أخرى، أدلة وفيرة تشـير إلى مدى مهـارة كليوباترا في جعل نفسها مقبولة من الجميع. كان من المعروف عموماً أنه يستحيل علـى المـرء التحـادث معهـا مـن دون أن يؤخـذ بها. تبيّن أن هـذا الظهور الذي ترافق مع جرأةٍ في المناورة، أي ذلك الظهور المفاجئ لملكة شـابة في قاعات منزلها المزخرفة والمطلية بسخاء، والتي لم يكن بمقدور قيصر ذاته دخولها إلا بصعوبة، كان ظهوراً فاتناً بحد ذاته. تبيّن في ما بعد أن هذه الصدمة كانت سياسية مثل ما كانت شخصية. وقد تمثلت الصدمة الناتجة بأن حضارتين تسـيران في اتجاهين مختلفين تلامسـتا بعنفٍ للحظة وجيزة من الزمن، وبشكلٍ غير متوقع.

اشـتهر يوليوس قيصر بسـرعته وكذلك بقوة حدسـه، ولهذا لم يكن رجلاً يسـهل إدهاشـه. كان يصل، على الدوام، قبل الوقت المتوقع، وقبل وصول المبعوثين المرسلين كي يعلنوا عن قدومه. (دفع في ذلك الخريف ثمن استباقه لجحافله في مصر). يُحتمل أننا قادرون على تفسـير نجاحاته "بسـرعته وبعـدم إمكانيـة توقـع تحركاتـه"، لكـن آخرين يعتبـرون أنه نادراً مـا يكـون مربـكاً، وأنـه كان يتجهز لكل الحالات الطارئـة، كما كان رجلاً اسـتراتيجياً دقيقاً ولامعاً. اشـتهر قيصر كذلك بنفاد صبره: إذ كيف نفسّـر كلمات veni، وvidi، وvici – ظهر هذا الزعم بعد مرور عام واحد – إذا لم تكن تعبيراً عن الفعالية؟ كانت قبضته قوية على الطبيعة الإنسانية إلى حد أنـه أمـر جنـوده خلال معركته الحاسـمة في ذلك الصيف بألاّ يكتفوا برمي رماحهـم، بـل بدفعهـا فـي وجوه رجال بومبي الذين قـال عنهم إنّ زهوهم يفـوق شـجاعتهم. كان علـى حقٍّ في ذلـك. وذلك لأن رجال بومبي غطوا

وجوههم ولاذوا بالفرار. تمكّن قيصر في العقد السابق من التغلب على عقباتٍ بدت مستحيلة، كما تمكن من تحقيق أكثر الإنجازات إدهاشاً. لم يكن، مع ذلك، من الرجال الذين يسخرون من الحظ لأنه شعر أن بإمكان هذا الحظ مقاومة محاولات تغييره، كما كان من ذلك النوع من الانتهازيين الذين يعرفون كيفية إظهار تعجبهم من حظّهم الحسن. يمكننا القول، على الأقل بالنسبة إلى قدرته على الابتكار وجرأته في اتخاذ القرارات، إنه كان شفوقاً ولطيفاً.

أما في الجهة الأخرى، فإن تلك الملكة المصرية الشابة كانت تمتلك نقاط تشابه قليلة تجمعها مع ذلك الرجل "النهم للحب، والذي تجاوز مرحلة شبابه". كان قيصر في الثانية والخمسين من عمره، وكانت مغامراته العاطفية أسطورية ومتنوعة مثل تنوّع إنجازاته العسكرية. أما عندما كان يسير في الشوارع، فإن ذلك الرجل الأنيق بوجهه الصارم، وبعينيه السوداوين الملتمعتين، وبعظام خدّيه البارزة، كان يلقى التحية والترحيب مثل "أي رجلٍ آخر تحبه النساء، ومثل امرأة يحبها أي رجل". كانت كليوباترا قد تزوجت منذ ثلاث سنوات من شقيق لم يكن - بحسب معظم الروايات - أكثر من مجرد صبي، والذي بالرغم من أنه كان بالغاً في سن الثالثة عشرة، وهو الأمر الذي كان مستبعداً بحسب المعايير القديمة، فقد كان يحاول التخلص منها خلال معظم تلك الفترة. اعتبر بعض المعلقين في ما بعد أن كليوباترا هي "ابنة بطليموس غير الطاهرة"، و"جنية بحر من دون نظير"، و"ساقطة مليئة بالطلاء"، والتي كلّفت أهواؤها المتفلتة روما ثمناً غالياً جداً. أما الأمر الذي كان مستبعداً عندما ظهرت أمام قيصر في ذلك اليوم من شهر تشرين الأول فكان امتلاكها خبرات كبيرة في التعامل مع الرجال مهما كان نوعها.

كان الهمّ الأول عندها هو البقاء على قيد الحياة، وليس الإغراء، وكانت غايتها هي الفوز بتأييد قيصر على حد قول مستشاري شقيقها،

ولذلك وجدت كليوباترا نفسها مضطرة إلى التحالف معه بدلاً من التحالف مع الرجل الذي أحسن إلى العائلة، والذي ساندت حملته، وهو الرجل الذي بقي جسمه الذي فُصل عنه رأسه متحللاً فوق شاطئ متوسطي. لم يكن من المنطقي قياساً إلى الظروف الراهنة الافتراض أن قيصر يميل إليها. أما بالنسبة إليه، فإن رهان الملك الشاب كان على الجيش الذي يأتمر بأمره، وعلى ثقة سكان الإسكندرية. لوّث بطليموس يديه بدماء بومبي، وهكذا حسب قيصر أن الثمن الذي سيدفعه في روما لقاء تحالفه مع قتلة أحد مواطنيه سيكون أكبر من الثمن الذي سيدفعه لقاء مساعدته ملكة ضعيفة ومخلوعة عن عرشها. أدرك قيصر منذ زمن أن "جميع الرجال يتحركون ضد أعدائهم بحماسة أكبر من تلك التي يُظهرونها عند مساعدتهم أصدقاءهم". تدين كليوباترا، وأقلّه في البداية، بحياتها لإدانة قيصر لشقيقها - وللكراهية التي أبداها تجاه مستشاري بطليموس الذين اعتبرهم غير مؤهلين أبداً ليتعامل معهم في القضايا المالية - بقدرٍ أكبر بكثير من الفتنة التي أبدتها. كانت محظوظة كذلك، وذلك على حدٍّ قول أحد المؤرخين الذي قال إنّ رجلاً آخر غير قيصر كان سيقايضها مقابل حياة بومبي، ولم يكن أي شيء ليمنع قيصر من قطع رأسها.

امتلك ذلك القائد الروماني مزاجاً معتدلاً بشكلٍ عام، وكان قادراً على قتل عشرات آلاف الرجال، لكنه اشتهر كذلك برأفته البالغة حتى تجاه ألد أعدائه، حتى إنه أبدى هذه الرأفة مرتين إزاء الرجل ذاته. أكّد أحد قادته أنه "لم يكن هناك شيء أعزّ على قلبه من العفو عن الذين يتوسلون عفوه". كانت تلك الملكة الجريئة التي تحسن الكلام ستحتل، ومن دون أي شك، رأس لائحة من يحصلون على عفوه، وقد امتلك قيصر سبباً آخر ليضيفه إلى ذلك السبب. عرف قيصر في شبابه معنى أن يكون المرء هارباً، كما اقترف بدوره أخطاء سياسية مكلفة، لذلك كان قرار استقبال كليوباترا منطقياً في ذلك الوقت، لكنه أدّى به إلى أحد أخطر التحديات في حياته.

كانت كليوباترا تكافح من أجل الإبقاء على حياتها عندما التقته، لكن عند قدوم أواخر الخريف أصبح الاثنان يواجهان الوضع ذاته. ألفى قيصر نفسه في الأشهر التالية تحت الحصار، ومضطراً إلى تلقي ضربات عدوٍ ذكي وحريص على إذاقته طعم حرب العصابات في مدينة لم تكن مألوفةً لديه، وحيث كان أعداؤه يفوقونه عدداً. يستحق بطليموس وسكان الإسكندرية بعض التقدير بالتأكيد لأنهم بقوا معاً لفترة ستة أشهرٍ صعبة وراء حواجز أعدّت على عجل؛ وكل ذلك بسبب تحالف ذلك القائد المخضرم الأصلع مع تلك الملكة الشابة الرشيقة. كانا متحالفَين بشدة ومتقاربين إلى درجة أن كليوباترا أدركت في أوائل شهر تشرين الثاني أنها حامل.

قيل في الماضي إنّ وراء كل ثروة كبيرة جريمة من نوعٍ معين، وهكذا كان البطالسة أثرياء إلى درجةٍ يصعب تصديقها. فهم لم يتحدروا من الفراعنة المصريين الذين أخذوا مكانهم، لكنهم كانوا من سلالة المقدونيين الفقراء، والذين تثور ثائرتهم بسهولة - تنتج المناطق الوعرة رجالاً أشداء، على حد ما قاله هيرودتس - ومن المنطقة التي أنجبت الإسكندر الكبير. تمكّن بطليموس، وهو أكثر قادة الإسكندر جرأة، والمتذوق الرسمي لمأكولاته وشرابه، وصديق طفولته، وقريبه البعيد بحسب بعض الروايات، من بسط سيطرته على مصر، وذلك في غضون الأشهر القليلة التي تلت موت الإسكندر. كما استطاع بطليموس إظهار موهبة فطرية في وقتٍ مبكر عندما خطف جثمان الإسكندر الكبير فيما كان الموكب متوجهاً نحو مقدونيا، وذلك لأن بطليموس الشاب تساءل عمّا إذا كان من الأفضل اعتراض الموكب وتحويله إلى مصر، ومن ثمّ إلى الإسكندرية؛ وهي المدينة التي أسّسها ذلك الرجل العظيم قبل عقود قليلة فقط. تحولت الجنازة إلى الإسكندرية، وعُرض ناووسه المصنوع من الذهب وسط المدينة ليكون أثراً مبجلاً، وجالباً للمساعدات، وقد

شـكّل حماية معنوية لبطليموس. (تحوّل ذلك الناووس الذهبي في طفولة كليوباتـرا إلـى نـاووس من المرمر أو الزجاج. أقدم عم والدها على مبادلة القبر الأصلي بجيش من الجنود، لكنه دفع حياته ثمن هذه المبادلة).

تعتمـد شـرعية سـلالة البطالسـة على هـذه الرابطة الضعيفـة مع أهم شـخصية فـي العالـم القديـم، وهـي الشـخصية التي يقيـس كل الطموحين أنفسـهم بها، وتلك التي وضع بومبي نفسـه تحت عباءتها، والتي أظهرت إنجازاتها عدم كفاءة قيصر. كان مذهب الإسـكندر شـاملاً، لأنه لعب دوراً حيوياً في مخيلة البطالسـة كما كانت الحال في مخيلة الرومان. تواجدت تماثيل الإسكندر داخل عدد كبير من منازل المصريين، وكانت قصته قوية جـداً إلـى درجـة التنوع الشـديد، كما كانت الحال مـع تاريخ القرن الأول، حتـى وصـل الأمـر إلى حـدّ اعتبار أنه تحدر من سـلالة أحد لاعبي الخفّة المصرييـن. لـم يتأخـر الأمـر حتـى قيـل إنّه يمت بصلـة قرابة إلـى العائلة المالكـة، وهـي الحـال ذاتهـا مـع الوصولييـن الذين يقدّرون أنفسـهم. كما يمتلك البطالسة مهارة كبيرة في إعادة صياغة التاريخ(*). وقد ابتاع مؤسسو هذه السـلالة لأنفسـهم ماضياً يُسـبغ عليهم شرعيتهم، وهو أمر يماثل شراء معطفٍ مزينٍ بالأسلحة في العالم القديم، لكنهم فعلوا ذلك من دون التنكر لتراثهم المقدوني. أما الصحيح في ذلك فهو أن بطليموس تحدّر من عائلة مقدونية أرستقراطية، وهو أمر مرادف لما يحصل في المسرحيات المثيرة. أما نتيجة كل ذلك فهي أن أحداً في مصر لم يعتبر أن كليوباترا مصرية. فقد تحدرت كليوباترا من سلالة ملكات مقدونيات يتميزن بالعدائية، والتطفل، والـذكاء، وبعـدم العقلانيـة في بعض الأحيان، وهي سـلالة اشـتملت على

(*) لم يكونوا الوحيدين في ذلك. ورد في إحدى الروايات أن الإسكندر الكبير استشار ضالعاً شهيراً حول مسألة نسبه، وطرح بعض الأسئلة، كان أحدها عمّا يحدث عندما تتزاوج الوالدة مع ثعبان. أمر الإسكندر، وعن صواب، مرافقيه بالبقاء خارج المعبد، ودفع الرشوة مقدماً حتى أكد له الضالع أنه ابن زيوس.

أوليمبيا التي عاشت في القرن الرابع قبل الميلاد، وهي التي كان ابنها، الإسكندر الكبير، أعظم ما أنجبته إلى هذا العالم. أما الملكات الباقيات فكنّ بمنتهى القسوة.

تمسك البطالسة خارج مصر بعلاقتهم مع الإسكندر الكبير. أما داخل البلاد، فاستقوا شرعيتهم من رابطة مزعومة مع الفراعنة. وقد برّرت لهم هذه العلاقة مسألة زواج الأقارب؛ وهي التي طالما اعتُبرت عادة مصرية. لم يكن قتل الشقيقة بين أوساط الطبقة الأرستقراطية بالأمر النادر، إلا أننا لم نسمع عن الزواج بها، كما لم تتواجد بين الإغريق كلمة رديفة لعبارة سفاح القربى، لكن البطالسة مارسوا هذه العادة إلى حدّها الأقصى. يُضاف إلى ذلك أنه من بين الزيجات الخمس عشرة، أو نحو ذلك، كانت عشر منها على الأقل زيجات بين شقيق وشقيقة، كما أن اثنين من البطالسة تزوجا من بنات الشقيقات أو بنات الأعمام. يُحتمل أنهم فعلوا ذلك من أجل تبسيط الأمور، ولأن الزواج بين الأقارب يقلّل كثيراً من المطالبين بالعرش والأصهرة المزعجين. وقد ألغى هذا التدبير مشكلة إيجاد زوجة مناسبة أو زوج في بلادٍ أخرى. كما عزّز هذا التدبير كذلك من الروابط الأسرية، ومن الوضع الرفيع للبطالسة. أما إذا كانت الظروف هي التي جعلت من الزواجِ بين أفراد الأسرة الواحدة مغرياً، فإن التقرب مما هو مبجّل جعله مقبولاً. سبق للأسياد المصريين واليونانيين أن تزوجوا من الشقيقات، وذلك بالرغم من إمكانية القول إنّ زيوس وحيرا لم يكونا من النموذج الذي يثير أكبر قدرٍ من الإعجاب.

لم تسفر هذه الممارسات عن إنجاب أطفالٍ مشوهين، لكنها أدت إلى ظهور فرعٍ أخرق من فروع شجرة العائلة. أما إذا كان والدا كليوباترا شقيقين تماماً - كما هو مرجح - فإن ذلك يعني أنها تمتلك مجموعة أجدادٍ واحدة، وحتى إن جدّها كان خال جدّتها. يعني ذلك في حالة جدة كليوباترا أن الخال هو الصهر في الوقت ذاته. كان القصد من الزواج بين

أفراد الأسرة الواحدة هو إدخال الاستقرار إلى الأسرة، لكن هذه الممارسة خلّفت تأثيراً متناقضاً. فقد تحولت خلافة العرش إلى أزمة دائمة عند البطالسة الذين زادوا الأمور سوءاً عندما لجأوا إلى السموم والخناجر. صحيح أن الزواج بين أفراد الأسرة الواحدة أدى إلى تعزيز الثروة والسلطة، لكنه أدخل بعداً جديداً للصراع بين الأشقاء؛ وهو الصراع الذي كان على أشدّه بين الأقارب الذين اعتادوا إضافة صفاتٍ لطيفة إلى ألقابهم. (كان اللقب الرسمي لكليوباترا، والشقيق الذي دأبت على الهروب منه إنقاذاً لحياتها على الشكل التالي: السيّدين الجديدين المحبَين للأشقاء). كان من النادر عدم العثور على أحد أفراد الأسرة الذي لم يسبق له تصفية قريب له أو قريبين، بمن في ذلك كليوباترا السابعة. تزوج بطليموس الأول من أخته غير الشقيقة، وهي التي تآمرت عليه في ما بعد مع أولادها الذين قتل اثنين منهم. أما المرأة الأولى التي لقيت تبجيلاً في حياتها بوصفها من الأسياد فقد كانت الأولى في تاريخ البطالسة الذهبي. تبرز أمامنا في هذا المجال عاقبة غير مقصودة من عواقب زواج الأشقاء: زاد ذلك من قيمة أميرات البطالسة، وأصبحن مساويات تماماً لأشقائهن وأزواجهن. وهكذا، كانت أولئك اللواتي سبقن كليوباترا يعلمن قيمتهن تماماً، كما تولد عندهن الميل إلى الإعلاء من شأنهن. لكن البطالسة أقدموا على تعقيد عمل المؤرخين المستقبليين بالنسبة إلى التسميات، وذلك لأن كل نساء الأسرة المالكة حملن أسماء أرسينو، أو بيرينس، أو كليوباترا. ويُحتمل أن تمييزهن بأعمالهن المريعة أسهل من تمييزهن بالأسماء. وقد استمر هذا التقليد الثابت في جميع الأحوال، لأن كل اللواتي حملن اسم كليوباترا، وبيرينس، وأرسينو أقدمن على تسميم أزواجهن، وعلى قتل أشقائهن، كما منعن أي ذكرٍ لأمهاتهن، وذلك بالرغم من أنهن أقدمن على إقامة أنصاب تذكارية فخمة لهؤلاء الأقارب.

انغمس أفراد الأسرة، وعلى مدى أجيال، بما يُمكن أن نطلق عليه

"عروض الاستباحة والجريمة"، وهي العروض التي كانت بشعةً حتى بالمعايير المقدونية المثيرة. لم يكن من السهل على المرء أن يميّز نفسه في هذه السلالة، لكن بطليموس الرابع تمكّن من ذلك في أوج قوة الإمبراطورية. فقد أقدم هذا الرجل على قتل عمه، وشقيقه، ووالدته، لكن بعض أفراد الحاشية وفّروا عليه مهمة تسميم زوجته عندما نفذوها بأنفسهم، وذلك بعد أن أنجبت له وريثاً. اعتادت الأمهات مرة بعد أخرى إرسال الجنود ضد أبنائهن، كما اعتادت الشقيقات شنّ الحرب ضد أشقائهن. شنّت والدة جدة كليوباترا حرباً أهلية ضد والديها، وشنّت حرباً أخرى ضد أبنائها. لكن النصيب الأكبر من الجهود الشاقة هو ذلك الذي ناله النقاشون على الأنصاب، وهم الذين وقعت عليهم مهمة تسجيل تواريخ التنصيب على العروش والاغتيالات بتواريخ مختلفة، لأن الروزنامة كانت تبدأ مجدداً مع كل نظام جديد؛ حيث كان الحاكم يغيّر لقبه كذلك. كانت أعمال النقش بالهيروغليفية تتوقف ريثما تصل النزاعات السلالية إلى حلول. سبق كل ذلك استعارة والدة بيرينس الثانية لزوجها أجنبي المولد؛ وهو الأمر الذي دعا بيرينس إلى الإشراف على عملية قتله؛ لكنها لقيت المصير ذاته. برزت من بين نساء تلك السلالة جدة جدةِ كليوباترا، وهي المعروفة باسم كليوباترا الثالثة، والتي حكمت في القرن الثاني قبل الميلاد. كانت تلك الملكة زوجة بطليموس الثامن وابنة شقيقته في الوقت ذاته، وقد سبق له أن عاشرها عندما كانت مراهقة، كما كان في الوقت ذاته متزوجاً من والدتها. تخاصم الزوجان فما كان من بطليموس إلا أن قتل ولدهما البالغ من العمر أربعة عشر عاماً وقطّعه إرباً إرباً، ثم أرسل صندوقاً يحتوي على الأطراف المقطعة إلى بوابات مدخل القصر، وذلك عشية ذكرى ميلادها. انتقمت الزوجة بأن عرضت هذه الأطراف المقطعة، الأمر الذي أغضب سكان الإسكندرية غضباً شديداً. أما المفاجأة الكبرى فقد كانت ما حدث تالياً: تصالح الزوجان بعد مضي عقدٍ من السنين، وهكذا

ظل بطليموس الثامن حاكماً لفترة ثماني سنوات مع ملكتين إحداهما والدة تحارب ابنتها(*).

بدا بعد حين أن المجزرة مقدرة، فاغتال خال كليوباترا زوجته، وهكذا أزاح زوجة والده وأخته غير الشقيقة. فعل ذلك من دون أن يدرك، لسوء حظه، أنها كانت تحظى بالشعبية الكبرى من بين الزوجتين. أعدمه حشد من الناس فوق عرشه بعد مضي نحو ثمانية عشر يوماً. استمر هذا الغليان لفترة قرنين من الزمان انتهى بعدها عهد البطالسة الشرعيين في العام 80 ق.م. حدث ذلك على الأخص مع صعود نجم روما في الأفق، وهو الأمر الذي حتّم إيجاد وريث للعرش وبسرعة. استُدعي بطليموس الثاني عشر من سوريا حيث أرسل حفاظاً على حياته قبل ثلاث وعشرين سنة. لم يكن من الواضح ما إذا كان قد لقي تربية كي يحكم، لكن كان من الواضح أنه كان الخيار الأنسب. أراد تعزيز مركزه الديني الرفيع، لذلك اختار لقب "ديونيسوس الجديد". اعتبر سكان الإسكندرية الذين كانوا يهتمون كثيراً بالشرعية بالرغم من كل هذه الأنساب الملفقة، أنه يمتلك أحد اسمين. كان والد كليوباترا إما "لقيطاً" أو أوليتس "Auletes" الزمّار، وذلك بسبب الآلة التي تشبه المزمار التي كان مغرماً بالعزف عليها. بدا أن عزفه هذا قد ضمن له إعجاباً كثيراً مثل ما كانت الحال مع فترة حكمه، لكن المؤسف في الأمر هو أن ميوله الموسيقية تضمنت مشاركة بائعات هوى من الدرجة الثانية. لم تمنعه منافساته الموسيقية التي كان مغرماً بها من متابعة حمام الدم الذي اشتهرت به أسرته، وإن كان يمكننا القول إن الظروف هي التي أجبرته على ذلك بعد أن تركت له خيارات قليلة. (لم يكن بحاجة إلى قتل والدته لأن نسبها لم يكن ملكياً، إذ يُحتمل بأنها كانت خادمةً مقدونية). واجه أوليتس في النهاية أخطاراً تتعدى الأقرباء الطارئين.

(*) ومما يدل على تضارب المعلومات التاريخية أن بطليموس الثامن ذكر ثلاث مرات على أنه جدّ جدّ كليوباترا لأبيها، ومرتين على أنه والد جدّ جدّها.

يمكننا القول الآن إن تلك الشابة المختبئة مع يوليوس قيصر في ذلك القصر المحاصر في الإسكندرية لم تكن مصرية، أي إنها لم تكن فرعونية من الناحية التاريخية، ولا تمت بصلة نسب إلى الإسكندر الكبير، كما أنها لم تكن من البطالسة بالكامل، وذلك بالرغم من أنها قريبة جداً، ومن كل الجهات، من الطبقة الأرستقراطية المقدونية. كان تاريخها مقدونياً بالكامل، وكذلك اسمها الذي تتفاخر به. كانت كلمة "كليوباترا" تعني "مجد أرض الأجداد" باللغة الإغريقية(*). لم تكن حتى كليوباترا السابعة كما تذكّرها الناس بعد ذلك. بدا أن أحداً ما قد أخطأ بالحساب، وذلك بالنظر إلى تاريخ تلك الأسرة المليء بالتعقيدات.

لا يمكن لتاريخ البطالسة الغريب والفظيع أن يحجب أمرين. إذا كانت كل من يُدعين بيرينس وأرسينو متوحشات كأزواجهن وأشقائهن، فإن ذلك يرجع إلى حدٍّ بعيد إلى أنهن تمتعن بسلطة كبيرة. (كن يأتين عادة في المركز الثاني لأزواجهن وأشقائهن، وهي عادة تخلت عنها كليوباترا).

أمكن لكليوباترا، حتى وإن لم تكن ابنة لوالدة حاكمة، أن تتطلع إلى أي عددٍ من الملكات اللواتي سبقنها وشيّدن المعابد، وامتلكن الأساطيل، واللواتي أطلقن حملاتٍ عسكرية، وحكمن مصر بالاشتراك مع أزواجهن. يُحتمل أنها لعبت دوراً أقوى من أي دور لعبته أي ملكة أخرى في التاريخ، لكن لم يتضح بعد ما إذا كان ذلك ناتجاً عن التعب الذي شعر به رجال الأسرة كما كان يُقال، وذلك لأن النساء لقين نصيبهن من التعب بدورهن. لعبت النساء اللواتي حكمن البلاد خلال الأجيال التي سبقت كليوباترا أدوارهن بشكلٍ مباشر، وامتلكن الطموح والذكاء، وكنّ حاكمات بارزات.

بلغت كليوباترا سن الرشد في بلاد تعودت على تعريف أحادي

(*) اشتملت أسرة الإسكندر الكبير على امرأتين تحملان اسم كليوباترا، كانت إحداهما زوجة والده الأخيرة، والثانية شقيقته التي تصغره بعامين. قُتلت المرأتان على يد أفراد أسرتيهما.

لأدوار النساء. كما تمتعت النساء المصريات بالحق في ترتيب زيجاتهن، وذلك قبل مجيئها، وقبل وصول البطالسة بقرون عدة. وتزايدت حقوق النساء مع الوقت حتى وصلت إلى مستويات غير مسبوقة في العالم القديم. وتمتعن كذلك بحقوق متساوية في الوراثة، واحتفظن بممتلكات بصورة مستقلة. حتى إنهن لم يخضعن لسلطة أزواجهن، وهكذا تمتعن بحق الطلاق مع حق الحصول على نفقةٍ مناسبة. وهكذا تمتعت الزوجة السابقة كذلك بحق الإقامة في المنزل الذي تختاره إلى حين دفع المهر، وكان لها حق الاحتفاظ بممتلكاتها، والتي لم يكن يُسمح للزوج المبذر بالتصرف بها. وقد وقف القانون مع النساء والأولاد إذا تصرف الزوج ضد مصالحهم. دُهش الرومان لأن الإناث المصريات الصغيرات لم يتركن عرضة للموت بينما كان الروماني مجبراً على تربية الأنثى الأولى فقط من بين بناته. اعتادت النساء المصريات على الزواج في سنٍّ أكبر من سن جاراتهن، وكان نحو نصف عددهن يتزوجن في السن التي تزوجت فيها كليوباترا. كما كان باستطاعتهن استدانة المال وتشغيل المراكب، كما كن يعملن ككاهنات في المعابد الريفية، وامتلكن حق إقامة الدعاوى القضائية واستئجار عازفي النايات. تمكنت الزوجات، والأرامل، والمطلقات من امتلاك كروم العنب، ومصانع الشراب، ومستنقعات البردي، والسفن، ومصانع العطور، والطواحين، والعبيد، والمنازل، والجِمال. كانت ثلث مساحة مصر في أيدي الإناث في عهد البطالسة.

تناقضت جميع هذه الممارسات مع النظام الطبيعي للأمور إلى درجة أدهشت الأجنبي. بدت هذه الممارسات، في الوقت ذاته، وكأنها متوافقة مع البلاد التي يجري فيها نهرها العظيم واهب الحياة رجوعاً إلى الوراء، أي من الجنوب إلى الشمال، وهو الأمر الذي ساعد على تأسيس مصر العليا في الجنوب، وتأسيس مصر السفلى في الشمال. عاكس النيل، إضافةً إلى ذلك، قوانين الطبيعة، عندما كان يفيض في الصيف وينحسر في الشتاء،

وهكذا دأب المصريون على جمع محاصيلهم في شـهر نيسـان، وعلى نثر البذور في شهر تشرين الثاني. وهكذا بلغ الأمر حدّ أن تكون عملية الزرع معكوسة عندهم، فالمصري يبذر أولاً قبل أن يقوم بحراثة الأرض، وذلك مـن أجـل تغطيـة البذور فـي التراب المحروث. بدا ذلـك منطقياً تماماً في تلك المملكة الشاذة حيث يعجن المرء العجين بقدميه، ويكتب من اليمين إلى اليسار. لم يكن من المستغرب قطّ، والحالة هذه، أن يؤكد هيرودتس علـى أن النسـاء المصريـات يخرجن للتسـوّق في حيـن يجلس الرجال في المنازل أمام أنوال الحياكة. نمتلك كذلك شهادة كافية على حسّ كليوباترا للفكاهـة، وهـي التي تمتلك سـرعة البديهـة والدعابة. ونحن لا نمتلك أي سـبب يدفعنا للتسـاؤل عن كيفية قراءتها لتصريح هيرودتس التالي، والذي أكّد فيه أن مصر هي البلاد التي "تتبوّل نساؤها وقوفاً، بينما يفعل الرجال ذلك جلوساً".

كان هيرودتس محقاً في مجالٍ آخر عندما قال مندهشـاً: "لا تمتلك أي بلاد أخرى هذا الكم الكبير من العجائب، كما لا تمتلك أي بلادٍ أخرى هذا العدد من الأعمال التي يستعصى وصفها". مارست مصر سحرها على العالم قبل البطالسة بزمن طويل، وهي تفاخر بحضارةٍ قديمة، وبعدد كبير مـن العجائـب الطبيعية، وبأنصابٍ ضخمة ومدهشـة، وتمتلك كذلك اثنتين مـن عجائـب العالـم القديـم. كانت الأسـباب التي تدعو للدهشـة أكثر في زمـن كليوباتـرا، لكـن الأهرامـات كانت أكثر ارتفاعـاً بنحو إحدى وثلاثين قدماً. أمـا فـي الأوقات التي كانت تفصل بين فترات سـفك الدماء، وعلى الأخص في القرن الثالث قبل الميلاد، وقبل أن تبدأ السلالة بالترنح نتيجة فسـادها في وقت متأخر من القرن الثاني، فقد أبلى البطالسـة بلاءً حسـناً في تنفيذ التصاميم التي وضعها الإسـكندر الكبير، وأسسـوا فوق دلتا النيل مدينة هي من أعاجيب المدن، وهي التي كانت متقدمة بشكل جذاب بقدر ما كان مؤسّسوها يفتقدون إلى التهذيب. كان ضوء الإسكندرية ينبعث من

منارتها العالية التي تنتصب فوق أبنيتها الرخامية الرائعة، ويلتمع بشكلٍ يُبهر القادم إليها من البعيد. كان أفق هذه المدينة الشهير ينعكس على المصابيح، والفسيفساء، والبلاط، وكانت هندستها تُفصح عن قيمها الأخلاقية التي تلاحمت بحماسة مع الحضارات الأخرى. اعتلت سعف البردي الأعمدة الأيونية في أعظم موانئ المتوسط. كما زيّنت تماثيل "أبو الهول" والصقور الممرات المؤدية إلى المعابد اليونانية، وتماثيل الأسياد التماسيح بألبستها الرومانية زينت المدافن الدورية الإغريقية. وقفت مدينة الإسكندرية "التي بُنيت في أجمل موقعٍ في العالم" حارسة على بلادٍ تمتلك ثروات لا حصر لها، وتحتوي على مخلوقات مدهشة، وكانت لغزاً محبباً بالنسبة إلى العالم الروماني. أما بالنسبة إلى رجلٍ مثل يوليوس قيصر، والذي لم يسبق له أن وطأ أرض مصر بالرغم من رحلاته الكثيرة، فإن أموراً قليلة كانت ستدهشه أكثر من مشهد هذه الشابة الذكية التي خرجت من داخل كيس يستخدمه المسافرون.

وُلدت كليوباترا في العام 69 ق.م، وكانت الثانية من بين ثلاث بنات. وُلد بعدها شقيقان لها لم يتجاوزا سن المراهقة عند موتهما، وهما اللذان ارتبطت كليوباترا معهما برباط الزوجية لفترة قصيرة من الوقت. لم يمر وقت كان فيه من الآمن أن يولد المرء بين البطالسة، إلا أن القرن الأول كان من بين أسوأ هذه الفترات. حيث لقي جميع الأشقاء الخمسة ميتات عنيفة، ولكن كليوباترا تميزت بينهم بأنها رسمت ظروف نهايتها، ولم تكن تلك الظروف بالإنجاز الضئيل بحسب المعايير الرومانية. كان مجرد بقائها على قيد الحياة وقت وصول الإسكندر شهادة على شخصيتها. فقد بقيت لفترة سنةٍ كاملةٍ أو ما يزيد على ذلك منشغلة برسم المؤامرات، وبقيت لأشهر تبذل مجهوداً كبيراً، وكانت منشغلة على مدار الساعة خلال أسابيع الصيف. كان واقع أنها عاشت إلى ما بعد مقتل أشقائها بعقود طويلة أمراً

ذا أهمية مماثلة.

لم يصلنا أي شيء عن والدة كليوباترا، ولم نسمع عنها شيئاً، وذلك لأنها اختفت عن العيان في وقتٍ مبكرٍ من طفولة كليوباترا، وتوفيت قبل أن تبلغ ابنتها سن الثانية عشرة. إننا لا نعرف إذا كانت ابنتها تعرفها بأفضل مما نعرفها نحن، لكن يبدو أنها كانت إحدى نساء البطالسة النادرات اللواتي فضلن الخروج عن تقاليد الأسرة العريقة(*). كانت كليوباترا الخامسة تريفانيا أصغر بعقودٍ عدة من أوليتس، وهو أخوها أو أخوها غير الشقيق، وقد تزوجا بعد وقتٍ قصير من اعتلاء أوليتس العرش. وقد دلت الوقائع على أن عمّته قد طعنت في أحقيته بالحكم، كما أنها وصلت بعيداً في طعنها هذا إلى درجة أنها سافرت إلى روما كي تدفع بقضيتها ضده، وذلك يدلّ على بعض الأهمية، وذلك بالنظر إلى دينامية هذه العائلة، إذ يدل دلالةً واضحة على حدسها السياسي. بدا أوليتس للكثيرين أنه يهتم بالفنون أكثر من اهتمامه بشؤون الحكم. ويُمكن تذكّر هذا الرجل على أنه الفرعون الذي عزف بمزماره في أثناء انهيار مصر، وذلك بالرغم من فترة حكمه التي استمرت اثنتين وعشرين سنة.

إننا لا نعلم أيّ شيء مكتوب تقريباً عن سنوات قيصر الأولى، لكن كليوباترا تتجاوزه على هذا الصعيد: إننا لا نعلم أي شيء عن طفولتها، ولا يُحتمل أن نعلم الكثير عما إذا كان المنزل الذي أمضت فيه طفولتها يقبع تحت مستوى سطح المياه بعشرين قدماً، أو إن كان مناخ الإسكندرية يناسب أوراق البردي القديمة بأكثر مما يناسب الجديدة منها. لم تكن أيام الطفولة موضوعاً يهم القدماء كثيراً في وقت كانت فيه المصائر والأنساب موضوعات أكثر أهمية بكثير. يمكننا الافتراض، وعن ثقة، أن كليوباترا وُلدت في أحد قصور الإسكندرية، وأنها كانت تحت عناية إحدى

(*) ليس من الواضح ما إذا كانت والدة كليوباترا بالفعل، وذلك بالرغم من أنه إذا كانت ابنة غير شرعية، فإنه من المستبعد أن يغفل المشككون فيها عن هذه الواقعة.

المرضعات، كما كانت إحدى خادمات القصر تمضغ لها الطعام وتضعه في فمها، وأنه لم يمر بين شفتيها الطفوليتين أي طعام من دون أن يتم اختباره للتأكد من خلّوه من السم، وأنها اختارت رفيقاتها في اللعب من بين بنات النبلاء واللواتي كن يُعتبرن شقيقاتها بالتبني، وهنّ اللواتي سيصبحن من ضمن موكبها الملكي. كانت تسير برفقة مجموعة من المرافقين عند عبورها ممرات القصر التي تحيط بها الأعمدة، أو إذا مرّت من أمام برك المياه وبرك الأسماك، أو خلال البساتين وحدائق الحيوانات، وكان البطالسة سابقاً يحتفظون بزرافات، وكركدانات، ودببة، بالإضافة إلى ثعبان يبلغ طوله خمساً وأربعين قدماً. كانت لا تجد صعوبة، حتى في طفولتها، في الاختلاط مع السياسيين، والسفراء، والعلماء، وكذلك مع مجموعة من المسؤولين القضائيين الذين يرتدون عباءات أرجوانية اللون. كانت تلعب بدمى مصنوعة من الفخار، وبدمى تمثّل منازل مصغرة، ومجموعات من الأكواب وقطع الأثاث المصغرة، وكذلك كانت تلعب بالنرد وبالأحصنة الهزازة، وبالعظام والفئران الأليفة، وذلك بالرغم من أننا لن نعرف أبداً ماذا فعلت بكل تلك الدمى التي كانت تخصّها، وما إذا كانت تزجّ بها في ثورات ومعارك، أي مثل ما كانت تفعل أنديرا غاندي.

تلقت كليوباترا وشقيقتها التي تكبرها سناً تدريباً على استلام العرش، وذلك لأن البطالسة كانوا يخططون لكل الاحتمالات. ودأبت كذلك على القيام بجولات منتظمة إلى النيل، وإلى قصر العائلة في ممفيس الذي يقع قبالة ميناء، وذلك بهدف الاشتراك في احتفالات دينية مصرية؛ وهي الاحتفالات المنظمة بشكلٍ جيد والتي تضم مواكب العائلة، والمستشارين، والموظفين. كانت ممفيس مدينة مبجلة تبعد مئتي ميل أعلى النهر، وكانت تحت إدارة مجموعة من رجال الدين الذين كان عملهم الأبرز هو الاهتمام بالجنائز. تواجدت سراديب الحيوانات المحنطة الكبيرة تحت منطقة وسط المدينة، وهي التي كانت مصدر جذبٍ لأولئك الذين أتوا للعبادة، ومن

أجل أخذ صقور وتماسيح محنطة مصغرة من تلك التي تتواجد في أكشاك التـذكارات. أمـا فـي القصر، فقد كانت هذه التذكارات محط تبجيل. كانت كليوباتـرا فـي مناسـبات كهـذه ترتـدي فسـتاناً رسـمياً مع أنها لـم تكن قد بـدأت بعـد بوضـع التاج المصـري التقليدي الذي يحتـوي على الأرياش، وعلـى قـرص الشـمس، وقـرون بقر. وقد تمتعت كليوباترا في سـنٍّ مبكرة بأفضل تعليم متوفرٍ في العالم الهلينسـتي، وتلقته على أيدي أمهر العلماء، وفـي المـكان الـذي كان يُعتبـر أعظـم مركـزٍ لتلقـي العلم علـى الإطلاق: مكتبة الإسـكندرية، والمتحف الملحق بها، واللذين كانا بمثابة فناء منزلها الخلفـي. كان أسـاتذتها مـن أرفـع العلمـاء، أما أطباؤها فكانـوا من باحثي العلـوم، أي إنهـا لـم تكن مضطرة إلى الترحال بعيداً للحصول على وصفة طبية، أو قصيدة مدح، أو لعبة ميكانيكية، أو على خريطة.

يُحتمل أن يكون التعليم الذي حصلت عليه قد فاق المسـتوى الذي حصل عليه والدها - الذي نشأ في الخارج؛ في شمال شرق آسيا الصغرى تحديداً - لكنه كان تعليماً إغريقياً تقليدياً في كل وجهٍ من وجوهه، ويكاد أن يقارب التعليم الذي تلقاه قيصر الذي تعلّم أستاذه في الإسكندرية. كان ذلك التعليم أدبياً بامتياز، وكان للأحرف في العالم الإغريقي أهمية كبرى، وهـي التـي أخذت وظيفة الأرقـام والنغمات الموسـيقية. تعلمت كليوباترا الكتابـة بدايـة عن طريق إنشـاد الأحرف الأبجديـة الإغريقية، ثم عن طريق تلمّس الأحرف التي نقشها أستاذها على لوحٍ خشبي ضيق. استمرت تلك التلميـذة الناجحـة فـي التمرّن على هذه الأبجدية في صفوفٍ أفقية، ثم في صفـوفٍ عموديـة، وبطريقة معكوسـة بعد ذلك، وأخيـراً قرأتها بمقاطع من حرفيـن مـن طرفـي مجموعـة الأبجدية، وبأحـرف كبيـرة، وبعدها بأحرف متصلة. ثم تقدمت بعد ذلك لدراسة مقاطع من حرفين، والتي كانت عبارة عـن مجموعـة مـن المقاطع الغامضـة، والكلمات التي لا يُمكن لفظها، أي أنها كلما كانت معقدة كان ذلك أفضل. كانت الأسـطر الركيكة التي تلتها

غامضـة هـي الأخـرى. بدا أن النظرية كانت: إن التلميذ الذي يسـتطيع فكّ رموز هذه الأسطر، يمكنه أن يفكّ رموز أي شيء. جاء دور الحِكَم والشعر بعد ذلك، وهي التي تسـتند إلى الخرافات والأسـاطير. لم يكن من النادر أن يُطلب من التلميذ أن يسرد قصة آيسوب مجدداً بكلماته الخاصة، وفي أبسط صيغة أولاً، ثم بطريقة متفاخرة. كان يأتي بعد ذلك مزيد من التقليد، وهكذا كان بإمكانها أن تكتب مثل آخيل في اللحظة التي سبقت موته، أو كانت تكلّف بإعادة سرد قصة ليوريبيديس. لم تكن الدروس صعبة، إذ لم يُقصد منها أن تكون كذلك، إنما كان التعليم عملية جدية تتضمن تمارين لا نهاية لها، وقواعد لا تنتهي، ويستغرق ساعات طويلة. لم يكن هناك ما يُمكن أن يسمى عطلة نهاية الأسبوع، لأن الطالب كان يدرس بشكل يومي مـا عـدا أيـام الاحتفـالات التي كانت تأتي بانتظام في الإسـكندرية لحسـن الحظ. كان كل شـيء يتوقف مرتين في الشـهر احتفاءً بأبولو، وكان النظام قاسياً. ورد في إحدى أوراق البردي القديمة: "تقبع أذنا الطالب في ظهره، لأنه لا يصغي إلا حين يُضرَب". أضاف ميناندر، وهو كاتب مسرحي، إلى هذا القول شيئاً مشابهاً: "لا يمكن تعليم الذي لا يُجلَد". قامت أجيال من تلامذة المدارس، وبكل طاعة، على كتابة ذلك السطر بأقلام من العاج على الشمع الأحمر الذي يتواجد وسط ألواح الكتابة الخشبية.

بدأت قصة غرامها مع هوميروس حتى قبل أن تصل إلى مرحلة تأليف الجمل، وقبل أن تتعلم القراءة. وقد وردت في أحد الدروس القديمة لتعليم الخط هذه الجملة: "لم يكن هوميروس رجلاً لأنه من الأسياد"، وهذا ما ورد أيضاً في المقاطع الأولى من الإلياذة. رسخت هذه المقاطع في ذهن كليوباتـرا أكثـر مـن أي نصـوص أخرى ظهـرت في عالمهـا. كانت أعمال هوميـروس إنجيـل عصـرٍ مفتونٍ بالتاريـخ والأمجاد، إذ اعتُبر "أمير الأدب" من غير منازع، وهو الذي اشتملت أسطره التي بلغ عددها 15,693 سطراً علـى نصـوصٍ أخلاقية، وسياسـية، وتاريخية، ودينيـة، وعلى أعمالٍ عظيمة

ومبادئ الحكم، وعلى أطلسٍ فكري وبوصلة أخلاقية. كان الرجل المتعلم يقتبس منه، ويعيد صياغة معانيه، ويشير إلى نصوصه. لذلك، يمكننا أن نقول، وبكل إنصاف، وعلى حد قول أحد المعاصرين، إن الأولاد من أمثال كليوباترا، كانوا "ينشأون على هوميروس في تعليمهم، وكانوا متعلقين بأشعاره". يُقال إن الإسكندر الكبير كان يضع، وعلى الدوام، إحدى نسخ كتابات هوميروس تحت وسادته، كما أن كل إغريقي مثقف - بمن فيهم كليوباترا - كان يتمكن من تلاوة جزءٍ ما من الإلياذة والأوديسة غيباً. كان الإلياذة هي الأكثر شهرة في مصر أيام كليوباترا، ويُحتمل أنها بدت أكثر ما يناسب تلك الأيام المتقلبة. كانت تعرف أدبياً منذ نعومة أظفارها الأمور التي اكتشفتها بالتجربة عند بلوغها الحادية والعشرين من عمرها. كانت هناك أيام يشعر فيها المرء برغبة في شن حرب، وبحاجةٍ إلى الاستراحة في المنزل في أيام أخرى.

بدأ التلقين على الإلياذة على مستوى ابتدائي مع لوائح المفردات، وأسماء \الأسياد، والأنهر، وتبعت ذلك وظائف أكثر تعقيداً، مثل أي أغنية أنشدت جنيّات البحر؟ هل كانت بينيلوبي عفيفة؟ مَن كانت والدة هيكتور؟ وغير ذلك. كانت الأنساب المعقدة للأسياد لا تمثّل إلا مشكلة صغيرة لأميرة من البطالسة، وهم الذين يبدو تاريخهم ضئيلاً إلى جانب تاريخ \الأسياد الذين معهم يتقاطع تاريخهم. كان الخط الفاصل بين البشري والمبجل مرناً بالنسبة إلى كليوباترا. (تشابكت دروس الصف مجدداً مع تاريخها الشخصي في دراسة الإسكندر، وهو البطل البارز الآخر. وكانت كليوباترا تعرف قصته من بدايتها إلى نهايتها، ومن نهايتها إلى بدايتها، أي كما كانت تعرف كل التفاصيل عن أجدادها البطالسة). كانت الأسئلة الأولى تأتي على شكل معادلات، أي إنها كانت تستدعي تركيزاً أكبر للذهن، أما الحفظ غيباً فكان أمراً ضرورياً. كانت الأسئلة تأتي على هذا الشكل: أيّ من \الأسياد ساعد مَن؟ كيف كان الطريق الذي سار عليه

يوليسيس عوليس؟ كان ذلك نوع المعلومات التي كانت تدخل رأس كليوباترا؛ وهي المعلومات التي تلقتها من أجل زيادة سعة اطلاعها، كما كان من الصعب تفاديها. اشتملت حاشيتها على فلاسفة، وخطباء، وعلى رياضيين، وكانوا لها بمثابة المرشدين والمرافقين في الوقت ذاته، وهكذا كانوا رفاقاً مفكرين، وناصحين يوثق بهم.

وضع هوميروس المعيار الذهبي لذلك الزمان، لكن ما لبثت أن تبعته مجموعة أدبية كبيرة. كان من الواضح أن المسرحيات المحلية المرحة التي كتبها ميناندر كانت مسرحيات مفضّلة في صفها، لكن، كان من الواضح كذلك أن قليلين كانوا يقرأون أعمال الكاتب المسرحي الساخر بعد مرور زمنٍ عليها. كانت كليوباترا تعرف قصص آيسوب كما كانت تعرف قصص هيرودوتس وثيوسيديدس. وكانت تقرأ الشعر أكثر مما تقرأ النثر، وذلك بالرغم من أنها عرفت كذلك الأعمال المألوفة لدينا هذه الأيام مثل الإنجيل وكتاب اليعاقبة. أما يوريبيديس فقد كان المفضّل لديها من بين كتّاب المسرحيات، وهو الذي تناسبت أعماله مع أحوال زمانه، وهي الأعمال التي اشتملت على مجموعة نساء جريئات يضعن الخطط الموثوقة لعمليات خرق القوانين. كانت كليوباترا تحفظ مشاهد بأكملها من المسرحيات عن ظهر قلب، كما عرفت أيضاً أعمال أسخيلوس، وسوفوكلس، وهيزيود، وبندار، وصافو، بينما اجتمعت حولها مجموعة من الفتيات الراقيات. لكنها في المقابل، كانت لا تعير انتباهاً كبيراً إلى ما هو غير إغريقي، شأنها في ذلك شأن قيصر. يُحتمل كذلك أنها تعرفت على تاريخها المصري من النصوص اليونانية، وتلقت كذلك تعليماً عن الحساب، والهندسة، والموسيقى، وعلم التنجيم وعلم الفلك اللذين يكاد المرء ألاّ يميز بينهما وذلك بالإضافة إلى دراساتها الأدبية. كانت كليوباترا تميّز بين النجم والبرج، ويُحتمل أنها تمكنت من العزف على القيثارة، لكن كل هذه الدراسات كانت ثانوية قياساً بدراستها الأدبية. كان إقليدس ذاته

يعجز عن تقديم إجابة للطالبة التي سألت عن ماهية استخدامات الهندسة وإمكانياتها بالضبط.

لم تكن كليوباترا تدرس كل هذه الدروس وحدها؛ كانت تقرأ بصوتٍ عالٍ، أو أن بعض الأساتذة أو الحاشية كانوا يقرأون لها، إذ كانت القراءة الصامتة أقل شيوعاً سواء أكانت بين الناس أو على انفراد. (لا بد وأن لفافة من ورق البردي التي تحتوي على نصٍ من عشرين صفحة كانت ثقيلة وهشة. كانت القراءة عملية تستلزم استخدام اليدين الاثنتين: يحمل المرء اللفافة باليد اليمنى بينما يلف بيده اليسرى القسم المقروء). عمل معها أحد النحويين، أو أحد أفراد الحاشية، على فك الجمَل الأولى التي عملت عليها، وكانت تلك مهمة عويصة بلغة مكتوبة بجملٍ من دون تقطع، أو فواصل، أو فقرات. كانت القراءة بالنظر أمراً يوصف بالإنجاز، أو أكثر من ذلك بقليل، لأنه كان من المنتظر أن يقوم الطالب بها بنشاط، وبوضوحٍ في التعبير، وبالترافق مع إشارات فعالة. تخرجت كليوباترا في سن الثالثةَ عشرة أو الرابعة عشرة من عمرها كي تدرس فن الخطابة أو الكلام بين حشد من الناس، هذا بالإضافة إلى دراسة الفلسفة؛ وهي أعظم الفنون وأقواها، وهو الأمر الذي برهنه أستاذ شقيقها بكل وضوح. ويُحتمل أن يكون ثيودوتس قد علّم كليوباترا في مرحلةٍ من المراحل، لكن من المؤكد أنها حصلت على أستاذ متفرغ، وعادة يكون من الخصيان.

استفادت كليوباترا من الأستاذ الذي علّمها البلاغة استفادةً قاربت السحر، فحصلت الملكة على ثقافة خطابية وبلاغية كبيرة، مع أن هذا الفن كان نادراً عند الفتيات، وكانت ماهرة في إيراد الحجج المتناسقة، وماهرة في فنون الإقناع والتفنيد. كما تميّزت بقدرتها على استخدام مفردات رمزية ومجموعة كبيرة من الإشارات، وكذلك في أمورٍ تجمع بين قواعد الشعر والنشاطات البرلمانية. وتعلمت كيفية سوق أفكارها بدقة، والتعبير عنها بطريقة فنية، وتقديمها بكل سلاسة. بدا أن المضمون كان يحتل المركز الثاني بعد الإلقاء، وذلك على حد ما لاحظ شيشرون، ونتيجة لاستخدامها

تعابير مثل "ولذلك"، و"مثل ما هو الفكر مجد الإنسان، كذلك فإن مصباح الفكر هو الفصاحة". أتقنت كليوباترا فنون المديح، والانتقاد، والمقارنة برأسها المرفوع، وعينيها الملتمعتين، وصوتها المنظم بدقة. كما تعلمت التحدث، وبلغة قوية، عن مجموعة واسعة من القضايا، وكانت قادرة على استحضار مجموعة كبيرة من الأحداث والتلميحات. وقد شملت تلك القضايا أموراً مثل: لماذا يُرسم كيوبيد على هيئة صبي مجنّح حاملاً سهامه؟ أيهما أفضل: حياة الريف أم حياة المدن؟ هل العناية الإلهية هي التي تحكم العالم؟ ما هو موقف المرء إذا كان ميديا، وعلى وشك قتل أولاده؟ كانت الأسئلة هي ذاتها في كل مكان بالرغم من تنوّع الأجوبة؛ طرح أحدهم السؤال التالي: "هل من العدل أن يقتل المرء والدته إذا قتلت والده؟". كانت كليوباترا تعالج هذه المسائل بطريقة تختلف عن معالجة الآخرين لها. وقد استمر التاريخ بالتسلل إلى التمارين، بالرغم من نوعيته التي تتميز بالغموض في بعض الأحيان. ولم يتأخر الطلاب في ذلك الوقت عن مناقشة ما إذا كان يتعيّن على قيصر معاقبة ثيودوتس، وهو من أصحاب مقولة إن الأموات لا يعضّون. هل كانت جريمة قتل بومبي، بالفعل، هدية إلى قيصر؟ ماذا بشأن الشرف؟ هل كان يتعيّن على قيصر قتل مستشار بطليموس كي يثأر لبومبي، أم هل كان هذا العمل سيوحي بأن بومبي لم يكن يستحق الموت؟(*) هل كانت الحرب مع مصر أمراً حكيماً في وقتٍ كهذا؟

توجب على كليوباترا عرض هذه الحجج مترافقة مع حركات معينة ودقيقة، إذ إنها تلقت تلقيناً حول المواقع التي تتمكن فيها من التنفس، والتوقف، والإيماء، ومتابعة كلامها، ومتى تخفض صوتها أو ترفعه. كما توجب عليها أيضاً الوقوف منتصبة القامة، كما مُنعَت من العبث بإبهامها. كانت نوعية التعليم الذي تلقته كفيلة بإظهار متحدثةٍ لبقةٍ ومقنعة، كما كانت كفيلة بتزويد تلك المتحدثة بفرصٍ كافية تسمح لها بإثبات توقّد

(*) هرب ثيودوتس لكنه تعرض للملاحقة. كانت المناقشات تتوقف وقت دخوله الصف.

ذهنها، ومدى ذكائها في المناسبات الاجتماعية مثل الإجراءات القضائية. قيل لاحقاً إن "فن الخطابة يعتمد على قدرٍ كبير من الجهد، والدراسة المستمرة، وعلى تمارين متنوعة، وعلى خبرة طويلة، وعلى حكمة واسعة، وكذلك على إحساسٍ استراتيجي لا يخطئ". قيل في أماكن أخرى إن هذا النهج القاسي من الدراسة ينطبق على دراسة القضاء، والمسرح، وعلى هذيان رجالٍ مجانين.

توفي والد كليوباترا بسبب مرضٍ عضال بينما كانت هي على وشك إنهاء فترة تدريبها، أي في العام 51 قبل الميلاد. ارتقت العرش مع شقيقها في احتفال رسمي، وربما حدث ذلك في وقتٍ متأخرٍ من ربيع تلك السنة. وكان لا بد لهذا الاحتفال - إذا أُريدَ له أن يجري بحسب التقاليد المتبعة - من أن يجري في ممفيس، وهي العاصمة الروحية لمصر حيث تصطف مجموعة من التماثيل للحيوانات الخرافية، مثل "أبو الهول" على جانبَي طريق يمتد بين كثبان الرمال، ويؤدي إلى الهيكل الرئيس بما يحتويه من تماثيل النمور والأسود المصنوعة من الأحجار الكلسية، وكذلك الأماكن الإغريقية والمصرية المخصصة للتضرعات الخاصة، وهي المطلية بألوانٍ ملتمعة، والتي تحتوي على سجّادات معلقة على جدرانها. وقد كلّل أحد رجال الدين الذي ارتدى عباءة كتانية طويلة كليوباترا بتيجان الثعابين التي تمثّل مصر العليا ومصر السفلى. أقسمت الملكة اليمين داخل جدران الهيكل باللغة المصرية، وتلقت إكليلها في تلك اللحظة، وثُبِّت في مكانه. كانت الملكة في الثامنة عشرة من عمرها، بينما كان بطليموس الثالث عشر يصغرها بثماني سنوات. كان العصر الذي عاشت فيه كليوباترا عصر النضوج المبكر، وهكذا أصبح الإسكندر الكبير قائداً بعمر السادسة عشرة، وأصبح قائد العالم في العشرين من عمره. وقد لاحظ أحدهم في وقت لاحق أمراً يتعلق بكليوباترا عندما قال: "تبدو بعض النساء في عمر السبعين أكثر شباباً من معظم النساء في عمر السابعة عشرة".

يسـهل علينـا كثيـراً تحديد أدائها في ذلـك الاحتفال، إذ كانت الثقافة شـفهية، وكانت تعرف كيف تتكلم. شـهد لها نقّادها بالمهارة الشـفهية. أما الحديث عن "عينيها الملتمعتين"، فكان يترافق على الدوام مع إبداء الثناء على طلاقة لسـانها، وسـحر شخصيتها. كانت مهيأةً طبيعياً للانتقاد بصوتها الغنـي والمخملـي، وحضورهـا الآسـر، كما إنها امتلكت مهـارة الثناء على مسـتمعيها، والتأثيـر فيهـم، بالإضافـة إلـى امتلاكهـا في هذا المجـال مزايا افتقدهـا قيصـر. انتمـت الإسـكندرية إلى العالم الإغريقـي، لكنها تواجدت فـي أفريقيـا. كانـت في مصـر، لكنها في الوقت ذاته لـم تكن مصرية. كان المرء يتنقل في ذلك الوقت كما يتنقل هذه الأيام بين مانهاتن وأمريكا، لكن مع ملاحظة اختلاف اللغات في حالة الإسـكندرية. حكمت أسـرتها بلاداً أدهشت العالم القديم بأصالتها حتى في ذلك الوقت، كما أن لغتها كانت أقدم لغة في التاريخ، وكانت لغة رسمية وغير متناسقة، وتستخدم خطوطاً صعبة للغاية. (كان الخط مبسطاً، أما الهيروغليفية فقد كانت مستخدمة في المناسـبات الاحتفالية فقط، وذلك بالرغم من تمكّن الشـخص المتعلم من فهمهـا جزئيـاً فقـط، ولـم يكن من المحتمل أن تتمكن كليوباترا من قراءتها بسـهولة). تطلبـت تلـك اللغة مجهوداً أكبـر من ذلك الذي تتطلبه اليونانية، وهي التي كانت في أيام كليوباترا لغة التجارة والطبقة البيروقراطية، وكانت سـهلة لمـن يتحـدث بها مـن المصريين. وقد تمكـن المتحدثون بالمصرية من تعلّم اليونانية، لكن كان من النادر أن يتعلم المتحدثون باليونانية اللغة الهيروغليفية. كرسـت كليوباترا نفسـها لتعلّم اللغة المصرية، وهكذا كانت الأولـى والوحيـدة من بين البطالسـة التي اهتمـت بتعلّم اللغة التي يتحدث بها الملايين السبعة الذين تحكمهم.

أثمرت الجهود التي بذلتها الملكة أُكُلَها. كان البطالسة الذين سبقوها يصدرون أوامرهم إلى الجيوش عن طريق مترجمين، لكن كليوباترا تحدثت إليهم مباشرة، وهذه كانت ميزة كبيرة بالنسبة إلى شخصٍ يوظف المرتزقة

الذيـن كانـوا حينها من السـوريين، والميديين، والتراقيين، وكذلك بالنسـبة إلى أي شخص يمتلك طموحات استعمارية. كانت هذه ميزة كبيرة ومفيدة جـداً فـي تلك المدينـة المتململة، والمتنوعة عرقيـاً، وثقافياً، وهي المدينة التي توافد إليها المهاجرون من جميع أنحاء منطقة المتوسـط. كان يمكن لتجمعٍ واحدٍ في الإسـكندرية أن يضم سـبع جنسـيات مختلفة. ولم يكن من المستغرب كذلك رؤية راهب بوذي وهو يسير في شوارع المدينة التي كانـت موطـن أكبر جاليـة يهودية خارج اليهودية [فلسـطين]، وهي الجالية التـي كانـت تصـل نسبتها إلى ربع عدد سـكان الإسـكندرية. كانت تجارة الكماليـات المصريـة مع الهند مربحـة جداً، وكان من بينها الحرير اللامع، والتوابل، والعاج، والفيلة التي كانت تُنقل عبر البحر الأحمر وعبر طرقات القوافل. كان هناك سبب كافٍ كذلك يدفع بكليوباترا لأن تكون ماهرة في لغـات المناطـق السـاحلية؛ فقد قال بلوتارك إن اللغـات التي تعرفها كانت تسـعاً، بمـا فيهـا العبرية والتروجلودية، وهذه الأخيرة لغة حبشـية "تختلف عن لغات كل الشـعوب الأخرى، وتماثل أصواتها أصوات طيور الخفاش الصارخة"، هذا إذا جاز لنا تصديق ذلك. كان أداء كليوباترا أكثر سلاسة من دون أدنى شك. وقد قال بلوتارك في هذا الصدد: "كان من الممتع مجرد سـماع صوتهـا، وهـي كانت تتمكن مـن الانتقال من لغةٍ إلى أخرى وكأنها آلة متعددة الأوتار، وهو الأمر الذي سـمح لها بالاسـتغناء عن المترجمين للـرد علـى الأقـوام البربريـة، إلا بالنسـبة إلى عددٍ قليل منهـا، وذلك لأنها كانت تتحدث بلغاتهم".

لـم يقـل لنـا بلوتارك شيئاً عن معرفة كليوباتـرا باللغة اللاتينية، وهي لغة روما التي كانت قليلاً ما تُسـمع في شـوارع الإسـكندرية. كان الخطباء البـارزون مـن أمثالهـا وأمثـال قيصر يتحدثون بلغـة إغريقيـة متقاربة. وقد وضعت كليوباترا نفسـها في محيط لغوي لا قعر له بالإضافة إلى التزامها باللغات التي تعلمتها، وهو أمر مشابه للتركة التي ورثتها، ولمستقبلها. كان

الروماني النبيل يتجنب قبل جيلٍ واحدٍ فقط اليونانية كلما أمكنه ذلك، حتى إنه كان يعمد أحياناً إلى التظاهر بجهله إياها.

ورد في حكمة قديمة ما يلي: "كلما تعمقت معرفة المرء بالإغريقية، أصبح وغداً أكثر فأكثر". كانت تلك لغة الفنون الراقية والأخلاقيات المبتذلة، كما كانت لغة الكتب الجنسية، وهي لغة "تمتلك أصابع خاصة بها". قال أحد الباحثين في وقتٍ لاحق: "تغطي اليونانية كل شيء، بما في ذلك أمور كنت أعجز عن شرحها في الصف"(*). تميّز جيل قيصر الذي أكمل ثقافته في اليونان، أو تحت إشراف معلمين يونانيين، بأنه يتقن اللغتين بالدرجة ذاتها. لكن الإغريقية؛ وهي الأغنى والأكثر تنوعاً، والأكثر دقة، والأكثر عذوبة، كانت الأكثر فائدة، وغنى بالكلمات المناسبة. كان أحد الرومانيين يشرف على الاثنتين منذ مولد كليوباترا، وبدا لوهلة وجيزة أنه من الممكن أن يتحدث الشرق والغرب باللغة الإغريقية. لقيت كليوباترا بعد مرور عقدين من الزمن صعوبة في التحدث إلى الرومانيين الذين كانوا لا يجيدون التحدث بلغتها. وأوشكت في هذا الوقت على لعب آخر دورٍ لها باللغة اللاتينية التي كانت تتكلمها بلكنة مختلفة بعض الشيء.

تأكد أوليتس، وهو باحث الجماليات وراعي الفنون التي بدأت بها الإسكندرية نهضتها الفكرية، من تلقي ابنته ثقافة رفيعة المستوى، فتابعت كليوباترا هذا التقليد مع ابنتها، وكلّفت معلماً بارزاً تعليم ابنتها، لكنها لم تكن الوحيدة في ذلك. لم تتمتع جميع الفتيات بالتعليم في ذلك الوقت،

(*) يمكننا إجراء مقارنة تاريخية مع ما حدث للغة الفرنسية فوق الأراضي الأمريكية. كانت لغة العالم القديم المستهتر في أمريكا المستعمرَة أداة للعدوى، فحيثما ذهب الفرنسيون كان يتواجد الفساد والطيش على وجه التأكيد. كانت اللغة الفرنسية بحلول القرن التاسع عشر هي الأداة التي لا غنى عنها للثقافة، وكانت أكثر غنى بالتعابير، والمفردات، وحتى إنها كانت أكثر تفوقاً إلى حدٍّ كبير بالدقة والمرونة. تواجد الاستياء إلى جانب الإعجاب مع ذلك ليفوز الاستياء في النهاية. وقد تحولت الفرنسية بعد قرن حافلٍ بالأحداث إلى لغة قليلة الاستعمال، ومطولة، وغير عملية.

لكنهن كن يلتحقن بالمدارس، ويشاركن في مسابقاتٍ شعرية، وأصبحت بعضهن من الباحثات. وقد قطع عدد من الفتيات الميسورات، وهو عدد ليس بالقليل، من اللواتي ولدن في القرن الأول، بمن فيهن غير المؤهلات لتولي الحكم، شوطاً كبيراً في الدراسات، هذا إذا لم يكملن طريق التمارين الصعبة على الخطابة. كان معلم بارز يشرف على تعليم ابنة بومبي، وهي التي تمكنت من إلقاء أشعار هوميروس أمام والدها. وأيضاً، كان شيشرون يعتبر، ومن وجهة نظره الخبيرة، أن ابنته "مثقفة جداً". أما والدة بروتوس فقد كانت على اطلاعٍ واسع على مؤلفات الشعراء اللاتينيين والإغريق. نالت الإسكندرية نصيبها من العالمات في مجالات الرياضيات، والطب، والرسم، والشعر، وذلك لا يعني أن أولئك النسوة كنّ فوق الشبهات، إذ إن المرأة المتعلمة امرأة خطرة، وهي دائماً كذلك، وقد سببت إزعاجاً في الخارج(*)؛ أكبر مما سبّبته داخل مصر. كانت كورنيليا، وهي زوجة بومبي الجميلة، على بعد ياردات قليلة عندما قُطع رأس زوجها في بيلوسيوم. صرخت من الرعب، وهي التي حملت شبهاً كبيراً بكليوباترا؛ كانت "مثقفةً ثقافةً عالية، وماهرة في العزف على القيثارة، وعلى معرفةٍ بالهندسة، كما كانت معتادة على الإصغاء بانتباهٍ شديد إلى محاضرات في الفلسفة، وقد فعلت كل ذلك من دون أي تعجرف أو غرور كما تفعل بعض الشابات أحياناً عندما يتابعن دراساتٍ كهذه". كان الإعجاب يظهر متقطعاً في بعض الأحيان، لكن هذا الإعجاب كان مقبولاً بالنسبة إلى زوجة قنصل روماني. قدّمت كليوباترا نفسها بعد وقتٍ قصير في ذلك الخريف، وكان من بين كل مواهبها الخطرة أنها "امرأة تخلو من الصفات الخطرة، كما نظمت الشعر، وتمكنت من إلقاء نكات شائنة، وكانت قادرة على استخدام

(*) كانت النظرة الهلينستية إلى المرأة الحامل، وإلى المشي في المطبخ بقدمين حافيتين من العادات الرومانية: "أحبّت زوجها، وأنجبت ولدين، واعتنت بالمنزل وقامت بحياكة الصوف".

لغة، متواضعة أو لطيفة، أو بذيئة. وامتلكت كذلك درجة عالية من الذكاء والفتنة، والمعنويات العالية".

يمكننا القول، لكل تلك الأسباب، إن كليوباترا كانت مألوفة جداً لدى قيصر بطريقةٍ ما. يُضاف إلى ذلك أنها كانت تشكّل رابطة حيّة مع الإسكندر الكبير؛ وهو النتاج البارز لحضارة رفيعة المستوى، ووريثة تقاليد فكرية رائعة. كان سكان الإسكندرية يدرسون علم الفلك عندما كانت روما أكبر بقليل من قرية. وكانت الإسكندرية التي بناها أجداد كليوباترا، وفي عدة مجالات، هي التي انبعثت مع النهضة، إذ تمكّن البطالسة، وبطريقة ما، من تأسيس أعظم مركزٍ فكري في ذلك الزمان وفي الإسكندرية، وهو المركز الذي انطلق من حيث انتهت إليه أثينا، وذلك بالرغم من سنين طويلة من الهمجية، والسجل الفكري الضئيل للمقدونيين. وقد عمد بطليموس الأول عند تأسيسه المكتبة إلى جمع كل النصوص الموجودة في البلاد، كما أضاف إليها نصوصاً كثيرة، إذ وصلت شراهته للأدب إلى حدّ أنه قيل عنه إنه صادر كل النصوص الواصلة إلى المدينة، وكان يعيد نسخاً بدلاً منها في بعض الأحيان. (قدم بطليموس الأول مكافآت لكل من يساهم بتقديم النصوص، فبرزت لهذا السبب نصوص مزورة من ضمن مجموعات النصوص في الإسكندرية). تشير المصادر القديمة إلى أن تلك المكتبة العظيمة احتوت على 500,000 لفيفة، وهو رقم قد يكون فيه بعض المبالغة، لكن رقم 100,000 لفيفة قد يكون أقرب إلى الواقع. وعلى كل حال تمكنت هذه المكتبة من التفوق على كل المكتبات السابقة لها، كما تضمنت كل كتاب مكتوب باللغة الإغريقية، لذلك لم يكن العثور على هذه النصوص أيسر حالاً مما هو في مكتبة الإسكندرية العظيمة، كما كانت على أعلى درجةٍ من الترتيب؛ بحسب الترتيب الهجائي، وبحسب الموضوعات بحيث كانت توضع في خزائن خاصة بها.

لم تكن هذه النصوص عرضةً لخطر تراكم الغبار، وقد أُلحق بالمكتبة

متحف كان يقع قرب مجمّع القصر أو في داخله، وهو الذي كان مؤسسة أبحاث مدعومة من الحكام. كان الأساتذة يلقون قدراً قليلاً من التقدير في أماكن أخرى من العالم الهلينستي. ورد في أحد الأقوال الشائعة: "إما أنه ميّت، وإما إنه يعلّم في مكانٍ ما"، وكان الأستاذ يتلقى أجراً أكثر بقليل من العامل الذي لا يتمتع بأي مهارة، هذا في حين كانت المساعدات الدراسية شائعة في الإسكندرية. كان مجتمع الباحثين مدللاً من الدولة، وكان الباحثون يسكنون في مناطق راقية من دون دفع أي ضرائب، ويأكلون في قاعة طعام مشتركة وواسعة. (كان الأمر كذلك، على أي حال، إلى ما قبل ظهور كليوباترا بمئة عام، أي عندما ضاق والد جدها ذرعاً بتلك الطبقة الفوضوية سياسياً، فقام بتقليص أعدادها قبل أن يصرف أفضل الباحثين وألمعهم في أنحاء العالم القديم). كانت أكثر الأمور روعة من تلك التي كان الأطباء الماهرون يقولونها لفترة قرون قبل زمن كليوباترا؛ هي أنهم تمرّنوا في الإسكندرية؛ المكان الذي يتمنى أي والد أن يكون معلم ابنه قد درس فيه.

كانت المكتبة مصدر فخر العالم المتحضّر، وكانت أسطورة في زمانها، لكنها فقدت شيئاً من بريقها في زمن كليوباترا، كما تحولت أعمالها من الأبحاث الأصيلة إلى نوعٍ من التصنيف المهووس والتبويب الذي أعطانا عجائب الدنيا السبع. (ورد في إحدى لوائح تصنيف الكتب الرائعة "أولئك البارزون في كل فرعٍ من فروع التعليم"، لوائح مرتبة بحسب الحروف الأبجدية لكتاباتهم ومقسّمة بحسب الموضوعات. وقد وصلت هذه الدراسة إلى 120 مجلداً). استمرت هذه المؤسسة باجتذاب العقول اللامعة في أنحاء المتوسط. وكان أرسطو حارس هذه المؤسسة، وهو الذي كانت مدرسته ومكتبته بمثابة النموذج الذي يُحتذى، وليس صدفة أن يكون هو الذي علّم الإسكندر الكبير وبطليموس الأول، صديق طفولته. شهدت الإسكندرية قياس محيط الأرض لأول مرة، وثبّتت الشمس لتكون

في مركز النظام الشمسي، كما سُلِّطت الأضواء على عمل الدماغ ونبضات القلب، ووُضعت أسس علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء، إضافة إلى ظهور النسخ النهائية لأعمال هوميروس. وضع إقليدس قواعد علم الهندسة في الإسكندرية. أما لو قدّر لحكمة العالم القديم أن تجتمع في مكان واحد، لكان ذلك المكان هو الإسكندرية. كانت كليوباترا هي المستفيدة المباشرة من مكتبة الإسكندرية، وهي التي كانت تعرف أنّ للقمر تأثيراً في حركة المد والجزر، وأن الأرض كروية وتدور حول الشمس، كما كانت تعرف بوجود خط الاستواء، وقيمة باي - النسبة الثابتة - وخط العرض الذي تقع عليه مرسيليا، والمساقط الخطية linear perspective، إضافة إلى معرفتها أنه باستطاعة المرء الإبحار من إسبانيا إلى الهند، وهي الرحلة التي لم يقدّر لها أن تتم إلا بعد 1,500 عام، وذلك بالرغم من تفكيرها في القيام بهذه الرحلة بالاتجاه المعاكس.

أما بالنسبة إلى رجل مثل قيصر، وهو المثقف المتأثر بالإسكندر الكبير الذي ادّعى أنه متحدر من فينوس، فإن كل الطرق، سواء أكانت أسطورية أو تاريخية أو فكرية، كانت تقود إلى الإسكندرية. كان تعليمه مثل ذلك الذي تلقته كليوباترا، أي من الدرجة الأولى، وكان فضوله العلمي شديداً، وكان يعرف شعراء زمانه بالإضافة إلى كونه قارئاً شرهاً. يُقال إن الرومان لم يهتموا كثيراً بمظاهر الرفاهية الشخصية، لكن قيصر كان الاستثناء في مجالاتٍ عديدة، وهو الذي لم يكلّ قطّ في أثناء حملاته العسكرية عن جمع الفسيفساء، والرخام، والمجوهرات، لذلك وُصِف غزوه لبريطانيا على أنه محاولة لإشباع نهمه لجمع لآلئ المياه العذبة. كان مغرماً بمظاهر الثراء، ومعرفة الأنساب إلى درجة أنه أطال مكوثه في بلاطات ملوك الشرق، وهو الأمر الذي سبّب له حرجاً استمر طيلة حياته. لم يقلقه من الاتهامات التي وجّهت إليه سوى اتهامه بأنه أطال مكوثه في ما يسمى اليوم شمال تركيا، وذلك بسبب العلاقة التي ربطته بملك بيثينيا.

وُلـد قيصـر لعائلـة من النبـلاء، وكان خطيباً مفوهاً، وضابطاً جسـوراً، لكن كل هذه المزايا كانت تتضاءل مقارنة مع امرأة تتحدر من الإسكندر، وهو الـذي كان يُعتبـر فـي مصـر ليـس ملكاً فحسـب بل مبجّـلاً، وإن كان ذلك مجرد زعم. كاد قيصر في أواخر أعوام حياته أن يصل إلى مرتبة التبجيل، لكن كليوباترا وُلدت من الأسياد.

مـاذا بشـأن تطلعـات كليوباتـرا؟ يصـرّ الرومان الذين حفظـوا قصتها على التركيز على وسائلها الطائشة، وعلى حيَلها الأنثوية، وعلى طموحاتها الشـديدة، لكـن القليليـن منهـم ركّـزوا علـى جمالها. لم يكن ذلك بسـبب افتقادهم إلى الصفات التي يُمكن نعتها بها. لم يكن من المستغرب دخول النساء الجميلات التاريخ، وهكذا كانت الحال مع زوجة هيرودس، وكذلك والـدة الإسـكندر. عرفـت كليوباتـرا أن ملكـة من السـلالة الثامنة هي التي شيّدت الهرم الثالث، وأنها كانت "أكثر شجاعةً من كل الرجال في زمانها، وكانت الأجمل من بين كل النسـاء ببشـرتها الفاتحة وخدّيها المتوردين". كانـت أرسـينو الثانيـة ملكة فاتنة وجذابة، وهـي التي تزوجت ثلاث مرات وعاشت في القرن الثالث ق.م. سبق للجمال أن أثار الاضطراب في العالم من قبل كما أوضح ذلك مثال هيلين التي سببت حرب طروادة، وهو المثال الذي أشار إليه أحد الشعراء اللاتينيين في محاولة منه للتركيز على سلوك كليوباترا السيئ. كما أشار بلوتارك بوضوح إلى أن جمالها "لم يكن مدهشاً بحد ذاته حيث لا يمكن مقارنته مع أي جمالٍ آخر، أو أن أحداً لا يمكنه رؤيتهـا مـن دون أن يُصعـق بجمالهـا". لكـن "حضورها القـوي، إذا عاش المـرء معهـا، هـو الـذي لا يقاوم". أصرّ بلوتارك على القول إن شـخصيتها وسـلوكها لم يكونا أقل سـحراً، فمرور الزمن لم يخفّف من فتنة كليوباترا بل زاد منها. لم تصل كليوباترا إلى ذروة شـهرتها إلا بعد مرور سـنوات، واعتُبرت بحلول القرن الثالث ب.م أنها ذات جمالٍ مدهش، وذات حضور رائع، ولم تكن في القرون الوسطى "شهيرة إلا بجمالها".

لم تثبت بعد صدقية أي صورة لوجهها، لذلك يمكننا اعتبار أن قول أندريه مالرو صحيح جزئياً: "نفرتيتي وجهٌ من دون ملكة، لكن كليوباترا ملكة من دون وجه". يمكننا مع ذلك تسوية بعض الأمور؛ يُحتمل أنه من المفاجئ ألاّ تتميز هذه الملكة بأي شيء غير صغر الحجم والليونة، وذلك بالرغم من أن رجال العائلة كانوا يميلون نحو السمنة قليلاً، هذا إذا لم يكونوا بدينين. نعرف كذلك أن صورتها نُقشت على العملة المعدنية التي سكّتها، وهكذا أرادت نشر ملامح وجهها الجدية في البلاد، وهو الأمر الذي يدعم زعم بلوتارك أن جمالها غير تقليدي مطلقاً. كانت كليوباترا ذات أنفٍ أصغر من أنف والدها المدبب (وهو كان شائعاً بين الناس إلى درجة وجود اسم خاص به في اللغة الإغريقية)، وشفتين ممتلئتين، وذقنٍ بارزٍ وحادٍّ، وحاجبين عاليين، كما كانت عيناها واسعتين وغائرتين. لم تكن كليوباترا VII شقراء الشعر، أو ذات بشرة بيضاء بالرغم من وجود هاتين الصفتين بين البطالسة، لذا يصعب علينا التصديق أن أحداً سيتحدث عن "تلك المرأة المصرية" لو كانت شقراء. تكررت كلمة "بشرة بلون العسل" في أوصاف قريباتها، ولهذا يمكننا الافتراض أن هذا الوصف ينطبق عليها كذلك، بالرغم من عدم الدقة في المعلومات بشأن والدتها وجدتها لأبيها. كانت الدماء الفارسية تجري في عروق الأسرة، لكن حتى المحظيات المصريات كنّ نادرات، وهكذا يمكننا الجزم بأنها لم تكن من ذوات البشرة الداكنة.

يمكننا الجزم كذلك بأن وجهها لم يقلّل قطّ من سحرها المهيب، ومن روح الدعابة عندها، أو من وسائل إقناعها الحريرية، وذلك لأن قيصر كان يهتم كثيراً بالمظاهر، بالرغم من وجود اعتبارات أخرى عنده. كان من الواضح منذ وقتٍ بعيد أن الطريق إلى قلب بومبي يمرّ عبر طريق الإطراء، أما الطريق إلى قلب قيصر فكان عبر الرشوة. أنفق قيصر من دون حساب وبشكل يتعدى موازنته، فكانت قيمة لؤلؤة واحدة يعطي إحدى المحظيات

إيّاها تساوي ما يجنيه 1,200 جندي محترف في سنة كاملة. وهكذا تجمّع لديـه بعـد نحو عشـرة أعوام من القتـال جيش يتعيّن عليه دفع أجوره. ترك والد كليوباترا وراءه دَيْناً كبيراً، وهو الدَّيْن الذي تحدث قيصر عن رغبته في تحصيله عند وصوله، إذ أعرب عن استعداده لإسقاط نصف ذلك المبلغ، ومـع ذلـك كانـت قيمة الباقـي خيالية، أي إن المبلغ الباقي وصل إلى نحو 3,000 تالنـت. كمـا توجـب علـى قيصر دفع نفقات كبيرة، وكان عنده ميل شديد نحو التبذير، لكنه أدرك أن مصر تمتلك ثروات توازيها. وقفت تلك الشابة الجذابة أمامه، وتحدثت بطريقة مؤثرة، وضحكت بسهولة، وهي التي تتحدر من حضارة قديمة وأصيلة، كما أنها تواجدت وسط مظاهر ثراء من شأنه إنقاذ بلاده، وهكذا كانت أكثر دهاء من جيش بأكمله، وهي التي تُعتبر إحدى أكثر شخصيّتين ثراءً في العالم.

عاد الشقيق الآخر إلى القصر، لكنه ارتعب عندما اكتشف أن شقيقته مع قيصر، وما لبث أن خرج غاضباً كي يُفرغ نوبة غضبه في الشارع.

الفصل الثالث

كليوباترا تأسر العجوز بسحرها

"يُثني الناس على المرأة الكريمة بأموالها، لكن المرأة الكريمة بشخصها هي الأكثر جدارة بالثناء".

كوينتيليان



لـم يتميّـز القـرن الأول قبـل الميـلاد بأكثـر من تكـرار الموضوعات التقليديـة وإعـادة صياغتهـا، فتكـرّر الأمـر ذاتـه عندما حضرت تلـك الفتاة النحيلـة والمثيـرة أمـام ذلـك الرجل الداهية، وهو سـيّد العالـم الأكبر منها سناً بكثير، أي إن الناس أرجعوا الفضل في ذلك إلى الإغراء الذي كانت تتمتـع بـه. بقـي هـذا اللقاء لوقتٍ طويـل مدار أحاديث كثيـرة، كما حصل إلـى مـا بعـد مرور آلاف السـنين. لكن الواقع أنـه لم يكن من الواضح مَن أغـرى مَـن، كما لم يتضح مدى السـرعة التـي ارتمى فيها قيصر وكليوباترا فـي أحضـان بعضهمـا بعضاً. كان الطرفان مسـؤولين عن أمورٍ كثيرة. وعن هـذا قـال بلوتـارك إن ذلـك القائـد الـذي لا يُقهـر وقف عاجـزاً أمام تلك الفتـاة الماكـرة التـي تبلـغ الحادية والعشـرين من عمرها. وقـع ذلك القائد بعد خطوتين سـريعتين أسـير مكرها، وهُزم بسـحرها. أتى أبولودوروس - الذي ساعدها في طريق عودتها - وجاء قيصر، وكانت كليوباترا قد لقيت الهزيمة؛ وهي سلسلة أحداث لا تصب في صالحها بالضرورة. اعترف ديو بقـدرة كليوباتـرا علـى إخضـاع رجل يبلغ ضعفي عمرها، لكن لعله اسـتند في ذلك إلى رواية بلوتارك الذي عاش قبله بمئة سنة. اعتبر ديو أن قيصر

وقع أسير جاذبيتها على الفور، لكن ديو يتحدث عن دور لعبه ذلك الرجل الروماني الذي اشتهر بشغفه بالجنس الآخر "إلى درجة أنه أسر بجاذبيته عدة نساء أخريات، وجميعهن عبرن طريقه بالصدفة". يبدو أن كل ذلك كان محاولة لإعطاء قيصر دوراً ما بدلاً من تركه فريسة سهلة بين يدي امرأة ماكرة وجذابة. ويقدّم لنا ديو مشهداً أكثر تفصيلاً بكثير: حازت كليوباترا في القصر على وقتٍ أكبر للتبرج، وهكذا بدت "بأكثر المظاهر مهابة وإثارة للشفقة في الوقت ذاته"، وذلك بدلاً من أن تكون بعيدة المنال. قال ديو إن قيصر قد تغيّر "ما إن رآها وسمعها تتلفظ بكلمات قليلة"، وهي الكلمات التي حرصت كليوباترا على انتقائها بعناية كبيرة. كانت تدرك، في أسوأ الاحتمالات، أنه من الأفضل لها أن تقع أسيرة بين يدي قيصر من أن تكون أسيرة شقيقها(*).

توصلت كليوباترا، على أي حال، وبسهولة إلى نوعٍ من التناغم مع قيصر الذي لم يتأخر عن التحرك بوصفه "نصيراً للمرأة التي سبق له أن نصّب نفسه قاضياً عليها". يُحتمل أن يكون الإغراء قد استغرق بعض الوقت، أو أن يكون على الأقل قد استغرق وقتاً أطول من ليلة إعجاب متبادل واحدة. إننا لا نمتلك أي دليلٍ على أن العلاقة كانت جنسية على الفور. اقترح قيصر عند بزوغ شمس أحد الأيام - وليس بالضرورة أن يكون اليوم الذي تلا وصول الملكة غير التقليدي والمثير - إقامة مصالحة بين كليوباترا وبطليموس، "لكن بشرط أن تحكم بصفتها زميلة له في المملكة". لم يكن ذلك، وبكل تأكيد، ما توقعه مستشارو شقيقها، لأنهم اعتبروا أن لديهم اليد العليا، وافترضوا أنهم عقدوا معاهدة مع قيصر على شاطئ بيلوسيوم. لكنهم لم يتوقعوا قطّ ظهور كليوباترا المفاجئ في القصر.

(*) لم تُكتب هاتان الروايتان من الذاكرة الحية. ورد في إحدى الروايات المشكوك فيها، والتي ظهرت في القرن السادس ب.م - والتي تجرأت على ذكر - أن قيصر هو الذي أغوى كليوباترا.

فوجئ بطليموس الشاب أكثر من قيصر من تواجدها في القصر، فغضب كثيراً من هذه الحيلة، لكنه لجأ إلى سلوكٍ يدل على حاجته الشديدة إلى المواساة: انفجر بالبكاء وسالت دموعه، ثمّ انطلق وسط غضبه الشديد، وعبر بوابة القصر نحو الحشود في الخارج ممزّقاً ذلك الشريط الأبيض - الإكليل - عن رأسه، ورماه إلى الأرض بين الجمهور، وأخذ ينوح قائلاً إن شقيقته قد خانته. أمسكه رجال القيصر وأعادوه إلى داخل القصر حيث بقي فيه قيد الإقامة الجبرية. لم يتأخر رجال القيصر عن تهدئة الاضطرابات في الشارع، وهي التي تعززت بعد ذلك بأسابيع عندما قاد بوثينوس، وهو أحد الخصيان، حملة تهدف إلى إزاحة كليوباترا. كان من الممكن أن تنتهي قصتها المجيدة عند هذا الحد لو أنها لم تضمن مساندة قيصر لها. وبالمقابل، كان من الممكن أن تنتهي عند هذا الحد قصة قيصر كذلك عندما هوجم من البر والبحر. ظنّ قيصر أنه يقوم بتسوية نزاع عائلي، أي إنه لم يدرك أنه سبّب حرباً كبيرة بين جيشين منهكَين تدب الفوضى في صفوفهما. كما يبدو أن كليوباترا لم توضح له أنها تفتقد إلى مساندة سكان الإسكندرية.

رتّب قيصر، وإن بتردد، ظهوره أمام الناس، وقد فعل ذلك من مكانٍ آمن - ولعله كان شرفة في طابق علوي، أو من خلال إحدى نوافذ القصر - واعداً الشعب "بأن يفعل لهم ما يريدونه". استفاد في هذا المجال من المهارات الخطابية التي يمتلكها. ويُحتمل أن تكون كليوباترا قد ساعدته بشأن طرائق إرضاء أهل الإسكندرية، إلاّ أنه لم يكن بحاجة إلى أي معلم يدله على كيفية تقديم خطاب واضح ومؤثر، كما كان يعرف كيفية استخدامِ حركات يديه المؤثرة في الخطابةِ بين حين وآخر. كان عبقرياً شهيراً في ذلك المجال، وهو المتحدث المقنع جداً، والمصمم اللبق الذي لا يجاريه أحد في "القدرة على إلهاب عقول سامعيه، وفي كيفية توجيههم نحو أي اتجاه تتطلبه الظروف". لم يتحدث بعد ذلك عن قلقه،

لكنه ركز على مفاوضاته مع بطليموس، كما أكّد أنه "حريص جداً على لعب دور الصديق والوسيط". بدا أنه على وشك النجاح في مسعاه عندما وافق بطليموس على إجراء تسوية. لم يكن ذلك تنازلاً كبيراً من جانبه لأنه عرف أن مستشاريه سوف يتابعون الحرب بغضّ النظر عن موقفه، إذ كانوا في تلك اللحظة يستدعون جيش البطالسة للعودة إلى الإسكندرية.

دعا قيصر بعد ذلك إلى عقد اجتماع رسمي رافقه فيه الشقيقان معاً، فقرأ بنبرته المميزة والعالية وصية أوليتس بصوت عالٍ، وأشار إلى أن والدهما أراد أن تعيش كليوباترا مع شقيقها، وأن يحكما معاً تحت الرعاية الرومانية. منحهما قيصر بعد ذلك لقبين ملكيين. يصعب علينا أن نتجاهل يد كليوباترا في ما حدث بعد ذلك. ذهب قيصر إلى حدٍّ أبعد، وذلك كي يبرهن عن حسن نيته (أو كي يهدئ من ثورة الحشد الغاضب، على حد قول ديو)، فمنح جزيرة قبرص إلى شقيقَي كليوباترا الآخرين، وهما أرسينو التي كانت في السابعة عشرة من عمرها، وبطليموس الرابع عشر الذي كان في الثانية عشرة من عمره. كانت هذه البادرة هامة جداً، لأن قبرص هي درة ممتلكات البطالسة، وتشرف على الساحل المصري. زوّدت الجزيرة الملوك المصريين بالأخشاب، كما أعطتهم ما يشبه الاحتكار على النحاس. كانت قبرص كذلك مسألة حساسة في تاريخ البطالسة؛ فقد تمكن عمّ كليوباترا من حكم تلك الجزيرة إلى ما قبل عقد من الزمان، أي عندما طالبته روما بمبالغ باهظة من المال، لكنه فضّل تجرّع السم على دفع المبلغ. جُمعت ممتلكاته الشخصية ثم نُقلت إلى روما حيث استُعرضت عبر الشوارع. أما في الإسكندرية فقد وقف شقيقه الأكبر، أي والد كليوباترا، ساكناً من دون أن يفعل أي شيء، وقد طرده مواطنوه بقسوة من مصر بسبب هذا الموقف الجبان. كانت كليوباترا في الحادية عشرة من عمرها في ذلك الوقت، وقد صعب عليها حينها نسيان هذه الإهانة، أو نسيان الثورة.

نجح قيصر في تهدئة الجماهير لكنه عجز عن تهدئة أعمال العنف

التي أثارها بوثينوس. لم يُضع ذلك المعلم السابق وقتاً في تحريض رجال أكيلاس، وأكد لهم أن ذلك الاقتراح الروماني كان زائفاً، وسألهم إذا تمكنوا من رؤية ذراع كليوباترا الحنون والطويلة وراءه. إننا نتردد في قبول هذه الشهادة، وفي قبول أن بوثينوس - الذي كان يعرفها معرفة جيدة، وحميمة، إذا كان قد علّمها فعلاً - كان يخشى تلك الشابة كما كان يخشى ذلك الروماني المحنك. أقسم بوثينوس إن قيصر "قد تظاهر بأنه أعطى الولدين المملكة بهدف تهدئة الناس فقط". وأضاف أن قيصر لن يتأخر في نقل الحكم إلى كليوباترا وحدها. كان هناك خطر كامن آخر يتعلق بإصرار كليوباترا مقارنة بافتقاد بطليموس إلى هذا النوع من الإصرار. ماذا لو تمكنت تلك المرأة الماكرة من إغواء شقيقها في أثناء وجودهما معاً في القصر؟ لا يمانع الناس وجود زوجين حاكمين، وحتى لو كان ذلك أمراً لا يجيزه ذلك الروماني غير المحبوب. أصرّ بوثينوس على أن كل شيء سيكون معرضاً للضياع، ثم رسم خطةً وعرضها على عددٍ كبير من المتآمرين معه. كانت محالّ الحلاقة تعمل مثل مكاتب البريد في ذلك الزمن في مصر خلال حكم البطالسة، وهكذا تمكّن حلاق قيصر، وهو رجل مشغول لكنه من النوع الفضولي الذي يجيد الإصغاء، من كشف أمرٍ رهيب، وهو أنه خلال الحفل الذي سوف يُقام احتفاءً بالتسوية سيقوم بوثينوس وأكيلاس بتسميم قيصر، كما رُسِمت خطة لقتل كليوباترا خلال ذلك. لم يفاجَأ قيصر قطّ لأن نومه كان خفيفاً جداً، وينام ساعاتٍ غير منتظمة كي يحمي نفسه من محاولات الاغتيال. لا بد من أن كليوباترا عانت بدورها لياليَ صعبة، وذلك بالرغم من يقظة الحراس.

أمر قيصر أحد الرجال بالتخلص من ذلك الخصي، وهو الأمر الذي حدث بالفعل. أما أكيلاس فقد ركّز أكثر على ما سيحدث في المستقبل، وذلك بحسب ملاحظة بلوتارك غير الواضحة: "كانت حرباً مزعجة ومحرجة". امتلك قيصر في ذلك الوقت أربعة آلاف رجل، لكنهم لم

يكونـوا فـي حالـة جهوزيـة تامة، ولم يكونوا في وضع يسـمح لهم باعتبار أنفسـهم "لا يُقهرون". أما قوات أكيلاس التي بلغت ثلاثة أضعاف قوات قيصر فواصلت زحفها نحو الإسكندرية. لم يحصل قيصر على فهم كامل لماهيـة مكـر البطالسـة بغض النظر عن الملاحظـات التي يُحتمل أنّ تكون كليوباترا قد قدّمتها له، فأرسـل مبعوثَين باسـم الملك الشـاب، وحمّلهما اقتراحاً لعقد السلام. كانا رجلين نافذَين وذوَي خبرة، كما سبق لهما العمل تحـت كنـف والـد كليوباترا، ويُحتمل كثيراً أن يكون قيصر قد التقاهما في روما في وقتٍ سابق. أما أكيلاس الذي اعترف قيصر بأنه "رجل ذو إرادة حديديـة"، فقـد اعتبـر هـذه البـادرة دلالـة علـى الضعف، وأقـدم على قتل المبعوثَين قبل أن يتمكنا من تسليم الرسالة التي يحملانها.

حـاول أكيـلاس مـع وصول الجنـود المصريين دخـول جناح قيصر، فأقدم الرومان تحت جنح الظلام على إقامة تحصينات في القصر على وجه السـرعة، وذلك عن طريق إقامة جدار يبلغ ارتفاعه عشـر أقدام. لم يقصد قيصر خوض حرب لا يريدها بالرغم من تحصيناته، وكان يعلم أن أكيلاس يجنّـد جنـود احتيـاط في كل أنحاء البلاد. أعدّ سـكان الإسـكندرية مصانع الذخيـرة فـي أنحـاء المدينة كافة. ودفع أثريـاء المدينة مبالغ كبيرة لعبيدهم البالغيـن، وجهزوهـم لمحاربـة الرومـان. بعـد ذلـك، اندلعت الاشـتباكات اليوميـة علـى الفـور، فأحسّ قيصـر بالقلق من نفاد كميـات المياه أكثر من أي شيء آخر، لأن كمياتها كانت قليلة، وكذلك بالنسبة إلى الأطعمة التي لم يكن يمتلك منها أي كميات تُذكر، وقد زاد بوثينوس الأمور سوءاً عندما أدخل قمحاً متعفناً. كان قيصر، وهو ذلك القائد الناجح، منطقياً وموهوباً، وهكذا كان من الضروري أن يبقي على طريق مواصلاته مفتوحاً إلى بحيرة مريوط؛ وهي البحيرة التي تقع جنوب المدينة، وتُعتبر ميناءها الثاني، وتعيّن عليه كذلك تعزيز قواته هناك. كانت بحيرة المياه العذبة تلك موصولة مع الإسـكندرية بأقنيـة تصلهـا مـع الداخل المصري، وكانت ميـناء غنياً ومهماً

مثل الميناءين الواقعين على البحر المتوسط. ظهرت اعتبارات إضافية على الجبهة النفسية، وقام قيصر بكلّ ما في وسعه لتملق الملك الشاب، وذلك لأنه فهم أن "ذلك الاسم الملكي يحتفظ بسلطة كبيرة بين شعبه". كما واظب على بثّ نداءات منتظمة بأن الحرب ليست ضد بطليموس، بل ضد مستشاريه الأشرار، إلاّ أنّ تلك الاحتجاجات لم تلقَ أذناً صاغية.

أراد قيصر إرسال تموين إلى الخطوط الأمامية والتحصينات، لكن مؤامرة ثانية كانت تحاك داخل القصر، حيث كان الجو مشحوناً داخله، وعلى الأقل بين الشقيقين المتحاربين. امتلكت أرسينو معلماً ذكياً بدورها، وقد نجح ذلك الخصي بترتيب أمر هروبها، كما أن انقلابه أوحى بأن كليوباترا كانت إما مهملة (وهو أمر مستبعد تماماً بالنظر إلى الظروف)، وأنها انشغلت بشقيقها وخلاصها، وإما إنها تعرضت لخدعة تتميز بالدهاء؛ كان من المستبعد تماماً أن تستخف بقدرة شقيقتها التي بلغت السابعة عشرة من عمرها. كانت أرسينو تغلي حماسةً، وهي لم تكن من ذلك النوع من الفتيات اللواتي يوحين بالدسائس، بل كان من الواضح أنها لم تكن تثق كثيراً بكليوباترا، وأنها كتمت مشاعرها لأسابيع عديدة(*). أما خارج أسوار القصر، فقد كانت أكثر فصاحة؛ كانت ملكة من البطالسة لا تهاب الأجانب، وهو النوع ذاته الذي يفضّله سكان الإسكندرية الذين أعلنوها ملكةً عليهم، وهكذا نالت كل شقيقة حصتها من التنصيب، واحتشد الناس حولها بأعدادٍ كبيرة. أما أرسينو فقد أعلنت نفسها ملكة إلى جانب أكيلاس الذي كان يقود الجيش. امتلكت كليوباترا داخل غرف القصر أسباباً تدفعها إلى الاعتقاد أنه من الحكمة الوثوق بروماني بدلاً من الوثوق بأحد أفراد

(*) إننا لا نعلم شيئاً عن دوافع أرسينو التي لم تمنع حتى أفضل الشارحين الحديثين لحرب الإسكندرية عن طرح التساؤل التالي: إذا لم تشعر بالغيرة من قدرة شقيقتها الأكبر منها على إغواء قيصر ببراعة، فكيف يمكن اعتبارها امرأة؟

أسرتها. ولم يكن هذا بالأمر الجديد بحلول العام 48 ق.م. وقد ورد على لسان يوريبيديس ما يلي: "صديقٌ مخلصٌ واحدٌ يساوي عشرة آلاف من الأقارب".

اقترح ميثراديتس الكبير، وهو ملك بلاد البنط على البحر الأسود في السنة التي وُلدت فيها كليوباترا إقامة تحالف مع جاره ملك البارثيين(*). وقد ثابر ميثراديتس طوال سنوات على كيل الإهانات وتوجيه الإنذارات إلى روما التي اعتبر أنها تلتهم العالم بصورة منهجية، فقال محذراً إن الخناق بدأ بالاقتراب من بلاده، وإن "القوانين، سواء أكانت الإلهية منها أم السماوية، تعجز عن منعها من الإمساك بالحلفاء والأصدقاء وتدميرهم، وكذلك الأمر بالنسبة إلى القريبين منهم أو البعيدين، وكذلك الضعفاء أو الأقوياء، وتعجز كذلك عن منعها من اعتبار أن كل حكومة لا تخدمها، وعلى الأخص الملكية منها، من عداد الأعداء". ألم يكن من الحكمة التجمّع معاً؟ لم يكن ذلك الملك مستعداً للسير على خطى والد كليوباترا. كان أوليتس "يتجنب المواجهة يوماً إثر يوم عن طريق دفع مبالغ من المال". وقد سخر ميثراديتس من سياسة ذلك الملك المصري الذي يعتبر نفسه ماكراً، لكنه كان في واقع الأمر لا يقوم بشيء سوى تأجيل ما هو حتمي. كان الرومان يقبضون الأموال، لكنهم لم يقدموا أي ضمانات، كما لم يحترموا الملوك، ونقضوا العهود وخانوها؛ حتى تلك التي أعطوا أصدقاءهم إياها. كانوا على استعدادٍ كذلك لتدمير مظاهر الحضارة البشرية، أو للموت خلال هذه العملية. أقدم الرومان خلال العقدين التاليين على البدء في عملية تفكيك أجزاء واسعة من مملكة البطالسة الواسعة، وهي أحداث لا بد من أن كليوباترا قد تابعتها عن كثب؛ وكان البطالسة قد خسروا منذ وقتٍ طويل

(*) بارثيا هي الآن المناطق الشمالية الشرقية من إيران. تمددت الإمبراطورية البنطية من الساحل الجنوبي للبحر الأسود حتى تركيا الحديثة.

كيرينا، وكريت، وقبرص. كانت المملكة التي سترثها أكبر قليلاً من تلك التي نصّب بطليموس نفسه عليها قبل قرنين من الزمان. كانت مصر قد فقدت "سياجها من الدول التابعة"، وهكذا أحاطت بلاد الرومان أراضي تلك المملكة من كل الجهات.

خمّن ميثراديتس، وعن حق، أن مصر تدين باستقلالها المتواصل للتنافس الشائع داخل روما، وليس للذهب الذي يدفعه أوليتس. ونلاحظ، للمفارقة، أن ثروة البلاد منعت الرغبة في ضمّها، وهي المسألة التي أثارها يوليوس قيصر عندما كانت كليوباترا في السابعة من عمرها. فالمصالح المتعارضة أدت إلى إبقاء المناقشات ضمن حدٍّ معين، ولم يرغب أي فريق في السيطرة على مملكة بكل هذا الثراء والمال الذي يُعتبر القاعدة المثالية لقلب أي جمهورية. وقد اعتبر الرومان أن بلاد كليوباترا تبقى مصدر قلقٍ دائم، وذلك على حد ما قاله أحد المؤرخين في العصر الحديث الذي اعتبر أنها: "خسارة إذا دمرت، ومخاطرة إذا ضمّت، ومعضلة إذا حُكمت".

انشغل أوليتس مع روما بخطوات مهينة، وهي الخطوات المذلة التي أثّرت في السنوات المبكرة من عمر ابنته. تطلع الحكام في كل أنحاء البحر المتوسط إلى تلك المدينة من أجل مساندة مطالبهم بالحكم، كما كانت ملاذاً للملوك الذين يجدون أنفسهم في ورطة. وصل بطليموس السادس إلى هناك قبل قرنٍ من الزمان بحالة يرثى لها، وسكن في الطابق العلوي من أحد المنازل. لم يتأخر شقيقه الأصغر، وهو جدُّ جدِّ كليوباترا الذي قطع أوصال ابنه، عن القيام بالرحلة ذاتها. وقد عرض الرجل الجروح التي زعم أن بطليموس السادس تسبب بها في مجلس الشيوخ، ثم طلب الرحمة. ضجر الرومان من مواكب طالبي المساعدة التي لا تنتهي، سواء أكانوا مظلومين أم لا. لكنّ مجلس الشيوخ تسلّم طلبات المساعدة تلك واتخذ بضعة قرارات إلاّ أنه ذهب في إحدى المراحل إلى منع الاستماع إلى تلك الطلبات. لم يكن هناك من داعٍ لتبني سياسة خارجية ثابتة. أما

بالنسبة إلى مسألة مصر المحيّرة، فقد شعر بعض الشيوخ بأنه من الأفضل تحويل تلك البلاد إلى مشروع إسكان لفقراء روما.

عمد أحد أولاد أعمام جدّ كليوباترا في زمنٍ أحدث عهداً وأكثر اضطراباً، إلى ابتكار استراتيجية جديدة تهدف إلى حماية نفسه من شقيقه الذي يتآمر عليه. أوصى بطليموس العاشر بمملكته إلى روما عندما حضرته المنية، وقد بقيت تلك الوصيّة معلقة فوق رأس أوليتس، مثلما كانت مسألة عدم شرعيته، وكذلك عدم شعبيته بين الإغريق من سكان الإسكندرية. كانت قبضته على الحكم ضعيفة، لذلك لم يكن أمامه خيار كبير غير البحث عن دعم في الجهة الأخرى من المتوسط؛ الأمر الذي كلّفه غالياً في أعين الرومان حيث بدا وكأنه يتوسل الرضا، وكذلك كان الأمر في أعين رعاياه الذين لا يحبون رؤية ملكهم راكعاً على أقدام الأجانب. كان أوليتس من المقتنعين بالحكمة التي نشرها والد الإسكندر الكبير: يمكن اقتحام أي قلعة شرط وجود طريق لحمارٍ يحمل ذهباً على ظهره، فوقع الرجل أسير حلقةٍ مفرغة. تطلبت أحمال الذهب تلك من والد كليوباترا فرض ضرائب باهظة على رعاياه، وهو الأمر الذي أثار غضب الشعب نفسه الذي تعب كثيراً لشراء ولائه من روما.

كان أوليتس يعلم جيداً الأمر الذي اكتشفه قيصر مباشرة في العام 48، إذ أدرك أن أفضل أمرٍ يُمكن قوله عن ذلك الشعب هو أنه يتمتع بذكاء حاد. كان حسّ الفكاهة عنده سريعاً ولاذعاً. كان ذلك الشعب يعرف كيف يضحك، وكان يحب المسرحيات كثيراً، وهو الأمر الذي يوحي به وجود أربعمئة مسرح في المدينة. كانت قدرته على الانتقاد لافتة كذلك. تطورت عبقرية هذا الشعب للمرح حتى أصبحت ميلاً إلى حبك المؤامرات، ونزعة لإثارة الشغب. كان يُمكن لأحد زوار المدينة أن يعتبر حياة الإسكندرية "عرضاً مستمراً للمرح، لكن من دون أن يكون ذلك المرح لطيفاً أو هادئاً حتى، لكنه قد يكون وحشياً وقاسياً، ومرحاً صادراً عن مجموعة من

الراقصين، والصافرين، والمجرمين". لم يشعر رعايا كليوباترا بالحرج من التجمع أمام بوابات القصر كي يطرحوا مطالبهم بشكلٍ علني؛ كان التسبب بانفجار لا يتطلب سوى مواد قليلة. واظب الشعب على مدى قرنين من الزمان على خلع البطالسة ونفيهم من البلاد، أو حتى اغتيالهم، وقد فعل ذلك بحريةٍ وشراسة، حتّى إنه أرغم جدة والدة كليوباترا على أن تحكم مع أحد أبنائها في حين حاولت أن تحكم مع ابن آخر، كما طرد هذا الشعب ابن عمّ جدّ كليوباترا، وأقدم كذلك على جرّ بطليموس الحادي عشر من داخل قصره وتقطيعه عضواً عضواً بعد أن قتل زوجته. لم يكن الجيش أفضل من ذلك بالنسبة إلى العقل الروماني. أشار قيصر من على شرفة القصر بالقول: "اعتاد هؤلاء الرجال طلب قتل أصدقاء الملك، وسلب أملاك الأثرياء، ومحاصرة مكان سكن الملك للحصول على أجور أعلى، كما نصّبوا رجالاً على العرش، وأقالوا آخرين". سمع قيصر وكليوباترا معاً أصواتاً مشابهة تصدر من خارج أسوار القصر، وكانت كليوباترا تعلم أنهم لا يكنّون لها أي نوع خاص من التعاطف، كما كانت مشاعرهم تجاه الرومان واضحة بدورها. فقد قتل أحد الرسميين الزائرين هرة، وهي التي كانت تُعتبر مبجّلة في مصر(*)، عن طريق الخطأ عندما كانت كليوباترا بعمر التاسعة أو العاشرة. تجمع حشد غاضب على الفور، لكن ممثل أوليتس حاول استخدام المنطق معهم. كان هذا العمل يُعتبر جريمة إذا قام به أحد المصريين. لكن، ألا يستحق الأجنبي عفواً خاصاً؟ لكن، لم يتمكن ذلك الممثل من حماية الزائر من غضب ذلك الحشد المتعطش إلى الدماء.

ترك أوليتس لابنته قاعدة توازن دقيقة: إن إرضاء جهةٍ ما يؤدي

(*) اعتبر الرومان أن تبجيل المصريين للحيوانات بدائي إلى أقصى الحدود. وقد نظر أحد المؤرخين النصارى من القرن الثاني نظرة أخرى إلى الأمر: الأسياد المصريون كانوا أفضل حالاً من الأسياد الإغريق. اعترف كليمنت الإسكندري بالقول: "يُحتمل ألاّ يُقدِم هؤلاء الأسياد على الزنا، وعلى الفسق، وألاّ يسعى أحدهم وراء مسراتٍ تناقض طبيعتهم".

إلـى إغضـاب جهـة أخـرى، أي إن عدم إطاعة روما سـيؤدي إلى تدخلها، والفشـل في مواجهة روما سـيؤدي إلى أعمال شـغب. (يبدو أن أحداً لم يحـب أوليتـس غيـر كليوباتـرا التـي بقيت وفيةً لذكراه علـى الدوام، وذلك بالرغم من الثمن السياسي الذي دفعته في مصر ثمناً لذلك الوفاء). كانت المخاطر المحدقة متنوعة جدًّا، ويمكن للمرء أن يخسر العرش إذا أرادت رومـا ذلـك، أي مثـل مـا حصـل مع عم كليوباترا الـذي كان ملك قبرص. يُحتمـل كذلـك أن يتعـرّض للتصفيـة، طعناً، أو بالسـم، أو عن طريق النفي خـارج البـلاد، أو بتقطيـع الأوصال، وذلك علـى يد أحد أفراد عائلته. كما يُمكن للمرء أن يُخلع عن العرش على يد حشـود غاضبة ومثيرة للشـغب. (توجـد تنويعـات كثيـرة لهذه الاحتمالات. يُمكن لأحد البطالسـة أن يكون مكروهاً من شـعبه، ومحبوباً من قِبَل الحاشـية، أو يُمكن أن يكون محبوباً من شعبه بينما تخونه أسرته، أو يُحتمل أن يكون مكروهاً من قِبَل اليونانيين الذين يعيشـون في الإسـكندرية ومحبوباً في أوسـاط المواطنين المصريين، أي كمـا كانـت الحـال مـع كليوباتـرا). أمضـى أوليتس عشـرين عاماً وهو يحـاول الحصـول علـى رضـا رومـا، لكنه اكتشـف في النهايـة أنه كان من الأجـدر بـه لـو أنه سـعى وراء هذا الرضا في موطنـه، وفضّل عدم التدخل في قبرص، فكانت ردود فعل رعاياه هي المبادرة إلى محاصرته، ثم خيّروه بيـن مواجهـة الرومـان وبين تخليص شـقيقه، وتلت ذلك حالة من الرعب. ألا تُعتبر هذه خطوة تحذيرية لمصر؟ هرب أوليتس إلى روما حيث أمضى معظم فترة الأعوام الثلاثة التالية وهو يفاوض سعياً وراء عودته إلى العرش. كانـت تلـك السـنوات هي السـنوات التي مثّلت دَيْناً علـى كليوباترا، والتي وقفـت وراء زيـارة قيصـر الحالية. لـم يكن أوليتس موضع ترحيب الجميع في روما، لكن قلائل من الناس - بمن فيهم قيصر وبومبي - كانوا قادرين على مقاومة إغريقي يحمل معه الرّشـى، وقد أعرب كثيرون عن سـرورهم بإقراض أوليتس المال الذي يستطيع بواسطته دفع الرّشى، وهي مبالغ قبلها

بلهفة بالغة، وكان كلما كثُر مقرضوه زاد عدد أولئك الذين يستثمرون في عودته إلى العرش.

كان الشغل اليومي الشاغل في روما معظم أيام العام 57 ق.م، كيفيةَ التعامل مع طلبات الملك. جهد شيشرون، وهو الخطيب المفوه، سراً ولأوقاتٍ طويلة من أجل شرح هذه المسألة الشائكة خطوة خطوة، وهي مسألة "قام بتعقيدها بعض الأفراد، لكن ليس من دون تغاضي الملك ذاته وبعض مستشاريه"، وقد وصلت المسألة إلى طريق مسدود لبعض الوقت. كان يُمكن لأوليتس أن يُذكر في التاريخ على أنه مسرفٌ ومجرد دمية، لكنه اشتُهر في روما بإصراره وقدرته على التفاوض، وهو الأمر الذي أثار استياء مضيفيه. فقد قام أوليتس بملء أجواء الفوروم، ومجلس الشيوخ بالمنشورات، كما وزّع على داعميه عربات مغطاة بمظلات يمكن للمرء أن يتنقل فيها عبر المدينة براحة تامة. زاد الوضع تعقيداً بسبب منافسيه من السياسيين الذين سعوا وراء المكافآت مقابل مساعدته، وهكذا تحولت عملية إعادته إلى العرش إلى خطة للإثراء السريع. اشتكى شيشرون في شهر كانون الثاني من العام 56 ق.م "بأن هذه المسألة قد اكتسبت سمعةً سيئة جداً"، فتسبّبت مناقشة هذه المسألة في مجلس الشيوخ بالصراخ، والتدافع، والتلفظ بكلمات نابية. ازدادت المسألة دقة مع مرور الأيام، وظهر ضالع من أجل منع بومبي، أو أي فردٍ آخر، من تقديم المساعدة إلى أوليتس، محذّراً من أنه لا يمكن لجيش روما أن يعيد الملك المصري إلى عرشه، وهو أمرٌ مرفوض من \الأسياد بكل وضوح. قبِل مجلس الشيوخ هذه الذريعة، لكن شيشرون قال: "لم يكن ذلك بسبب الدّين، بل بسبب النية السيئة وبسبب الكراهية التي أثارتها الهبات الملكية".

حصلت كليوباترا المراهِقة على درسٍ ضروري آخر من مغامرة أوليتس في الخارج. ولم يمرّ وقت طويل على مغادرة أوليتس البلاد حتى سارعت ابنته الكبرى، وهي بيرنيس الرابعة إلى الاستيلاء على العرش. كانت شعبية

أوليتس متدنية إلى درجة أن سكان الإسكندرية شعروا بالسرور لأنهم سوف يستبدلونه بفتاةٍ في عمر المراهقة. تمتعت بيرنيس بدعم السكان المحليين، لكنها عانت مشكلة الشريك المناسب، وهي المشكلة التي ماثلت المأزق الذي وقعت فيه كليوباترا، لكنها عالجته بطريقة مختلفة. أرادت بيرنيس الحصول على شريك وصي على العرش حيث يمكنها الزواج منه، وكان ذلك مطلباً صعباً، لأن الشركاء المقدونيين من اليونانيين النبلاء والمناسبين كانوا قلائل. (صدر قرارٌ، لسببٍ ما، يقضي بأن تتغاضى عن أشقائها الذين يصغرونها سناً، والذين كانوا مؤهلين ليصبحوا ملوكاً). اختار لها الشعب أميراً من السلوقيين، لكن بيرنيس اعتبرته بغيضاً، فشُنِق الأمير في غضون أيام قليلة من الزواج. أما المرشح التالي فكان كاهناً بنطيًّا يمتلك مؤهلَين هامَّين: كان عدائياً تجاه روما، ويبدو كرجلٍ نبيل. تسلم الرجل مهامه كوصي مساعد على العرش في ربيع العام 56، واستطاع القيام بمهمته بطريقة مرضية. أرسل سكان الإسكندرية في هذا الوقت وفداً مكوناً من مئة رجل إلى روما، وذلك بهدف تقديم اعتراض على قسوة أوليتس ومنع عودته، فأقدم هذا الأخير على تسميم رئيس هذا الوفد، وأمر بقتل البقية أو رشوتهم، وهرب بعضهم من المدينة، وذلك قبل تمكُّن الوفد من عرض قضيته. لم يُفتح تحقيق بهذه المجزرة التي يبدو أن بومبي كان متواطئاً فيها، كما يبدو أن ذلك كان متعمداً وذلك تقديراً للكرم الذي أبداه أوليتس.

أرجعت جحافل الرومان أوليتس إلى مصر في العام 55، لكن الجنود لم يكونوا مسرورين بهذه المهمة المريبة، وعلى الأخص لأنها تضمنت زحفاً عبر صحراء حارقة، وسيراً مجهداً على رمالٍ متحركة، وعبر البحيرات التي تفوح منها الروائح الكريهة قبل الوصول إلى بيلوسيوم. وافق أولوس غابينيوس، وهو الحاكم السوري الذي تمتع بحماية بومبي، على قيادة هذه المهمة، وإن فعل ذلك على مضض، إما بناءً على أسباب مقبولة - كان يخشى حكومة يرأسها زوج بيرنيس الجديد - وإما مقابل رشوة تعادل

مدخول مصر السنوي، وإما بسبب إلحاح من القائد الشاب الطموح الذي يحتفظ أوليتس بنفوذٍ كبير عليه. كان ذلك القائد شاباً أشعث الشعر يدعى مارك أنطونيو، وهو الذي سيترك في ما بعد اسماً لامعاً أمكنه استثماره. حارب الشاب بشجاعة كبيرة، كما حثّ أوليتس على العفو عن الجنود المتمردين والمتواجدين على الجبهة المصرية. أقدم الملك على تصرف يدل على طيش وعدم فعالية، فأمر "وسط غضبه وغيظه" بإعدام أولئك الرجال. أما غابينيوس فقد احترم كلام الضالع بدقةٍ شديدة، ورتّب الأمر لأوليتس حيث يسير بأمان خلف المعارك الحقيقية، وهكذا لا يعود من الممكن القول إن الجيش هو الذي أعاده إلى العرش. عاد الملك المصري على أيّ حال إلى القصر بمساعدة جحافل الرومان الأولى التي وطئت أقدامها أرض الإسكندرية.

لا نمتلك أخباراً وافية عن لقاء أوليتس مع عائلته، لكننا نعرف أنه أعدم بيرنيس. كما ظهر انتقامه في البلاط أيضاً حيث خفض رتَب الحاشية، وصادر الثروات في هذا السياق، إضافةً إلى إقدامه على تغييرات في أوساط الرتب العالية، ثم إعادة تنظيم الجيش الذي وقف ضدّه. أقدم كذلك على منح الجنود الذين تركهم غابينيوس وراءه، والذين نقلوا ولاءهم إلى مصر الأراضي ومعاشاتِ التقاعد. عاد ذلك الحمار المحمّل ذهباً إلى لعب دوره مجدداً، وهو الذي أدى خدمة إلى ذلك الملك البطلمي تفوق تلك التي أداها قائد روماني. لاحظ قيصر في وقتٍ لاحق أن أولئك الجنود "تعودوا على الطرائق الفوضوية التي تميّز حياة الإسكندرية، كما نسوا سمعة الرومان وسلوكهم المنظم". وهذا ما فعله الجنود بسرعة مذهلة. تعرّف بومبي في لحظاته الأخيرة إلى أحد قدامى الجنود الرومان من بين قاتليه.

كان لقاء أوليتس مع ابنته الثانية ذا طبيعة مختلفة، فقد تحولت كليوباترا التي كانت في الثالثة عشرة من عمرها إلى الوريثة الأولى للعرش، وذلك بالنظر إلى طموحات شقيقتها. استوعبت كليوباترا الشيء

الكثير بالترافق مع التدريب الذي تلقته على الخطابة، والبلاغة، والفلسفة. ويُمكننا القول إنها أتمّت تثقيفها السياسي في العام 56، وهكذا تمكنت من الاستفادة كثيراً من هذه الفترة بعد عقدٍ من الزمان. كان أمراً حسناً أن يكون المرء فرعوناً، لكن الأفضل من ذلك هو أن يكون صديقاً لروما وحليفاً لها. لم تكن المسألة في كيفية مقاومة تلك السلطة - أي كما فعل ميثراديتس الذي شغل نفسه باستفزاز الرومان، وتحدّيهم، وقتالهم - لكن في استغلالها. كانت سياسة الرومان، ولحسن الحظ، شخصية للغاية، وذلك نظراً إلى تضارب طموحات أعضاء مجلس الشيوخ التي لا تعرف حداً. كان من السهل، مع بعض الذكاء، وضع اللاعبين الأساسيين في مواجهة بعضهم بعضاً. أضافت كليوباترا إلى التعليم الذي تلقته باكراً في مظاهر الأبهة بعداً آخر من الدرجة الأولى على فنون الدسائس. وتواجدت في القصر بينما كانت القوات المصرية تحاصر والدها بعد عودته، ومن ثمّ استخدمت بحلول العام 48 ق.م دليلاً كان أوليتس قد أعطاها إياه في وقتٍ سابق، وفعلت ذلك للمرة الثانية من قصرها المحاصر. كان تحالفها مع قيصر مشابهاً لتحالف والدها مع بومبي، لكن مع وجود فارق كبير ألا وهو تمكّنها في غضون أيامٍ قليلة من تحقيق أمور استغرق والدها ما يزيد على العقدين من الزمن لتحقيقها.

مات أوليتس ميتةً طبيعية بعد مضي خمس سنواتٍ على عودته. كان في منتصف العقد السادس من عمره، ولهذا امتلك وقتاً كافياً لترتيب مسألة وراثة العرش. يُحتمل أن تكون كبرى بناته الباقيات على قيد الحياة، أي كليوباترا، قد تمكنت في أشهره الأخيرة من مساعدته على إدارة شؤون الحكم ولو لفترة وجيزة. كانت واثقة تماماً من أنها تلقت تدريباً فعالاً على الحكم؛ وهو الأمر الذي لا ينطبق على عدد كبير من أسلافها بمن فيهم أوليتس ذاته الذي أقلع عن التقاليد حين ترك العرش في عهدة شقيقين، وهو الأمر الذي يشير إلى أن كليوباترا أظهرت نبوغاً استثنائياً في عمرٍ مبكر

حيث إن أوليتس شعر بأنه لن يتسبب بصراع على السلطة إذا عيّن الاثنين معاً، أو لربما اعتقد أنه لا يمكن الفصل بين كليوباترا وبطليموس الثالث عشر، لكن ذلك كان أبعد ما يكون عن الحقيقة. أما الأقرب إلى الواقع فهو كون الوالد والابنة قريبين جداً من بعضهما بعضاً. قطعت كليوباترا شوطاً بعيداً عندما أضافت عبارة "المحِبة لوالدها" إلى لقبها، وهو اللقب الذي احتفظت به بالرغم من تغيير قرينها. كان أول أعمالها تأمين ترتيبات جنازة والدها؛ وهي الترتيبات التي تضمنت حفلاً مطولاً مليئاً بالبخور والمراهم، وتخلله تقديم القرابين، وعلت خلاله أصوات العويل. تقدمت كليوباترا في عمر الثامنة عشرة لتتسلم مهام الملكة بكل حيوية وسرعة.

امتلكت فرصة اعتناق حكمة والدها على الفور تقريباً، وهو الذي حرص فور عودته إلى مصر على تقديم قرابين التكريم للأسياد المحليين في القرى الصغيرة، وفي مراكز العبادة، وقد فعل ذلك كي يضمن ولاء السكان المصريين. كان المصريون يبجّلون فراعنتهم بقدر كثرة المطالب التي قدّمها له سكان الإسكندرية الذين يصعب عليهم الانقياد. كما اعتاد البطالسة الأذكياء على تخصيص الهياكل للأسياد المصريين، وعلى تبني مذاهبهم. وقد احتاجت كليوباترا إلى دعم سكان الإسكندرية، وإلى قواهم العاملة. مات ثور بوخيس Buchis bull قبل تنصيبها بوقتٍ طويل؛ كان ذلك الثور واحداً من عدة ثيران مبجّلة، لكنه كان مقرباً جداً من سيدّيَ الشمس والحرب، وكثُر أتباعه قرب طيبة في مصر العليا. انتشر تبجيل هذا الثور كثيراً، وكان يتنقل بواسطة مركب خاص برفقة أتباعه المخلصين والدائمين، وكان يظهر في المناسبات العامة مع الذهب والأحجار الكريمة. كانوا يضعون شبكة حول وجهه كي تحميه من الذباب. عاش نحو عشرين سنة، وعندها استُبدل بعناية بخليفة له يحمل العلامات الفريدة التي يحملها الحيوان المبجّل، أي الجسد الأبيض والرأس الأسود. انتهزت كليوباترا الفرصة، وكان ذلك بعد مرور أسابيع على موت أوليتس من أجل زيادة

المؤيدين لها. وبدا أنها أبحرت بأزيائها الرسمية الكاملة مع الأسطول الملكي لمسافة ستمئة ميل أعلى النهر في طريقها إلى طيبة، وهكذا تقدمت موكباً عائماً كبيراً. تجمّع جميع كهنة مصر لمشاهدة هذه المناسبة بالغة الأهمية التي تُعقد عندما يصبح القمر بدراً، وشقّت الملكة، وسيدة البلدين، والسيدة التي تحب والدها طريقها عبر النهر مع الثور الجديد من أجل تنصيبه على الضفة الغربية للنيل فحصدت بذلك تأييداً واسعاً وقوياً بشكل غير معتاد من المواطنين المصريين. أما داخل الهيكل، وبين حشدٍ من الرسميين والكهنة الذين يرتدون عباءات بيضاء، فقد ترأست كليوباترا احتفالات تنصيب الثور. كانت المنطقة مألوفة لديها ومستعدة لاستقبالها تماماً، وذلك لأنها استقبلتها في العام 49 ق.م، أي عندما كانت هاربة تبحث عن ملاذٍ لها.

أقحمت كليوباترا نفسها عدة مرات في السنوات المبكرة لحكمها في تلك العبادة المحلية، كما قدّمت المساعدة لدفن أهم العجول المبجّلة؛ أي تلك التي تتواجد في ممفيس. وساهمت كذلك في دفع تكاليف تبجيله، والتي كانت باهظة جداً، وقدّمت كميات سخية من الشراب، والفاصولياء، والخبز، والزيت للقائمين على شؤون الهيكل الذي يأويه. لم يكن هناك شك في أن مظاهر البذخ، والظهور غير المعتاد لأحد البطالسة، قد أعطت تأثيرها: عندما كانت كليوباترا تجتاز طريقها الملكي الذي تصطف من حوله تماثيل تشبه "أبو الهول"، وتتجه في العام 51 ق.م نحو الهيكل المطلي بسخاء، كان الجميع يشاهدونها. حصلنا على هذا الوصف من أحد الأسطر المكتوبة بالهيروغليفية، وهي لغة رسمية تحمل هدفاً سياسياً محدداً، والذي وصل إلى حد أنه تجسيد "للتفاخر الدائم". أظهرت كليوباترا طموحاتها حتى في سنتها الأولى من الحكم، وقد غاب اسم شقيقها عن الوثائق الرسمية حيث كان يجب أن يظهر في مركزٍ أرفع من كليوباترا. كما نلاحظ أيضاً أنه لا يظهر حتى على العملات المعدنية التي سكّتها، بل أظهرت

صورتها وحدها. تُعتبر العملة النقدية نوعاً من أنواع اللغة، بل إنها الوحيدة التـي تتحـدث إلينـا بصوتها ومـن دون مترجمين من الرومان. هكذا أرادت الملكة تقديم نفسها إلى رعاياها.

كانت كليوباترا أقل براعة في استيعاب درس بيرنيس، لكن بوثينوس، وأكيلاس، وثيودوتس كانوا يمتلكون قدراً من الود تجاه هذه المبتدئة التي تتخذ قراراتها بكل استقلالية، والتي صممت على أن تحكم وحدها. كان النيل حليفاً هائلاً، لكنه رفض التعاون مع الملكة الجديدة، إذ كان الوضع في البلاد يعتمد كلياً على ارتفاع المد، وذلك لأن الجفاف هدّد مخزونات المـواد الغذائيـة، والأمـن الاجتماعي في الوقت ذاته. كان فيضان العام 51 ق.م ضعيفـاً، لكـن الـذي حـدث فـي الصيـف التالـي كان أفضـل بقليـل. اشتكى الكهنة من النقص في المواد التي يحتاجون إليها لإقامة شعائرهم، وفرغـت البلـدات بسـبب نـزوح القروييـن الجائعين إلى الإسـكندرية، كما انتشـر اللصـوص فـي أنحـاء البـلاد. ازدادت الأسـعار زيـادة كبيـرة، كمـا شاعت مظاهر الإحباط. وفي تشرين الأول من العام 50 أي عندما طُبقت الإجـراءات الصارمـة ظهر شـقيق كليوباترا على مسـرح الأحـداث. أصدر الزوجـان الملكيـان فـي نهايـة ذلك الشـهر مرسـوماً للطـوارئ. إذ ورد في المرسـوم أمرٌ بتوجيه الحنطة والفواكه المجففة من الأرياف إلى الشـمال. كان سكان الإسكندرية الجائعون أشد خطراً من الريفيين الجائعين، وهكذا كان إرضاؤهـم فـي صالـح الجميـع. تعـزّز المرسـوم بالطريقـة التي أثبتت جدارتهـا عبـر الزمـن: كان الذيـن يخرقون هذا المرسـوم يتعرضون لعقوبة الإعدام، وقد شجّع المرسوم الإدانات العلنية، كما نال المخبرون مكافآتٍ سـخية. (كان الرجل الحر يحصل على ثلث ممتلكات الجهة المذنبة، أما العبد فكان يحصل على السدس، وذلك بالإضافة إلى نيله حريته)، عرض بطليمـوس الثالـث عشـر وكليوباتـرا تقديـم حوافـز إلى الذيـن تخلفوا عن حراثـة الأرض وزراعتهـا؛ يبـدو أن بعض أعمال القمع أو بعض الإكراه قد

حدث في القصر. يُحتمل أن الشقيقين كانا يعملان لخير البلاد، أو أن بطليموس كان يحاول الإساءة لشقيقته، فجوّع مؤيديها لصالح مؤيديه، مع أن الشقيقين أصدرا مرسوم الطوارئ معاً، لكن اسم كليوباترا ظهر مجدداً.

تواجدت كليوباترا وسط أرضٍ مليئة بالخديعة والدسائس، وهكذا وقعت مرتين على مدى السنة التالية ضحية الفخ الذي ابتلع والدها. وصل ابنا الحاكم الروماني في سوريا في نهاية شهر حزيران إلى الإسكندرية، وذلك بهدف إقناع الجنود الذين أعادوا أوليتس إلى عرشه بالعودة إلى صفوف الجيش، إذ كانت روما تحتاج إليهم في مكانٍ آخر، لكن، لم تكن هناك مصلحة للجنود بمغادرة مصر حيث تلقوا مكافآت سخية لقاء خدمتهم، وحيث أسّس عدد كبير منهم أسراً لهم، فرفض الجنود الدعوة بشدة ووصلت إلى حد قتل ابنَي الحاكم. كان بإمكان كليوباترا أن تقيم العدالة بنفسها لكنها فضّلت بدلاً من ذلك أن تضمن ود روما عن طريق أمر يليق بالعروض المسرحية الضخمة: عمدت الملكة إلى إرسال القَتَلة إلى سوريا وهم مكبلون بالسلاسل، وهي خطوة كانت تعرف أنها ستكلفها دعم الجيش. تابعت الملكة الرد على مظاهر الضعف في المملكة بهذه الطريقة. كانت طلبات الرومان بالحصول على دعم عسكري شائعة في الإسكندرية بمثل كثرة طلبات التدخل في شؤون وراثة العرش التي تتلقاها روما، ولم تكن تلك الطلبات تلقى التجاوب على الدوام، وذلك بالرغم من أن أوليتس حاز على تأييد بومبي في البداية عن طريق تزويده بالجنود. بعث ابن بومبي بطلب مماثل إلى كليوباترا في العام 49 ق.م طالباً مساعدتها في الحملة التي يقودها والده ضد قيصر، فما كان منها إلاّ أن سارعت إلى تقديم الحنطة والجنود والأسطول البحري. حدث كل ذلك في أوقات كانت البلاد فيها تمر بصعوبات زراعية مريعة؛ كان ذلك الوضع بمثابة قبرص الخاصة بها. وهكذا اختفى اسمها من الوثائق الرسمية في

غضون أشـهر، كما هربت خوفاً على حياتها لتسـتقر في الصحراء السـورية مع مجموعة من الرجال المرتزقة الذين جندتهم.

انتقـل قيصـر بعـد وقتٍ قصير من وصول كليوباترا في شـهر تشـرين الأول مـن العـام 48 ق.م. مـن المنـزل الـذي كان يقيم فيه، والذي يتواجد فوق المنطقة الملكية إلى القصر ذاته، وكان كل جيل من البطالسة يضيف شـيئاً إلـى هـذا المجمّـع الواسـع، والـذي كان مهيبـاً في تصميمـه كما في المواد المستخدمة فيه. تعني كلمة فرعون في اللغة المصرية القديمة "البيت الأعظم"، كما أن البطالسة أجادوا في هذا المجال كثيراً، وذلك لأن القصر اشتمل على أكثر من مئة غرفة للضيوف. نظر قيصر إلى الأرض الخضراء التي تتخللها البرك والتماثيل وأجنحة الضيوف، ورأى ممراً مقبباً يؤدي من مجمّع القصر إلى المسرح الملحق به، وهو المسرح الذي يقع على أرضٍ أكثـر ارتفاعـاً. لـم يعـر أي من الملوك الهيلنسـتيين الآخريـن مظاهر البذخ أهمية أكثر من البطالسة، وهم الذين كانوا أبرز مستوردي السجاد الفارسي، والعـاج، والذهـب، وأصداف السـلاحف، وجلود النمـور. كانت كل قطعةٍ تصلح للزخرفة بالعقيق، أو بالزبرجد، أو بالألوان الشمعية المثبتة بالحرارة، أو بالفسيفساء اللامعة، أو بالذهب. فألواح السقوف كانت مرصعةً بالعقيق والأحجار الكريمة، أما الأبواب المصنوعة من خشب الأرز فكانت مرصعة بالأحجـار الكريمـة، فـي حيـن أن البوابـات كانت مثقلـة بالذهب والفضة. كانت العواصم الكورينثية تتلألأ بالعاج والذهب، أما قصر كليوباترا فكان يتفاخر بأكبر كمية من المواد الثمينة المعروفة في ذلك الزمن.

كانـت كليوباتـرا وقيصـر يتمتعـان بمظاهـر الراحـة، هـذا إذا جاز لنا اسـتخدام هـذا التعبيـر عندمـا يكون المرء تحت الحصـار. لم تكن أدوات المائـدة الثمينـة، أو قطـع الأثـاث الفاخـر الموجـود في ملجئهمـا المؤقت كافيـة لحجـب حقيقـة أن كليوباتـرا، التي كانت وحيدة عمليـاً في المدينة،

تتلهف كي يُقحم أحد الرومان نفسه في الشؤون المصرية. كانت أصوات الضجيج، وكلمات الاستهزاء، والشجارات التي تتصاعد في الخارج، كافية بحد ذاتها. لكن العراك الأشد كان ذلك الذي حدث في الميناء، وهو المكان الذي حاول سكان الإسكندرية محاصرته. نجح السكان في إضرام النار في عدة مراكب رومانية، يُضاف إلى ذلك أن الأسطول الذي أعارته إلى بومبي قد عاد. تنافس الفريقان على السيطرة على المراكب الخمسين، وهي المراكب الكبيرة التي يمتلك الواحد منها أربعة أو خمسة صفوف من البحارة المجذفين. لم يكن بإمكان قيصر السماح بوقوع هذه المراكب في يد الأعداء، هذا إذا كان يتوقع رؤية إمدادات أو تعزيزات تصل إليه، وهذا هو السبب الذي دفعه إلى إرسال نداءات في كل اتجاه. لم يكن يأمل بتزويد هذه المراكب بالرجال، إذ كان خصومه يفوقونه عدداً، كما أن مكان وجوده لم يكن مناسباً، وبسبب هذا كلّه، أقدم قيصر في لحظة يأس على إضرام النار في المراكب الراسية. كان من الصعب تخيّل ردة فعل كليوباترا عندما رأت ألسنة النيران تنتشر إلى الحبال وفوق ظهور المراكب. لم يكن بمقدورها تجنب سحب الدخان المتغلغلة، والتي حملت معها رائحة عفونة الخشب. انتشرت هذه السحب فوق حدائقها وأضاءت ألسنة اللهب أرجاء القصر كافة الذي ظل يحترق طوال الليل. كانت هذه نيران ورشة بناء المراكب الكبيرة التي كان من الممكن أن تصل إلى قسم من مكتبة الإسكندرية. لم تتمكن كليوباترا كذلك من تجنب مشاهدة المعركة المحتدمة التي سبقت الحريق، وهي المعركة التي شاهدتها المدينة بأكملها: "لم يبقَ إنسان في الإسكندرية، سواء أكان رومانياً أم من المواطنين - لكن باستثناء الأشخاص المنهمكين في أعمال التحصين أو في القتال - لم يصعد إلى الأماكن العالية ليأخذ مكانه لرؤية هذه المشاهد من نقطة مشرفة، ويدعو بالنصر للجهة التي يدعمها من الأسياد الخالدين". تسلّق رجال قيصر منارة فاروس وسط الصيحات والاضطرابات التي اختلطت مع

بعضها، وذلك من أجل احتلال تلك المنارة العظيمة، إذ سمح لهم قيصر ببعض أعمال النهب، ثم ركز حامية في تلك الجزيرة الصخرية.

كتب قيصر بعد وقتٍ قصير من وصول كليوباترا الصفحات الأخيرة للكتاب الذي نعرفه اليوم باسم الحرب الأهلية، وقد ذكر فيه الأحداث وقت حدوثها تقريباً. قيل إنه توقف عن كتابة هذه الأحداث - مع خيانة أرسينو ومقتل بوثينوس - وذلك لأسباب أدبية أو سياسية. كان من الصعب على قيصر التحدث عن جمهورية غربية في قصرٍ شرقي، فوصل إلى هذا المفصل من قصته، ممسكاً زمام المبادرة لفترة وجيزة. يُحتمل كذلك أنه قد اكتشف في ذلك الوقت أنه يمتلك وقتاً أقل للكتابة، هذا إذا لم يكن مبهوراً. كان رجلاً اشتهر بقدرته على إملاء الرسائل من مقعده في المدرّج، وبقدرته على كتابة نصٍّ حول اللاتينية في أثناء رحلته من الغال - فرنسا اليوم - وكتابة قصيدة شعرية طويلة وهو في طريقه إلى إسبانيا. أدى قتل الخصي بوثينوس إلى تجميع صفوف المعارضة التي كانت تضم نساء المدينة وأطفالها، ولم تكن المعارضة بحاجةٍ إلى الفخاخ القصبيّة أو المدقّات(*)، بل كان أفرادها مرتاحين لامتلاكهم المقاليع والأحجار. تلونت جدران القصر بالرذاذ الذي أحدثته مقذوفات يدوية الصنع، كما تفجرت المعارك ليلاً ونهاراً، وامتلأت الإسكندرية بتعزيزات جديدة من الرجال المتحمسين، وبأكواخ الحصار، وبالمنجنيقات من الأحجام كافة. كما ارتفعت في أنحاء المدينة التحصينات والمتاريس الحجرية التي يبلغ عرضها ثلاثة أحجار، ويصل ارتفاعها إلى نحو أربعين قدماً، وبذلك، تحوّلت المدينة إلى معسكر مسلّح.

راقب قيصر من القصر الأمور التي وضعت الإسكندرية على الخارطة، وهي التي جعلت من حكمها أمراً صعباً: الذكاء الذي لا حدّ له الذي يميّز سكانها. راقب رجال قيصر هذه المشاهد بدهشة كبيرة، وحتى

(*) المدق: هو سلاح استخدم في معارك العصور الوسطى لتحطيم بوابات الحصون.

مع بعض الاستياء، وذلك لأن الابتكار من اختصاص الرومان وحدهم. شيّد الإسكندرانيون أبراج هجوم مدولبة من عشر طبقات، وتقدمت حيوانات الجرّ هذه الأبراج العملاقة عبر شوارع المدينة المستقيمة والمرصوفة. دُهش الرومان لأمرين بشكلٍ خاص: أولهما، أنه يُمكن إنجاز أي شيء بسرعة أكبر في الإسكندرية. وثانيهما، أن سكانها مقلّدون أذكياء من الدرجة الأولى، إذ قلّد هؤلاء بمهارةٍ أكبر ما قام به رجال قيصر مرة بعد أخرى. قال عنهم أحد قادة الرومان في ما بعد: "كانوا ينفذون كل ما رأونا نقوم به بمهارة، حيث بدا الأمر وكأن جنودنا هم الذي يقلّدون أعمالهم". كان العنفوان القومي في خطر عند الفريقين، وعلى المحك. نازل قيصر البحارة الإسكندرانيين في معركة بحرية وألحق بهم الهزيمة، لكنهم ما لبثوا أن سارعوا إلى بناء أسطولٍ خاصٍّ بهم. تواجد عدد من السفن القديمة في حوض بناء السفن الملكية السري، وهي سفن لم تعد صالحة للملاحة. انتُزعت لهذا الغرض صفوف من الأعمدة الخشبية التي تسند سقوف الغرف المخصصة للتمارين الرياضية، بينما تحولت العوارض الخشبية إلى مجاذيف، وما من تفسير لحدوث ذلك. ظهر في غضون أيام اثنان وعشرون مركباً ذات أربعة صفوف للتجذيف وخمسة مراكب ذات خمسة صفوف للتجذيف، وذلك إلى جانب عدد من المراكب الأصغر المليئة بالجنود الجاهزين للقتال. تمكّن المصريون، وفي غضون ليلة واحدة تقريباً من تجميع أسطولٍ بحري يبلغ حجمه ضعف حجم أسطول قيصر(*).

تحدث الرومان تكراراً عن الصفتين الملازمتين للإسكندرانيين، أي الخداع والخيانة، وهما الصفتان اللتان تستحقان الثناء وسط معمعة النزاع المسلّح. بدا الأمر وكأن غانيميديس، وهو معلم أرسينو السابق،

(*) قلل الرومان في ما بعد من أهمية الأمر. فكتب ديو بعد مرور قرون أن الإسكندرانيين كانوا "مستعدين لإقامة جبهة بكل جرأة وفي كل مكان، وكانوا قادرين على التلفظ بكل ما يخطر على بالهم، لكنهم كانوا غير نافعين مطلقاً في أوقات الحروب وأهوالها".

والقائد الجديد للبحرية الملكية، أراد إثبات هذه الفرضية عندما أمر رجاله بحفر آبارٍ عميقة. أقدم الرجال بعد ذلك على تجفيف أقنية المدينة الموجودة تحت الأرض، ثم ضخّوا مياه البحر إليها. تحولت مياه القصر بعد ذلك إلى مياه عكرةٍ غير صالحة للشرب. (يُحتمل، أو لا يُحتمل، أن غانيميديس قد علم أن هذه حيلة قديمة سبق لقيصر أن اعتمدها وأزعج بومبي بطريقة مشابهة). شعر الرومان بالهلع، وتساءلوا إن كان من الأفضل لهم لو انسحبوا على الفور، لكن قيصر هدّأ من روع رجاله وقال لهم: إن المياه العذبة ليست بعيدة عنهم، لأنه لا بد من أن تكون بعض تياراتٍ من هذه المياه تسير قرب البحار. كان أحد تيارات المياه هذه يقع خارج جدران القصر مباشرة. لم يكن الانسحاب خياراً مقبولاً، إذ عجز الجنود عن الوصول إلى مراكبهم من دون أن يقتلهم الإسكندرانيون، ولذلك أمر قيصر رجاله بالحفر طيلة الليل. كان قيصر محقًّا في هذا الأمر، لأن رجاله عثروا على المياه بسرعة. كان من الصحيح، في المقابل، القول إن الإسكندرانيين امتلكوا ذكاءً كبيراً وموارد كثيرة بالإضافة إلى أقوى الدوافع: كان استقلالهم على المحك. كانوا يحتفظون بذكريات غير إيجابية عن غابينيوس، وهو القائد الذي أعاد أوليتس إلى عرشه. وسيعني عجزهم عن طرد قيصر أن بلادهم سوف تصبح مقاطعة رومانية، ولم يستطع قيصر إلا تذكير رجاله بأنه يتعيّن عليهم القتال بحماسة كبيرة.

ألفى قيصر نفسه في موقع الدفاع، ولعل ذلك سبب آخر يدفعنا إلى ترجيح أن تكون رواية حرب الإسكندرية التي تحمل اسمه قد كتبها ضابط آخر رفيع المستوى، وأنه فعل ذلك استناداً إلى أحاديث جرت بعد الحرب. تمكّن قيصر من السيطرة على القصر والمنارة في الشرق، لكن أكيلاس، وهو قائد بطليموس، تمكن من السيطرة على بقية المدينة، وعلى كل موقعٍ مشرف. داوم رجال ذلك القائد على اعتراض قوافل التموين الرومانية، وكانت الصراعات التي كانت تجري في صفوف الإسكندرانيين من حسن

حظ قيصر، وهي الصراعات التي كانت بقوة العبقرية التي تمتعوا بها. كما تجادل معلم أرسينو مع أكيلاس الذي اتهمه بالخيانة. وتتالت المؤامرات الواحدة بعد الأخرى؛ الأمر الذي أثار ارتياح الجنود الذين تبادلوا تلقي الرّشى السخية. أقنعت أرسينو في النهاية معلّمها بقتل أكيلاس المريع. وكانت كليوباترا تعرف حق المعرفة الأمور التي اقترفتها شقيقتها بيرنيس في غياب والدهما؛ لقد أخطأت بيرنيس خطأً فادحاً عندما فشلت في منع هرب أرسينو.

على أي حال، تبيّن أن أرسينو وغانيميديس لا يحظيان بشعبية كبيرة بين الناس، وقد أوضح الإسكندرانيون هذا الأمر عندما وصلت التعزيزات، وعندما شعر قيصر بأن الحرب قد تحولت لصالحه، وذلك بالرغم من اضطراره إلى السباحة في الميناء، وهي العملية التي تكبد خلالها خسائر كبيرة بين رجاله. وصل وفد من الإسكندرانيين إلى القصر بعد وقت قصير من حلول ذكرى ميلاد كليوباترا الثانية والعشرين، وقام أعضاء الوفد بالضغط لإطلاق سراح بطليموس الشاب. وقد سبق للمواطنين في الإسكندرية أن حاولوا تحرير ملكهم، لكنهم لم ينجحوا في مسعاهم هذا. ادعى أعضاء الوفد أنه لا شأن لهم مع شقيقته، وأنهم يطلبون السلام. قالوا إنهم يحتاجون إلى بطليموس من أجل استشارته حول شروط تطبيق الهدنة. تصرّف بطليموس بطريقة هادئة طيلة وجوده تحت حماية قيصر، كما أنه لم يُظهر أي انطباع يدل على وجود العزم أو روح القيادة، وذلك بالرغم من أن التجهم كان جزءاً من طبيعته. رأى قيصر بعض الفوائد التي ستنتج عن إطلاق سراحه، لأنه إذا فكّر الإسكندرانيون في الاستسلام، فسيكون مضطراً إلى الاستغناء عن هذا الملك غريب الأطوار، كما كان من الواضح أن بطليموس لن يحكم مجدداً إلى جانب شقيقته. فامتلك قيصر بغيابه سبباً أفضل يمكّنه من تسليم الإسكندرانيين إلى كليوباترا. أما إذا أراد بطليموس متابعة القتال، فإن الرومان سيخوضون حرباً شريفةً أكثر لأنها "ضد ملك

بـدلاً مـن أن تكـون ضد عصابة من اللاجئين والعبيد الهاربين"، لكن ليس من الواضح لدينا إن كان قيصر صاحب هذا المنطق، أم إنه نُسب إليه في وقتٍ لاحق.

جلس قيصر كي يتحدّث بحسـب الأصول إلى شـقيق كليوباترا الذي يبلـغ الثالثـة عشـرة من عمره، فحثّه على "التفكيـر في مملكة أجداده، وأن يرأف بوطنه الذي يمتلك تاريخاً مجيداً؛ تاريخاً تعرض للتشويه بما تسببت به النيران وآثار الخراب، وأن يبدأ بإعادة شعبه إلى صوابه ثم إنقاذه. دعاه كذلك إلى الوثوق بالشـعب الروماني وبه، وهو قيصر الذي بلغت ثقته به حـدّ إرسـاله كـي ينضـم إلى أعدائه المسـلحين". وبعد ذلك، سـمح قيصر لذلك الشاب بالمغادرة. لم يتقدم بطليموس خطوة واحدة كي يغادر، لكنه أجهش بالبكاء وسـالت دموعه، ثم توسّـل إلى قيصر كي لا يبعده، واعتبر أن صداقته لقيصر تسـاوي الكثير بالنسـبة إليه، وحتى إنها أهم من عرشـه. تأثـر قيصـر بهـذه العاطفة، وسـالت الدموع من عينيه هـو الآخر، لكنه أكد لـه أنهمـا سـوف يلتقيـان بعد وقتٍ قصير. مضى بطليموس الشـاب ليواجه الحـرب بطاقـة متجـددة، كما أكّد أن "الدموع التي سـالت من عينيه عندما كان يتحـدث إلـى قيصـر كانـت دموع الفرح". شـعر رجال قيصر بالسـرور لهذا التغيّر في مجرى الأحداث، وأملوا أن يشفى قائدهم من عادة التسامح التـي لا مبـرر لهـا علـى الإطلاق. لـم تكن كليوباترا لتفاجـأ بهذه المهزلة، وهي الماهرة بالفنون المسـرحية، حتى إنه من الممكن جداً أن تكون هي التي كانت العقل المدبر وراء ذلك المشهد. كما يمكن أن يكون قيصر قد أطلق سراح بطليموس كي يزرع بذور شقاق أكبر في صفوف الثوار. أما إذا فعل ذلك، وعلى حد ما تمضي به الرواية بسخاء، فمن الممكن أن تكون كليوباترا هي التي خططت للأمر برمته.

شـاء حسـن حظ قيصر وكليوباترا أن يهرع جيش كبير من التعزيزات نحو الإسكندرية. كانت أفضل مساعدة هي تلك التي أتت من رجلٍ يهودي

رفيـع المسـتوى كان قـد وصـل علـى رأس فرقة تضم ثلاثـة آلاف يهوديٍّ مسـلّح تسـليحاً جيداً. انطلق بطليموس كي يسـحق هذه القوة في الوقت ذاته الّذي توجّه فيه قيصر كي ينضم إليها، وهو الذي بقي لفترةٍ من الوقت محبطاً جداً من الفرسـان المصريين. التحم الجميع في معركة شرسـة إلى الغرب من نهر النيل، أي في منتصف المسافة بين الإسكندرية وما أصبح القاهرة في ما بعد. كانت خسـائر الفريقين من الرجال جسـيمة جداً، لكن قيصر تمكّن من إحراز نصرٍ سـريع عندما هاجم الطرف الأعلى للمعسـكر المصـري بهجـوم مفاجـئ شـنّه في الصباح الباكر. شـعر معظـم المصريين بالرعب، فأقدموا على رمي أنفسهم من فوق أسوار حصنهم نحو الخنادق المجـاورة. وقـد تمكّـن بعضهـم مـن النجـاة، إلا أن بطليموس لـم يحالفه الحظ، وقد شـعر القليلون بالأسـف لموته، بمن فيهم مستشـاروه. لم تظهر جثـة بطليمـوس، إلاّ أنّ قيصـر حـرص على عرض درعـه الذهبية التي عُثر عليهـا. يعـرف الجميـع القوى التي يتمتع بها النيل، وهو النهر الذي خلّص ملكات في أكياس، وأطفالاً في سلال. لم يرغب قيصر في حدوث أعجوبة على يديه، لكن جهوده الحثيثة التي بذلها لم تمنع ظهور أحدهم في وقتٍ لاحق مدعياً أنه بطليموس.

سـارع قيصر إلى الإسـكندرية مع فرسـانه حيث لقي ذلك النوع من الترحيب الذي توقعه قبل أشـهر: "ألقى جميع السـكان أسـلحتهم جانباً من دون استثناء، وتركوا دفاعاتهم، وارتدوا الثياب التي يرتديها الذين يتوسلون طلب العفو من أسـيادهم. جلب كل هؤلاء الأشـياء المبجلة التي اعتادوا معها التوسـل إلى ملوكهم المسـتائين والغاضبين، وذهبوا للقاء قيصر عند اقترابه، ثم استسلموا له. قبِل قيصر الاستسلام بكل لطف، ثم أخذ بمواساة الجمهور. كان لا بد وأن تشـعر كليوباترا بالنشـوة، لأن هزيمة قيصر كانت ستكون بمثابة هزيمة لها كذلك. كما يمكن أن تكون قد تلقت الخبر مقدماً، لكـن لعلهـا سـمعت صيحـات الابتهاج بينما كان قيصـر يتقدم على صهوة

حصانه، ولقيه جنوده في القصر بتصفيقٍ حاد. حدث ذلك في 27 آذار، وكان الارتياح عارماً، ووصل إلى أقصى حدوده. خدم الرجال قيصر أكثر من عقدٍ من السنين، وهم الذين اعتقدوا مع وصوله إلى الإسكندرية أن الحرب الأهلية قد انتهت. لكنّهم لم يكونوا مصيبين في اعتقادهم هذا، كما أنهم لم يفهموا مغزى هذا الحدث إلا قليلاً. لم يكونوا وحدهم في قلقهم هذا؛ إذ لم تسمع روما شيئاً من قيصر منذ شهر كانون الأول، وتساءل المسؤولون في روما عما يشغله في مصر في وقت خرجت فيه الأمور عن حدها في الوطن. كان الصمت مقلقاً بغض النظر عن أسباب التأخير. وبدا الأمر وكأن مصر قد استحوذت على قيصر كما سبق لها أن استحوذت - على حد ما قال بعضهم - على بومبي، وإن كان ذلك قد يحدث في النهاية بطريقة مغايرة تماماً.

ما هو سبب بقائه في مصر؟ لم يكن هناك تفسير سياسي مقنع لهذا الانقطاع الذي كان بمثابة مغامرة غير منطقية في حياة هذا الرجل المنطقي تماماً. إنه لأمرٌ محيرٌ تماماً أن يؤخذ أعظم جندي ظهر منذ الإسكندر، و"أعجوبة التحركات وبُعد النظر" في كل المناسبات الأخرى، على حين غرة ويُهاجَم في أفريقيا. إن أفضل ما يُقال عن حرب الإسكندرية هو أن قيصر قد عزل نفسه في وضعٍ أوجده بنفسه. استشار ريح الشمال التي تهب مباشرة ضد أي شخص يُبحرُ مغادراً الإسكندرية. كان ذلك هو ما سيحصل بالفعل، وذلك بالرغم من أن قيصر يعترف قبل ذلك بجملة واحدة أنه أرسل في طلب تعزيزاتٍ من آسيا، وهي التعزيزات التي أنقذت وضعه في نهاية الأمر، وقد تطلبت تلك المهمة رحلة إلى الخارج. بقيت الرياح ضدّه بقوة لمدة أسابيع، لكنّ قيصر لم يتراجع حتى مع جيشٍ منهك ومحبط، وهو الرجل الذي لم يعتَد على إدارة ظهره للمخاطر. لم يُشر قيصر نفسه إلى الدَّين الكبير الذي يتوجب على أوليتس، وهو سبب كافٍ للنزول إلى المدينة إن لم يكن سبباً للبقاء فيها. انتهت المسألة إلى الاختيار ما بين

الحب أو المال، لكن يصعب على المرء الجدال ضد الحب.

يصادفنا في البداية صمت قيصر الشديد، كما إننا نفتقد إلى كل الأمور التي أغفلها الزمان وقيصر (وكاتبه المفترض)، ولم تكن شخصيته الأقل أهمية من بينها. كتب قيصر عن نفسه بكل تجرد وحيادية، كما أنه فعل ذلك بصيغة الغائب. كان أسلوبه في غاية الشفافية والحيادية وذلك كي يبدو صادقاً بشكل قاطع. يُحتمل أن تكون الحال كذلك، لكنه لا يذكر شيئاً في روايته عن عبوره روبيكون، ولا عن إضرامه النار في مكتبة الإسكندرية. يُحتمل كثيراً أن ذلك الاتهام الأخير مُبالغٌ فيه، ويُحتمل كذلك أن مستودعات ورشة بناء المراكب الكبيرة هي التي اشتعلت وحدها، وهو الحريق الذي كان من شأنه تدمير مخزونات القمح، وبضعة نصوصٍ قليلة من الكتب(*). كان أحد الأماكن القليلة التي غابت فيها كليوباترا نص الحرب الأهلية الذي كتبه قيصر، حيث استُبدلت مفاتنها بالحديث عن الرياح الموسمية. أما بالنسبة إلى رجل متزوج لقي عقاباً ذات مرة بسبب مكوثه في أحد البلاطات الشرقية، وبالنسبة إلى صاحب العبقرية العسكرية الذي أخطأ كثيراً بوقوفه إلى جانب ملكة، هذا إذا لم يعمل بالنيابة عنها، فإن هذا الأمر لم يكن بالمسألة التي يُمكن للمرء أن يتوسع فيها. تظهر كليوباترا في رواية قيصر مرة واحدة فقط عندما قدّم لها تاج مصر عند انتهاء الحرب، وذلك لأنها "بقيت على إخلاصها له، وبقيت بين صفوفه". دخلت كليوباترا تاريخ قيصر لسبب واحد فقط: كانت طيبة ومطيعة.

يمكننا الجزم أنّ هناك عناصر أخرى لهذه القضية عدا الرياح غير

(*) من المثير للاهتمام أن يكون القائد الذي تابع رواية قيصر قد اهتم بالتشديد، في صفحته الأولى، على أن المدينة محصنة ضد الحرائق وهو أمر خارج السياق. تناقض تأكيده هذا المصادر الأصلية الأولى، وهي التي تزعم أن النيران امتدت من المراكب إلى أحواض السفن، وامتدت بعد ذلك إلى المكتبة العظيمة. تُغفل هذه الرواية ذكر السقوف المتينة والدعائم القوية، أو التحصينات الخشبية التي أوردها قيصر. بقي لدينا اعتذار ومن دون توجيه أي إهانة.

المؤاتية والإناث المطيعات. لم يُضِع شيشرون وقتاً في توزيع الاتهامات المعيبة، كما أقدم مارك أنطوني؛ وهو شاهد هام في هذا الموضوع بالذات، بعد وقتٍ قليل من موت قيصر، على الاحتجاج بأن قيصر لم يمكث في الإسكندرية "بسبب شهواته". تدخل بلوتارك بعد قرنٍ من الزمان برواية مختلفة: "أما بالنسبة إلى الحرب في مصر، فإن بعض الناس يقولون إنها كانت خطرة وغير شريفة في الوقت ذاته، ولم تكن ضرورية البتة". (يبدو أن الناس نسوا بسرعة ذلك التوقع المزعج المتعلق بأوليتس، وهو الذي يمنع إعادة ملكٍ مصري على يد جيش روماني). كما يُمكن للمرء أن يفترض أن قيصر لم يكن معجباً بكليوباترا بشكلٍ خاص، وأن الاثنين ألفيا نفسيهما في جهة واحدة من حرب محيرة. لكن، من الأسهل على المرء أن يفترض أنها لم تشعر بمودةٍ تجاهه؛ فهي لم تساهم في أي شيء في هذا المشروع. كان يُمكن لقيصر أن يستفيد كثيراً لو قرر التخلي عنها، حتّى لو كان ذلك من أجل التوصل إلى هدنة مؤقتة، أما لو قرّر ضمّ مصر عند نهاية الحرب، فإن ذلك يوحي بأن كليوباترا كانت مقنعة جداً. تلكأ بوثينوس في دفع قيمة الدَّين المترتب على مصر، لكن كان من الواضح أن كليوباترا لم تفعل ذلك. لذا، يصعب علينا ألاّ نستنتج أن قيصر قد وقع في غرامها. وقد اعتبر ديو أن هذا الأمر من المسلمات: سلّم قيصر مصر إلى كليوباترا، وهو "الذي شن هذه الحرب لأجلها"، فاعترف ديو هنا بوجود بعض الحرج. عمد قيصر إلى تنصيب كليوباترا على العرش إلى جانب شقيقها الباقي على قيد الحياة، وذلك من أجل تبديد الغضب الذي شعرت به روما بسبب عشقه لها. اعتبر ديو أن الأمر برمته كان "مجرد تظاهر"، وهو الأمر الذي تقبلته، بينما كانت في الواقع تحكم وحدها، وتمضي أوقاتها برفقة قيصر، حتّى إنهما لم ينفصلا قطّ. تكوّن عند بلوتارك شعور مشابه، لكنه عبّر عن أفكاره بطريقة أكثر ذكاء، فأوحى بطريقة صريحة أنه يعتقد أن قيصر كان منشغلاً كل ليلة بالأمور العسكرية، ومع كليوباترا في الوقت ذاته. كانت

هناك مسألة ثانوية تتمثل بموعد المغادرة. انتهت حرب الإسكندرية في 27 آذار، لكن قيصر مكث مع كليوباترا حتى منتصف حزيران.

كان هناك سبب للاحتفال، وسبب قويّ بعد مضيّ فترة من الاحتماء خلف مجموعة من المتاريس مدة أشهرٍ ستة. يلاحظ كل من يزور مصر الهيلنستية أن نساء من البطالسة، بعيونهن الواسعة، وبطونهن البارزة وضحكاتهنّ، عرفن كيفية تسلية ضيوفهن. إننا لا نمتلك أي رواية عن الحفلات التي أقامتها كليوباترا في فترة ما بعد الحرب غير تلك الرواية التي أوردها شاعر أراد تشويه سمعة قيصر، في حين أنه لا يشعر سوى بقدرٍ قليل من الود تجاه كليوباترا؛ لكننا نعرف كيف تبدو احتفالات البطالسة. لم يكن ضبط النفس من صفات سكان الإسكندرية، وهكذا لم يكن هناك أي سبب لدى كليوباترا كي تلتزم بتلك الصفة في ربيع العام 47. ضمنت الملكة لنفسها أعظم الفوائد لأنه "لم يكن أي شيء يُعجزها نظراً إلى الدعم الذي تلقته من قيصر". تجرأ قيصر أكثر من أي رجلٍ روماني آخر على طرح أكثر الموضوعات إثارة للجدل بالنسبة إلى المصريين الأحرار. مات في هذه الأثناء بطليموس الثالث عشر، وبوثينوس، وأكيلاس، أما ثيودوتس فكان منفياً، بينما وقعت أرسينو في قبضة الرومان. تمكن قيصر، وبكل فعالية، من إزاحة كل منافسي كليوباترا على العرش، وحكمت الملكة بطريقة شبه مثالية وأكثر حزماً من الطريقة التي حكمت بها قبل أربع سنوات، وحتى أكثر حزماً مما فعل أي حاكم آخر من البطالسة منذ أجيالٍ عدة. تفاخرت الملكة بحسن ضيافتها، كما أدركت أن ضيفها يفعل الأمر ذاته؛ ذات مرة، قيّد قيصر خبّازه بالأصفاد لأنه قدّم له خبزاً لا يتميز بالنوعية التي يريدها. كان هو نفسه مسؤولاً عن قدرٍ كبير من انتشار اللهو بين الناس، وقد امتلكت ملكة مصر أسباباً سياسيةً كثيرة دعتها إلى إثارة إعجابه وإرضائه. أما إذا وضعنا العلاقات الشخصية جانباً، فإن ما يبقى هو

خليط قوي من الكبرياء والارتياح والامتنان، وقد امتلكت الملكة الموارد الكافية التي سمحت لها بإثارة الإعجاب، وأعطتها حرب الإسكندرية كل شيء أرادته، بينما لم تكلفها سوى القليل.

كان حشد من الخدم يحوم حول كليوباترا، ويسهر على راحتها حتى عندما كانت في المنفى، وقد ازداد ذلك الحشد في ربيع العام 47 حتى أصبح جمعاً كبيراً، وذلك بعد عودة أو تعيين، المتذوقين، والكتّاب، وحاملي المصابيح، وعازفي القيثارات الملكيين، والمدلّكين، والسعاة، وحراس الأبواب، وكتّاب العدل، وكبار المضيفين، والمسؤولين عن الزيوت، والمسؤولين عن المجوهرات. حازت كذلك على زوج جديد، إذ أرادت إرضاء ميل شعبها لوجود زوج حاكم، وربما من أجل التغطية على وجود قيصر، فعمدت إلى تنصيب بطليموس الرابع عشر على العرش، وهو الذي كان يبلغ من العمر اثني عشر عاماً. جرى الزواج بعد استسلام الإسكندرانيين بوقتٍ قصير، لكننا لا نعلم تفاصيل أكثر عن كيفية الاحتفال به. كان الأمر بالنسبة إلى كليوباترا مجرد استبدال شخصٍ ضئيل القيمة بآخر. حمل بطليموس الرابع عشر اللقب ذاته الذي حمله شقيقه الميت، كما أنه لم يظهر قطّ مع شقيقته على العملة المعدنية التي سكّتها. تمتّع ذلك الشاب بذكاء مكّنه من إخفاء أي طموحات شخصية يُحتمل أنها كانت لديه في ذلك الوقت، كما أنه لم يكن يتدخل في الطريقة التي اتبعتها شقيقته وزوجته في إعادة تنظيم الدولة. أدرك قيصر بكل وضوح - سواء أكان قد فكّر في ضم مصر إلى روما أم لا - أن كليوباترا تشبه بلدها في نواحٍ كثيرة: خسارتها عارٌ، وقهرها مخاطرة، وحكمها مشكلة. بقي بعض أفراد الحاشية على إخلاصهم لها، وكان من بينهم عدة أشخاص عملوا كمستشارين لوالدها، وأولئك الذين لم يبذلوا جهداً لإعادة تقييم سلوكهم؛ وهو الأمر الذي فعله الأرستقراطيون اليونان الذين مثّلوا أقوى معارضة وقفت في وجه كليوباترا.

عانت كليوباترا نقطةَ ضعفٍ داخل بلاطها، وهي النقطة التي لاحظها قيصر جيداً. قال أحد القادة الرومان في وقتٍ لاحق: "يعاني الحاكم كثيراً نقطة الضعف الخاصة هذه بالنسبة إلى أصدقائه، أي إنه في الوقت الذي يتمكن فيه من حماية نفسه من أعدائه، عن طريق تأليب أصدقائه ضدهم، فإنه يفتقد إلى حليف مماثل يمكنه الاعتماد عليه لحماية نفسه من هؤلاء الأصدقاء". وقد علمت كليوباترا هوية الذين لا يريدون لها الخير، لكن الأمر كان أكثر تعقيداً بالنسبة إلى أفراد حاشيتها، كما أدركت أنها اختبأت لأشهرٍ مع رجلٍ روماني، وحاربت شعباً لم يرحب قطّ بوجود هذا الروماني في القصر، وهو الذي خلع والدها لأنه اختلط بهم. لكنّ القواعد قد طرأ عليها التغيير الكبير؛ ظهر في الماضي، وعلى الدوام، قدر كبير من الفساد في البلاط، فكانت الحربِ عذراً لاجتثاثه، وهكذا دفع المعارضون لكليوباترا ثمناً باهظاً. أما الذين أُشيع عنهم أنهم من المعارضة فقد نالوا جزاءهم كذلك. وقد أقدمت كليوباترا على استبدال كبار المسؤولين وإزاحة آخرين، ومصادرة ثرواتٍ كثيرة خلال هذه العملية. كما حدثت عمليات تسميم وطعن شبيهة بتلك التي حدثت بعد أن استعاد أوليتس عرشه، ونال الجيش أيضاً نصيبه من التصفيات الدموية، وهكذا لم تكن عملية التغيير سهلة.

تطلبت المنطقة المحيطة بالقصر والميناء القيام بأعمال عادية، مثل ردم الخنادق، وتفكيك الحواجز، وإزالة الركام، وإصلاح الأضرار التي لحقت بالمباني. أما المدينة التي ظهرت بعد هذه الأعمال فبقيت، كما كتب أحد السائحين المعاصرين، "أول مدينة في العالم المتحضر، وهي التي تسبق بقية المدن في طراز أبنيتها وضخامتها وغناها وفخامتها". فقد حار الزائرون في ما إذا كان حجم المدينة أو جمالها هو الأكثر تأثيراً في النفس، لكن ذلك كان قبل الاعتراف بمدى الحيوية الفائقة التي يتمتع بها سكان المدينة. قال أحد أبناء المدينة: "عندما أتطلع على المدينة، فإنني

أشك في قدرة أي جنسٍ من الرجال على ملئها في يومٍ من الأيام، لكنني عندما أتطلع على السكان، فإنني أتساءل ما إذا كانت أيٌ مدينة تتمكن من استيعابهم جميعاً؛ يبدو أن التوازن قائم بصورة دقيقة". كانت الإسكندرية ملأى بمجموعة تثير الدهشة من التماثيل، ونُحت كل واحدٍ منها من الغرانيت الزهري أو الأحمر، أو من الحجر السماقي البنفسجي، وكانت كلها تلتمع بألوانٍ ساطعة. كان الزائر الذي يعرف أثينا يجد هذه المدينة مألوفة لديه، وذلك لأنها مليئة بنسخٍ بطلمية عن المنحوتات الإغريقية. لم تكن هذه المدينة الأولى أو الأخيرة في العالم التي تحول فيها التدهور في السلطة إلى عدد كبير من الرموز. أي إنه كلما تقلص النفوذ البطلمي ازداد عدد التماثيل إلى أعداد كبيرة. وقد انتشرت في ميناء الإسكندرية تماثيل من الغرانيت الزهري بلغ ارتفاع الواحد منها أربعين قدماً، وهي التي تمثّل كليوباترا الثانية وكليوباترا الثالثة. كما ارتفع فوق جدار القصر أيضاً تمثال عملاق واحد على الأقل يمثّل "أبو الهول" برأس صقر، بينما كانت تماثيل ملتمعة أخرى تمثل "أبو الهول"، والتي يبلغ طول الواحد منها ثلاثين قدماً، هي التي تحرس هياكل المدينة.

أثار الشارع الرئيس الواسع في الإسكندرية، والذي يبلغ عرضه تسعين قدماً دهشة الزوار، إذ كان لا مثيل له في العالم القديم، حيث كانت عملية اجتيازه من أوله إلى آخره تستغرق يوماً بأكمله، وكانت الأعمدة المنحوتة بدقة تحيط به من الجانبين، بالإضافة إلى المظلات المصنوعة من الحرير. كان الشارع محاطاً بالواجهات المطلية بسخاء، وكان هذا الطريق المسقوف يتسع لمرور ثماني عربات جنباً إلى جنب. يُضاف إلى ذلك أن شوارع المدينة الفرعية والأساسية الأخرى كانت بعرض عشرين قدماً تقريباً، وكانت مرصوفة بالأحجار ومزودة بأقنية تصريف المياه، كما كانت مضاءة جزئياً خلال الليل. كما امتدت غابة من الأعمدة المنحوتة من الحجر الكلسي على مدى البصر في التقاطع الرئيس في المدينة الذي لا

يبعد سوى مسيرة عشر دقائق عن القصر. أما في القسم الغربي من المدينة، فكان يعيش السواد الأعظم من سكان المدينة من المصريين، وكان عدد كبير منهم من حائكي الكتان، وكانوا يتحلقون حول الدرجات المئة التي تؤدي صعوداً إلى السيرابيوم، وهو هيكل من القرن الثالث كان يُشرف على المدينة ويحتوي على مكتبتها الثانية. ارتفع ذلك الهيكل مستطيل الشكل فوق تلة صخرية اصطناعية، تحيط به المتنزهات والأروقة ذات الأعمدة، كما كان قسم كبير منه مزيناً بالأوراق الذهبية، والفضية، والبرونزية، وقد اعتُبِر هذا الهيكل واحداً من ثلاثة مواقع يمكننا تعيينها بدقة هذه الأيام. أما الحي اليهودي في المدينة فكان يقع في الشمال الشرقي، أي بجوار القصر. سكن اليونانيون في المنازل الرائعة المكونة من ثلاثة طوابق في وسط المدينة، وكانت المهن تقسّم أحياء المدينة: فكان أحد الأحياء مخصصاً لإنتاج العطور، وحي آخر مخصّصاً لصنع أواني المرمر، بينما احتل صانعو الزجاج حياً آخر.

امتدت المدينة نحو أربعة أميال من الشرق إلى الغرب، وقد اعتُبِرت أرض العجائب بحماماتها، ومسارحها، ونواديها الرياضية، وقاعاتها المسقوفة، وهياكلها، وأضرحتها، وأماكن العبادة اليهودية فيها. كان جدار من الحجر الكلسي يحيط بالمدينة وتتخلّله الأبراج، وكانت بائعات الهوى يتجمعن عند طرفي الطريق المظلل، كما كانت أصوات حوافر الخيول، وصرخات بائعي العصيدة، ونداءات باعة الحمّص، وصرخات الممثلين في الشوارع، وأصوات الضالعين، وأصوات مقرضي الأموال، تتردد في أجواء الإسكندرية في النهار. كما كانت التوابل التي تنتشر في المدينة تفوح منها روائح غنية تنقلها نسيمات البحر المالح المشبعة عبر الشوارع، في حين كانت طيور أبي المنجل البيضاء والسوداء التي تتميز بسيقانها الطويلة تتجمع في كل تقاطع باحثةً عن الفتات. كانت الإسكندرية تبقى حتى وقتٍ متأخر من المساء، أي عندما تهبط الشمس القرمزية منحدرة نحو الميناء

مثلَ مشكالٍ من الموسيقى، والفوضى، والألوان. كانت المدينة بالإجمال تؤثر تأثيراً كبيراً في مزاج المرء بإثارتها القصوى، وبثقافتها العالية. ويمكننا القول إن الإسكندرية كانت بمثابة باريس العالم القديم؛ فهي متفوقة في أساليبها، ورائعة برفاهيتها، وهي المكان المناسب إذا أراد المرء إنفاق أمواله، أو إذا أراد كتابة الشعر، أو إذا رغب في العثور على الحب أو نسيانه، أو إذا أراد استعادة صحته وتجديد ذاته، أو إذا أراد استعادة أنفاسه بعد قطع مسافات شاسعة في إيطاليا، وإسبانيا، واليونان في أثناء العقد الهرقلي من السنين.

كما يمكننا القول أيضاً إنه بالرغم من الجمال الأخّاذ والتسلية المذهلة اللذين تتمتع بهما الإسكندرية، فإنها لم تكن تلك المدينة التي يقف فيها المرء موقف المتفرج. قال أحد الزائرين: "لا يسهل على الغريب تحمّل كل الصخب الناتج عن تلك الجموع، أو أن يواجه عشرات الآلاف من الناس إلا إذا أتى مزوداً بقيثارة، وغنّى أغنية". تبنى الإسكندرانيون كل ما يقال عن لهوهم. توافدت عند انتهاء الحرب حشود الناس، وبعض الحلفاء من الرومان، من خلال بوابة القصر الضخمة كي يعربوا عن تمنياتهم الطيبة، وتجمعوا في القاعة المزيّنة بالعاج عند المدخل. كانت مجموعة غرف القصر المخصصة للاحتفالات تستوعب حشداً كبيراً من الناس، وكانت كبرى هذه القاعات مزودة بمجموعة مدهشة من الأرائك البرونزية والمرصعة بالعاج والزجاج، وهي التي تُعتبر قطعاً فنية بحد ذاتها. كانت مصر تستورد الفضة التي تحتاجها، لكنها كانت تحتفظ بأكبر احتياطي للذهب في العالم القديم؛ كانت دعائم تلك القاعة مرصعة بالذهب. كان المرء يلاحظ بسهولة زيادة عدد سكان المدينة، لكن كان من الصعب المبالغة في ضخامتها. كان وصف ضخامة المدينة يُنهك مفردات القدماء، كما فاخر كثيرون من سكان منازل المدينة بالأثاث المصنوع من أخشاب أرز لبنان، والمرصّع بالعاج والأصداف، والمطلي بطريقة فنية، وبالخطوط

المتشابكة والمعقدة، وبالفسيفساء الواقعية. كانت قطع المرمر بلونها البني المائل إلى الأصفر تغطي الواجهات الخارجية، أما الجدران الداخلية، فالتمعت بالطلاء وقطع الزمرد، إذ طغت عليها المشاهد الأسطورية. أما نوعية هذه الأعمال فكانت مثاراً للدهشة.

كانت فسيفساء الأرضيات على الأخص مشغولة بدقة عالية، إذ امتلأت بالرسومات الهندسية التي تبدو وكأنها ثلاثية الأبعاد، والتي مثّلت واقعية العالم القديم، لكنها كانت تختفي خلال الحفلات تحت طبقة سميكة من الزنابق والورود، وهي التي كانت تنمو بكثرة في مصر. كتب أحد المؤرخين: "كانت القاعدة العامة هي أن الورود، وأزهار الثلج، أو أي نباتات أخرى، لا تتوقف عن الإزهار". كانت أكوام الأزهار تنتشر على الأرض وتعطي الانطباع بوجود مرجٍ من مروج الريف، وخاصة عندما تتجمع بقايا المحار، ومخالب سرطانات البحر، ونوى الدرّاق. لم يكن من النادر حينها إرسال طلب شراء ثلاثمئة تاج من الورود في أوقات الحفلات، أو عدد مماثل من الأكاليل. (كانت الورود ضرورية بسبب الاعتقاد أن رائحتها تمنع التسمم). كانت العطور والمراهم من اختصاص الإسكندرية، وكان الخدم يرشّون عطر القرفة والهال والبلسم على تيجان المحتفلين، بينما يستمر العازفون بعزفهم، والقصاصون برواية قصصهم، وفاحت العطور ليس من الطاولات بل من المجوهرات، والمصابيح المعطرة، ومن نعال الأحذية. وطغت في نهاية الأمر رائحة الزيوت القوية على جو حفل العشاء. كانت أعمال الحرفيين البارزين الآخرين في المدينة معروضة هي الأخرى: الطاولات التي تتلألأ بالأواني الفضية، والأباريق، ومئات أخرى من الشمعدانات. أما صناعة الزجاج بالنفخ فكانت اختراعاً هيلينستياً، والذي فعلت فيه الإسكندرية فعلها الأخّاذ فزخرفت رسومات الزنابق الكثيرة، بينما أدخل نافخو الزجاج في المدينة الذهب في أعمالهم. ظهرت على الطاولة أوانٍ متعددة الألوان، وأطباق فضّيّة كبيرة، وسلال خبز

محبوكـة بالعـاج، وأكـواب مرصعة بالجواهر. أما الأطعمة فقد وضعت في أطباق ذهبية. قيل إنه في إحدى المآدب التي أقامها البطالسة، كانت الآنية وحدهـا تـزن ثلاثمئـة طن. برهنت أدوات الطعام عن مدى تكيّف كليوباترا وفطرتها التنافسية، فعمدت عندما بدأ الترف الإسكندراني بفرض نفسه في العالـم الرومانـي، إلـى تغيير أسـماء أدوات الطعام الفاخـرة. وهكذا تحول المـكان الـذي يحتـوي علـى مجموعتها الواسـعة من الذهـب والفضة إلى "الأدوات العادية".

بـدا العشـاء بحـد ذاتـه وكأنـه ثـروة بـدلاً مـن أن يكون وجبـة عادية بالنسبة إلـى أحـد ضيـوف القصر، ففغر الرجل فمه من فرط الدهشـة عند رؤيـة "طبـق فضـي مغطى بصحنٍ ذهبـي ثقيل، وكان الطبق كبيراً بما يكفي لاسـتيعاب حيوانٍ مشـوي صغير الحجم بعد أن يوضع على ظهره، حيث يظهر بطنه الذي يُحشـى بعدة مواد شـهية؛ مثل دجٍّ مشـوي، وبطٍّ، وكمية كبيـرة مـن الطيـور، وذلـك بالإضافـة إلى مـح البيض، والمحـار، والمحار الصدفيـة". كان الإوز يُعـرض علـى الـدوام علـى لوائـح الطعام المسـرفة، وكذلـك الطواويـس، والمحـار، وقنافـذ البحر، والكافيار، وسـمك البوري الأحمـر، وأطايـب عالـم البحر المتوسـط. (كانت الملاعق نـادرة في تلك الأيـام، أمـا الشُـوَك فلم تكن معروفة لأن الناس كانـوا يأكلون بأصابعهم). أما أفضل أنواع الشـراب فكان الشـراب الحلو الذي كان يأتي من سـوريا وأيونيا، وكان يُمزج بالعسل أو بالرمان. إننا لا نمتلك أثراً لمجموعة الثياب التـي ارتدتهـا كليوباتـرا عندمـا كانت تترأس تلك المـآدب، لكننا نعلـم أنها كانـت تضـع مجموعـة كبيـرة من اللآلئ، وهي التي كانت شـائعة في ذلك الزمـان، كمـا اعتـادت على لفّ حبالٍ طويلة من المجوهرات حول رقبتها، وضفرِ المزيد منها في شعرها، هذا إلى جانب اللآلئ الأخرى التي ترصّع رداءها. كانت تلك الرداءات المصنوعة من الحرير الصيني الفاخر، أو من الكتان، والغنية بألوانها تصل إلى ركبتيها، كما اعتادت وضع أحزمةٍ فوقها،

أو كانت تضع حلية مثبتة بدبوس، أو حتى بشريط. كما اعتادت كذلك ارتداء عباءة شفافة فوق الرداء، وهي التي كانت تسمح برؤية ثنيات القماش بوضوح. كانت كليوباترا تنتعل أحذية خفيفة مرصعة بالجواهر ذات نعالٍ مزخرفة. يُعتبر البطالسة من أعظم المضيفين الذين ظهروا على مرّ التاريخ، وهم الذين كانوا يزوّدون ضيوفهم بالهدايا عند مغادرتهم. لم يكن من غير المعتاد أن يغادر الضيف مع مجموعة من أدوات المائدة المصنوعة من الفضة الخالصة، أو مع عبد، أو مع غزال، أو مع أريكة من الذهب، أو مع حصانٍ مزودٍ بدروعٍ فضية. وقد وضعت الوفرة البطالسة على الخريطة، كما أن كليوباترا أرادت أن تستمر سلالتها بالحكم. كتب سويتونيوس في وقتٍ لاحق عن "الحفلات المطولة التي تستمر حتى الفجر".

تضمنت الاحتفالات التي جرت بعد الحرب مواكب النصر، ويُفترض أنها كانت تمر في الطريق المظلل. أرادت كليوباترا توحيد شعبها، وتعزيز سيطرتها السياسية، وتدعيم شرعيتها أمام منتقديها. كانت الإسكندرية مدينة الاستعراضات الرائعة التي أظهرت ثروات البطالسة التي تفوقت فيها حتى على جوّ التسلية والترفيه الذي يميّز رعاياهم. ظهرت في شوارع المدينة قبل عدة قرون مواكب ديونيسوس التي اشتملت على عربات مزخرفة يبلغ طول الواحدة منها عشرين قدماً، وكانت كل عربة تتطلب 180 رجلاً لدفعها. كانت تماثيل الساطير وهم الأسياد الإغريقيون، والحوريات بأكاليلهن الذهبية والمطلية بالألوان الأرجوانية، وكذلك الرسومات الرمزية التي تمثّل الملوك، و\الأسياد، والمدن، والفصول تتبع هذه العربات. كانت الإسكندرية مركز الأعاجيب الميكانيكية، وهي التي كانت تفاخر بالأبواب الآلية، وبالرافعات الهيدروليكية، وبالطواحين المخفية، وبالآلات التي تعمل على النقود المعدنية. فقد تمكّن البطالسة من اجتراح الأعاجيب عن طريق استخدام الأسلاك، وأنابيب التصريف، والبكرات، والمغناطيسات المخفية. كانت ألسنة اللهب تندلع ولا تلبث أن تنطفئ، وكانت الأضواء تلتمع

مـن أعيـن التماثيـل، والأبواق تصدح من تلقاء نفسـها. كان عمال المعادن فـي المدينـة يتفوقـون على أنفسـهم في المراحل الأولى من الاسـتعراض: كان التمثـال الـذي يبلـغ ارتفاعـه خمس عشـرة قدماً والذي يلتمع بسـترته الصفراء، يطوف في الشـوارع. نهضت كليوباترا منتصبةً على طول قامتها، وسكبت قرابين من الحليب، ثم جلست بمهابة على مقعدها؛ وهو ما أثار الحشود. كان الهواء حولها ثقيلاً بضجيج التوقعات، وتمتمات الإعجاب، وأصوات موسيقى النايات. وقد خيّمت على الجمهور المحتشـد سـحبٌ مـن البخـور وسـط الهـواء المشـبع أصـلاً. اسـتمرّ مـرور هـذه الأعاجيب الملتمعة أمام الجمهور. فقد مرّ أمامه حاملو المشاعل الذهبية، والصناديق المليئة باللبان والمر(*)، وأشجار البلح المزخرفة، وعرائش العنب، ودروع الصـدر، والـدروع، والأحـواض، والثيـران المزيّنـة بالذهـب. تواجـد فوق إحدى العربات سـتون سـاطيراً وهم يدوسـون أكداس العنب، واسـتغرقوا بالغناء في أثناء عملهم بمرافقة عازفي المزمار. فاض الشراب المعطّر من أوعية جلدية ضخمة على الشـوارع، كما فاحت روائح البخور العطرة في أرجائهـا، فتمازجـت مـع الروائح المتصاعدة من جداول الشـراب، وهكذا تكوّن مزيج أخّاذ من الروائح. أطلق الخدم أسـراب الحمائم واليمام فوق طريـق الموكـب، وكانـت كل واحـدةٍ منها تحمل شـريطاً يتدلى من إحدى قائمتيها. كانت عروض الحيوانات إجبارية بالنسبة إلى الرعايا الذين توافدوا إلى الإسكندرية، ونصبوا الخيام على مدى أميالٍ عدة حول المدينة. اشتمل موكب القرن الثالث ق.م هذا على مجموعاتٍ من الحمير، والأفيال المزينة؛ وقـد طوّقـت قوائمها بالذهـب. يُضاف إلى كل ذلك مجموعات من الظباء الأفريقية، والنمور، والطواويس، والأسود الضخمة، والكركدنات الأثيوبية، والنعام، و2,400 كلب. ظهرت كذلك جِمالٌ مثقلةٌ بأحمالها من الزعفران والقرفـة. وسـار وراء كل هـذه المجموعـات 200 ثور بقرونهـا المزخرفة.

(*) المرّ: صمغ يُستخرج من ساق شجر المُرّ. (المحرّر)

وظهـرت أخيـراً مجموعـة عازفـي القيثـارات برفقـة 57,000 مـن المشـاة، و23,000 مـن الفرسـان الذيـن حملوا كامل دروعهـم. يُحتمل أن كليوباترا كانـت تفضّـل عـدم اسـتقدام كل هذه الفرق، لكنهـا جمعتها كلها في ذلك الاسـتعراض المسـرف بهدف الترويج لنفسها بين الملوك على أنها "الأكثر ذكاء بيـن جامعـي الثـروات، والأكثـر فخامة بين المسـرفين، والأكثر روعة في كل أعمالها". جمعت هذه الملكة البحبوحة، والسـلطة، والشـرعية معاً بطريقة لا انفصام فيها. وكان من الضروري بالنسبة إليها تأكيد سلطتها بعد كل التشنجات والاضطرابات التي حدثت في العقود الماضية.

تمكّـن قيصـر، فـي هذه الحالة، من البقاء. إن مصر المسـتقرة شـرطٌ ضروري لخططه، وكذلك الأمر بالنسبة إلى خطط كليوباترا. فكانت مصر هـي الوحيـدة تقريبـاً فـي حـوض المتوسـط التي تنتج من القمـح أكثر مما تستهلك. وكان باستطاعة كليوباترا وحدها أن تُطعم روما، والعكس صحيح تماماً، كما كان بإمكانها تجويع تلك المدينة إذا أرادت ذلك. هذا هو السبب الذي لم يشجع قيصر على تعيين أحد مواطنيه في الإسكندرية؛ فكان الحل الأفضـل تعييـن حاكـم موثـوق به من غير الرومانييـن. كان من الواضح أنه وضع ثقته بكليوباترا، لكنه لم يتمكّن من الوثوق ببوثينوس إلاّ أنه وثق في الوقت ذاته بقدرتها على الحكم. يمكننا القول إن مصر أصبحت بدءاً من العـام 47 محميـةً ذات وضـعٍ خـاص. ولم يكن هذا الترتيب غريباً في قرنٍ تميزت السياسة فيه بأنها شخصية بشكلٍ كبير. فكانت التحالفات الهلينستية تتـوج علـى الـدوام بقَسَـم الـزواج، وكانت زيجات المرتزقة فـي روما أمراً شـائعاً جـداً، وهـو الأمـر الذي أثـار سـخط المحافظين الأصولييـن الذين انتقدوا بشـدة هذا النوع من الدبلوماسـية الرخيصة والنفعية. فكلما ازدادت طموحـات السياسـي فـي روما تنوعت زيجاته. وعلى سـبيل المثال، تزوّج بومبـي خمـس مـرات، وقد كان يفعل ذلك لأسـبابٍ سياسـية على الدوام. أمـا مركـز قيصـر المعقّد فقـد كان مرتبطاً بكل واحدة مـن زوجاته الأربع.

تـزوج بومبـي ابنـة قيصـر التي أُرسـلت إليه كعربون شـكر(*)، كما أن فارق السـن الذي يفصل بين قيصر وكليوباترا كان كبيراً. سـاءت العلاقات بين الرجلين عندما ماتت المرأة التي كانت تجمع بينهما، وهو تاريخ لن يلبث أن يكرّر نفسه مع عواقب أكبر بكثير.

لم تكن علاقة قيصر وكليوباترا عادية، وذلك لأن كليوباترا بدأتها بناءً على رغبتها الخاصة. ولم يجبرها أي من أقاربها على هذه العلاقة، لكنها كانـت بالنسـبة إلـى الرومان مقلقـة للغاية. إذ كان الرومان سـينظرون إليها بطريقة مختلفة كلياً لو أن والدها هو الذي زوّجها قيصر (الأمر مسـتحيل لعدة اعتبارات). وما أربك الذين كتبوا تاريخها استقلاليتها التامة، وروحها الجريئة. كان الشـاعر لوكان واضحاً في هذه النقطة عندما قال على لسـان بوثينوس، الذي عبّر عن رأيه في إرادتها الحرة: "تمكنت كليوباترا من جذب العجـوز بسـحرها". حـاز قيصـر على مصر، وهكـذا حصل عليها، "بائعات الهـوى يحصلـن علـى رومـا". نجـد في هـذا المجال قصةً مشـابهة ولافتة تتمثل بالملكة الهندية كليوفيس التي استسلمت للإسكندر، لكنها استعادت عرشـها فـي المقابـل بعـد أن افتدت العـرش بأن تزوجت منـه. يعني ذلك "أنها حصلت بواسـطة الإثارة والمتعة على ما عجزت عنه بقوة السـلاح". حصلـت كليوفيـس، وبحسـب مؤرخ روماني واحـد على الأقل، على لقب "الداعـرة الملكية" بسـبب سـلوكها المذل. ويُحتمـل أن تكون تلك القصة غير حقيقية، أي إنها مجرد تخيّلات رومانية مثيرة عن الشرق الأخّاذ. كما يُحتمل أن تكون هذه القصة من وحي كليوباترا، لكنها - القصة - تشـير إلى شـيء عنها بالذات. كانت مشـتبهاً فيها مثل الملكة كليوفيس، بالرغم

(*) لقيت الهدية ترحيباً، لكن التوقيت كان محرجاً. كان من المفترض أن تتزوج جوليا في غضون أيام من كوينتوس سرفيليوس كابيو الذي غضب كثيراً، فقدّم له بومبي مكانها ابنته، وذلك بالرغم من أنها كانت مخطوبة هي الأخرى لشخص آخر. كانت النساء الرومانيات موضع تبادل صفقات، وهي الفكرة التي لم تخطر علىّ بال البطالسة بالرغم من مكائدهم العائلية.

من أن الرومان فوجئوا بسلطتها الغامضة والغريبة، وهو الأمر الذي مكّنها من دفع جزية مشكوكٍ في أمرها.

لا يمكن للوئام الهادئ - إن لم نقل للعاطفة العظيمة - الذي نشأ بين كليوباترا وقيصر أن يفاجئنا بشيء. كان للثقة التي تتمتع بها، ولروح المخاطرة التي يمتلكها، شأنٌ كبير في تعميق الصلة التي نشأت بينهما، لكن شخصيتيهما كانتا متوافقتين بمثل ما كانت عليه برامجهما السياسية. كانا شخصين لطيفين، ومؤثرين، وطليقَي اللسان، لكن التاريخ سيذكر كليوباترا على أنها كانت مغرية جداً مثل ما كانت خطرة، إذ كانت تعرف على الأخص فن الإطراء. قال بلوتارك إنه مع وجود أربعة أنواع من الإطراء، والتملّق، والحذر الذي يبديه الناس تجاهها: "لكنها تمتلك ألَف نوع". إننا نمتلك دلائل عن مدى دهائها وذكائها أكثر من تلك التي لدينا عن قيصر، أي إنه يتعين علينا أن نبحث في مغامراته التي لا حصر لها، أكثر من بحثنا في كتاباته. كان الرجل مغرياً ماهراً، وهو الذي كان مغرماً بالزوجات الأرستقراطيات. وقد أظهرت كليوباترا وقيصر ذلك الفضول الفكري الذي كان علامة فارقة لعصرهما، وكذلك الاسترخاء والمرح، اللذين ميزاهما عن أقرانهما، هذا إذا صحّ وجود أقرانٍ لهما. يقول بلوتارك إن السلطة وضعٌ غير اجتماعي ويدعو للوحدة، لكن أولئك المحيطين بقيصر وكليوباترا كانوا جميعاً من المتملقين، أو من المتآمرين، وقد أدرك الاثنان أن للنجاح ثمناً باهظاً على حد ما قال قيصر: "إن أي شيء يرفع الناس فوق زملائهم يثير الرغبة في المحاكاة والغيرة". أما وضعهما فكان نوعاً فريداً من العزلة الاجتماعية.

تجاوز الاثنان الخطوط الحمراء في سعيهما وراء السلطة، وكلاهما جرّبا حظّيهما. امتلك الاثنان طاقة عظيمة للعمل، وكذلك للّهو، ونادراً ما ميّزا بين الاثنين. كان قيصر يجيب على الرسائل والالتماسات في أثناء حضوره المباريات، بينما انهمكت كليوباترا في ألعابٍ تهمّ الدولة، لكنّ

أيًّا منهما لم يبتعد عن المسرح، إذ كانا ممثلَين موهوبَين، وقد وثق قيصر بالقدرات التي يتمتعان بها والتي تماثل ثقتهما بتفوقهما. كانت الأمور المطلوبة من كليوباترا كثيرة، وهي التي أحبت أن تفاجئ الناس، وكانت تثق بالمبادرات العظيمة، وهي التي كانت تعرف قدر نفسها في هذا المجال. وضع قيصر أهمية كبيرة على الأسلوب، وكان معجباً بالموهبة بكل أنواعها، وهو الذي كان في الإسكندرية برفقة محدّثةٍ حاذقة على الدوام، ولغوية من الدرجة الأولى، ومفاوِضةٍ لبقة، وهي التي شاطرته الموهبة غير العادية التي تجعله قادراً على معاملة المعارف الجدد وكأنهم أشخاصٌ حميمون يعرفهم منذ مدة طويلة. كما كان هناك سببٌ كافٍ يدعوه للانتباه الشديد؛ قدّمت له كليوباترا درساً سلوكياً جاء في الوقت المناسب. سبق لقيصر أن أُعلن دكتاتوراً قبل عامٍ واحد، وهكذا كان يستمتع بأول طعم للسلطة المطلقة، أما كليوباترا فمنَ جهتها كانت تعالج قضايا لم يسبق لامرأة من معارفه أن عالجتها، فصعب عليه إيجاد امرأة في كل أنحاء روما سبق لها أن كوّنت جيشاً، وأعارت أسطولاً، وأشرفت على سكّ عملةٍ باسمها. كانت شخصية كليوباترا مشرقة، وكذلك كانت نظيرة قيصر في برودة الأعصاب، وبراغماتية واضحة الرؤية، وذلك بالرغم من أنّ ما كان يُعتبر استراتيجية من قِبله كان يسجّل على أنه تلاعب من جهتها. كان الاثنان خارجين من حروب لا تتعلق بقضايا هامة بقدر ما تتعلق بشخصيتيهما، كما واجها صعوبات متماثلة، وجمهوراً متماثلاً من المؤيدين. لم يكن قيصر محبوباً من الطبقة الأرستقراطية الرومانية، وفي المقابل لم تكن كليوباترا محبوبةً من اليونانيين الإسكندرانيين، لذا، كانت سلطتهما مستمدة من الناس العاديين. ولأن الشخص الطموح يتألق عندما يكون إلى جانب شخص طموح آخر، فإن قيصر وكليوباترا جاءا معاً وكأنهما وريثان لثروات أسطورية هي أكبر مما يُمكن للمرء أن يتخيله، كما كانا مدركين لموهبتيهما، وهما اللذان تعودا التفكير في نفسيهما بصيغة

الجمع، أو الكتابة عن نفسيهما بصيغة الغائب.

يتخيّل لوكان قيصر في أثناء إحدى مآدب الطعام التي أقامتها كليوباترا، وهو يمتحن الكاهن الأكبر في مصر. كان قيصر يعتبر نفسه طالباً في مواد كثيرة، وهو الرجل المعروف بفضوله الذي لا حدّ له، كما فسّرت محبته للاستكشاف على أنها طموحاته. لقد تعلّق بعلوم مصر وحضارتها، وهكذا تحدّث في الإسكندرية إلى علمائها وفلاسفتها. كان له طلب واحد عندما قال مناشداً: "لا أمتلك شيئاً أريد معرفته أكثر من معرفة مسارات النهر الذي بقي غامضاً عبر عصورٍ كثيرة، ومصدره المجهول". قال قيصر إنه إذا تمكن الكاهن من كشف مصدر النيل فإنه سيُقلع عن الحروب. وهكذا يمكننا أن نفهم سبب حماسة الرجل، لأنه لم يكن هناك لغز أكثر إثارة من هذا اللغز. كان النيل حياة البلاد التي كانت تشبه المريخ في تلك الأيام. كان لوكان أول من تحدث عن رحلة قيصر وكليوباترا في نهر النيل، وذلك بعد مرور 110 أعوام على حدوثها. لم يُظهر ذلك المؤرخ إعجابه بأي منهما وهو الذي كان يكتب شعراً، ولذلك أعطي لقب "أبو الصحافة الصفراء"؛ ولأسبابٍ وجيهة. على أيّ حال، يُمكننا القول إنه كان يستمد معلوماته من مصادر تاريخية مجهولة بالنسبة إلينا هذه الأيام. ويُستبعد، لكل ذلك، أن يكون قد لفّق خبر هذه الرحلة، كما أننا لا نمتلك أي سبب يدفعنا إلى الاعتقاد أن هذه الرحلة التي تمت بعد الحرب كانت أقل بذخاً، أو أن وسائل الترفيه كانت أقل حماسة من تلك التي تم استعمالها في الرحلة التي تمت بعد ذلك بخمس سنوات، والتي خلّدها شكسبير بعد ذلك في مسرحيته. لكننا نمتلك سبباً أقوى يدفعنا إلى الافتراض أن المؤرخين الرومان يفضّلون التحدث عن تلك الرحلة ونسيان هذه. لم يتحدث المؤرخون عن سبب بقاء قيصر في مصر بعد انتهاء الحرب(*).

(*) يذهب أحد المؤرخين الحديثين إلى حد الإيحاء بأنهم أخفوا الرحلة عمداً.

ويُحتمل أن شكسبير كان من الممكن أن يكتب قصة كليوباترا في مسرحية مختلفة لو لم يُجمع المؤرخون على رأي واحد.

سبقت رحلة النيل هذه رحلات كثيرة، لأن الترحيب بالوجهاء الأجانب عن طريق اصطحابهم في رحلة نهرية كان أمراً شائعاً، وذلك بهدف تعريفهم إلى هذه الأعجوبة المسمّاة مصر. ذهب أحد كبار المسؤولين إلى حدٍّ بعيد عندما حرص على أن يلقى أحد أعضاء مجلس الشيوخ الروماني "استقبالاً في غاية الروعة"، وأن تُغدَق عليه الهدايا الكثيرة، وكذلك حرص على أن يهتم به مرشدون خبراء ويزوَّد بالحلوى، واللحم المشوي من أجل إطعام التماسيح المبجلة. كانت حقول القمح التي تمتد لأميالٍ وأميال تُدهش الزائرين الرومان وتجعلهم ينتفضون. تواجدت أسباب مشروعة عند الدولة لتنظيم هذه الرحلات، هذا إذا وضعنا الفضول الشديد جانباً. فقد اعتاد الحكام الجدد على تدشين عهودهم برحلة رسمية نحو الجنوب، أما بالنسبة إلى كليوباترا فقد كانت هذه الرحلة تمثّل رحلة في أملاكها الخاصة. كان الجميع في مصر يعملون لديها، وهذا يعني أن الحقول، وكل الطرائد، وكل الأشجار، ونهر النيل بما فيه من تماسيح، كانت ملكها. لم تكن هذه الرحلة بالنسبة إليها رحلة استجمام، أو رحلة علمية بقدر ما كانت التزاماً على الدولة. وقد مكّنتها هذه الرحلة من عرض قائد روماني قوي على شعبها، وكذلك من عرض الوفرة المصرية أمام ذلك القائد. فقد قام شعب مصر بدعم هذه الملكة ضد شقيقها عندما كانت مهددة منه وضعيفة تجاهه، وها هي تعود اليوم، بوجود قيصر إلى جانبها، ملكةً لا تقهر.

كانت مغادرة الإسكندرية تعني مغادرة المنطقة التي تتحدث اليونانية، والتوجّه نحو المناطق التي تتحدث المصرية، وكذلك مغادرة بلاد الشراب الأحمر إلى بلاد شراب الشعير. كان الإسكندرانيون يشعرون في هذه المنطقة الأخيرة بأنهم متفوقون حضارياً، وهي البلاد التي يُبجَّل فيها الفراعنة، ويحتفظ الكهنة فيها بنفوذٍ قوي. إنها المكان الذي لا يشكّك فيه

أحدٌ بعظمة كليوباترا. كانت المباني والمنشآت المشيّدة بالعقيق والغرانيت الأحمر، وآثار الماضي الخالد، ظاهرة للعيان، أما الطبيعة ذاتها فكانت أعجوبة من الأعاجيب. كتب أحد المسافرين الذي قام بالرحلة ذاتها في وقتٍ لاحق: "تجرعتُ الألوان مثل حمارٍ يلتهم الشوفان". عرَّفت كليوباترا قيصر إلى أطول واحةٍ في العالم وأروعها، وإلى ضفّتي النهر المخمليّتين الخضراوين، وإلى تربة القناة السوداء والقاسية، وإلى الأرض التي تغيب فيها الشمس بألوانها الحمراء والأرجوانية، وإلى أوقات الفجر البنفسجية. لم يتمكَن المسافران من تجاهل نقاط التوقف الإجبارية: الأهرامات التي ترتفع فوق أشجار النخيل قبل أن تختفي في السديم، وهياكل ممفيس ومعابدها حيث يقيم كاهن مصر الأكبر، وهو الذي استقبلهم بنفسه، والغرف البالغ عددها ثلاثة آلاف، والمبنية من الغرانيت، وهي متاهة تمتد فوق الأرض وتحتها، وكذلك مزار \الأسياد من التماسيح المشيّد فوق ضفاف بحيرة، وحيث تدرَّب هذه التماسيح على فتح فكوكها عند تلقيها الأمر بذلك. دُهش قيصر عندما رأى نظام الأقنية ذات المصاريع والسدود التي تؤمن مياه الري الضرورية للأراضي المزروعة، وتماثيل ممنون العملاقة التي ترتفع بأعجوبة بلونها الأبيض مقابل رمال الصحراء الذهبية، والتي يبلغ ارتفاعها ثماني وستين قدماً وهي مرئية من على بعد أميالٍ عدة. كما تقبع في التلة المقابلة مقابر وادي الملوك المحفورة في أعماق الصخور. ويأتي بعد ذلك إلى جهة الجنوب هيكل إيزيس الرائع، وهو الهيكل المزخرف الذي بنى قسماً منه والد كليوباترا، والذي يقع فوق جزيرة تحيط بها الشلالات السريعة عند فيلاي(*).

كانت أماكن الإقامة أكثر إثارة للإعجاب، وهي التي نالت نصيبها من الضخامة، وكان الهدف منها هو الإدهاش مثل ما كان الاستضافة.

(*) كان من المؤكد أن تمثال "أبو الهول" كان مخفياً عن أنظار قيصر وكليوباترا لأنه كان مطموراً بالرمال، وهو الذي بقي على هذه الحال لمدة تقارب ألف سنة.

غـادرت كليوباتـرا مـع قيصـر المدينـة من بحيرة ماريـوت التي تقع جنوب المدينة، أي حيث كان يرسـو الأسـطول المخصص للتسـلية. يتسـع الميناء هناك إلى ثلاثة مراكب ملكية يبلغ طول الواحد منها مئة قدم. كانت متون هـذه المراكـب مـن العـاج، كما أحاطت صفوفٌ كثيـرة من الأعمدة بمتون المراكـب، وظهـرت النقـوش الدقيقـة علـى هـذه الأعمـدة المقطوعـة من أشـجار السـرو. أما مؤخر المراكب ودفاتها فكانت مزيّنة بتماثيل مزخرفة يبلـغ ارتفـاع الواحـد منها ثماني عشـرة قدمـاً، ومعدّاتها كانـت من البرونز المصقـول، كمـا أن مصنوعاتهـا الخشـبية كانـت مرصعةً بالعـاج والذهب. كانـت كل هـذه المعـدات مطلية بعنايـة، بما فيها مجموعة التماثيل الملكية التي زيّنت طابقين أحدهما للمعيشـة والآخر للتسـلية. كانت غرفة المآدب مغطاة بسقف مقوى، بينما كانت الأعمدة ذات الطراز المصري تزيّن غرفة أخـرى، وهـي أعمدة منحوتة برسـومات أوراق الأقانثا وتويجات اللوتس، وبأنماطٍ سوداء وبيضاء متبادلة. امتدت مظلة أرجوانية محمولة على ألواحٍ خشـبية مقوسـة فوق المركب. لم يكن من المسـتغرب أن يحتوي المركبُ الملكي على قاعة رياضة، ومكتبة، وأماكن تبجيل ديونيسـوس وأفروديت، وعلى حديقة، وكهف، وقاعات محاضرات، ودرجٍ لولبي، وحمامٍ برونزي، وأماكن مخصصة للخيل، وعلى حوضٍ للأسماكِ.

على أيّ حال، لم يكن موكبهما متواضعاً، كما أن البيروقراطيين من المسـتوى المتوسـط كانوا يسـافرون مع موكب من عشـرة أشـخاص. كان أولئـك البيروقراطيـون لا يسـتطيعون العمـل من دون وجـود مجموعة من المحاسـبين، والخبازيـن، وخـدم الحمامـات، والأطباء، وخـادم الفضيات، والمسـؤول عن الأسـلحة. توجهت كليوباترا جنوباً برفقة قيصر مع حشـدٍ من الجنود الرومان وأفراد الحاشية المصريين. وكان القيام بواجب الضيافة خـلال إقامتهمـا فـي البر إلزامياً بالنسـبة إلى النـاس، والقيام به كان مرهقاً. تألّف الأسطول من أربعمئة سفينة تبحر كلّها خلف سفينة ملكتهم عبر نهر

مليء بالمراكب التي تحمل الأحجار والشراب، وبسفن التجار، وبزوارق الشرطة. وقد وقعت مسؤولية إطعام الملكة وتدليلها على الناس، وكذلك إغداق الهدايا عليها، وتسلية حاشيتها، إضافة إلى الاهتمام بترتيبات النقل. وقد استدعت هذه المهام الاهتمام بأمور الإقامة، والأمن، والتموين. لم يكن مستغرباً أن يأمر المسؤولون - في القرى التي تزورها الملكة - تابعيهم بإخفاء السلع من أجل تجنّب طلب الملكة الحصول عليها. كان ذلك أمراً معقولاً تماماً بالنظر إلى المطالب المقدّمة، فأقدم أحد المسؤولين غير الكبار على طلب 372 ساعوراً صغيراً و200 خروفٍ. كان المزارعون يعملون ليلاً ونهاراً كي يملأوا مخازنهم من المواد الضرورية، ولتخمير شراب الشعير، ومن أجل تكديس أكوام القش، وتجهيز دور الضيافة، وتجميع الحمير؛ كل ذلك كانوا يقومون به في أثناء موسم الحصاد. لقد سُرَّ شيشرون بعد مرور سنتين لتوديع قيصر عندما استقبل ذلك القائد ومرافقيه في مزرعته الريفية. قال شيشرون متنهداً: "تكفي مرة واحدة"، وذلك بعد أن شعر بأنه مرابع أكثر مما هو مضيف.

أبحرت كليوباترا وقيصر صعوداً في نهر النيل في "قصرهما العائم"، وكانت الرياح تهب خلفهما. وظهرت أشجار النخيل المحيطة بضفّتي النهر مثقلة بأثمارها، بينما أخذت سُعفها بالذبول قليلاً. وامتد بحر من سنابل القمح الذهبية وراء ضفة النهر، بينما التمعت أشجار الموز بألوانها الصفراء. كانت أثمار المشمش، والعنب، والتين، والتوت شبه ناضجة، بينما بدا الخوخ ناضجاً لأنه كان في موسمه. كما شوهدت الحمائم تطير لتعيد الكرة بعد ذلك. لقد عززت كل هذه المناظر الماثلة أمام قيصر وكليوباترا كل الأساطير الشائعة عن الوفرة في مصر، وكذلك عن القدرات الخارقة للنهر، إذ اشتهر النيل في أنحاء العالم القديم بأنه يفيض بالذهب، كما نُسبت إليه قدرات استثنائية. قيل كذلك إن مياهه كانت تتطلب نصف درجة الغليان التي تتطلبها مياه الأنهر الأخرى. يُضاف إلى ذلك أن المخلوقات

التي تعيش فيه كانت تصل إلى أحجام هائلة. وقد سبق لبطليموس الثاني أن زوّد ابنته بصناديق مليئة بمياه النيل عندما تزوجت بابن إحدى العائلات الملكية في سوريا، وذلك كي يضمن خصوبتها. (كانت في الثلاثين من عمرها في ذلك الوقت، لكن الأمر نجح). اشتُهرت النساء المصريات بأنهنّ كنّ ينجحن في إتمام الحمل أكثر من غيرهن، كما أنهن يستغرقن أوقاتاً أقل من أجل إنجاب طفل. كما قيل كذلك إنّ نسبة إنجابهن للتوائم كانت عالية جداً، حتى إنهن يُنجبن أربعة أولاد في بعض الأحيان. أما إناث الماعز التي تُنجب توائم في الأماكن الأخرى فقيل إنها تنجب خمسة صغار في مصر. تضع إناث الحمائم اثني عشر طيراً في مصر بدلاً من عشرة. وقيل كذلك إن جمجمة الذكر أقوى في مصر، حيث الصلع - أو المناطق الخالية من الشعر، والتي تغطى بخصلات الشعر الأخرى، كما كانت الحال مع قيصر - كان أمراً نادراً. وقيل أيضاً إن النيل يولّد الحياة باستمرار، لكن ما لم يتمكن قيصر وكليوباترا من رؤيته فقد كان كائنات ذلك النهر الأسطورية، وأنصاف الفئران، كما أنهما لم يتمكنا من العثور على الثعابين التي تنمو الأعشاب على ظهورها، أو على الناس الذين يعيشون تحت أصداف السلاحف التي يبلغ حجمها حجم مركب. أما ما شاهداه بين أجمات البردي، ونباتات اللوتس فكانت طيور مالك الحزين واللقلق، وأفراس النهر، وتماسيح يبلغ طول الواحد منها ثماني عشرة قدماً، وكميات لا حصر لها من الأسماك؛ وهي نادرة في روما. لكن المؤرخين القدماء كانوا مخطئين بشأن التفاصيل الأساسية، إلا أنهم أصابوا في موضوع الخصوبة في مصر. كان موطن كليوباترا أكثر المناطق الزراعية خصوبة في البحر المتوسط، حيث تبدو المحاصيل وكأنها ذاتية الإنبات والري.

كان ذلك صحيحاً منذ أول الدهر وهو تعبير يعني شيئاً، بالتأكيد، في مصر. تواجد شيء اسمه التاريخ القديم حتى في زمن كليوباترا، وهكذا بدا العالم أقدم عهداً حينها، ومثقلاً بالأساطير، ومقيداً بالخرافات. دُهش

قيصر، الذي كان إلى جانب الملكة، بما رآه من هندسة مضى عليها ثمانية وعشرون قرناً. ودأب الزائرون على سرقة محتويات المقابر الموجودة في وادي الملوك، وتخطيط رسومات وكتابات عبثية فوقها(*). تحولت إحدى عجائب الدنيا السبع إلى خرائب بحلول العام 47. لكن بلاد كليوباترا عرفت الضيافة قبل أن يعرف العالم بوجود شيء يدعى الحياة المترفة بوقتٍ طويل. وقد بدا في ذلك الوقت أن القرون كانت أقرب عهداً مما نشعر بها في هذه الأيام؛ فبدا الإسكندر الكبير أقرب عهداً من كليوباترا مما هو العام 1776 بالنسبة إلى القرن الذي نعيش فيه، ومع ذلك بقي الإسكندر الكبير حياً في أذهان الناس، وبقوة. لقد فصلت 1,120 سنة بين كليوباترا وأعظم قصة جرت في زمانه، لكن سقوط طروادة بقي نقطة مفصلية هامة في التاريخ. كان الماضي في متناول اليد على الدوام، كما تواجد نوع من الخشوع إزاء ذلك الماضي. ينطبق ذلك الأمر على مصر خاصة، وهي البلاد التي تمتلك ولعاً بالتاريخ، وهي التي حافظت على مدى ألفَي عام على كتابة سجلّ بالأحداث التي جرت. لم تتغيّر تلك البلاد المعزولة، والتي يصعب الوصول إليها، إلا قليلاً على مدى تلك السنين، ولم تتغيّر الفنون فيها إلا قليلاً. بدا أن رعايا كليوباترا امتلكوا سبباً وجيهاً دفعهم إلى اعتبار أن الزمن ما هو إلا حلقة من الأحداث المتكررة التي لا تنتهي، وقد ساهمت الأحداث التي جرت مؤخراً في تدعيم ذلك المفهوم. تمكّن مستشارو البطالسة من إقناع أولاد الملوك باغتيال أقرب أفراد عائلاتهم إليهم. وسبق لملكاتٍ في الماضي أن فرَرنَ من أجل تكوين جيوش. إن معظم ما يُمكن أن يُقال عن الرومان القاهرين في العام 47 كان يُمكن أن يُقال قبل ثلاثة قرون عن أسلاف كليوباترا من المقدونيين، وهي أمور يُمكن أن تنطبق عليها.

ساهمت كليوباترا وهي مرتدية ثوبها الكتاني الأبيض وواضعة

(*) كانت أكثر الكتابات شيوعاً: "رأيت، وكنت مندهشاً".

إكليلها في الطقوس الدينية التي جرت في أثناء رحلتها؛ وهي الطقوس التي استمرت منذ آلاف السنين. رسمت صورة لنفسها على أنها من \الأسياد الأحياء، لكننا لا نعلم كيف كان شعبها يعبّر عن تبجيله لها، إلا أن أغلب الظن هو أن الناس كانوا ينحنون بحضورها، أو كانوا يرفعون يداً بشكلٍ ما من أشكال التحية. أما بالنسبة إلى الذين كانوا يصطفون لرؤية الملكة، أو الذين وقفوا على طول الشاطئ، أو على جانبَي الطرقات، فإن قيصر وكليوباترا لم يمثّلا قصة غرامٍ فقط، بل كان ظهورهما معاً نوعاً من أنواع الظهورات الساحرة الآتية من عالم آخر، وكان الاثنان من \الأسياد الأحياء خلال زيارتهما للأرض. وقد شكّل الاثنان مشهداً مؤثراً؛ الروماني ذو الشعر الجميل، والذي يصلح لأن يكون نموذجاً للدّراسة، والذي يرتدي عباءته الأرجوانية الطويلة، والجالس إلى جانب ملكة مصر السمراء والنحيلة. زار الاثنان المواقع المبجلة، وأنصاب الملوك القدماء، والقصور الأخرى المنتشرة بمحاذاة النهر. لقد لقي الاثنان استقبالاً حافلاً من الكهنة الذين يرتدون عباءاتٍ بيضاء، ومن الحشود المرحّبة، وأبحرا معاً بين الأراضي المزروعة مترامية الأطراف، وعبر المناطق التي تتخللها أبراج مشيدة بالطوب الأحمر وذات السقوف المدرّجة الحمراء، وأمام البساتين الرائعة وكروم العنب والحقول الذهبية، وأمام تمثال "أبو الهول" نصف المطمور بالرمال، وأمام الصخور التي قُطعت منها حجارة المقابر. كما كافح الاثنان أسراب البعوض الصّغيرة، وهي من الظواهر الشائعة في الدلتا. كانت أصوات المجاذيف وعزف القيثارات تعلن عن قدومهما، أما رائحة البخور الحادة فكانت تعلق في الهواء الحار والرطب خلفهما لمدة طويلة.

كانت هذه الرحلة بمثابة إجازة مقارنة مع الأسابيع التي سبقتها، كما كانت رحلة متعة خالصة، ومغامرة، وشهر عسل، كما يُحتمل أن تكون مجرد فكرة أوحتها ظروف الراحة المسرفة التي عاشاها. لم يكن أي

روماني بحاجة إلى رؤية أي نموذج آخر عن الخلاعة. كانت كلمة "ترف" توحي بشيء وضيع قياساً إلى اللغة اللاتينية، وهي الكلمة المشتقة من فعل "يخلع"، وهي التي علقت لآلاف السنين مرتبطة مع كلمة "الفسق". قال آبيان إن قيصر جاب نهر النيل صعوداً برفقة كليوباترا و"استمتع معها بطرائق أخرى كذلك". لا يُستغرب أبداً بعد ذلك القفزُ إلى الاتهام بأنها حملت من القائد الروماني خلال هذه المغامرة، وذلك بعد أن خططت لذلك بنفسها، وجرى كل ذلك في بلاد رائعة، وهي البلاد التي سيُنتزع منها بالقوة. كانت كليوباترا، أو مصر، تمتلك هذا التأثير في الرومانيين المساكين والطيبين. كانت بلادها تمثل مضايقة وإغراءً بحد ذاتها. ويُحتمل أن يكون برنامج الزيارة قد خُطّط له مسبقاً، وهو الذي نُفّذ بحذافيره، لكن لن يتم تذكّر الرحلة على هذا النحو، إذ ورد في روايات لاحقة ذكر تردد قيصر في مغادرة البلاد، وأيضاً تردد كليوباترا بالسماح له بالمغادرة. رأى ديو أنها: "كانت ترغب في تأخيره لوقتٍ أكبر في مصر، أو أنها كانت ترغب في التوجّه معه إلى روما على الفور". تمكّن رجال قيصر من إقناعه بالعودة رغماً عنه. وقال سويتونيوس إن قيصر غرق في بحر حب الملكة المصرية، حتّى إنه كان مستعداً للحاق بها إلى الحدود الأثيوبية لو لم يهدده جنوده بالتمرد. وصلا في آخر رحلتهما إلى مكان يقع بين الصخور الوعرة إلى جنوب ما يشكل اليوم مدينة أسوان، وهناك نفّذ الموكب تغييراً صعباً في اتجاهه.

قال ديو إن قيصر بدأ بالإدراك، وإن ببطء، أن تأخّره في مصر "لم يكن مشرّفاً له ولا مربحاً" لكن المؤرخ يستبعد فترة الاستجمام في هذا السياق. لم يكن لقيصر أي أولاد أحياء في ذلك الوقت، أي إنه لم يُرزق بأطفال من زيجاته الثلاث؛ تحتفظ مصر بسمعتها الأسطورية في هذا الصدد. كانت كليوباترا في ربيع ذلك العام في أواخر أشهر حملها الذي كان دليلاً واضحاً على خصوبة بلادها التي تتفتّح أزهارها على الدوام،

والتـي تحصـد مواسـم الحبـوب نفسـها. وقد أكدت الملكـة بصورة قاطعة أسـطورة قدرات التكاثر التي تشـتهر بها بلادها العظيمة. أمضى الاثنان ما بين ثلاثة إلى تسـعة أسـابيع في النهر، وعادا مع أول فيضان للنيل، إذ عاد بهما التيار إلى القصر بكل هدوء. انطلق قيصر من الإسكندرية إلى أرمينيا التـي كانـت وقتهـا فـي حالة ثـورة، وأنجبت كليوباترا فـي وقتٍ متأخر من حزيـران طفـلاً نصفـه روماني، وهو يلامـس التبجيل من الجهتين، لأنه من البطالسة من جهة، ومن قيصر من جهة أخرى؛ وأخيراً، لقد شهدت الشمس شيئاً جديداً.

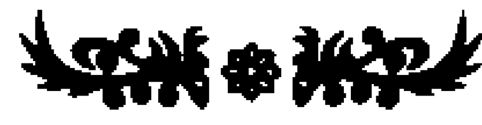
الفصل الرابع

العصر الحاضر ليس أبداً العصر الذهبي

الخادمة: "ما هي الأعذار التي سأقدمها للتغيّب عن المنزل لفترة طويلة؟".

أندروماك: "لن تحتاجي إلى الأعذار، فأنتِ امرأة بعد كل شيء".

يوريبيديس



غـادر قيصـر أرض مصـر فـي 10 حزيران، أي في وقـتٍ متأخرٍ كثيراً عـن الوقـت المحـدد، وقد سـبق ذلك أن غابت أخبـاره كلياً عن روما منذ شهر كانون الأول، وهكذا كانت في حالة اضطراب؛ الأمر الذي كان متأكداً منـه، لكـن الأمـور سـارت في ما بعد على ما يرام. أخذ قيصر معه شـقيقة كليوباترا كأسيرة حرب، وذلك على أسـاس أنها خدمة شـخصية، وكذلك سياسية له، وهي التي لا تزال من \الأسياد - اسميًّا على الأقل، إن لم يكن بالفعل - ومحبة لأشقائها. بقي نحو 12,000 جنديّ من الذين تبعوا قيصر في مصر من أجل حماية كليوباترا، وذلك في بادرة شخصية وسياسية في الوقـت ذاتـه. لـم تكـن الاضطرابـات الأهلية قطّ في صالحهمـا. بدا قيصر بالفعل متردداً في مغادرة مصر، وذلك بالرغم من عدم احتمال أن تكون قد اقترحت عليه مرافقته إلى روما في ذلك الصيف، أي كما يزعم ديو. لكن، مـن المؤكـد أن حديثـاً جـرى بينهما عن اللقاء، وذلك قبـل مغادرة قيصر، وهي المغادرة التي يبدو أنه أخّرها إلى أن عجز عن تأجيلها مرة أخرى.

جاء كليوباترا المخاض بعد مرور أسبوعين. إننا نعرف القليل عن واقعة الولادة الفعلية، أي مثل ما هي الحال عن الفترة الحميمة التي سبقتها(*). وقفت مجموعة من القابلات في حالة جهوزية دائمة، سواء أكان ذلك بوجود ما يستدعي عملهن أم لا. وقد تلقت إحداهن الطفل ملفوفاً بقطعة قماش، ثم أحكمت ربط القماش حوله. وتولّت قابلة أخرى قطع الحبل السري بحدّ حجر بركاني أسود مشحوذ. كان من المفترض أن يُعطى الطفل قدراً كبيراً من الحليب، وهي المهمة التي أُسندت إلى مرضعةٍ ملكية، ولم تكن متطلبات هذه الوظيفة تختلف عمّا يُطلب من الحاضنات هذه الأيام، أي إنه كان يُفترض أن تكون المرضعة لطيفة ونظيفة، إذ لم يكن من المقبول أن تكون تلك المرضعة "عرضة للغضب، أو كثيرة الكلام، أو غير مكترثة بأوقات الإطعام. أي إنه يُفترض بها أن تكون منظمة وحساسة". كما كان من المفترض بها عادةً أن تكون يونانية، أي أن تكون متعلمة. كانت تلك المرضعة في أكثر الأحيان زوجة محظوظة لأحد موظفي البلاط، وهي التي تتقاضى مرتباً محترماً بسبب مركزها الرفيع، والتي تبقى في منصبها سنوات عدة، ولذلك كانت هذه المرضعة تحمل معها خبرة أجيال عدة من الحكمة. ما العمل في حال ظهور مشكلة التسنين؛ أي ألم الأسنان؟ كان

(*) شكّك كثيرون في مسألة أمومتها لهذا الولد، وكذلك بالنسبة إلى وقت ولادته، أي مثل أي شيء آخر في حياتها؛ رحلة النيل، وإقامة القائد الروماني، وإيمانها الصحيح في أكتيوم. كان ظهور ذلك الطفل، وتوقيت ظهوره أنسب وأقوى من أن يُصدّقا، إذ استند المشككون في ذلك على عقم قيصر المفترض، فبالرغم من حياته الجنسية النشطة فهو لم يُنجب أي طفل خلال ستة وثلاثين عاماً. وأُثير موضوع أبوة قيصر للطفل منذ أيام سويتونيوس، لكن السجلات تُغفل بشكلٍ مريب ذكر هذا الموضوع حيث يتوقع المرء تعليقات ساخطة، ويُلاحَظ كذلك غيابُ الأدلة المادية في هذا الموضوع. ويُمكننا تفسير هذا الصمت على أنه تأكيد: كانت ولادة الطفل مكروهة، كما تواجد دليل كبير على أن كليوباترا قد خدعت قيصر، أي إنه من الأفضل عدم الحديث عن هذا الموضوع. كان من المؤكد أن قيصر يظن أن هذا الطفل ابنه، أي كما فعل أنطونيو وأوغسطوس.

العلاج النموذجي إطعام الطفل فأراً مقلياً. ما هو العلاج إذا أفرط الطفل في البكاء؟ تمثّل الحل في تحضير عجينة من قذارة الذباب ونبات الخشخاش، وهي الوصفة الكفيلة بإسكات أكثر الأطفال بؤساً.

كان بإمكان كليوباترا، لو أرادت، أن تستفيد من قدرٍ هائلٍ من النصائح المتعلقة بمنع الحمل والإجهاض، وبعض هذه النصائح فعالٌ بشكلٍ مدهش. كانت المعلومات المتعلقة بتنظيم النسل، والتي كانت كليوباترا ملمة بها هي الفضلى، وتكشف عن التيارات المتعاكسة للعلم والأسطورة، والتنوّر والجهل. كانت كل فكرةٍ قيمةٍ في عصر كليوباترا يقابلها أحد المعتقدات الغريبة. كانت وصفة هيبوقراط المتعلقة بالإجهاض - القفز إلى الأعلى، مع ملامسة كعبي القدمين للردفين سبع مرات - وهي الوصفة التي مضى عليها ثلاثمئة عام في ذلك الوقت، قد جعلت من بعض إجراءات القرن الأول تبدو منطقية تماماً. أما الوصفة التي شاعت في القرن الأول، أي أن توضع، قبل شروق الشمس، بيضة عنكبوت وتثبّت إلى الجسم بقطعة من جلد غزال، فقيل إنها تمنع الحمل لمدة اثني عشر شهراً. لم تكن هذه الوصفة أقوى، أو أكثر فاعلية، من تثبيت كبد هرٍّ إلى القدم اليسرى. كما قيل إن العطس في أثناء العلاقة الحميمة ينجح بطريقة عجائبية. وقد اشتُهر روث التماسيح في أيام كليوباترا بأنه مانع قوي للحمل. ينطبق الوصف ذاته على الوصفة التي تشتمل على كلية بغل، وعلى بول أحد الخصيان. يمكننا القول بشكلٍ عام إن كل المعلومات المتعلقة بالمواد التي تسبب الإجهاض كانت أكثر تفصيلاً من تلك المتعلقة بالمواد المانعة للحمل. كانت مكونات حبة منع الحمل، والتي تؤخذ بعد العلاقة الجنسية، تشتمل على براز فأرة، وعسل، وراتنج. وظل الناس إلى ما بعد زمن كليوباترا بوقتٍ طويل يؤكدون على أن رائحة المصباح بعد إطفائه تسبب الإجهاض. في الوقت ذاته، برهن أحد العلاجات العشبية التي كانت سائدة في زمن كليوباترا فعاليته. كما تبيّن أن الحور الأبيض، وثمار العرعر، والشمار، تمتلك كلها

قوى مانعة للحمل، كما أن موادّ غيرها، مثل الخل، والشبة، وزيت الزيتون، بقيت قيد الاستعمال حتى وقت قريب. تواجد كذلك، ومنذ أزمانٍ بعيدة، الغشاء الحاجز، وهو الذي كان مؤلفاً من الصوف المبلّل بالعسل والزيت. ضمنت كل هذه الوسائل نتائج أفضل من طريقة الحسابات - معرفة أوقات الخصوبة عند المرأة - وهي التي كانت فائدتها مشكوكاً فيها بالنسبة إلى الأشخاص الذين يعتقدون أن المرأة تكون أكثر خصوبةً عندما تقترب من دورتها الشهرية وبعدها مباشرة.

بدا أن الأمومة أكثر ما ناسب كليوباترا التي كانت في الثانية والعشرين من عمرها في ذلك الوقت، إذ لم يكن باستطاعة أي عمل آخر أن يضمن لها مستقبلها أفضل من أن تحمل بطفل قيصر. ظهرت بعض الصعوبات في أن كلاً منهما كان متزوجاً من شخصٍ آخر. (كانت كليوباترا، من الناحية العملية، أرملة متزوجة للمرة الثانية خلال فترة حملها). وقد رأى المصريون أن قيصر لم يكن جديراً بالأبوة لسببين: الأول أنه لم يكن من البطالسة، والثاني أنه لم يكن متحدراً من أسرة مالكة. أما من وجهة نظر الرومان فلم تكن هناك فائدة تُرجى من نشر خبر أبوته، بل إن الأمر كان محرجاً في أفضل الأحوال. أما من وجهة نظر كليوباترا، فإن الإجراءات الدبلوماسية الأخرى لم تكن بفعالية هذا الإجراء الشخصي بالكامل. كانت الملكة سابقاً منشغلة جداً بمسألة بقائها على قيد الحياة حيث إنها لم تفكر كثيراً في مسألة من سيخلفها على العرش، لكنها تمكنت من الأمل في تفادي مصير الإسكندر الكبير، وهو الذي مات من دون وريث. ستتمكن الآن سلالة البطالسة الرائعة من الاستمرار، يُضاف إلى ذلك كون الطفل صبياً. كان المصريون مستعدين للخضوع إلى فرعون أنثى، لكن سجلّ بيرنيس الرابعة أوضح أن المرأة تحتاج إلى رفيق ذكر، حتى لو كان الأمر كما تفعل راقصة الباليه في رقصها الثنائي؛ أي كوسيلة زينة بدلاً من أن يكون عوناً فعلياً لها. أما عندما يصبح قيصيريون أو قيصر الصغير - أي

كما لقّب سكان الإسكندرية قيصر الخامس عشر - في حضن كليوباترا، فلن تجد صعوبة في الحكم كملكة أنثى. وقد حقق قيصيريون إنجازاً هاماً حتى قبل أن يبدأ بالكلام، أي إنه محا أي دورٍ يُمكن لعمّه الضعيف أن يلعبه. لكنّ شقيقة بطليموس الرابع عشر، وهي الأكبر منه سناً، وسواء أأدرك ذلك أم لا، تمكّنت من التحكم بالسلطة النظرية وبإدارة البلاد.

أما الأهم من ذلك كله فهو أن توقيت كليوباترا كان مثالياً، ويبدو أن أحداً، أو قدراً كبيراً من الحظ، ساعدها بالفعل على الإنجاب عندما كان ذلك أمراً في غاية الأهمية والفائدة. تزامنت ولادة قيصيريون مع الفترة الأولى من فيضان النيل الصيفي، وهو الأمر الذي أشار، نفسياً، ورمزياً، ومادياً، على موسم وفير. اختفت التمنيات اليومية أمام الاحتفالات، بينما كانت مياه النيل تَزداد تعكراً باللون الأخضر وتمتلئ بالطحالب، وكانت تزداد باستمرار من الجنوب إلى الشمال. امتلأت السلال الواحدة بعد الأخرى بعناقيد العنب، وثمار التين، والبطيخ، وكذلك كانت مواسم العسل وفيرة بدورها. احتفلت كليوباترا في هذا الوقت بالذكرى السنوية لإيزيس، وهي مناسبة هامة مليئة بالطقوس في روزنامة المناسبات والاحتفالات السنوية. يُقال إن الدموع التي تفيض من تلك السيدة القوية هي التي تتسبب بارتفاع منسوب مياه النهر. اعتاد رعايا كليوباترا على تقديم الهدايا (الإجبارية) في الاحتفال الخاص بها، وهو عملٌ يثير منافسة محمومة بين الذين يقومون بخدمتها. كانت القوارب المحملة بالفواكه والأزهار تصل إلى القصر من كل ناحية من نواحي مصر. قرّب مولد قيصيريون إلى الأذهان ارتباط كليوباترا بإيزيس، لكن كليوباترا استمدت، من ناحيتها، هذه الفكرة من أسلافها العظام، والذين ارتبطت أسماؤهم منذ 250 عاماً بتلك السيدة القديمة. كانت تلك السيدة تعتبر من بين أعظم الأسياد في عصر كثرت فيه الأمنيات، كما تمتعت بقوى لا حدّ لها تقريباً: كانت إيزيس هي التي اخترعت الأبجدية المصرية والإغريقية على السواء، وهي

التي فصلت الأرض عن السماء، وهي التي وضعت الشمس والقمر في مساريهما. تمكنت، بقوة، لكن بلطف، من إبداع النظام من الفوضى. كانت لطيفة ومواسية، وكذلك كانت سيدة الحروب والصواعق والبحر، كما تمكنت من شفاء المرضى وإقامة الموتى. أشرفت هذه السيدة على علاقات الحب، واخترعت الزواج، ونظمت الحمل، وهي التي زرعت المحبة التي تربط الأولاد مع والديهم، وابتسمت للحياة الريفية. فاضت السيدة كذلك بالرحمة، والخلاص، والإنقاذ. كانت كذلك الأرض؛ الوالدة الكاملة، وهي مثل معظم الأمهات، تمثّل شيئاً من الساحرة العارفة والقادرة والغائبة عن الأنظار.

نالت إيزيس إعجاب كليوباترا وتابعيها بشكلٍ متساوٍ، وهي التي تدمج بمرونة بين ثقافتين. وفي بلاد يجيب فيها كثيرون على أسماءٍ مختلفة باليونانية والمصرية، كانت تلك السيدة بمثابة بانية الأمة ورمزها الديني، وهي التي اجتمعت في شخصها ديميتر، والسيدة أثينا، وهيرا، وأفروديت. توزعت هياكلها في الإسكندرية، كما أن تماثيلها الطينية كانت تزيّن معظم البيوت. كانت امرأة مدهشة وتمتلك هالة شهوانية، لكن تواجدها لم يكن مرحّباً به في الخارج. تمكنت تلك السيدة الأخاذة والقوية من إرباك العالم الروماني الذي كان يميل أكثر إلى العسكرة، وهو العالم الذي نقل إليه التجار الإسكندرانيون عظمة كليوباترا. أما قيصر فقد منع كهنة إيزيس من دخول روما. لقد سبق ذلك أن ارتفع في العام 80 ق.م هيكل لإيزيس في تلك المدينة، وذلك فوق تلة الكابيتولين، لكنّ الهيكل تعرّض للهدم ثم أُعيد بناؤه، وهو الأمر الذي تكرّر في فترات منتظمة من التاريخ في زمن كليوباترا. وصلت شعبية إيزيس إلى حد امتناع أي عامل عن حمل فأسه عندما صدر أمر هدم هذه الهياكل في العام 50، وهكذا اضطر أحد القناصل إلى نزع عباءته الرسمية كي يبدأ بضربات الهدم الأولى.

يصعب علينا تحديد ما إذا كانت هي المسؤولة عن تفوق النساء في

مصر، وإن كانت هي السباقة في ذلك، أم إن ملكات البطالسة هن اللواتي عـززن نفـوذ تلـك السيدة(*). لكـن، يمكننا الجـزم بأنها هـي التي أدخلت مفهـوم المسـاواة بيـن الجنسـين. فقـد ذُكِر فـي بعض الروايـات أن إيزيس منحت النساء القوة ذاتها التي منحت الرجال إياها. وعلى أي حال، كانت السـيدة هبـةً نموذجيـة لكليوباترا. أرادت الوالدة الجديـدة الاحتفال بولادة قيصيريـون فأمـرت بسـك نقودٍ معدنية يظهر فيهـا ولدها بصورة حوروس، وهو طفل إيزيس. (كانت الصورة ثنائية اللغة بشـكلٍ يناسـب الشـعب. كان يُمكـن أن يُفهـم - وبسـهولة - أنهـا صـورة تمثّـل أفروديت مـع إيروس). أسـهمت الأحـداث التاليـة بتعزيز الربط بين كليوباتـرا وإيزيس. وقد لعبت كليوباترا دورها بصورة أكمل وأدق مما فعلته أي ملكة من البطالسة قبلها؛ فكانت تظهر مثل السيدة، وترتدي عباءة كاملة من الكتان ذات ثنايا متعددة وتخطيطات بألوان قوس القزح مع طيةٍ في أسـفلها، كما أن العباءة كانت ضيّقـة وملتفـة مـن الردف الأيمن وحتى الكتف اليسـرى، وحيث تُربط في المنطقـة التـي تفصـل عند الصدر. ارتدت كليوباترا تحت هذه العباءة درعاً يونانية مريحة، وأحياناً كانت ترتدي رداءً طويلاً، وكانت تضع إكليلاً على رأسـها، وخصلات شـعرها اللولبية تلتف حول عنقها. أما في المناسـبات الدينية فكانت تضع تاج الريش الفرعوني التقليدي، وقرص الشمس، وقرنَي ثـورٍ. أخلـت إيزيـس المتقلبـة مكانها بعد مرور سـبعة وأربعين عاماً لوالدة عزباء تمكنت من احتلال مكانها بالكامل.

لـم تعـزّز الأمومة سـلطة كليوباترا فقـط - كانت الملكة المصرية في

(*) وضع أحد المؤرخين الذين عاشوا في زمن كليوباترا ملاحظات بدت غير دقيقة؛ وإن كانت كذلك، ورد فيها أن إيزيس هي المسؤولة عن النظام الاجتماعي الشاذ في مصر. وقد زعم ديودوروس أن المصريين، واحتراماً منهم لحكمتها العظيمة، قد أقروا أنه "يتعيّن على الملكة أن تتمتع بسلطة وتبجيل أكبر من السلطة والتبجيل اللذين مُنِح الملك إياهما. أما بين الأشخاص العاديين فتتمتع الزوجة بسلطة أكبر من سلطة زوجها، كما أن الأزواج يتعهدون في عقد الزواج بطاعة زوجاتهم في كل الأمور".

تلك الأيام والدة أرضية أكثر من كونها امرأةً جذابة وخطرة - لكنها عززت كذلك روابطها مع الكهنة المحليين الذين أسبغت عليهم منافع هامة؛ وهي التي تابعت في هذا المجال ما قام به والدها الذي كان يتفاخر، حتى عندما كان في الخارج، بأنه بنى هياكل كثيرة وعزّز علاقاته مع رجال الدّين المصريين الذين لعبوا دوراً محورياً في حفظ النظام بين السكان المحليين، كما لعبوا دوراً إيجابياً في شؤون الدولة. وقفت الهياكل في نقطة الوسط بين الحياة الدينية والتجارية، ولهذا حدث تداخلٌ بين البيروقراطيين اليونانيين وبين طبقة النبلاء المصريين. كان يُمكن لوزير المالية أن يشرف كذلك على إطعام الحيوانات المبجّلة، أما الكاهن المسؤول عن مداخيل الهياكل فكان يمكن أن يكون تاجر قصبٍ في الوقت ذاته. فيما كان أولئك الذين يحملون ألقاباً عالية في هيكل ممفيس يحملون ألقاباً عالية كذلك في عالم التجارة، ويحتلون مناصب رفيعة في بلاط كليوباترا. كانت هذه علاقة تبادل المنافع: كان الفرعون سيداً على الأرض، وهو لذلك كان ضرورياً للكهنة من الناحية الدينية، أي كما كان الكهنة حاجةً ضرورية بالنسبة إلى كليوباترا من الناحية المالية والسياسية. عمل الكهنة كمحامين وكتّاب عدل، وكانت الهياكل بمثابة مراكز إنتاجية، ومؤسسات ثقافية، ومجمعات اقتصادية. كان يُمكن للمرء أن يزور أحد الهياكل كي يجري عقداً، أو كي يستشير طبيباً، أو من أجل استعارة كيسٍ من الدقيق. كما يُمكن للهيكل كذلك أن يمنح حق اللجوء داخل جدرانه، وهو حق منحت كليوباترا في العام 46 مزار إيزيس إياه، كما منحت في أواخر أيام حكمها كنيساً يقع في جنوب الدلتا هذا الحقّ. (يُمكن أن يكون ذلك نصيبها من الوفاء بالتزاماتها؛ كان يهود تلك المنطقة جنوداً أشداء عندما احتاجت كليوباترا إلى جيش في تلك الأيام). كان من المستحيل، من ناحية المبدأ، أخذ أي شخص مُنح حق اللجوء أو إبعاده، وقد شكّل الهيكل المكان المناسب للجوء، كما كانت الهياكل تقوم بإقراض الأموال، وحتى إنها كانت تفعل ذلك

للبطالسة في بعض الأحيان.

اضطلع الكهنة كذلك بمهمة مراقبة حركات مياه النيل، وهو النهر الذي تزيد بفضله فعلياً ثروات مصر أو تنخفض، أي إن النهر كان يتسبب بفائض في الثروة أو يحمل كوارث كبيرة. وكانت الحماسة تعمّ الناس إذا ارتفعت المياه أربعاً وعشرين قدماً، أما إذا وصل ارتفاع المياه إلى إحدى وعشرين قدماً فإنهم يشعرون بالابتهاج. أما إذا وصل إلى ثماني عشرة قدماً، وهو الموسم الذي تعلق فيه الأوحال رمادية اللون بضفتي النهر وترفض فيه الوصول إلى اليابسة، فإن ذلك يشير إلى موسم متعب. حدث ذلك في السنة السابقة، أي عندما بدا النيل متقلباً مثل الزمن. فكان فيضان العام 48 كارثياً، وهو الأمر الذي لاحظته كليوباترا في أثناء رحلتها في الإسكندرية. تبيّن في النهاية أن الفيضان بلغ سبع أقدام ونصف، وهو أقل ارتفاع لحظته السجلات. (وصل الاقتصاد المصري إلى مرحلة الركود التام بسبب الجفاف، وهو سبب آخر زاد من سهولة وصول المجندين المعادين للرومان في ذلك الخريف). كان النهر هو الذي يحدد العلاقات الأسرية الحميمة كما يفعل بالنسبة إلى السياسة القومية. أبرم أحد الأبناء اتفاقية مع والدته: فتعيّن عليه تزويدها بكميات محددة من القمح، والزيت، والملح إلا إذا انخفض منسوب النهر إلى ما دون مستوى معيّن، وستتكفل هي في هذه الحالة بالقيام بالأعمال المنزلية. كانت هياكل كثيرة مزودة بأعمدة لقياس ارتفاع مستوى مياه النهر. وكان الكهنة يراقبون المياه سراً وباهتمام شديد، ويقومون بمقارنة الأرقام بصورة يومية مع أرقام السنة الماضية. وكانت هذه المراقبة تمكّن المسؤولين عند كليوباترا من تقييم المحاصيل وحساب الضرائب. بلغت الهندسة في مصر مستويات عالية بالنظر إلى الهوس بالقياسات ومقارنة المعطيات.

يفسّر الهوس بالنسبة إلى أوضاع السنين الماضية الاهتمام بالتاريخ كذلك؛ بالرغم من أن ذلك النظام كان أقل دقة. كان إطعام الناس أمراً

في غاية الأهمية، وهو التزام كانت تفاخر به كليوباترا، كما وصفت نفسها على أنها سيدة الوفرة. فعلت ذلك لسببٍ هام، وهو أنها كانت تحول دون شعور رعاياها بالجوع. لم تتمكن كليوباترا من تكوين احتياطات بسبب صرامة النظام المعمول به، ولم يكن أمامها في أوقات الأزمات أي خيار غير إجازة توزيع الإعانات من المستودعات الملكية. كانت عبارة "لم تحدث مجاعة في أثناء فترة حكمي" شائعة جداً، ومثيرة للارتياح إلى درجة أنها كتبتها على هياكلها، وهذا ما فعله ملوك آخرون. لعبت الدعاية قديماً الدور ذاته الذي تلعبه هذه الأيام، وبدا في تلك الأيام وجود ترابط ضئيل بين وقائع الأوضاع الغذائية، وذلك التصريح المشرق، لكنه لم يكن مغلوطاً مطلقاً.

تخلصت كليوباترا في منتصف العام 47 من كل مسؤولي البلاط الذين تآمروا عليها، كما تخلصت من جميع أفراد أسرتها المعادين لها، وهكذا وصلت الاضطرابات الأهلية إلى حدّها الأدنى، ومع ذلك كانت سيادتها مطلقة. قال ملك هيلينستي في وقتٍ سابق متأففاً: "إن أي شخص يعرف العمل المتعب المطلوب من الملوك، وكل تلك الرسائل التي يتعيّن عليهم قراءتها أو كتابتها، لن يجهد نفسه حتى برفع إكليل عن الأرض". لم يمتلك ذلك الملك أي تجربة مع طبقة البيروقراطيين الهلينستيين الثرية، أو الثمرة الطبيعية للحضارة الفخورة بإدارتها، والغنية بالبردي، وذلك بالإضافة إلى شغفٍ غير محدود بالسجلات والإحصاءات. لخّص ديودوروس برنامج حاكم آخر من القرن الأول، وهو برنامج كان يُمكن أن يكون برنامج كليوباترا كذلك، والتي اعتادت بعد إيقاظها أن تتصفح حزم المراسلات الآتية من الأنحاء كافة، وكان مستشاروها يلخصون لها أوضاع الدول، وكانت تتراسل مع كبار الكهنة وزملائها من الحكام. كانت الرسائل تبدأ بمقدمة تقليدية، أي بالسؤال عمّا كانوا بخير، وإذا كانت

أوضاعهم العامة والخاصة تسير على ما يرام، وإذا كان الأمر كذلك فهي بخير. كانت تصدر القرارات كذلك، وتملي المذكرات على الكتبة، وتوقّع عليها. كانت تفعل ذلك وتزيد عليها في بعض الأحيان في ما يتعلّق ببعض القرارات، كلمة قوية تعني "للتنفيذ". لم تكن تتوجه إلى الحمّام، أو ترتدي ثيابها، وتتعطّر، وتضع مساحيق التجميل إلا بعد فراغها من تلك الأعمال. كانت تتوجه بعد ذلك من أجل تقديم أضحيات مدخنة إلى \الأسياد. أما استقبال الزوار الذين يريدون بحث قضايا تتعلق بشؤون الدولة، أو الهياكل، أو القضاء، فكان محدداً في ساعة معينة من المساء. كانت بعض هذه المقابلات عديمة الجدوى، حتى إنها كانت تدفع بملك سابقٍ للنوم. أما مسؤوليات كليوباترا فكانت تضاهي مسؤوليات إيزيس: لم تكتفِ بتنفيذ العدالة، وقيادة جيش وأسطول، وتنظيم الاقتصاد، والتفاوض مع القوى الخارجية، وترؤس احتفالات الهياكل، لكنها كانت تحدد أسعار المواد الخام، وتشرف على برامج نثر البذور، وعلى توزيع هذه البذور، وعلى أوضاع الأقنية في مصر، وعلى المخزون الغذائي. فكانت بذلك قاضية، وملكة، وسيدة. كانت كذلك أعلى سلطة تنفيذية في البلاد التي تديرها يوماً بيوم. كما كانت تترأس الهيئتين الكهنوتية والسياسيّة على حدٍّ سواء، بالإضافة إلى أنها كانت تُعتَبر أكبر مسؤولة عن التجارة في البلاد؛ فكانت أعمال الدولة تستغرق القسم الأعظم من أوقات يومها. يمكننا أن نوافق على قول ذلك الملك الهلينستي القديم إنّ السلطة المطلقة تستهلك المرء بصورة مطلقة.

كانت مجموعة واسعة وقوية من البيروقراطيين تعمل تحت إدارة كليوباترا؛ فعلى الصعيد المحلي كان الكتبة الإقليميّون، ومساعدو الكتبة، ورؤساء القرى، والكتبة، وجامعو الضرائب، ورجال الشرطة، ينفذون أوامرها. أما على الصعيد القومي فإن إحدى المسؤولات الماليات الكبيرات ووزيرة الداخلية، أي الديوكيتس، كانت تشرف على عمل الدولة، وساعدها

على ذلك فريق من مساعديها. وظّفت كليوباترا مساعدين شخصيين، وكتاب المذكرات، وحلقة مقربة من المستشارين ووزراء الخارجية والفلاسفة. وقد شغل اليونانيون والمصريون الناطقون باليونانية مناصب رفيعة، وترافقت هذه المناصب مع ألقاب توحي بالروابط العائلية: إذا كان المرء قوياً جداً فسيتمكن من أن يكون من ضمن جمعية الأصدقاء الأوائل، أو جمعية الورثة. كانت كليوباترا تعرف بعض هؤلاء المستشارين وتثق بهم منذ أيام طفولتها، وبعضهم عملوا تحت إدارة والدها، وكانت على اتصالٍ مستمر مع بعضهم - الديوكيتس على سبيل المثال - كما اعتادت على مراجعة السجل الرسمي اليومي لمساعِدتها الشخصية.

سمحت الدولة بوجود آلية متعبة لإنجاز الأعمال، وقد استندت هذه الآلية على فرضيّتين: الأولى، يتعيّن على كليوباترا فرض الضرائب على شعبها، الثانية، يبقى على الشعب أن يملأ خزناتها. أدخل أسلافها لهذه الغاية عدة ضوابط في كل مستوى من مستويات المهن، وهكذا لم تتواجد خطوط حكومية حمراء. (لم يسع قيصر إلى الشعور بالدهشة. كانت روما في ذلك الوقت مدينة خالية من البيروقراطية). كانت محاصيل كليوباترا هي الكبرى في عالم البحر المتوسط، وهكذا تمكنت من إطعام شعبها من هذه المحاصيل، واستمدت سلطتها منه، كما أن موظفيها الرسميين راقبوا كل مجالٍ من مجالات أنشطة الشعب. وزّع المسؤولون البذور، وكان المزارعون يعيدون ما يساويها في أوقات الحصاد، إذ كان المزارع يؤدي قَسَماً ملكياً يتعهد بموجبه بالتصرف بمواسمه بحسب ما وعد به. أما البحارة فلم يتمكنوا من ملء سفنهم من البضائع إلا بعد أن يقسموا على تسليمها "سليمةً ومن دون تأخير". اعتاد الشاحنون في زمن كليوباترا الإبحار مع نماذج مختومة برفقة مجموعة من الحراس المسلحين، وذلك بعد عقود من الاضطراب. وكان باستطاعة سفينة كبيرة من سفن البطالسة حمل ثلاثمئة طن من القمح في النهر؛ كانت سفينتان من هذه السفن على

الأقل تقومان بهذه الرحلة يومياً، وذلك من أجل إطعام سكان الإسكندرية وحدهم.

انسحب هذا التدقيق بالشكليات على كل زاوية من زوايا الاقتصاد، وهكذا قارن الباحثون نظام البطالسة مع نظام الاتحاد السوفياتي، أي إنه كان من بين أكثر الاقتصادات الموجهة في التاريخ. كانت معظم الأراضي أراضيَ ملكية بغض النظر عن هوية الشخص الذي يزرعها، وهكذا تمكّن موظفو كليوباترا من تحديد استخدامات تلك الأراضي، وراقبوا هذه الاستخدامات. ولم يكن باستطاعة أحد قطع شجرة إلا بعد أخذ موافقة الحكومة، وكذلك الحال بالنسبة إلى تربية الحيوانات، أو تحويل حقل شعير إلى حديقة من أشجار الزيتون. كانت كل تلك الأمور محددة بشكل دقيق بهدف إدخالها في السجلات، لكنها كانت مصممة حيث تخدم البيروقراطي المشرف على الأرباح أكثر مما تخدم المزارع، وأكثر من المحصول. كان المرء معرضاً للملاحقة القانونية - كما حدث مع إحدى النساء الجريئات - إذا زرع أشجار نخيل من دون إذنٍ رسمي، كما لم يتمكن مربو النحل من نقل قفرانهم من مقاطعة إدارية معينة إلى مقاطعة أخرى، لأن هذا العمل يُربك السلطات. كما لم يكن من المسموح للقرويين مغادرة قراهم خلال الموسم الزراعي، ويصدق الأمر ذاته على مربي الماشية في المزارع. كانت كل الأراضي ممسوحة، وكل الماشية معدودة، وكان يجري عدّ الماشية في ذروة موسم الفيضان عندما يكون من المتعذر تخبئتها. كانت المناويل تحت المراقبة، وذلك للتأكد من استمرارية عمل كل واحد منها ومن صحة تعداد الخيطان. وإضافة إلى ذلك، لم يكن من المسموح قانوناً أن يمتلك المرء معصرة زيتون، أو أي شيء مشابه لها. كان المسؤولون يمضون أوقاتاً طويلة في إقفال الأعمال غير الشرعية؛ كانت الهياكل وحدها معفاة من هذه القاعدة لمدة شهرين كل عام يجري بعدها إقفال المعاصر. كان صانعو الشراب يعملون بموجب رخصة، ويستلمون من الدولة كميات الشعير التي

كانوا يدّعون أنهم يصنعون الشراب منها. وما إن ينتهي هؤلاء من بيع ما عندهم من كميات شراب الشعير حتى يتوجب عليهم تقديم أرباحهم إلى المسؤول الملكي، وهو الذي يقوم بحسم كلفة المواد الأولية والإيجار من مداخيلهم. تمكنت كليوباترا بهذه الطريقة من التأكد من إيجاد سوق لمخزونها من شراب الشعير ومن الأرباح المفروضة على مبيعاتها منه. وقد حرص المسؤولون الذين يعملون تحت إدارتها على التدقيق في كل المداخيل بعناية كبيرة، وعلى التأكد من زرع أشجار التوت، والصفصاف، والآكاسيا في الوقت المناسب لها، كما حرصوا على مراقبة صيانة كل الترع - الأقنية - لكنهم حرصوا على الأخص، وتكراراً، على بث رسالة متفائلة في كل أنحاء مصر مفادها: "لا يُسمح لأحد بأن يفعل ما يشاء، لكن الأمور تسير نحو الأفضل".

كان هذا النظام معقداً بشكلٍ لا مثيل له، لكنه كان فعالاً جداً، أما بالنسبة إلى كليوباترا، فقد كان مريحاً جداً. كانت أعظم المهن في مصر، مثل زراعة القمح، وصناعة الزجاج، والبردي، والكتان، والزيوت، والمراهم، بمثابة احتكارات ملكية، وهكذا تمكنت كليوباترا من جني أرباح مضاعفة من تلك السلع. أما الضرائب التي تفرضها السلطة الملكية على بيع الزيت فكانت تصل إلى 50 بالمئة. كما عمدت كليوباترا إلى فرض ربح بعد إعادة بيع الزيت، وكانت نسبة الربح تصل أحياناً إلى 300 بالمئة. اعتاد رعايا كليوباترا على دفع ضريبة على الملح، وعلى الخنادق المخصصة لمنع السيول، وضريبة رعي، أي إن الضرائب فُرضت عموماً على كل سلعة تحمل اسماً. أما مالكو الحمّامات - وكانت تُعتبر من الأعمال الخاصة - فقد كانوا يدينون بثلث مداخيلهم للدولة. كما كان الصيّادون المحترفون يسلّمون 25 بالمئة من مجموع صيدهم، أما صانعو الشراب فقد كانوا يسلمون 16 بالمئة من الكمية التي ينتجونها. كانت كليوباترا تشغّل عدة مصانع للصوف والنسيج، وذلك بواسطة فريق من

الجواري. لقد بدت كليوباترا مبجلة نظراً إلى شمولية معرفتها، وهكذا كان الحاكم من البطالسة "يعرف كل يوم كم يساوي كل واحدٍ من رعاياه، وما يفعله معظمهم".

كان ذلك نظاماً يشجع على إساءة الاستغلال، وهو الأمر الذي حدث بالفعل. شملت السياسة المالية مجموعة واسعة من الناس، وذلك بدءاً من الديوكيتس إلى المديرين، والمديرين المساعدين، وأمناء الصناديق، والمساعدين الشخصيين والمحاسبين. كان كل واحد من هؤلاء مستعداً لتسوية الخلافات مثل ما كان مستعداً لإثراء نفسه، ولذلك كانت فرص الفساد وإساءة الإدارة كبيرة جداً. بقيت آثار الفساد، مع ذلك، حتى إلى ما بعد أمجاد الإسكندرية ذاتها، وهي الأمجاد التي سمحت بها آلية عمل البطالسة. تسبب موظفو كليوباترا بقدرٍ كبير من الاستياء مثل ما يتسبب به الفساد. كان هؤلاء الموظفون أنفسهم مزارعين أو صناعيين، وهكذا كانت المصالح العامة تتداخل مع الخاصة، كما أن مصالح المديرين العامين والتاج فشلت في التوافق. يُضاف إلى ذلك عدم تطابق مصالح الحكومة وجباة رسومها الذين كانوا مستعدين دوماً لفرض ضرائب على المصنوعات اليدوية، وحتى لو كانت مجرد إناءٍ من العسل، أو ثوب حمّام مصنوعٍ من جلد الماعز؛ كان المسؤولون من مختلف المستويات يختلفون في ما بينهم. لم تضع الفرص الشخصية عند البيروقراطية العقيمة في خضم هذا التداخل إلا نادراً. أشارت دوروثي طومبسون، وهي الباحثة في شؤون البطالسة، إلى أن أسرة كليوباترا خصصت قسماً كبيراً من وقتها من أجل وضع تعريف للموظف الجيد. كان على هذا الموظف أن يكون متيقظاً، ومستقيماً، ومنارة للنية الطيبة، كما كان يُفترض به الابتعاد عن رفاق السوء، والتحقيق في كل الشكاوى، والابتعاد عن الابتزاز، وأن يعمد في جولاته التفتيشية إلى "إدخال البهجة في قلوب الذين يلتقيهم، ورفع معنوياتهم". كانت تلك مواصفات تكاد تكون خيالية إلى حدٍّ كبير. وقد

جزمت طومبسون بعد استعراض الأدلة قائلةً: "يمكننا أن نستنتج أنه من المستحيل لموظفٍ كهذا ألاّ يكون سيئاً". كان إغراء الفساد كبيراً جداً، لأن الأجر كان متدنياً جداً أو حتى لا وجود له، لأن النظام كان منغلقاً جداً على ذاته(*).

كانت لائحة التجاوزات مذهلة جداً، إذ عمد الموظفون الرسميون في المملكة إلى وضع أيديهم على أراضٍ كثيرة، كما اختلسوا الأموال، وصادروا المراكب، وأمروا باعتقالات عشوائية، وفرضوا ضرائب غير قانونية، كما ابتدعوا مخططات ابتزاز معقدة. وبالإضافة إلى ذلك كلّه، مارسوا تجاوزاتهم على اليونانيين والمصريين على حدٍّ سواء، وعلى موظفي الهياكل والفلاحين. كانت كليوباترا تتدخل بانتظام بين رعاياها وبين موظفيها المفرطين في الجشع، وهكذا كان التأنيب الملكي يطال حتى أصحاب المراتب الرفيعة، كما حدث في إحدى المرات أن اشتكى كبير المحنِّطين من تعرّضه للمضايقات، كما ظهر في مناسبةٍ أخرى وفد من المزارعين في ربيع العام 41، ليشتكي من الضرائب المضاعفة، فما كان من كليوباترا إلا أن أعفتهم من هذه الضرائب في الأعوام التالية. شكلت الاحتجاجات المتكررة والتوبيخات نسبة كبيرة من ذلك التدفق الضخم لأوراق البردي، والتي تشتمل على تقارير، وعرائض، وتعليمات، وأوامر. فقد تدفقت كمية كبيرة من الشكاوى خلال السنوات الخمس الأولى من حكم كليوباترا. وكان العصيان والخداع متواجدين داخل منزل الملكة كذلك، وبين البوابين، والصيادين، والمسؤولين عن الخيول، وسقاة الشراب، والخياطين، وخدم غرف النوم.

(*) كان رجال الشرطة هم الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة، فقد احتل اليونانيون المراكز العليا في ذلك الجهاز بينما احتل المصريون المراكز الدنيا، لكنهم جميعاً شكّلوا سلطة عادلة، وكانوا موظفين فعالين ومتجاوبين بشكل نادر، وكثيراً ما لجأوا إلى التأنيب. لقد قام هؤلاء بتنفيذ القوانين بصورة جدية، وعملوا بصورة مستقلة نوعاً ما، وهكذا تمكنوا من تجنيب البطالسة القلق بشأن "الحمير المسروقة والاعتداءات على الجدات".

اهتمت كليوباترا حتى بالشكاوى التي لم تجد طريقها إليها، وكانت تحلّها بنواياها الطيبة وحكمتها، وبالتزامها بالعدالة. كان رعاياها ينظرون إليها كما كانوا ينظرون إلى إيزيس، أي بصفتها الحارسة الرحيمة لرعاياها، وهم فعلوا ذلك بسبب دورها الأرضي أو المبجل على حدٍّ سواء. كان المصريون يتضرعون باسمها بصوت عالٍ عندما كانوا يعانون بسبب التحقير، أو حتى عندما كانوا يسعون وراء إصلاح الخلل. كانت الملكة تمتلك عدداً كبيراً من المندوبين، وهم موظفون رسميون كان يجري اختيارهم بعناية من بين مرشحين عديدين، لكن، لم يكن هناك شيء يمنع الجهة المظلومة من التقدم من كليوباترا مباشرة، وهؤلاء كانوا يتوافدون إليها بأعداد كبيرة. كما اعتادت تلك الملكة الحكيمة على منح عفو عام قبل بداية جولتها في البلاد كي تدقق في الحسابات، أو من أجل ترؤس الاحتفالات الدينية، أما عدم القيام بذلك فكان يعني تواجد عدد كبير من الشاكين. وممّا يبدو، كانت الحكمة السائدة في البلاد هي: يمكنك أن تكتب التماساً عندما تكون في حالة شك، أو أن تكلف كاتب القرية ليكتبه عنك. كانت كل أنواع الجُنح والمخاصمات تجد طريقها إلى كليوباترا. شمل ذلك هروب الطباخين، والإضرابات التي ينظمها العمال، والتحايل على الجمارك، وتسليم السلع المزيّفة أو المغشوشة، وعدم دفع المرتبات للحراس، وبائعات الهوى اللواتي يبصقن على زبائن محتملين، والاعتداء على الحوامل من قبل نساء أزواجهن السابقين، وسرقة الموظفين الحكوميين للحيوانات، واستيلاءهم على أبراج الحمام، واعتداء العصابات على محصّلي الضرائب، والتخلف عن دفع الديون المستحقة. وقد كثُر في ذلك الوقت سارقو المقابر، كما تعددت المشاكل المتعلقة بالري، وكثُر الرعاة المهملون، والفواتير المعدلة، والتوقيفات الخاطئة. تكررت كذلك حوادث الإهانات التي ينزلها خدم الحمامات بالزبائن، وكثيراً ما كانوا يهربون بملابسهم. اشتكى كذلك عدد كبير من الآباء الضعفاء من بناتهم

المهملات. أما بائع العدس الذي يحمل ترخيصاً، وهو من دافعي الضرائب المستقيمين، فقد اشتكى من اختراق باعة القرع المشوي لسوقه؛ قال إن أولئك "يأتون في الصباح الباكر، ويجلسون قربي وقرب العدس الذي أبيعه، وهكذا لا تعود عندي فرصة لبيع العدس". كان بإمكان ذلك البائع إقناع السلطات بإعطائه وقتاً إضافياً لدفع الإيجار المترتب عليه. إذ كانت الخلافات المتعلقة بالضرائب شائعة إلى حدّ أن بطليموس الثاني، وقبل قرون عدة، منع المحامين من تمثيل موكّليهم في حالاتٍ كهذه. وكتب القائمون على خدمة الهررة المبجّلة في أحد الهياكل هذا الاستجواب: هل يُفترض بهم المساعدة على جني المحاصيل، وهم الذين يمتلكون إعفاء خاصاً من القيام بالعمل اليدوي؟

كانت كليوباترا تهتم بأمور مزعجة أخرى، وذلك عندما كانت إحدى النساء تُفرغ، مصادفةً، وعاءها على أحد المارة حيث يحصل شجار تتمزق بسببه عباءته إرباً إرباً، ثم تعمد المرأة إلى البصق في وجهه. كان من الطبيعي الافتراض في تلك الحالات أن الفوارق العرقية تلعب دورها. يصدق الأمر ذاته عندما يقوم أحد خدم الحمامات بإفراغ إناءٍ من الماء الساخن على أحد الزبائن، ثم يزعم ذلك الزبون، "سفعت تلك المياه بطني وفخذي اليسرى نزولاً حتى ركبتي، وهكذا تعرضت حياتي للخطر". كان من الطبيعي في بلادٍ محكومة غالباً من اليونانيين، ويقوم المصريون فيها بغالبية الأعمال، أن تنشأ مشاعر معينة حتى ولو ظلت كامنة تحت السطح. (كانت المرأة التي بصقت والخادم في الحمام مصريين، بينما كانت ضحيتاهما من اليونانيين. يُحتمل أنه لم يتواجد أكثر من 500,000 يوناني في كل أنحاء البلاد، وكانوا في غالبيتهم يعيشون في الإسكندرية). لكن، بالرغم من كل التوافق المحموم، وبالرغم من تعددية أعراق سكان الإسكندرية، فإن مخاطبة إسكندراني كانت تعني مخاطبة حبشي أو أحد مواطني سكيثيا، أو أحد الليبيين، أو أحد الصقليين، أي إن ثقافتين متوازيتين

بقيتا ثابتتين. وهذه الحقيقة لم تبرز في أي مكان آخر أكثر من بروزها في النظام القضائي. كانت العقود المكتوبة باليونانية خاضعة للقانون اليوناني، أما تلك المكتوبة باللغة المصرية فقد كانت خاضعة للقانون المصري. لقد تمتعت المرأة المصرية في ذلك الوقت بحقوق ليست متوافرة لنظيرتها اليونانية، وهي التي تخضع لزوجها في جميع الحالات. كما طُبّقَت الأنظمة بطريقة مختلفة، فالمواطن المصري الذي يحاول مغادرة البلاد من دون إذن يخاطر بخسارة ثلث ممتلكاته، أما اليوناني الذي يقوم بذلك فكان يدفع غرامة. بقيت الحضارتان منفصلتين في مجالات معدودة. اكتشفت كليوباترا وقيصر أن عادات معينة كانت عصية عن النقل. وكما قيل: الملفوف اليوناني كان يفقد نكهته عندما يُزرع في التراب المصري.

يُضاف إلى ذلك أن الاقتصاد الذي سلّمه أوليتس إلى ابنته كان في حالةٍ مزرية. لقد قال شيشرون متأففاً قبل سنوات: "عندما ورثنا الجمهورية من أسلافنا كانت مثل لوحة جميلة شحُبت ألوانها مع مرور الزمن". يصدق الأمر ذاته على مصر التي ورثتها كليوباترا، وهي التي كانت أيام أمجادها وراءها. ويرجع السبب غالباً في عدم محبة الشعب لأوليتس إلى الضرائب الباهظة التي فرضها كي يدفع المبالغ المتوجبة عليه للرومان. سدّدت كليوباترا المبالغ المترتبة على والدها، لكن ذلك تسبب في إفراغ خزنتها. (عندما وصلت أنباء موت والدها إلى روما كان أول الأسئلة التي طُرحت هو: من يحكم مصر الآن؟ وكيف نحصل على أموالنا؟) نجح أوليتس في تبديد ثروة أسرته التي جمعها أسلافه. لكن، ما هو مدى النجاح الذي أحرزته كليوباترا؟ اتبعت الملكة سياسةً حازمة في الأمور المالية، كما أقدمت على تخفيض قيمة عملتها بحوالى الثلث، كما امتنعت عن إصدار نقودٍ ذهبية جديدة، وخفضت من قيمة العملة الفضية؛ الأمر الذي فعله والدها قبل وقت قصير من موته، حتّى عُرِف عهدها بمعظمه بعصر البرونز، إذ عمدت الملكة إلى تشجيع إنتاج ذلك المعدن على نطاقٍ واسع

بعد أن توقف العمل به لفترة من الوقت. وقد أعلنت كليوباترا عن اختراعٍ عظيمٍ عندما أدخلت نقوداً معدنية بقيم مختلفة إلى مصر؛ كانت العلاماتُ التـي أُدخلـت علـى العملـة، وللمرة الأولى هي التي تحدد قيمتها. كان من المفترض أن تُقبل هذه العملات بحسـب قيمها الظاهرية بغضّ النظر عن أوزانها، وهو الأمر الذي أسفر عن ربحٍ وفيرٍ لها.

يختلـف الباحثـون بـدءاً مـن تلكَ النقطةَ حول سـلامة الوضع المالي لكليوباترا. لـم ترهق خزانتها المالية عندما طُلب منها في وقتٍ لاحق تقديم المساعدة إلى روما، الأمر الذي دفع بعض المحلّلين إلى القول إنها كانت مقيدة مالياً. ومع ذلك، امتلكت الملكة سبباً وجيهاً يدفعها لأن تبرهن أنها أقـل جهوزيـة لتقديـم الدعـم؛ لقـد رفضت التصرّف على أسـاس أنها دمية رومانيـة. قيـل فـي ذلـك الوقت إن أوليتـس لم يمتلك مـالاً يكفيه لتكوين جيش من المرتزقة في العام 58، أي عندما كلّفته قضية قبرص عرشه، بينما امتلكـت كليوباترا، وبشـكلٍ من الأشـكال، وبعد عقدٍ مـن الزمان، الأموال اللازمة لتجنيد هذا الجيش بعد مضي عامين فقط على اسـتلامها السـلطة، أي عندمـا دبّـر شـقيقها انقلابـاً ضدهـا. كمـا تمكنت من تثبيـت الاقتصاد، ووجهـت البـلاد للسـير فـي طريق مسـتقر. أوحـى العدد الكبير لمنافسـيها السياسـيين بأنهـا تحتفـظ بثـروة خاصـة لا بـأس بهـا. ازدهـرت القرى في مصر العليا، كما ازدهرت الفنون كذلك، وكانت شـهية سـكان الإسـكندرية الثقافيـة تحـت حكـم كليوباترا حديثة العهد، فظهـرت تحفٌ نوعية، وكمية عالية القيمة لم يُشـاهَد مثلها منذ نحو قرنٍ من الزمان، فأوحت منحوتات المرمر والزجاج المزخرف بالذهب بأن عهدها لم يكن عهد إفلاس.

كم بلغت كليوباترا من الثراء؟ كان نصف مداخيل إنتاج مصر يدخل خزائنهـا. أمـا مداخيلهـا النقديـة السـنوية فيُحتمـل أنها وصلـت إلى ما بين 12,000 و15,000 تالنت من الفضة، وهو مبلغ كان يُعتَبَر ضخماً بالنسبة إلـى أيّ ملـك. قـال أحد المؤرخين حديثاً: "كان هذا المبلغ يسـاوي ذلك

الذي امتلكه جميع مديري صناديق الاستثمار معاً في السنة الماضية". (كان التضخم مشكلة خلال القرن بأكمله، لكن هذا التضخم أثّر في الفضة التي تمتلكهـا كليوباتـرا بشـكلٍ أقل من تأثيره فـي عملتها البرونزية). كانت أكثر عمليـات الدفـن إسـرافاً تكلّف تالنتـاً واحداً، وهو ما يسـاوي الجائزة التي يُمكـن لملـك أن يدفعهـا فـي مبـاراة للشـراب يجريهـا في قصـره. وكانت الغرامة التي تصل إلى نصف تالنت تعتبر باهظة جداً بالنسـبة إلى القروي المصـري. أمـا المدخـول السـنوي للكاهن - وهو منصـب محترم في أيام كليوباتـرا - فـكان يصـل إلـى 15 تالنتـاً سـنوياً، ويُعتبـر مبلغاً سـخياً جداً، وهو المبلغ الذي دفعه بطليموس الثالث عندما "اسـتعار" من أثينا النسـخ الرسمية لكتب أسخيلوس، وسوفوكلس، ويوريبيديس، والمبلغ نفسه أيضاً الذي ضحى به عندما فضّل عدم إرجاع هذه النصوص التي لا تقدّر بثمن. وضع القراصنة فدية ضخمة وصلت إلى 20 تالنتاً على رأس يوليوس قيصر الشـاب، وهو الذي ما لبث أن اعترض بالقول إن قيمته تسـاوي 50 تالنتاً علـى الأقـل لأنـه قيصـر. أمـا إذا كان علـى المرء الاختيار مـا بين دفع 50 تالنتاً وبين دخول السـجن فإنه يفضّل دخول السـجن، وكان بالإمكان بناء نُصُبين تذكاريين لعشيقة يحبها المرء كثيراً وذلك مقابل مبلغ 200 تالنت. كانت النفقات المترتبة على كليوباترا عالية جداً، كما كانت سنواتها الأولى في الحكم صعبةً جداً بسـبب حالة النيل التي لم تكن مسـاعِدة قطّ. لكن، وبحسب أكثر التعريفات صرامة - التي ترجع إلى أكثر المواطنين الرومان رزانة - فإنها كانت شديدة الثراء. زعم كراسوس أن أحداً ليس ثرياً بحق إذا لم يكن بإمكانه الاحتفاظ بجيش(*).

(*) تظهر كليوباترا بحسب لائحة حديثة على أنها تحتل المرتبة الثانية والعشرين في لائحة أغنى الأشخاص في التاريخ، وهكذا، فهي تتخلف عن جون د. روكفلر والقيصر نيقولا الثاني، لكنها تأتي قبل نابليون وج. ب. مورغان. وقيل إن قيمة ثروتها الصافية بلغت 95.8 مليارات دولار، أي إنها أغنى بثلاث مرات من الملكة إليزابيت الثانية. وبطبيعة الحال، يستحيل علينا، تحويل العملات عبر العصور التاريخية.

يمكننا القول إن كليوباترا أبلت بلاءً حسناً، وبشكل غير اعتيادي، على مستوى الشؤون الداخلية للبلاد. وكان من الواضح أنها واجهت سيل الطلبات والالتماسات بشكلٍ فعال، وهكذا تمتعت بتأييد الشعب. كان عهدها مميزاً بغياب الثورات في مصر العليا، وهي التي اختفت فجأة وكأنها لم تستمر لمدة قرن ونصفٍ من الزمن. امتلكت كليوباترا بحلول صيف العام 46، كل الأسباب التي تدعوها إلى الاعتقاد أن مملكتها وصلت إلى وضع مستقر بما يضمن استمرار الإنتاجية فيها. فظل مستوى مياه النيل يرتفع باستمرار، وهكذا بدأت الملكة بإصدار تعليمات إلى أمناء الخزينة الموثوقين، وإلى مسؤولي البحرية، وإلى حاضنات ابنها. وقد تمكّن هؤلاء في غضون سنة واحدة من تجميع مجموعة من المناشف، وأدوات المائدة، وأدوات المطبخ، والمصابيح، والشراشف، والسجادات، والوسائد. حضّرت كليوباترا نفسها للإبحار إلى روما مع ابنها الذي بلغ في ذلك الوقت سنة واحدة من العمر، ترافقهما حاشية كبيرة. فأبحرت برفقة مساعديها، وسعاتها، وحراسها الشخصيين، وكذلك شقيقها الذي كان زوجها في الوقت ذاته؛ وذلك لأن البطلمي الحكيم لا يترك وراءه أحد أقاربه. بقي سبب سفرها غير واضح لنا، أي إننا لا نعرف إذا كان سبب سفرها يتعلق بشؤون الدولة، أم يتعلّق بعاطفتها. كما يُحتمل أنها سافرت من أجل تعريف قيصر إلى طفله الرضيع الذي لم يسبق له أن رآه. ومن المحتمل أيضاً أنها كانت تنتظر خبراً من قيصر، وهو الذي ابتعد عن روما لمدة ثلاث سنوات تقريباً. تزامنت عودة قيصر من شمال أفريقيا، حيث تمكن من إحراز نصرٍ كبير على من تبقى من أنصار بومبي، مع وصول كليوباترا. لكننا نعرف أمرين بشكلٍ قاطع: الأول، أنها ما كانت لتترك مصر لو لم تكن ممسكة بزمام البلاد بكل حزم، والثاني، أنها لم تكن تجرؤ على أن تطأ أرض روما لو أن قيصر لا يرغب في وجودها هناك.

يُستبعد كثيراً أن لا تحسب كليوباترا بشكلٍ جدي حساب رحلتها الأولى عبر المتوسط، إذ حملت هذه الرحلة مخاطرة كبيرة حتى في أفضل الظروف، فتحطّمت سفينة هيرودس عندما قام برحلة مشابهة، أما يوسيفوس، وهو المؤرخ الروماني اليهودي، والذي كتب عن كليوباترا بعدائية، فقد أمضى ليلة كاملة وهو يسبح في مياه المتوسط بعد سنوات عدة. إننا نمتلك ما يوحي بأن كليوباترا كانت متوترة في أثناء سفرها، فقد سافرت بصفتها شخصية رفيعة، وكانت برفقة أطباء، وفلاسفة، وخصيان، ومستشارين، وخياطين، وطباخين، هذا بالإضافة إلى فريقٍ كامل يهتم بابنها قيصيريون. كما اصطحبت معها هدايا فاخرة: جراراً من مياه النيل، وأقمشة ملتمعة، وقرفة، وأقمشة مطرزة، وقوارير عطور مصنوعة من المرمر، وكؤوساً من الذهب، وفسيفساء، وبضعة نمور. كان عليها أن تحافظ على صورة معينة، كما امتلكت كل الأسباب التي تدفعها للإفصاح عن ثروة مصر. ظهرت في ذلك الصيف أول زرافة في روما فأحدثت تأثيراً مدوياً. ويُحتمل أن تكون هذه الزرافة قد أبحرت شمالاً مع كليوباترا. (كان ذلك المخلوق الذي يتعذر وصفه "مثل الجمل من كل النواحي"؛ لكن عدا البقع الظاهرة عليه، وطوله العالي، وساقيه، ورقبته). يُفترض أن تكون كليوباترا قد عبرت في سفينة بحرية، وأكبر الظن أن تكون سفينة رفيعة ذات سَوارٍ متعامدة، ومزودة بثلاثة صفوف من المجاذيف، ويبلغ طولها 120 قدماً. كان هذا النوع من السفن سريعاً، وقد امتلكت الملكة عدداً منها، يقوم بالتجذيف فيها فريق مؤلف من 170 مجذفاً، كما كانت تتسع لمجموعة صغيرة من الركاب الذين يجلسون في الخلف، أما سفن الحاشية والهدايا فكانت تسير خلفها.

لم تكن هذه الرحلة للاستجمام، وذلك بغض النظر عن الوصف الذي أعطتها إياه في مصر. كان الملك الهلينستي يغامر بالسفر إلى الخارج

لأجل هدفٍ معين، وليس من أجل المتعة(*). لم تغادر كليوباترا المدينة بهدوء، أي كما فعل والدها. كان منظر ذلك الأسطول الصغير غير اعتيادي مطلقاً، وهو المنظر الذي لم تشهده الإسكندرية منذ جيلٍ من الزمن على الأقل، إذ إنه لم يحمل شيئاً من الرصانة أو من الاقتصاد، وقد احتشدت الجماهير كي تستمتع بهذا المشهد، ولتوديع ملكتها. فعلت ذلك برفقة الموسيقى والهتافات، وكل ذلك وسط سُحب من البخور. سمعت الملكة هذا الضجيج من على متن سفينتها إلى أن تلاشت عن ناظريها تلك الوجوه، وأشجار النخيل الطويلة والرفيعة، والشاطئ الصخري، والتماثيل العملاقة، والسقف الذهبي للسيرابيوم، وأخيراً المنارة ذاتها. يُستبعد كثيراً أن تكون كليوباترا قد رأت من قبل ذلك البرج المشيّد بالحجر الكلسي بمراياه العاكسة من الجهة الأخرى المواجهة للرياح. لم تختف قمة تمثال بوسيدون عن ناظريها تماماً وراء ذلك السديم الفضي إلا بعد أن أمضت الملكة أربع ساعات كاملة في البحر.

بقيت أمامها رحلة ألفَي ميل، ويمكن للملكة أن تتوقع تمضية شهر كاملٍ في البحر. أما في أسوأ الأحوال فإن الرحلة قد تستغرق عشرة أسابيع. كانت روما تقبع شمال غرب الإسكندرية مباشرة، لكن الرحلة كانت تتطلب صراعاً مستمراً مع الرياح السائدة. عمدت سفينة الملكة إلى الإبحار إلى الشرق والشمال في البداية وقبل التوجه غرباً، وذلك بدلاً من المخاطرة بعبور المتوسط، وقد وصلت السفينة إلى الميناء ليلاً، حيث كانت المساحة المخصصة للمؤن محدودة جداً، كما أن الطاقم لم يتمكن من النوم أو تناول الطعام على متن السفينة. وكانت القرى تتلقى خبر وصول الأسطول مقدماً، فيخرج سكانها إلى الموانئ مزودين بالمياه والمواد الغذائية. تمكنت كليوباترا بهذه الطريقة الغريبة من السفر على طول

(*) كان الملك الصالح يُنصح بالبقاء في الوطن، وكان الفقراء يستاؤون من غيابه، أما الأغنياء المجبرون على مرافقته فكانوا يشعرون بأنهم ذاهبون إلى المنفى.

شاطئ شرق المتوسط، ثم سارت بمحاذة الشاطئ الجنوبي لآسيا الصغرى، وشـمال جزيرتـي رودس وكريـت، وعبـر البحر الأيونـي. لاح الأفق خلف جزيرة صقلية فتكشّف عن شبه الجزيرة الإيطالية. ومن المحتمل أن يكون أسـطول الملكة قد سـار بمحاذاة السـاحل الغربي، وصعوداً مع بحر تيرانة الهادئ، وأن سـفنه تهادت بمحاذاة ذلك الشـاطئ الذي كان مقفراً، والذي تناثرت فوقه منازل حجرية فخمة. تكاثرت هذه الممتلكات الخاصة بأروقتها وأعمدتها كثيراً على مدى العقد التالي؛ حدث هذا التكاثر بسرعة إلى درجة الازدحام. شاهدت مدينة بومبيي واستمتعت بعدها بمنظر مينائها المزدحم، وكذلك بمشهد مرفأ بيوتيولي - التي أصبحت الآن مدينة بوزيولي - حيث ترسـو سـفن الشـحن المصرية الضخمـة. قدمت الملكة ذبائـح مدخنة إلى \الأسياد، وذلـك مـن أجـل تقديم الشـكر لهم على وصولها بالسـلامة. أما لو لم يكن تمثال إيزيس منحوتاً في مقدمة سـفينة كليوباترا، لكانت سـيدة الملاحة ستقف في مكان ما على سطحها. عبرت كليوباترا من سفينتها إلى أوروبا فوق سلمٍ متحرك في نهاية الأمر، وما لبثت أن أكملت رحلتها براً من بيوتيولي إلىَ روما في رحلة استغرقت ثلاثة أيام، مستخدمةً فيها عربة نقـلٍ مبطنـة سـارت بها فوق طرقات رمليـة، أو مليئة بالحصى. كانت تلك طرقـات وعـرة ومليئـة بالغبار وسـط حرارة خانقة، وهـو أمر مثير في حالة كليوباترا. اعتاد المسـؤولون الرومان في أثناء قيامهم بجولات تفتيشـية في آسـيا الصغرى السـفر برفقة "أربع عربات، وخيول، وعدد كبير من العبيد، وذلك بالإضافة إلى قردٍ يوضع في عربة خاصة، وعدد من الحمير البرية"، وكان أولئـك الموظفـون غيـر معروفين. أما في الشـرق، فإن قوافل عربات السلع المكونة من مئتي عربة لم تكن بالأمر النادر.

خيمـت سـحابة عطـرة ممتزجـة بالغبار مـن روائح الشـراب، والمرّ، والقرفـة فـي أجـواء ضواحـي رومـا. وقـد انتشـرت المقابـر المتواضعـة والأضرحـة الضخمـة علـى جانبَـي الطريـق، وكذلـك مـزارات ميركـوري

(عطارد)، وهو سيّد المسافرين. يُقال إن ممثلي قيصر قد التقوا كليوباترا خارج أسوار المدينة في ذلك الوقت، هذا إذا لم يكونوا قد التقوها سابقاً، وساروا أمامها فوق جسرٍ خشبي حتى وصلوا إلى مزرعة كبيرة تقع على الضفة الغربية من نهر التيبر. كما تلقت المساعدة عندما استقرت في القسم الجنوبي الشرقي من تلة جانيكوليوم، وهي موقع رائع وإن كان لا يصل إلى فخامة المنازل الأخرى الموجودة في المدينة على التلة المقابلة. شاهدت الملكة في منزل قيصر الفخم مجموعة كبيرة من اللوحات والمنحوتات، والقاعات ذات الأعمدة، وحديقة خضراء تمتد على طول ميلٍ واحد؛ وهي حديقة شديدة النضرة بالمعايير الرومانية، لكنها كانت متواضعة جداً بالنسبة إلى الملكة المصرية. استمتعت كليوباترا بالمشهد الرائع للمدينة التي تمتد في الأسفل، وتطلعت من خلال أشجار الصنوبر والسرو إلى نهر التيبر الذي تميل مياهه إلى اللون الأصفر، وإلى التلال المتناثرة أمام ناظريها، والتي تتناثر عليها منازل روما بأسطحها الحمراء، وهي العاصمة التي تتألف بمعظمها من شبكة من الطرقات المتعرجة والمباني المكتظة بالسكان. فاقت روما الإسكندرية من حيث عدد السكان، ولكن ذلك حدث منذ عهدٍ ليس ببعيد. كان ما يقارب المليون نسمة يسكنون روما في العام 46، لكن المدينة كانت عادية وبسيطة في كل النواحي الأخرى. وكانت لا تزال ذلك المكان الذي يتمكن فيه كلب ضال من وضع يدٍ بشرية تحت طاولة الطعام، وحيث يتمكن ثور من اقتحام غرفة مخصصة لتناول الطعام. أما إذا أردنا مقارنة روما مع الأمكنة الأخرى، فيمكننا القول إن ذلك يشبه الانتقال من بلاط فرساي إلى فيلادلفيا عندما كانت في القرن الثامن عشر. كان ماضي الإسكندرية المجيد واضحاً جداً، أما مستقبل روما المجيد فلم يكن مرئياً بالنسبة إلى كليوباترا، وهكذا كان من السهل أن يخلط المرء بين العالم القديم والعالم الجديد.

إننا نمتلك دلالات تشير إلى أن كليوباترا قد ابتعدت عن الأضواء،

أو أنها فعلت ذلك بقدر ما تسمح به ظروفها غير العادية. قال ديو بلهجة عنيفة: "لأنها أتت إلى المدينة مع زوجها وسكنت في منزل قيصر بالذات، وهكذا ناله من سوء السمعة ما نالته". عاش قيصر، كما يعرف الجميع، في وسط المدينة وقرب الفوروم - الساحة العامة - مع زوجته كالبورنيا. شعر الجميع، بالرغم من ذلك، بنفوذ كليوباترا وبلدها سواء أحصل ذلك بطريقة مباشرة أم غير مباشرة. بدأ قيصر فور عودته بإدخال عدد من الإصلاحات التي استوحاها في أثناء إقامته في مصر؛ حيث كان من الواضح أنه درس التجديدات التي حصلت هناك بانتباهٍ يماثل ذلك الذي أبداه عندما تفحص الأشياء التقليدية. أما أبرز الأعمال التي بدأ بها فكان ذلك المتعلّق بالروزنامة الرومانية، وهي التي كانت في العام 46 تسبق الفصل بثلاثة أشهر. بقيت السنة الرومانية، ولفترة طويلة، تتألف من 355 يوماً، لكن السلطات كانت تضيف شهراً إليها بصورة غير منتظمة، أي حين يكون هذا العمل مناسباً لأغراضها. قال بلوتارك في هذا الصدد: "كان الكهنة وحدهم هم الذين يعلنون عن الوقت، وكانوا كلما رأوا ذلك مناسباً يقحمون ذلك الشهر في الروزنامة من دون أن يُعلموا أحداً بذلك". كانت الفوضى هي النتيجة الوحيدة لهذا العمل لأنه في إحدى المراحل لم يتمكن شيشرون من تحديد العام الذي يعيش فيه. تبنى قيصر الروزنامة المصرية التي يشتمل كل شهرٍ من أشهرها الاثني عشر على ثلاثين يوماً، لكن مع إضافة فترة خمسة أيامٍ في نهاية السنة. اعتُبرت هذه الروزنامة في النهاية "الروزنامة الذكية الوحيدة التي عرفها التاريخ البشري". تبنى قيصر كذلك تقسيم الليل والنهار إلى اثنتي عشرة ساعة، وهو النظام الذي عرفه في الإسكندرية. كان الزمن، وبشكلٍ عام، مفهوماً أكثر غموضاً ومرونة في روما، حيث كان الزمن عرضة لنقاشاتٍ لا تنتهي(*). وقد ساهم الفلكيون وعلماء الرياضيات الذين اصطحبتهم كليوباترا معها في مساعدة قيصر على

(*) لاحظ سينيكا أنه "من الأسهل على فيلسوفين أن يتفقا من تطابق ساعتين".

خططه الجديدة. وكانت نتيجة كل هذه الجهود أن العام 46 شهد تصحيحاً يتميّز بالجرأة، لأنها كانت "آخر سنة من الحسابات المشوشة"، وهي التي اشتملت على 445 يوماً، وعلى أسابيع إضافية أُضيفت بين شهرَي تشرين الثاني وكانون الأول.

مارس ذلك الوجود المصري تأثيراً واسعاً على قيصر، وهكذا كان السؤال الوحيد الذي طُرح في الأشهر الثمانية عشر التالية هو الدرجة التي وصل إليها ذلك النفوذ. يمكننا ملاحظة مدى إعجابه الواضح بمملكة كليوباترا من خلال إصلاحاته. لقد أرسى قيصر أسس مكتبة عامة، وذلك كي يجعل الأدب الإغريقي واللاتيني في متناول أوسع عددٍ ممكن من السكان. وقد كلّف قيصر أحد الباحثين البارزين، والذي كان من بين الذين عفا عنهم في المعارك ليس لمرة واحدة بل مرتين، بأن يقوم بجمع الأعمال الأدبية اللازمة. أما هوس الإسكندرانيين بالمحاسبة فقد كان معدياً: أطلق قيصر عملية إحصاءٍ رسمي للسكان. (كشف الإحصاء عن أن صراعه مع بومبي قد أتلف المدينة، لأن الحرب الأهلية أسفرت عن تقليص عدد سكان مدينة روما). أما الترع التي تحتوي على بوابات - لرفع منسوب المياه - والسدود الصغيرة الموجودة في مصر، فقد تركت انطباعاً كبيراً عنده، فاقترح قيصر تجفيف المستنقعات غير الصحية الموجودة في وسط إيطاليا، وذلك للحصول على أرض صالحة للزراعة. كما تساءل عن السبب الذي يمنع تصميم قناة بين البحر الأدرياتيكي والتيبر، وذلك لتسهيل التجارة، وخطّط كذلك لإعادة تصميم الميناء في أوستيا، والذي كان ميناءً صغيراً في ذلك الوقت تكثر فيه الصخور ويتميز بمياهه الضحلة. كان من شأن إنشاء طريق ذي طراز إسكندراني فتح المدينة أمام الأساطيل الكبيرة. منح قيصر أيّ شخصٍ في روما يعلّم الموضوعات الثقافية الجنسيّةَ، وكذلك كل شخصٍ يمتهن الطب، "وذلك لجعلهم راغبين أكثر في العيش في المدينة، ومن أجل جذب

آخريـن إليهـا". كمـا اقتـرح تجريد المدينة من بعض منحوتاتها ذات القيَم الضئيلـة، وهـو الأمـر الـذي أدى في الإسـكندرية إلـى أن تبدو في وضع غير سـليم. كان من الصعب على أي شـخص يحتك بمصر البطالسـة ألاّ يصـاب بعـدوى التبذيـر. لم تكن كل الأمور التي يسـتوردها قيصر مرحباً بهـا؛ مثـل كليوباتـرا ذاتهـا، أو حتـى منطقيـة تمامـاً، إذ عمـد بعد وصول الملكة المصرية مباشرة إلى الاعتراف بمذهب ديونيسوس، وهو اليوناني ذو التراث المريب والعادات المشكوك فيها أكثر من تلك الملكة المصرية ذات الثـروة الفائقـة، وأظهـر - وفي كل الجبهـات تقريباً - حيوية هائلة، وقـدرة جنونيـة علـى العمل، وهما الأمران اللذان ميّزاه عن منافسـيه على مدى أعوام كثيرة.

لا يوجـد أي مجـال يبـرز فيـه التأثيـر الشـرقي أكثر مـن احتفالات النصر التي أقامها قيصر في نهاية شـهر أيلول؛ إذ إن أكبر مجدٍ يسـتمتع به قائد روماني هو ذلك الذي يشعر به خلال تلك الاحتفالات الواسعة، والتي تعلي من عظمته. وقد امتلك قيصر سبباً محدداً يدفعه إلى إيصال أمجـاده إلـى آفـاقٍ واسـعة. فقـد عانت رومـا فترة كبيرة مـن الاضطراب والقلـق بسـبب الحـرب الطويلـة، وغيابه الطويل عنهـا، فهل كانت هناك فـي ذلـك الوقـت طريقـة لترويضها أفضل من إقامـة احتفالات عامة غير مسبوقة تستمر أحد عشر يوماً؟ كان القائد يتحول في مثل هذه الأوقات إلى مدير حفلات. أراد قيصر الاحتفال بانتصاراته التي أحرزها في بلاد الغال - فرنسـا - والإسـكندرية، والبونطوس، وأفريقيا، وإسـبانيا، لكنه تفوّق على نفسـه. ويرجع ذلك، سـواء أتعمّد ذلك أم لا، إلى تأثره بما شـاهده فـي الإسـكندرية. بـدأت الاحتفـالات بعد التحضيـرات الكبيرة، وحصـول تأخيـرات عديـدة مخيبـة للآمال، في 21 أيلول مـن العام 46، وقـد استمرت هـذه الاحتفـالات خـلال الأيام الأولى من شـهر تشـرين الأول. امتـلأت رومـا بالمتفرجيـن الفوضويين، لكن قليلين منهم تمكّنوا

من إيجاد مسكن لهم. عمد كثيرون إلى نصب خيمهم في شوارع المدينة وعبر الطرقات، وقد توافد هؤلاء بشكل جماعات إلى مكان إقامة الاحتفالات، والاستعراضات، ووسائل التسلية واللهو، لكن بعض الأشخاص لقوا حتفهم تحت أقدام الحشود المتدافعة. أمر قيصر بتزيين الهياكل والشوارع، كما أقيمت مدرجات مؤقتة، وجرى توسيع مضامير السباق. كان الترف هو العملة السائدة في روما منذ عهدٍ طويل، لكن المدينة لم تشهد من قبل أربعين فيلاً تحمل مصابيح مشتعلة فوق ظهورها، وهي ترافق القائد إلى منزله مع نهاية يوم من الاحتفالات، بينما يسير في الخلف طابور طويل من الأشخاص المبتهجين. كما لم يسبق لروما كذلك أن شهدت مآدب حافلة بأطايب الطعام وشراب فاخر يكفي 66,000 شخص.

يُحتمل أنه مع أواخر الصيف، أي عند بدء الاحتفال بالنصر الذي أحرزه قيصر في مصر، كانت كليوباترا في قصره. صدحت الأبواق معلنةً عن قدومه في ذلك الصباح مرتدياً عباءته الأرجوانية، وواضعاً إكليل الغار على رأسه الأصلع. عبَر القائد بوابات المدينة بعربة تجرّها أربعة أحصنة بيضاء. رحّب به الحشد بتويجات الورود وبعاصفة من التصفيق. سار رجاله المبتهجون إلى جانبه وهم يرتدون عباءات مطرزة بالمعادن، كما أنشدوا أناشيد النصر، وردّدوا كلمات المجون التي تدور حول مغامراتهم الرومانسية في الخارج. تردّد اسم كليوباترا بشكلٍ ساخر مع اتهامٍ لم يتمكن قيصر من ردّه بأي طريقة من الطرائق. اشتمل الموكب، وبحسب ما تقتضيه التقاليد، على غنائم الحملة، وعلى رسومات تمثّل المقهورين، وسار بدءاً من كامبوس مارتيوس في الشمال، وحتى فيا ساكرا مروراً بسيركوس ماكسيموس، وحتى تلة كابيتولين، كما ظهرت دمى تمثّل أكيلاس وبوثينوس، هذا بالإضافة إلى رسومات تمثّل النيل، ونموذج عن منارة الإسكندرية، وقد علت

صيحات الجماهير استحساناً مع هذا العرض. كانت العربة المصرية مصفحة ببيوت السلاحف اللامعة، وهي مادة جديدة على روما وتدعم تبجّح قيصر بشأن الثروات التي غنمها في الخارج. تضمن كل احتفالٍ بالنصر ولائم وعروضاً عامة، ومسابقاتٍ رياضية، وتمثيل مسرحيات، وسباقات خيل، ومسابقات موسيقية، وعرضاً للحيوانات البرية، وألعاباً بهلوانية، ومباريات مصارعة جرت في نواحٍ عدة من المدينة. بقيت روما لأسابيع ثلاثة فردوساً بالنسبة إلى اللصوص، لأن المنازل كانت فارغة بسبب العروضات الجارية. جرت معركة بحرية وهمية بعد عرض النصر المصري، وهكذا أُقيمت بحيرة صناعية لهذا الغرض. وقد شارك في هذا العرض أربعة آلافٍ من المجذّفين، وبعض السفن المصرية المهزومة، وهي السفن التي أراد سويتونيوس أن نعتقد أن قيصر جرّها معه عبر البحر المتوسط لهذه المناسبة.

بطبيعة الحال، لم يتطلب الأمر وجود كليوباترا لتفسير سبب بقائه في مصر، عندما أكّد قيصر لشعبه على الوفرة التي قد تجنيها روما من الخارج. اغتبط الناس بعطاياه، والتي كانت ملكاً لها بحق. نال جنود قيصر وضباطه عطايا سخية. وقد أعطى قيصر كل مواطن مبلغ 400 سيستيرس (العملة الرومانية) وهو ما يعادل أكثر من مرتّب ثلاثة أشهر، وذلك بالإضافة إلى هدايا من الحنطة وزيت الزيتون. يُحتمل أن كليوباترا لم ترغب في حضور احتفالات النصر التي تذكرها بأنها ليست المرأة الوحيدة من البطالسة التي تتواجد في روما. كان كل موكب ينتهي بجموعٍ من الأسرى. (كانت هذه النقطة هامة جداً إلى حدّ إقدام بومبي في عرضٍ سابق على عرض أسرى ليسوا له. كان عدد الأسرى يزيد كثيراً من نجاحات القائد). كانت غرابة وضع السجين تزيد من قيمة العرض، وهكذا اشتمل موكب أسرى قيصر من الأفارقة، والذي كان آخر عرضٍ في العام 46، على أميرٍ أفريقي يبلغ من العمر خمس سنوات، والذي

شاءت الصدف الغريبة أن يتزوج ابنة كليوباترا(*). ضمّن قيصر موكبه المصري أمراً طريفاً آخر مع أنه أمرٌ لم يبتهج له الرومان كما ابتهجوا بذلك الأمير الصغير، أو بتلك الزرافة الغريبة. جالت أرسينو، وهي شقيقة كليوباترا المراهقة عبر الشوارع، مقيّدة بأصفاد ذهبية، وقد سارت وراءها غنائم الحملة المصرية وأسراها. أثارت هذه الغنائم غير العادية الانزعاج لدى الجمهور، وهي التي قُصد منها الإبهار. قال لنا ديو إن الجمهور لم يتحمل رؤية "امرأة كانت تُعتبر ملكة ذات مرة وهي مقيدة بالأصفاد، وهو مشهد لم يُرَ من قبل، ولم يعتادوا عليه؛ على الأقل في روما". تحولت الرهبة إلى تعاطف، وفاضت الدموع من الأعين. ذكّرت أرسينو الناس بالثمن البشري للحرب التي أثّرت في كل أسرةٍ تقريباً. أما كليوباترا فهي وإن بقيت غير مشفقة بالنسبة إلى شقيقتها، وحتى لو اعتبرت أن النصر الذي أحرزه قيصر كان نصراً على إدارةٍ سابقة، فهي لم تكن لتستفيد سوى بالقليل من هذا التذكير القاسي بخضوع مصر، وذلك لأنها بالكاد نجت هي نفسها من ذلك العار ذاته.

شاءت الصدف أن يكون الضيوف المثيرون مصدراً للمشاكل على نحوِ ما كان عليه الأسرى المثيرون. يصعب علينا تحديد أي امرأة من البطالسة تلك التي كانت مصدر انزعاج الرومان الأكبر: الأسيرة الملكية التي أذلّها قيصر في الشوارع، أو تلك الملكة الأجنبية التي كان يعاشرها في منزله. لم يمضِ وقت طويل حتى أُبعدت أرسينو، وهي التي أُرسلت عبر بحر إيجة إلى معبد آرتميس في إفيسوس، وهو الذي يُعتبر أعجوبة عالمية من الرخام الساطع. أما شقيقتها الكبرى فأمضت الشتاء في جهة أقل

(*) إعتبر بلوتارك ذلك الطفل الذي غدا الملك جوبا في المستقبل "أسعد الأسرى الذين أخذوا على الإطلاق"، وذلك لأن القدر نقله من بلاده "البربرية" إلى روما حيث تلقى العلم، وأصبح مؤرخاً بارزاً كتب في موضوعات عدة؛ بدءاً من روما في العصر القديم، ووصولاً إلى سلوك الحيوانات.

فخامة من التيبر، لذا، كانت مقطوعة عن أخبار ما يجري في الإسكندرية، وذلك لأن موسم الإبحار كان قد انتهى على أن يُفتتح من جديد في شهر آذار. كانت ستبتعد عن قيصر كذلك لبعض الوقت لأنه غادر روما فجأة في أوائل شهر تشرين الثاني، متوجّهاً إلى إسبانيا، وذلك لكي يشن آخر حملة له على أتباع بومبي. سبق لكليوباترا أن عانت أوضاعاً صعبة، وأول ما يخطر على البال إقامتها في الصحراء الواقعة في غرب سيناء، لكن بالرغم من جمال المنزل في جانيكوليوم والمنظر الرائع الذي يطل عليه، إلا أنها لم تكن مرتاحة؛ إذ لم يكن الترحيب بها لطيفاً على الدوام. كانت روما باردة ورطبة، يُضاف إلى ذلك أن اللغة اللاتينية لم تكن سهلة بالنسبة إلى الذين يتحدثون اليونانية، وهكذا عانت كليوباترا مشكلة اللغة. تواجدت الملكة في مدينة تتمتع فيها النساء بالحقوق القانونية ذاتها التي يتمتع بها الأطفال أو الدجاج، وهكذا استدعت إقامتها في ذلك المكان مجموعة جديدة من المهارات، وقد شعرت بأنّ العام 46 أطول عام في التاريخ، وذلك لأسباب وجيهة؛ كان العام طويلاً فعلاً بسبب الروزنامة المطولة. عانت كليوباترا في روما المشكلة ذاتها التي يعانيها كل المشاهير عندما يكونون خارج أوطانهم: كانت تعرف عدداً قليلاً من الناس، لكن الجميع يعرفونها، وكان حضورها ملحوظاً بشكلٍ كبير، لكن تأثيرها كان جزئياً في حالة كالبورنيا، وهي التي اعتادت على الإهانات التي يلحقها بها زوجها. تزوج قيصر زوجته الثالثة في العام 59، وهو الذي أمضى الفترات الفاصلة بين زيجاته بإنجاب الأطفال غير الشرعيين، وذلك سواء أحصل هذا في المدينة ذاتها أم خارجها. عاشر قيصر معظم زوجات زملائه، حتى إنه فعل ذلك مرة مع والدة جميلة جداً ومع ابنتها الشابة، وهو الذي سمح له ذوقه أن يفعل ذلك بالتتابع. كما وجد الوقت الكافي ما بين مغادرته الإسكندرية وبين عودته إلى روما لمعاشرة زوجة ملك موريتانيا، وهي الحادثة - وما تبعها من منطقٍ رومانسي - التي قال عنها

بعض الناس إنها تسببت بزيارة كليوباترا. كان التنافس مع زوجة شيئاً، والتنافس مع ملكة شرقية أخرى، حتى ولو كانت تتمتع بأهمية أقل، شيئاً مختلفاً تماماً. (من شأن ذلك أن يحدث تحولاً عاطفياً في هذه القضية أكثر مما تسمح به الحقبة أو الدلائل المتوافرة). أما الأمر الأكثر تعقيداً، فكان تعاطف قيصر تجاه امرأة بعيدة عن روما، وكانت تتناقض في وجوه عدة مع أعراف هذه المدينة.

أثارت كليوباترا قدراً كبيراً من التعاطف معها في الخارج، لكن كل ما يتعلق بها كان يثير الفضول، وكان من شأن هذا الوضع فرض قيودٍ معينة على تحركاتها؛ يصعب على المرء تصديق أنها ظهرت بطريقة غير لائقة في روما. أما الاحتمال الأرجح فهو أن قيصر هو الذي كان يزورها في منزله الذي تقيم فيه؛ الأمر الذي كان من غير المعقول أن يتم بطريقة سرية. اعتاد البطالسة على أن يحلّوا ضيوفاً على روما من قبل، فعلى سبيل المثال، لقد سكن أوليتس مع بومبي، لكن العلاقة هنا كانت مختلفة. كان من المستحيل على قيصر أو كليوباترا أن يفعلا أي شيء سراً، لأن تلك العربة ذات الستائر المندفعة عبر الشوارع، والتي تجرّها مجموعة من السوريين ضخام الجثث كانت تثير الانتباه. (كان أوليتس يتنقل فوق أكتاف ثمانية رجال، وبرفقة مئة رجلٍ من حاملي السيوف. ولدينا قدر ضئيل من الأسباب التي تدفعنا إلى الاعتقاد أن ابنته تنظر إلى الأبهة بشكلٍ مختلف، لكن من المؤكد أنها كانت تتنقل في أنحاء روما برفقة بعض الحرس الشخصيين، والمستشارين، والخدم فقط). كان الرجال العظام لا يتنقلون إلاّ وقد ارتدوا عباءاتهم ذات اللون القرمزي وبصحبة بعض المرافقين. اعتاد قيصر مع ذلك، وبحلول أواخر العام 45 على التجول منتعلاً حذاءً أحمر اللون يصل إلى ربلة ساقه. كانت روما، ومن جميع النواحي، مدينة تظهر فيها الأحجار ذاتها وكأنها تتكلم. يذكّرنا جوفينال أن الروماني الثري يخدع نفسه إذا كان يعتقد بالأسرار. قال في هذا الصدد: "حتى إذا صمت

العبيد فإن خيوله سوف تتكلم، وكذلك سيفعل كلبه، وإطار بابه، وأرضية منزلـه الرخاميـة". يُمكـن للمـرء أن يتخـذ كل الاحتياطات الممكنة، لكن، "النتيجـة ذاتهـا، لأن مـا يفعلـه السـيّد سـيعرفه أقـرب صاحـب متجر عند انبـلاج فجـر اليوم التالي، وستُعرف كذلك كل قصص طاهي المعجنات، وكبيـر الطهـاة، والنحاتيـن". كان مـن حسـن حظ كليوباتـرا أنها لم تضطر إلى تغطية آثارها، ولم تكن المغامرات الليلية داخل أكياس الجنفاص من ضمن برنامجها.

أقدم قيصر على محاولة علنية واحدة على الأقل لإدخال ملكة مصر في الحياة الرومانية. وعمد في شهر أيلول من ذلك العام على تخصيص هيكلٍ مزخرف يقع في الفوروم - سـاحته - لفينوس جينيتريكس، وهي السـيدة التـي يدّعـي أنـه تحـدّر منها، وإليهـا عزا كل انتصاراتـه، كما أنها الأم المبجلة لكل الشعب الروماني. عُرف عن قيصر أنه "مخلصٌ تماماً" لفينـوس، وكان يسـعى علـى الـدوام إلـى إقنـاع زملائـه، "أنه تسـلّم منها نوعـاً مـن زهـرة الشـباب"، لكن خديّـه كانا غائرين، كمـا ظهرت دائرتان داكنتـان حـول عينيـه، وقـد اختفـى الخط الفاصل لشـعره تمامـاً. أما في هيكله المفضل، والذي لا بد أنه كان عنوان عمله، فقد وضع تمثالاً من الذهب لكليوباترا بحجم جسـمها تماماً، وكان إلى جانب تمثال فينوس. كانـت تلـك إشـارة تكريم هامة، وعلـى الأخص لأن قيصر لم يُقم تمثالاً له، وقد حملت هذه البادرة معنى كبيراً، لأنه بالنسبة إلى العقل الروماني فإن إيزيس وفينوس كانتا متحالفتين في دورهما الأمومي. أما في ما يتعلق بالمبايعة فقد كانت هذه الخطوة مبالغاً فيها ومحيرة، وكذلك غير مسبوقة، وتذهـب إلـى أبعـد ممـا هو مطلوب من قيصر، هذا إذا كان سـبب قدوم كليوباترا هو الحصول على اعترافٍ رسمي "بين أصدقاء الشعب الروماني وحلفائه"، أي على حد ما يذهب إليه ديو. كانت تلك الصيغة الدبلوماسية هامة، وكانت تساوي وزنها من ذهب أوليتس، لكنها لم تتطلب في السابق

إقامة تماثيل مكلفة للملوك الأجانب في أماكن مبجلة تقع في قلب روما. وقد أصاب ذلك العمل وتراً حساساً في مدينة لم يعتد البشر فيها على التجوال بين التماثيل المبجّلة.

يُحتمل أن تكون كليوباترا قد تمكنت من استيعاب غرابة مبادرة قيصر بالكامل، أو يُحتمل أنها لم تفعل ذلك لأن التماثيل الذهبية لم تكن بالأمر الجديد بالنسبة إليها. تمكنت الملكة وهي في منزله من الشعور بغرابة الموقف، إذ كان موقع روما بحدّ ذاته مختلفاً بالنسبة إليها، وهي التي اعتادت على مناظر البحار، وعلى هواء البحر المنعش، وكذلك على جدران منازل الإسكندرية البيضاء، وعلى سمائها الخالية من الغيوم. لم تتمكن من نافذتها من مشاهدة مياه البحر المتوسط الملتمعة بألوانها الفيروزية. كانت روما ذات لون واحد مقارنة مع تلك المجموعة المتنوعة من الألوان التي اعتادت عليها، فكان جلّ ما رأته خشباً وطيناً. كانت الموسيقى تدخل كل مظهرٍ من مظاهر الحياة في الإسكندرية، حيث تتردد في كل مكان أصوات النايات والقيثارات والإيقاعات والطبول، أما الرومان فقد تردّدوا كثيراً في إدخال كل هذه الأشياء إلى مجتمعهم، كما كان المرء يعتذر عن عدم قدرته على الرقص أو على عزف القيثارة بشكلٍ جيد. قال شيشرون، وهو أحد أبرز المعادين لمظاهر التسلية: "لا يرقص أحد وهو بكامل وعيه إلا إذا كان مجنوناً"(*).

إذا كانت كليوباترا قد أمضت أي فترة من الوقت وسط زحام المدينة، فلا بد من أنها شعرت بكآبة تلك الشوارع المتعرجة والمزدحمة والفوضوية، والتي تخلو من شارعٍ رئيس، ومن تصميم مركزي. يعني ذلك أنها سارت

(*) أخذ بعضهم استياء شيشرون هذا إلى درجةٍ أبعد. إذا كان الرجل عازفاً ماهراً على المزمار فإن ذلك يعني أنه رجل عديم القيمة. أضاف بلوتارك موافقاً على هذا بقوله: "وإلا فلن يكون زمّاراً ماهراً". لكن هذا القول لم يكن لصالح والد كليوباترا الذي اعتُبر أنه "ليس رجلاً حقيقياً، لكنه عازف ناي، ومجرد نصاب"، وذلك بالرغم من وجود دلائل كثيرة توحي بعكس ذلك.

بين حيوانات مغطاة بالوحول، وبين باعة الصابون، ومحالّ الحرفيين، وفي طرقـات ضيقـة. كانـت هـذه المدينـة، وبكل الاعتبـارات، مدينة أقـل إثارةً للاحترام من الإسكندرية، أي إنها كانت مدينة قذرة تفتقد إلى الشكل مع شوارعها المتشابكة والضيقة التي تقبع دائماً في الظلال، كما أنها تفتقد إلى التهوئة، وتكثر فيها الجلبة، كما تسـود فيها الحرارة الشـديدة في الصيف. مكثـت كليوباتـرا معزولـة في تلّتها المحاطة بالأشـجار، لكـن موقع منزلها كانت له حسـناته كذلك؛ إذ كان بعيداً عن أصوات الباعة المتجولين التي لا تنقطـع، وعـن الأصوات المتقطعـة لمطارق الحدادين والبنّائين، وكذلك عن أصوات السلاسل والرافعات المتصاعدة من أسفل التلة. كانت حركة البنـاء فـي روما مسـتمرة من دون انقطـاع، وذلك لأن المنازل كانت تنهار، أو تُهـدم بصـورة منتظمـة. أراد قيصر التخفيف من الضوضاء، فحظّر حركة المـرور نهـاراً في الشـوارع، وهكذا كانت النتيجـة: "يتعيّن عليك أن تكون ثريـاً جـداً كـي تتمكـن من النـوم في روما"، على حدّ قـول جوفينال الذي لعن التدافع الذي يحدث في المساء، وشعر بأنه يخاطر بحياته كلما غامر بالخـروج مـن منزلـه. كان المرء يتعرض لاصطـدام بالعربات، أو للوحول مـع مـا يحملـه ذلـك من مخاطر كثيرة. كان المشـاة يتعثـرون عادة بالحفر غير المرئية، وكانت كل نافذة تشـكل خطراً محتملاً، وذلك بسـبب تسـاقط الأصص عن حوافها.

قـال جوفينـال محـذراً إن الرجـل الذكـي هـو ذلـك الـذي لا يذهب إلـى مأدبـة غـداء إلا بعـد كتابة وصيته. وقد امتلكت كليوباترا أسـباباً كثيرة تجعلها تتوق إلى ما وصفه شاعر لاتيني في وقتٍ لاحق، "بلدها المتمدن في الظاهر".

كانت روما عند زيارة كليوباترا لها قد اكتشفت لتوها معنى التخطيط المدني؛ وهو المفهوم الذي اسـتوردته المدينة من الشـرق. كان من العبث البحـث عـن معالـم المدينـة البارزة، وذلك لأن الكولوسـيوم، وهو "أفضل

تصميم للمدرجات"، لم يكن قد شُيّد بعد، وكذلك الحال بالنسبة إلى البانثيون، أو حمامات كركلا. كان المسرح الذي بناه بومبي هو البناء المميز الوحيد في روما، وهو الذي أوحى إلى قيصر ببناء الفوروم الذي طغى عليه. بقيت روما مدينة إقليمية، لكنها مع ذلك كانت تزداد وعياً بأهميتها. أما اليونان فبقيت تنضح بالثقافة، والأناقة، والفنون. كان المرء إذا أراد العثور على مساعد شخصي، أو طبيب، أو مدرب حيوانات، أو حِرَفي، يتعيّن عليه البحث عن رجلٍ يوناني. أما إذا أراد إيجاد محلٍّ لبيع الكتب فما عليه إلا التوجه إلى الإسكندرية، وهكذا كان من الصعب جداً إيجاد نسخة جيدة عن أي كتابٍ في روما، وهي التي كانت تعاني عقدة الدونية نتيجة لذلك. أظهرت روماً نفسها بالطريقة التقليدية: الروماني صنو التفوق. بالكاد كانت الحضارة الرومانية هي الحضارة الأولى التي تطعن بالحضارة التي كانت تطمح إلى أن تكون مثلها. اعتُبرت الأهرامات - وهي من عجائب الهندسة التي تدل على الدقة التي كان يتمتع بها الأقدمون، والتي شيّدت بأدواتٍ بدائية واستناداً إلى حسابات بدائية كذلك - "مجرد تفاخر لا فائدة منه، وجنون الثروة الملكية". شعر أحد الرومان عندما وقف أمام الأهرامات في مصر بالحسد، وغمره شعور عارم بالكراهية، أي إنه شعر بالإهانة أكثر من شعوره بالدهشة. اعتبر ذلك الروماني أن التبذير أمر مؤذٍ للجسد والروح، وهو بدا قريباً جداً في هذا من مارك توايين الذي قاوم إغراء أوروبا. عمد ذلك الروماني الذي واجه مباشرة حضارة متقدمة إلى تقزيمها عندما اعتبرها بربرية أو تدل على الانحطاط. كما لجأ كذلك إلى الجوانب القاسية والزوايا القائمة للغة المصرية، واعتبر، وسط مشاعر الاحتقار والازدراء، أنها دون مستوى اللغة اليونانية الرشيقة، والمرنة، والرحبة. أما اللغة اللاتينية فإنها تُبقي المتحدث بها في المجال المستقيم والضيق. لم تكن هناك، مع الأسف، كلمة في تلك اللغة تعبر عن "عدم الامتلاك". لكن من حسن الحظ، في الوقت ذاته يغيب وجود

التعبير اللاتيني مقابل "الأدوات المرصعة بالذهب"، أو "الأكواب المنقوشة الملأى بمياه النيل الدافئة".

أما مع الحملات التي شنّها قيصر في الخارج، ومع تصاعد قدرة روما وتزايـد ثرواتهـا، فـإن عظمة العالم اليوناني بدأت في اختراق شـبه الجزيرة الإيطالية. ويستصعب المرء المبالغة في وصف تأثيرات أوصافٍ كهذه في كليوباتـرا. كان بومبـي قـد انتهـى لتـوه من إدخال العـاج إلى روما، كما أن نباتـات المـر، والقرفـة، والزنجبيـل، والفلفل كانت قد وصلـت حديثاً إلى هـذه المدينـة، وقد بدأت الأعمدة المزخرفة تزيّن مداخل البيوت الخاصة. تواجد منزل واحد فقط في روما يمتلك جدراناً مكسوة بالرخام، لكن مئات المنـازل الأخـرى حـذت حذوه في غضون سـنواتٍ قليلة. أما فنون الطهي فقد ازدهرت، وكذلك الحال بالنسبة إلى أسـماك الترس، وطيور اللقلق، والطاووس التي وجدت طريقها إلى الموائد. وقد شاع جدل حاد في أثناء إقامة كليوباترا حول المزايا الخاصة لحشرة طويلة خضراء اللون والجمبري مقابـل الحلزونـات الأفريقيـة. كانـت رومـا في ذلك الوقـت مدينة تمر في مرحلة التغيير، وكانت هناك وسائل تسلية مترفة، كما تواجد أولئك الذين يسـرقون مناديـل الكتـان الفاخـرة. كان الأدب اللاتيني فـي مرحلة طفولته، والأدب الإغريقـي فـي بدايـة مرحلـة النسـيان أو الإلغـاء إلـى حدّ تشـبيهه بوعاء جميل مليء بالثعابين السامة. أما ثوب التوجا الجميل؛ ذلك الثوب الصوفي البسيط والطبيعي، فكان غير مريحٍ مطلقاً وأيضاً غير عملي، أي إنه كان مقيّداً مثل اللغة اللاتينية ذاتها. وقد حرص قيصر على وضع مظلات حريرية، وذلك من أجل حجب الشمس عن المشاهدين الواقفين بمحاذاة فيا ساكرا وصولاً إلى تلة الكابيتولين.

تواجد مع كل هذا التبني الواسع لما هو موجود في الشرق أشخاص فسّروا كل شيء مستحدث على أنه نهاية الحضارة، والطريق إلى الانحطاط. أعـاد قيصـر العمـل بقوانين المدينـة المتعلقة بالإنفاق؛ وهـي القوانين التي

طـال إهمالهـا، والتـي تهـدف إلى تقييد الإنفاق الخـاص، وكان صارماً في هـذا المجـال، وذلـك لأنه كان محباً لمظاهر العظمة، وهو أول مضيف في التاريخ تمكن من تخيير ضيوفه بين أربعة أنواعٍ من الشراب الفاخر. أوفد قيصـر وكلاء عنـه لمصادرة أطيب أصناف الطعام الموجودة في الأسـواق، ولمصـادرة أدوات المائـدة الفاخـرة وmidmeal مـن المنـازل الخاصة. كما أصدر أمراً يمنع بموجبه العربات الخاصة، والثياب قرمزية اللون، واللآلئ، لكن مع استثناءات خاصة. أما بالنسبة إلى الشخص الذي تعوّد على حياة الإسـكندرية، وهي عاصمة الأزياء في العالم، فإن فكرة أنّ روما القيصرية تحتاج إلى قوانين لتقييد الإنفاق فكرة مضحكة. يمكننا القول إن المرأة التي تعرف الوقت المناسب لتخفيض مستوى أدوات مائدتها امرأة يُمكن الوثوق بها كي تلبس بطريقة مناسبة. يُحتمل أن تكون كليوباترا قد عمدت وسـط هذه الظروف إلى تخفيض مسـتوى ملابسـها. كانت السـيدات الرومانيات يفضلن ارتداء ملابس بيضاء، في حين كانت المرأة في الإسكندرية تفضّل ارتداء الثياب الملونة. يُضاف إلى ذلك أن المرأة التي يمكنها تعديل مزاجها بحسـب اختلاف الأشـخاص الذين تقابلهم لن تخطئ بتقليل قيمة غداء لا يضاهي مسـتوى عملها في منزلها. ونسـتنتج مما لوحظ عبر آلاف السنين أنه من الأسهل شجب مظاهر الترف من منعها. كان المرسوم الذي أصدره قيصر أكثر شـعبية عند بعض الناس مما كان عليه بالنسـبة إلى آخرين، إذ حصل ذلك المرسـوم على عدة نقاط استحسـان من شيشـرون، وهو الذي منـع نفســه، وإن بصعوبـة، فـي ذلـك الشـتاء عـن تنـاول لحـم الطاووس، والمحـار الكبيرة، وسـمك الأنقليس الـذي يعيش في المياه المالحة. (كان لحم الطاووس سـيئ السـمعة بسـبب قسـاوته، لكن ذلك لم يكن السبب). اشتكى شيشرون من أن المحار وسمك الأنقليس ضارّان بجهازه الهضمي، ويصدق الأمر ذاته على اللفت.

لا نعـرف بالضبـط الفكـرة التـي كوّنتهـا كليوباترا عن المتشـددين –

الحقيقيون منهم أو المزعومون - الذين كانت تعيش بينهم، لكننا نعرف جيداً الفكرة التي كوّنوها عنها. كانت أمور الزواج والعلاقات مع النساء تتم بطريقة مختلفةٍ في روما، حيث كان مفهوم الإناث الحاكمات مفهوماً لا معنى له. (وكذلك الأمر بالنسبة إلى الرجل الذي يوصف بالمخنّث، لأن هذه الصفة كانت تُعتبر أسوأ إهانة). كان التعريف الروماني للمرأة الصالحة هو المرأة الغامضة، وهو أمر لم تعرفه كليوباترا في تدريباتها. كانت الملكة مضطرة إلى جعل نفسها منظورة، أما في مكان تواجدها في تلك الفترة فقد كان الأمر معكوساً. لم تكن المرأة الرومانية محرومة فقط من حقوقها السياسية أو القانونية، لكنها كانت مجردة من اسمها الخاص بها، وذلك لأنها كانت تحمل الاسم المشتق من اسم والدها. كان لدى قيصر شقيقتان، وكلتاهما تدعيان جوليا. كانت النساء الرومانيات يغضضن أبصارهن في الأماكن العامة، حيث كنّ يلتزمن الصمت والتحفظ، ولم يكن يحق لهن توجيه دعوات تناول الطعام. أما في الحياة الثقافية فلا نجد لهنّ أثراً، وكن لا يظهرن إلا قليلاً في ميدان الفنون وبشكل أقل مما كان عليه الأمر في مصر، أي حيث ظهرت نساء عاملات، وفراعنة إناث في الرسومات والمنحوتات، وفي نقوش النواويس وجدران المعابد، وكن يقمن بصيد الطيور، ويبعن السلع، ويقدمن الأضحيات للأسياد.

لا تنطبق بشكلٍ تام قوانين ضبط الإنفاق على ملك يحكم بلاده، لكن كليوباترا لم ترتح لصدور تلك القوانين(*). كانت حياة الكدح هي

(*) تبقى قواعد السلوك هذه محفوظة في الأعمال الأدبية حيث تُبرز الإلياذة النساء على أنهن أكثر المخلوقات كمالاً. لوحظ كذلك أنهن، وكقاعدة عامة، "مثيرات، ومؤنبات، ومحبطات، ومتناقضات، ومخادعات". تلعب النساء في المسرحيات اليونانية أدواراً رئيسة، ونلاحظ كذلك وجود بطلات إناث من اللواتي يلعبن أدواراً كبيرة في الأدب الروماني، وحيث تظهر الزوجات على نوعين: الطاغيات الثريات، والفقيرات المعدمات. لا يظهر الأزواج المخدوعون كثيراً في الأدب الروماني، بينما نجدهم موضوعاً ساخراً رئيساً بدءاً من زمن أرسطوفان وحتى موليير.

التـي تُبقـي، على الدوام، النسـاء صالحات. (عرض لنـا جوفينال المعادلة التقليديـة للمـرأة الصالحـة: "العمـل الشـاق، وفتـرة نـومٍ قصيـرة، ويـدان قاسـيتان" نتيجـة العمـل المنزلي). أما بالنسـبة إلـى كليوباترا التي تمكنت من تحطيم زيجاتها، وأقحمت نفسها بطريقةٍ ما بين رفيقات فينوس رفيعة المستوى، فقد أثارت الارتباك في روما من أوجهٍ عدة: كانت أنثى وأجنبية، وملكة شرقية في بلاد كانت لا تزال تعتبر نفسها جمهورية تسحق الملوك، وكانت بديلة عن إيزيس التي كانت طائفتها مشتبهاً فيها وهدّامة؛ وهي التي كانت هياكلها سـيئة السـمعة لأنها كانت أماكن للمواعيد الغرامية. أربكت كليوباترا التصنيفات السـائدة وخرقت التقاليد؛ حتى بالنسـبة إلى المعايير الحديثة. أما إذا كانت عشـيقة دكتاتور روماني، فهل كانت عشـيقة للعالم الروماني كذلك؟ بدت في كل تصرفاتها، وفي كل الأوقات حاذقة بالنسبة إلـى صورتهـا، كما بالنسـبة إلى شـخصيتها، وهكـذا تمكنت من خرق كل قاعـدة مـن قواعـد البروتوكول. كانـت ملكة في بلادها، كما كانت محظية خارجهـا. ومـع ذلـك، مثّلـت كليوباترا خطـراً أكثر: كانـت محظية تمتلك قدرات هائلة. لم تكن كليوباترا مسـتقلة مالياً فقط، لكنها كانت أغنى من أي رجلٍ في روما.

كانت ثروتها، وهي الثروة ذاتها التي أطعمت روما خلال انتصاراتها، هي التي شككت في أخلاقياتها. أن تظهر كليوباترا بوضوح على النقوش الفضية لشخص ما، وعلى سجاداته الفاخرة، وعلى تماثيله الرخامية، لهو أمرٌ يدين ذلك الشـخص. كانت العواقب أعظم على الجنس الأضعف، وكان المنطـق يجـري علـى الشـكل التالـي: "لا يوجـد شـيء تمتنع عنه المرأة، وهي لا تعتبر أي شيء مقرفاً ما إن تضع قلادة من الزمرد حول عنقهـا، ومـا إن تمتلـك لآلـئ كبيرة مثبتة بأذنيهـا الطويلتين". لعب طول أُذنـي كليوباتـرا دوراً أكبـر فـي تقريـر مصيرهـا أكثر من ذلـك الذي لعبه

أنفها(*). يمكننا الافتراض أنها تركت أفضل مجوهراتها في الإسكندرية، ومع ذلك كانت مرادفةً في عالم روما "للتبذير المتهور". كان ذلك حقاً لها ورثته مع ولادتها. (كانت المرأة الرومانية الصالحة تعتبر أولادها مثل مجوهراتها). وكان أشخاص مثل خصيان كليوباترا أثرياء بالمعايير الرومانية. وقد عنى ذلك أن كل الشرور التي لا تُغتفر في تلك الأسرة المتهتكة كانت ملتصقة بها. عُرفت كليوباترا، وقبل أن تصبح ساحرة من عالم الأساطير بالتهور، وبأنها قاتلة الرجال التي لا يهمّها شيء، وأنها كانت شرقية مبذرة. أما إذا كانت الدناءة الأخلاقية تبدأ مع الأسماك الصدفية، ولا تلبث أن تنتشر نحو أصحاب العباءات القرمزية، فقد تبلغ ذروتها مع اللآلئ، وهي التي وصلت بالتبذير إلى ذروته بمقاييس روما. استشهد سويتونيوس بهذه الأمثلة من أجل إثبات ضعف قيصر المزمن أمام مظاهر الترف.

تكررت قصة ذلك المبذّر الذي ضحى بلؤلؤة كي يُثبت وجهة نظره في الكتب التي ظهرت قبل العام 46. لكن، قدّر للقصة أن تبقى طيّ الكتب، وذلك من أجل إدانة آخرين بعد ذلك بوقتٍ طويل. بدا أن هذه القصة مفصلة على قياس ملكة مصرية جريئة. هناك إشارات تدل على اختلاق وتطابق مشتركين في هذه القصة. قيل في غضون سنوات قليلة إن كليوباترا قد وضعت أكبر "لؤلؤتين ظهرتا في التاريخ بأكمله". قدّر بليني قيمة كل واحدة منهما بنحو 420 تالنتاً، وهو ما يعني أن كليوباترا قد علقت ما يعادل قيمة منزل في منطقة البحر المتوسط في كل أذن. (كان مجموع قيمة اللؤلؤتين يساوي كذلك المبلغ الذي ساهمت به لدفن ثور ممفيس). هل كانت امرأة غيرها على استعداد لنزع لؤلؤة من أذنها من أجل إذابتها في الخل لتبتلعها بعد ذلك، وكل هذا من أجل إغراء رجل

(*) قال بلايز باسكال في القرن السابع عشر: "لو كان أنف كليوباترا أقصر قليلاً لكان تغيّر وجه العالم بأكمله".

عن طريق الإثارة والوفرة(*)؟ كانت تلك القصة هي التي شاعت في وقتٍ لاحق حول كليوباترا.

غابت الإثارة، وكذلك غابت الوفرة عن شتاء العام 46. لكن، كان من الواضح أن كليوباترا كانت ترتاد بعض الأماكن العصرية في ذلك الوقت مع أنه يصعب علينا الاعتقاد أنها لم تلازم منزل قيصر حيث كانت محاطة بمستشاريها وخدمها. كان بعض أفراد الحاشية يعرفون طريقهم في أنحاء روما، وذلك بعد أن عملوا من أجل إعادة والدها إلى عرشه، وهي قصة معروفة. عاشت الملكة تلك الأشهر في بلادٍ تتكلم اللاتينية بغضّ النظر عن مهارتها بتلك اللغة، كما اكتشفت أن بعض المفاهيم لا يمكن ترجمتها، ولاحظت كذلك أن حسّ المرح في اللغتين كان مختلفاً، وهو الذي كان واسعاً ومسلياً في روما؛ وهو السخرية المليئة بالإيحاءات في الإسكندرية. كان الرومان حَرْفيين في تفكيرهم، لكنهم ينظرون إلى أنفسهم بجدية. أما السخرية والغزارة اللتان اشتهرت بهما الإسكندرية فكانتا تظهران بقدرٍ

(*) تعجب كثيرون من هذه القصة، لكن شخصاً واحداً فقط تبرّع بإحدى لآلئ تيفاني من أجل إجراء تجربة عليها في المختبر. كان السؤال، هل تذوب اللؤلؤة فعلاً في الخل؟ قرر بي. أل. ألمان الذي عمد في نهاية الأمر إلى التسخين من أجل دفع تجربته التي أجراها في العام 1956 قدماً، بأن الجواب هو نعم: "عندما غليتُ اللؤلؤة لمدة 33 دقيقة تبخر الخل في أثناء قراءتي لرواية بوليسية. لقد تمكنت من شمّ ذلك الخل. وبدا أن اللؤلؤة لم تتأثر بالرغم من أنني ظننت أنها بدت شاحبة قليلاً". حصل الرجل على نتائج أفضل عندما استخدم خلاً أقوى، لكن أفضل النتائج ترافقت مع استخدام لؤلؤة مسحوقة، وهي التي ذابت بعد مرور ثلاث ساعات وعشرين دقيقة من الغليان الذي يخضع لرقابة مستمرة. كان ذلك هو الشيء الذي وجهت إليه كليوباترا الباحثين. برز سؤال آخر عن مغزى قيام كليوباترا – أو أي شخص آخر – بمحاولة كهذه؛ أليس من الأفضل ابتلاع تلك اللؤلؤة مرة واحدة؟ يذكرنا ألمان أن اللآلئ تتكون في الأساس من كربونات الكلس، وهي المادة التي كان يستخدمها العالم القديم كبديلٍ عن بيكربونات الصودا التي نستخدمها هذه الأيام. تصلح هذه المادة لأن تكون معدلاً فعالاً، وإن كان مكلفاً، للحموضة.

ضئيلٍ في تلك المدينة.

انقضى الربيع، وأضحت الملاحة آمنة. يُحتمل أن تكون كليوباترا قد أبحرت في ذلك الوقت عائدة إلى موطنها، لكن كي تعود إلى روما في وقتٍ لاحقٍ من تلك السنة. يبدو لنا أن قيام الملكة بزيارتين متتاليتين أمر أكثر احتمالاً من قيامها بزيارة مطولة واحدة. وكان من الصعب على الملكة تبرير غياب يمتد ثمانية عشر شهراً، وذلك بغض النظر عن ثقتها بقوة إحكامِها سيطرتها على مصر. لكن ذلك يعني أنها قامت بقدرٍ كبيرٍ من الترحال، بالرغم من أن السفر باتجاه الجنوب يستلزم قدراً أقل من التعب والجهد. كما يمكننا الافتراض أنها عادت إلى الإسكندرية في العام 45، وأنها عادت للإبحار في وقتٍ متأخر من شهر آذار أو أوائل شهر أيار من ذلك العام، وهو الوقت الذي تهدأ فيه عواصف الرياح الشمالية الشرقية، كما تهدأ عواصف الرعد والبرق فوق ساحل مصر. كان يصعب على المرء المخاطرة بالإبحار في فصل الشتاء، بل كان من المستطاع الإبحار بحذر في فصل الربيع، أي ما إن تصبح "أوراق شجرة التين بحجم مساحة أثر قدم الغراب التي يتركها على الأرض". أما إذا كانت كليوباترا قد أبحرت فعلاً إلى وطنها في وقتٍ مبكرٍ من العام 45، فإن ذلك يعني أنها عادت إلى روما مرة أخرى بحلول فصل الخريف. فهذه العودة المؤقتة إلى الإسكندرية هي التي تجعل من رواية سويتونيوس منطقية، وهي التي قام قيصر خلالها بتوديع كليوباترا عندما غادرت روما؛ إذ لم يحصل قيصر على فرصة ثانية ليفعل ذلك.

اعتبر سويتونيوس، الذي عمل انطلاقاً من مجموعة واسعة من المصادر بعد مرور ما يزيد على القرن ونصف القرن بعد ذلك، أن الفراق ترافق مع ترددٍ شديد مثلما كانت الحال في نقطة العودة في نهر النيل. رفض القائد الروماني "السماح لها بالرحيل حتى أثقلها بأعظم عبارات التكريم والهدايا الثمينة". اعترف قيصر بابنه، و"سمح لها بمنح الطفل اسمه". لم يمتلك

قيصر سبباً وجيهاً يجعله يتردد في القيام بذلك في حقيقة الأمر، إذ كانت خططه تتعزز بوجود وريث شرقي يكون الصلة الحية بينه وبين الإسكندر الكبير؛ كان يعترف بأمرٍ واضح جداً. لم يتمكن قيصر - في حال لم يأخذ تلك المبادرة - من تجاهل أن قيصيريون، الذي كان في الثانية من عمره في ذلك الوقت، يقترب كثيراً من ملامح والده وسلوكه. ويُحتمل كذلك أن يكون الاعتراف هو الهدف من اللقاء، وذلك لأن الاعتراف بقيصيريون كان يساوي عناء رحلات كثيرة عبر المتوسط. قال أحد المؤرخين إن ابنهما "كان الورقة الفضلى التي تمتلكها في حال أرادت الضغط على قيصر لتنفيذ اتفاقية سابقة أو وعد سابق، وهو أمرٌ لاحظه عدة مؤرخين آخرين ضمن ظروف مشابهة قبل ذلك الوقت وبعده". لم نتمكن من تحديد ماهية ذلك الوعد بغير الاعتراف الرسمي بها صديقة لروما؛ الأمر الذي كلّف والد كليوباترا مبلغاً باهظاً وصل إلى 6,000 تالنت.

أيمكننا، بغير ذلك، تفسير طول فترة مكوث كليوباترا، أو فترات مكوثها؟ كانت على المحك أمورٌ كثيرة تمنع تقديم العواطف على السياسة. وقد سبق لقيصر أن استدعى كليوباترا مرة واحدة من قبل، لكن دوافعه من وراء هذا الاستدعاء الذي طال فترة ثمانية عشر شهراً لا تزال من بين أقل الدوافع وضوحاً في التاريخ مع أنها خضعت لقدرٍ كبيرٍ من البحث. يُحتمل كثيراً أن يكون الاثنان قد خططا لمستقبلٍ يجمعهما معاً، وهو الأمر الذي استنتجه كثيرون، مع أنه ليس في مصلحةٍ قيصر. جمعت كليوباترا في نهاية حياتها مجموعة من الرسائل التي أرسلها قيصر والمليئة بالعاطفة والإعجاب. يُحتمل أن تكون بعض هذه الرسائل على الأقل قد أرسلها إليها بين العامين 48 و46، كما يُحتمل أن تكون المصدر التاريخي الذي يذكر ذلك الإناء الجميل المليء بالثعابين السامة. ويُحتمل كذلك أن تكون كليوباترا قد شعرت بأنها بحاجة إلى الدفاع عن قضيتها بنفسها مع زملاء قيصر، أي كي تؤكد أن مصر تحت قيادتها ستظل صديقة وحليفة

لروما. لم يكن مجلس الشيوخ في روما هيئةً متماسكةً في ذلك الوقت، بل كان كل عضوٍ فيه منشغلاً ببرامجه الخاصة، كما أنه افتقد إلى الإجماع على تأييد قيصر، وكانت كليوباترا تعرف جيداً أجنحة مجلس الشيوخ، كما كانت تدرك كذلك أن توسيع قاعدة الدعم في الخارج تعني ضمان بقاء عرشها في الداخل. (كان رأي شيشرون بشأن روما الرسمية أقل إطراءً عندما قال غاضباً وسط حشدٍ من نظرائه: "لم تشهد قاعات الموسيقى الوضيعة مجلساً أكثر فحشاً"). يُحتمل أن تكون زيارة كليوباترا الثانية قد تزامنت مع عودة قيصر من إسبانيا في خريف العام 45، وهو الوقت الذي تطلع فيه إلى إعادة تنظيم الشرق. لم ترغب كليوباترا أن تكون بعيدة عن هذه الترتيبات، ولو من أجل قبرص وحدها، وهي التي تتبع رسمياً لشقيقها، وهو الشقيق الذي يميل إلى مقاومة سلطتها. أما إذا كانت خطط كليوباترا تتعدى هذا الحد فإننا لا نعلم عنها شيئاً. لكن مع ذلك، يمكننا الجزم بأنه من السهل علينا تحديد دوافعها المدهشة والماكرة. كانت روما معتادة على استخدام البطالسة، لكنها واجهت في ذلك الوقت الثمن الذي تمثّل في اللقاء الذي جمع كليوباترا بقيصر، وقد ترك هذا الوضع أثراً مدمراً. يُحتمل أنها أمضت أيامها بالهدوء الذي عرفته بينيلوب في أشعار هوميروس، لكنها انتهت أخيراً بوضع أكثر شبهاً بهيلين طروادة التي تسببت بكارثة؛ كانت تلك مغامرتها اللامنطقية.

الفصل الخامس

الإنسان، ذلك المخلوق السياسي بطبيعته

"كم أتمنى لو أن جنس النساء لا يتواجد في أي مكانٍ؛ إلا في حضني!".

يوريبيديس



قال شيشرون متذمراً قبل وقتٍ قصير من وصول كليوباترا إلى روما: "لا أعرف كيف يكون أي رجلٍ عاقل سعيداً في الوقت الحاضر". كان المزاج العام في روما حاداً بعد عقدٍ مروع من الحروب، وكان مزاج شيشرون، وهو المواطن الأبرز في المدينة، والأكثر دقة في إظهار سخطه، أكثر حدة. ظلّت المدينة في حالةٍ غامرة من "القلق والفوضى"، الأمر الذي لاحظته كليوباترا جيداً، إذ كانت معلوماتها - استخباراتها - في غاية التفصيل، وقد امتلكت مع بعض أفراد حاشيتها علاقات مع أرفع مستويات المجتمع، ولم يكن باستطاعتها إهمال أي سمة من سمات مشهدها السياسي. كان القلق الذي خيّم على المدينة شاملاً، وكانت إصلاحات قيصر المدنية واعدة جداً. لكن، كيف ومتى سيتمكن من إعادة اللحمة مجدداً إلى هذه الجمهورية؟ انقلبت الأوضاع رأساً على عقب على مدى السنوات التي استغرقتها الحرب، كما وُضع الدستور جانباً، أما التعيينات فكانت تتم بحسب الأهواء الشخصية، وضد القانون. أخذ قيصر خطواتٍ عدة نحو استعادة الحقوق والقوانين التقليدية، لكن سلطاته ازدادت في هذه الأثناء،

فتولّى الإشراف على معظم الانتخابات، ووضع معظم الأحكام الصادرة عن قضايا المحاكم، وأمضى كذلك وقتاً لا بأس به في تسوية حساباته، ومكافأة أنصاره، وفي تصفية ممتلكات خصومه، فبدا مجلس الشيوخ في هذا الوقت أقلّ أهمية. وقد تذمر بعض الأشخاص بالقول إنهم يعيشون في ملكية مقنّعة بجمهورية. وتوقع شيشرون الساخط وجود ثلاثة احتمالات للمستقبل: "إما صراع مسلحٍ لا نهاية له، وإما عودة السلام في نهاية الأمر، وإما الإبادة التامة".

فرغ قيصر عندما عاد من إسبانيا في ذلك الخريف من تصفية من بقي من أنصار بومبي، فأعلن أن الحرب الأهلية قد انتهت أخيراً، ومكث في روما لفترةٍ هي الأطول من دون انقطاع خلال أربعة عشر عاماً. تابع قيصر وكليوباترا علاقتهما، لكننا لا نعرف إن كانا قد فعلا ذلك بحذرٍ أم لا. كان مكوثها في روما غامضاً في تلك الأيام بالنسبة إلى كثيرين؛ مثل غموض هذه الفترة حتى هذه الأيام. عرفت كليوباترا في السابق معنى ألاّ يكون المرء محبوباً بين أوساط الشعب، لكن هذا أصبح مفيداً في وضعها هذا. عاشت الملكة في منزل لا يرغب فيه كثيرون، لكنه يقع في مرتبة وسطى بين الفخامة والوضاعة. ويستحيل علينا في الوقت ذاته الاعتقاد أنها فشلت في استثارة الفضول، هذا إذا لم تستثر الإعجاب الحالم. كما يُفترض أن تكون كليوباترا قد تابعت عادة والدها في توزيع الهدايا، وهو الذي وزّع رشًى سخية ورتّب عليه ديوناً باهظة، وهذان كانا سببين كافيين خيّما على ابنته. كانت كليوباترا رشيقة بذكاء، وهو الأمر الذي أثار إعجاب الرومان.

تأثرت الموضة بوجودها، ولاقت تسريحة شعرها المعقدة رواجاً كبيراً، وهي التسريحة التي تتشابك فيها الضفائر وتُربط على هيئة منتظمة، ثم تُعقد على شكل قرص أو كعكة خلف الرأس. كانت روما مجتمعاً مقسماً ومهووساً بالوضع الاجتماعي، وكان الناس يهتمون برتبة الشخص،

وكذلـك بمسـتوى تعليمـه، وبوضعـه المالـي. كانت كليوباتـرا تنتمي إلى مجتمـع النخبـة؛ وهـو المجتمـع الذي كان يراعـي القواعد والأصول. لم تكن مأدبة الغداء الرومانية أكثر غنىً من مثيلتها في الإسكندرية، وكانت كليوباترا ضيفة دقيقة الملاحظة وغنية، ولهذا كانت مادة دسمة للشائعات السياسية، كما أثرت المناقشات الثقافية المترفة التي تهتم بها روما كثيراً؛ وهـي ذلـك النـوع مـن الأحاديث الذي يُقال إنه يحسّـن نوعية الشـراب. أمـا رفيـق وجبـة الغـداء المعاصر والمثالـي فيفترض ألاّ يكـون ثرثاراً أو أخرس". تحدث قيصر بطلاقة على مدى ساعات متأخرة من المساءات في موضوعات متنوعة؛ سياسـية، وعلمية، وفنية، لكنه ركّز على الأسـئلة المطروحة دائماً: من الذي ظهر أولاً، الدجاجة أم البيضة؟ ولماذا يتحسن الإبصار البعيد مع تقدم الإنسان في السن؟ حازت كليوباترا على إعجاب قيصر، وهي ما استطاعت أن تكون وحيدة من دون أصدقاء. (لم يكترث قيصر من جانبه لكل الألسنة التي تحدثت عن حضورها في المدينة. لكن ديـو أكّـد لنـا أنـه "لم يكن مهتماً مطلقاً بهذا". كانت كليوباترا محاطة في منزل قيصر بمثقفين بارزين ودبلوماسيين متمرسين، أما هي فكانت مهذبة، وسخية، ومؤثرة، فمالت بعض الانطباعات عنها إلى جانبها، لكن كل ما بقي لدينا شـهادة شـخص وحيد، وهو في الوقت عينه أكثر مواطني روما حلاوة في اللسـان وأحدّهم لهجة. إنه الرجل الذي يُقال إنه يُعتمد عليه على الدوام "لإحداث أكبر قدرٍ من الضجيج". أعلن شيشرون بصراحة: "إننـي أمقـت الملكـة"، وهكـذا نلاحـظ أن التاريخ يعير آذانه لأكثر الناس فصاحة.

كان ذلك الخطيب الكبير في وقت زيارة كليوباترا رجلاً أشيب الشعر يبلـغ سـتين عامـاً، وكان لا يزال يحتفظ بوسـامته، لكن خدّيـه كانا غائرين قليـلاً. كـرّس شيشـرون نفسـه فـي زمـن زيـارة كليوباترا إلى رومـا لتأليف مجموعة من الأعمال الفلسفية ذات الأغراض المتنوعة، وذلك وسط نوبة

كتابة عارمة، وأقدم على طلاق امرأته التي أمضى معها ثلاثة عقود من الزمن، وذلك كي يتزوج من إحدى القاصرات الثريات، وقد قدّم لهذا التغيير أسباباً شبيهة بتلك التي جلبت كليوباترا إلى روما: "لم أذق طعم الأمان، لم أجد مهرباً من الدسائس، وكل ذلك بسبب خبث الذين كان عليهم اعتبار أن صالحي وممتلكاتي هي القيم الأكثر أهمية بالنسبة إليهم". كان الحل بالنسبة إليه واضحاً جداً: "وهكذا اعتبرت أنه من الأفضل لي أن أدعّم نفسي بارتباطاتٍ جديدة مخلصة لي بدلاً من علاقاتي القديمة الخطرة". يعني ذلك أن شيشرون - وهو الرجل العصامي وسليل عائلة ريفية، والذي ضمن لنفسه البروز نتيجة مواهبه الثقافية الرائعة، كما استطاع المحافظة على مكانته عن طريق انشغاله المستمر بالسياسة - قد تزوج مجدّداً من أجل المال.

في هذه الحالة، لا يُدهشنا أن يكون شيشرون قد زار كليوباترا لسبب غير توجيه اللوم إليها، وهو اللوم الذي استمر لأجيالٍ قادمة مستخدماً لسانه السريع والقاسي. ويمكننا القول، عموماً، إن شيشرون العظيم ينتهج طريقتين: التزلّف والمماحكة - اللسان اللاذع - وكان بإمكانه استخدام هاتين الطريقتين بالمستوى ذاته، ومع الشخص ذاته. كما كان قادراً تماماً على التشهير بشخصٍ ما في يومٍ، ليقسم في اليوم التالي على الإخلاص له. كان كاتباً عظيماً، ومنشغلاً بنفسه، كما امتلك تقديراً كبيراً لذاته، وحساسية متعصبة بعض الشيء تجاه الإهانات، سواء أكانت حقيقيّة أم متخيّلة. عاش جون آدامز الروماني حياته واضعاً الأجيال القادمة نُصب عينيه، وهكذا توقع شيشرون أننا سوف نستمر في قراءة أعماله بعد ألفي سنة من رحيله، وهو ذلك الرجل الفضولي، وسيّد الفصاحة، وهو الذي حرص على أن يعرف بدقة الأراضي التي يمتلكها كل رجلٍ بارزٍ في روما، وذلك بالإضافة إلى معرفته بمكان سكنه، والأشخاص الذين يحرص على مرافقتهم. رفض شيشرون، وهو الرجل الذي بقي وسط أضواء المسرح

السياسي لفترة ثلاثة عقود، أن يكون مهمشاً، كما كان منجذباً إلى السلطة والشهرة على الدوام. لم يتمكن أي رجلٍ من المشاهير من تجنّب مواقفه الحادة، وعلى الأخص إذا كان من أصحاب الميول الفكرية، أو ذا سمعة عالميـة، أو ذلـك الـذي يمتلـك مـا يكفي من المـوارد لتكوين جيش، أو إذا كان معتاداً على تسلية الجمهور بطريقة تشكل ضغطاً على المفردات الرومانية. كان اللفت يثير سخط شيشرون على مستويات عدة، وهو الذي كان محباً لمظاهر الترف.

وعدت كليوباترا شيشرون، وسط الغموض الذي اكتنف مصيرها في روما، إما بكتابٍ أو بمخطوطة نصٍّ، وأغلب الظن أنها كانت ستأتيه بذلك الكتاب من مكتبتها في الإسكندرية، لكنها لم تفِ بوعدها هذا، وكان من الواضح أنها لم تكترث قطّ بمشاعره. توترت تلك المشاعر أكثر عندما ظهر مبعوثها أمام منزل شيشرون. لم يرغب ذلك الرجل بمقابلة شيشرون، لكنه أراد رؤيـة أعـزّ صديـق لديـه، وهو رجل مثقف جداً. هناك بعض الغموض هنا، لأننا بعد مرور ألفَي سنة ما زلنا نحتار في كيفية تفسير فترات الصمت لذلك الخطيب، لكن فترات صمت شيشـرون العميقة وإيحاءاته المتشـائمة أسـفرت عن رجلٍ محرجٍ أكثر منه رجل يشـعر بالإهانة. شـعر الرجل فجأة بأنه يقف موقف الدفاع، وأن سبب غمّه إما لأنه طلب خدمةً من كليوباترا، وإما لأنه زارها في الأساس. بدا وكأنه مأخوذ بها قليلاً. جهد شيشرون أمام ذلك الرجل لإيضاح أن اتصالاته مع الملكة كانت "ذات صبغة أدبية، ولا تسـيء إلـى مركـزي. كمـا أنني لا أجد مانعاً مـن التحدّث عنها في اجتماعٍ علني". لم يرشح شيء من هذا إلى الخارج، كما أن ممثل كليوباترا يمكن أن يدعمـه فـي هـذا. تعرضت كرامة شيشـرون، بالرغم مـن كل ذلك، إلى الإساءة. أما النتيجة فكانت حقداً قوياً، وهو الذي كان يريد قطع كل علاقة له بالملكة المصرية. تسـاءل شيشـرون عما يمكن أن يدور في خلدها، أو في أذهان ممثليها. دفع عدد قليل جداً من الأشخاص ثمناً دائماً لقاء كتابٍ

منسي، كما أن كليوباترا ضمنت من جانبها عداوة شيشرون الأبدية. لكن، يتعيّن علينا أن نلاحظ أن شيشـرون لم يبدأ بالإعراب عن سـخطه إلا بعد أن غـادرت الملكـة رومـا، وهـي التي كان من المسـتبعد أن تعود إليها في ذلك الوقت. ومع ذلك، نلاحظ أنه اسـتمر، وبالرغم من سـخطه، في لقاء الملكـة المصريـة علنـاً، وفـي المجتمعات، لكن ليس بالضـرورة في منزل قيصر، وهو أمر له دلالته.

أمـا إذا وضعنـا الكتـب جانبـاً فسـوف نجـد أسـباباً كثيرة تفسّـر عدم تمكنـه مـن الاسـتحواذ علـى إعجاب كليوباتـرا. كان شيشـرون من أنصار بومبـي التقليدييـن، وهو لا يشـعر بـأي نوعٍ من الإعجاب تجاه قيصر الذي أظهر بعض التعالي تجاهه، كما فشل في تقدير أقواله الحكيمة. وقد سبق لشيشـرون كذلك أن وجّه بعض الكلمات القاسـية إلى والد كليوباترا، كما عرف أوليتس، واعتبر أنه لا يصلح لأن يكون ملكاً، كما اعتبر، "أن صاحب الفخامة الإسـكندري يفتقد إلى الملكية بالدماء وبالروح". كان شيشـرون جمهورياً حتى العظم، لكنه لاحظ أنه خصّص وقتاً أكبر للشؤون المصرية أكثـر ممـا كان يـود، وهي الشـؤون التـي كانت مترافقة دومـاً مع نفحة من الحرج. سبق لشيشرون أن رغب، عندما كانت كليوباترا شابة، في أن يعيّن مبعوثـاً فـي بـلاط والدها، لكنه قلق من نظـرة التاريخ وروما المحترمة إلى هذا التعيين. فاشـتكى طويلاً بأن زوجته الأولى كانت تشـغل نفسـها كثيراً في الشـؤون العامة، وأنها لا تهتم إلا قليلاً بالشـؤون المنزلية. لكن، ما إن تخلص من المرأة العنيدة ذات الإرادة القوية حتى اكتشف أن لا ميل لديه تجاه أي امرأة أخرى. في المقابل، كان متعلقاً، وبعمق، بابنته التي وفر لها تعليماً من الدرجة الأولى. ماتت الفتاة فجأة في أثناء وضعها لطفلها، وكان ذلك في شـهر شـباط من العام 45. لم تكن ابنة شيشـرون قد بلغت عامها الثلاثين بعد، وهكذا أمضى الشهور التالية في الحزن الشديد؛ وهو الحزن الذي اتخذ مظاهر جسدية تقريباً، وكان عرضةً لنوبات البكاء، لكن أصحابه

حاولوا انتشـاله منها بكل لطف(*). لم تمنعه خسـارته هذه من التودد إلى امـرأة مثقفـة أخـرى، وهـي التي كانت شـابة ذات أعصاب باردة ومن جيل ابنته، والتي كان مستقبلها أمامها. لم تُظهر هذه الزوجة الجديدة التي كانت بعمر المراهقة أنها متأثرة بما يكفي بخسارته، لذلك قرر شيشرون التخلص منها بعد مرور أشهرٍ قليلة على زواجهما.

قال شيشـرون بغضب في منتصف العام 44: "كانت غطرسـة الملكة بحـد ذاتهـا، عندما كانت تسـكن في المنـزل الكائن في الجهة الأخرى من التيبر، كافية لتجعل الدماء تغلي في عروقي". التقى شيشرون نظيرته على ذلك الأساس. اعترف شيشرون أنه "تعرّضَ إلى قدرٍ معين من الزهو الذي لا معنـى لـه". كان بلوتـارك أكثـر وضوحـاً عندما كتـب عن الموضوع بعد حين. كان شيشرون رجلاً لامعاً، وكثيراً ما يُستشهد بكتاباته، لكنه كان ميالاً إلى مدح نفسـه إلى حدٍّ يثير الاشـمئزاز، وكان يُثقل أعماله بالدعاية لنفسـه بشكلٍ يصل إلى حدّ الوقاحة. وقد تحدث ديو بصراحة عن شيشرون عندما قـال: "كان أعظـم متفاخـر علـى قيـد الحياة". امتد الزهو إلـى مكتبته على الأخص؛ وهي الحب الحقيقي في حياة شيشـرون. ويصعب علينا تسـمية أي شيء آخر كان يسعده أكثر منها، لكن ربما باستثناء التهرب من قوانين تحديد الإنفاق. لقد أحبّ شيشـرون اعتبار نفسـه ثرياً، وفاخر بالكتب التي يمتلكها، لكنه أراد سبباً آخر يضيفه كي يمقت كليوباترا: كانت امرأة ذكية تمتلك مكتبات أفضل من مكتبته؛ وهو الأمر الذي شكّل إهانة له.

انتقد شيشـرون كليوباترا على غرورها، وذلك بالرغم من أنه يمكننا القـول إنّ هـذه الكلمـة تنطبـق عليـه. كان بومبـي مغـروراً، وكذلـك كان مـارك أنطونيـو، وهـو مرافـق قيصـر الذي يثـق به كثيراً، وهـو الذي وصفه

(*) لم يكن يميل إلى الاعتذار، وخاصة عندما كان في فترة حزنه الشديد التي غزُرت فيها كتاباته. تحدى شيشرون "الأشخاص السعداء" الذين يمكننا القول إنهم حسدوه على حزنه إلى درجة أنهم قرأوا نصف الصفحات التي كتبها في فترة بؤسه.

شيشـرون بتعابير تخلو من اللطف. كان الإسـكندرانيون مغرورين بشـكلٍ عـام، والانتصـار فـي الحـرب الأهلية يُعدّ نوعاً من الغرور. كان شيشـرون معتـاداً علـى اعتبار نفسـه الأكثر لباقة بيـن المتواجدين معه، وهكذا أزعجه كثيراً أن تشاركه كليوباترا في قدرته على التهكم. تساءل كذلك ما إذا كان مـن الضـروري حقاً أن تتصرف بشـكلٍ ملكـي، إذ لاحظ أنها تتصرف مثل ملكـة، وهـو أمـرٌ اعتبره إهانة لحساسـياته الجمهورية. يُضاف إلى كل ذلك مولده لعائلة غير معروفة. نشير هنا إلى أنه كان على حقٍّ في نقطة واحدة علـى الأقـل، وذلـك لأنـه لم يكن الأخير الذي لاحظ التكبّر الذي تتميّز به كليوباترا. كانت الاسـتراتيجية أقرب إلى طبيعتها من الدبلوماسـية. يُحتمل كذلـك أنهـا تفتقـد إلـى اللباقة، وذلـك لأن جنون العظمة يسـري في دماء عائلتهـا. كمـا لـم تكن تتردد في تذكير أولئـك المحيطين بها بأنها حكمت مملكـة متراميـة الأطراف سـنواتٍ عديـدة وحدها؛ وهو الأمـر الذي أكّدته لاحقاً. يُعتبر الازدراء حالة طبيعية للعقل المنفي، وهكذا امتلكت كليوباترا كل الأسباب التي تدعوها إلى الاعتقاد أنها جاءت من عالمٍ أرفع مستوى. لم يكن أي شـخص في روما يمتلك أصالة نسـبٍ تفوق نسَبها. لكن كما يبدو، كان شيشرون منزعجاً لأن معرفتها وصلت إلى هذا الحد.

اتجه الوضع السياسي الذي يحيط بتلك الملكة الفخورة والفيلسوف المغموم نحو أفقٍ مسدود. كان قيصر في هذه الأثناء منشغلاً بأمورٍ عسكرية، ولم يركّز إلا قليلاً على القضايا التي أهملها طويلاً، والتي حثّه آخرون على الاهتمام بها. ترنحت في هذه الأثناء القوانين التي أثارت جدلاً كبيراً، كما أصبحت الحاجة ماسة إلى إصلاح المحاكم، وإلى ضبط الإنفاق، وتحصيل القـروض، وإعـادة إحياء أخلاقيات العمل، واسـتقبال مواطنين جدد، وإلى تحسـين الأخـلاق العامـة، وتفضيـل الحرية علـى الأمجاد. كانـت الحاجة ماسـة – باختصـار – إلـى "إنقـاذ أشـهر المـدن وأقواها من حافـة الدمار". راح شيشرون، وكل المواطنين، يحلّلون دوافع قيصر، وهي المهمة الصعبة

في العام 45، والتي بقيت كذلك منذ ذلك الحين. انهالت على قيصر في نهاية تلك السنة مجموعة من مظاهر التكريم التي وصلت إلى حد التبجيل، وذلك على نحو ما هو متبع بالنسبة إلى ملوك البطالسة، فأقيمت له تماثيل في الهياكل على مدى الأشهر التالية. وكانت نسخة تمثله مصنوعة من العاج تتصدر المواكب وكأنه أحد الأسياد، فتزايدت سلطاته في هذه الأثناء إلى حدٍّ مثير. (كان شيشرون في غاية السرور عندما أصدر لائحة بالمخالفات في وقتٍ لاحق. أما في ذلك الوقت فقد أظهر سروراً بمرافقة القائد في زياراته). كثر الكلام في تلك الأوقات عن السلوكيات، وفاخر قيصر في أثناء إقامة كليوباترا بأنه ربح 302 من المعارك، وأنه حارب في بلاد الغال ما لا يقل عن ثلاثين مرة، وأنه "استحال على أي شخص أن يرعبه، وأنه كان يخرج منتصراً في نهاية كل حملة". لم يكن مستعداً، في المقابل، للتنازل عن أي شيء، كما تجاهل التقاليد وتصرف على أساس أنه قائد عسكري أكثر مما تتصرف على أساس أنه سياسي. كانت مظاهر السخط تندلع بانتظام، كما كان شيشرون ينفخ فيها بالاشتراك مع عددٍ آخر من أنصار بومبي السابقين.

عُيّن قيصر في العام 44 دكتاتوراً لمدى الحياة، كما انهالت عليه امتيازات أخرى، فبدأ بارتداء ثوب المنتصرين، كما جلس على مقعد عالٍ مصنوعٍ من العاج والذهب، وهو ما يذكر بعروش الملوك. ونُقشت صورته على النقود المعدنية، وهو أمر يحصل للمرة الأولى بالنسبة إلى حاكم روماني على قيد الحياة. تصاعدت كذلك مظاهر الاستياء، فبالرغم من أن مجلس الشيوخ ذاته "شجّعه، ودفعه نحو الأعلى، إلا أنه اكتشف فيه نقصاً في هذا المجال بالذات، وبدأ لذلك بنشر تقارير تحمل افتراءات كثيرة، وتتحدث عن مدى سروره لتقبّل السلطات الجديدة، وكيف أنه تصرّف بغطرسة كبيرة نتيجة امتلاكه تلك السلطات". يُحتمل أن يكون قيصر قد أخطأ في تقبّل مظاهر التكريم تلك، لكنه كان ملزماً بذلك نوعاً ما لأن

رفضهـا كان يعنـي المخاطـرة بإنزال الإهانة بمن يمنحه إياها. يصعب علينا تحديد ما إذا كانت الغطرسـة، والاعتقاد أنه فوق البشـر، هما الطّاغيين، أم مظاهر التكريم التي كانت فوق مستوى البشر، لكننا نعرف أنه لقي مصرعه نتيجة هذه الأخيرة. شغل قيصر نفسه في ذلك الشتاء بحملة جديدة وشديدة الطموح، وهو ما أسهم في تعقيد الأمور بصورة أكبر. كانت الحملة تقضي بـأن يغـادر رومـا مـرة ثانية وبسـرعة، وصمم على قهر بارثيـا، وهي الدولة التي تقع على الحدود الشرقية لروما، والتي قاومت محاولات روما فرض هيمنتهـا عليهـا، وقـد دفعت هذه الفكرة كليوباترا إلى التشـاؤم، هذا إذا لم تكن قد فعلت ذلك من قبل. كان قيصر معتل الصحة ومشوّش الذهن إلى حـدٍّ كبيـر لكنـه صمّـم على فتح طريـق روما إلى الهند. كان في الخامسـة والخمسـين من عمره في ذلك الوقت، لكنه صمّم على إتمام هذه المهمة التي ستستغرق ثلاث سنوات على الأقل؛ كانت تلك هي المهلة التي كاد أن ينجح فيها الإسـكندر الكبير. وقد شـكك شيشـرون في عودة قيصر من مهمته بعد أن ينطلق فعلياً في سبيلها.

أرسل قيصر في ربيع العام 44 ستة عشر من جحافله كي تسبقه إلى بارثيـا، وأعلـن أن موعـد المغادرة سـيكون فـي 18 آذار. فأجرى الترتيبات اللازمة لمغادرته، وكان يُفترض أن تكون كليوباترا قد فعلت الشـيء ذاته. بـدأ يعـد للرحيـل، لكـن المخاوف والشـكوك تـرددت في أنحـاء المدينة، وتسـاءل النـاس عـن موعد حـل القضايا المحلية: كيف سـتعيش روما من دون قيصر؟ كان ذلك القلق في محلّه، وذلك إذا أخذنا في الاعتبار الأداء الغامـض لمـارك أنطونيـو في أثناء غياب قيصر في مصر. كان النائب الذي عيّنـه قيصـر، أي مـارك أنطونيـو رجـلاً لا يُعتمد عليه، ولا يتمتـع بالفعالية اللازمة، كما انتشـرت حوله إشـاعات الخلاعة. أما بالنسـبة إلى الذين كان همّهـم الأساسـي الموعـد الذي يُعيد فيه قيصر العمـل بالنظام الجمهوري، فقـد أفـادت توقعـات الهيـكل في الشـتاء أمـوراً غير مشـجعة. أفادت هذه

التوقعـات، أو أُشـيع أنهـا أفادت أنه يُمكـن لملكٍ فقط أن يقهر بارثيا. كما قيل كذلك إن اللقب يجب أن يُمنح قيصر إياه على الفور. يُحتمل أن يكون كل ذلك أكثر بقليل من مجرد إشاعة، وذلك لأن توقعات الضالعين ليست بشـيء إذا لم تكن مناسـبة، لكنها ذكّرت بالمسـألة الشـائكة المتعلقة أساساً بسـبب مكوث كليوباترا في منزل قيصر. كما يُحتمل أن قيصر كان يحمل طموحـات ملكيـة، أو يُحتمـل أن يكـون ذلـك غير صحيح أبـداً، لكن من المؤكد أنه كان بعيداً عن الأجواء السـائدة في روما، وأنه كان أقل تركيزاً علـى القضايـا المحليـة مما هو مطلوب، وكان أوتوقراطياً حيث كان يجب عليـه استشـارة الآخريـن. أمـا إذا كان المـرء لا يريـد أن يُنظـر إليه كملك، فواجب عليه عدم معاشرة ملكة، هذا إذا طلب استشارة الآخرين.

كان يُنظـر إلـى يـوم الخامـس عشـر مـن آذار قبل العـام 44 على أنه مناسـبة للمـرح والفـرح بقـدوم الربيـع، ومناسـبة للإكثار من الشـراب، أي مثل ما هي الحال مع مناسبات رومانية أخرى. كان ذلك احتفالاً بالأسياد القدماء للبدايات والنهايات، وكان هذا الاحتفال يشبه نوعاً ما الاحتفالات بقدوم عام جديد. كانت مجموعات المحتفلين تتجوّل خلال الليل بمحاذاة ضفّتـي التِيبـر، وتقيم هنـاك أكواخاً مؤقتة تحت القمر المكتمل، وكان يُعاد هـذا الاحتفـال بعد مرور تسـعة أشـهر. حلّت تلك المناسـبة فـي العام 44 فـي صبـاح يومٍ تلبدت سـماؤه بالغيوم. اسـتقل قيصر عربـة في طريقه إلى مجلـس الشـيوخ، وذلـك مـن أجـل إتمـام ترتيبـات غيابه عن البـلاد. كان بوبليوس كورنيليوس دولابيلا يأمل تعيينه قنصلاً مكان قيصر؛ الأمر الذي كان يصبـو إليـه مـارك أنطونيو الذي ينافـس دولابيلا على نيل رضا قيصر. اجتمـع مجلـس الشـيوخ فـي ذلك اليوم فـي إحدى القاعـات الكبرى التي تجاور مسـرح بومبي. وقف الجميع احتراماً عند دخول قيصر الذي وضع إكليلاً من الغار على رأسه؛ جلس عند حوالى الساعة الحادية عشرة على

مقعده الذهبي الجديد، وأحاط به زملاؤه على الفور، وكان عدد منهم من بين أصدقائه المخلصين. قدّم أحدهم عريضة تسببت بموجة من الإلحاح وتقبيل الأيادي، وعندما تقدم قيصر كي يرفض الطلب الوارد في العريضة المقدمة، سار مقدّم العريضة معترضاً إياه في منتصف الطريق، وتقدم محاولاً بخشونة انتزاع ثوب التوجا عن كتفيه؛ كانت تلك هي الإشارة المتفق عليها سلفاً، فأطبق عليه أفراد المجموعة عند هذه الحركة شاهرين خناجرهم. وحاول قيصر الإفلات من أول ضربة خنجر، وهي التي بالكاد لامسته، لكنه وجد نفسه عاجزاً أمام الضربات التي تلتها. وافق كل متآمرٍ من المجموعة على المشاركة في الهجوم، وهو الأمر الذي حصل فعلاً عندما بدأ أفرادها بشراسة طعن وجه قيصر وفخذيه، وصدره، بينما أصابت بعض الضربات الطاعنين أنفسهم. حاول قيصر الإفلات من أيدي المجموعة، وأدار رقبته النحيلة والقوية "من طاعنٍ إلى آخر، وصرخ بهم مثل حيوانٍ بري"، وتمكّن في النهاية من إصدار أنةٍ واحدة، ومن تغطية وجهه بقماش ثوبه - وهذا ما فعله بومبي بالتحديد عندما مات فوق شاطئ مصر - ثم سقط على الأرض.

أسرع مهاجموه في هذا الوقت نحو أبواب القاعة، بينما استلقى قيصر ككومة أرجوانية مضرجاً بدمائه بعد أن طُعن ثلاثاً وعشرين طعنة، وكانت ثيابه "مبللة بالدماء وممزّقة". تبللت ثياب الجناة ونعالهم بالدماء، وهم الذين كانوا يرتدون الثياب الرسمية المخصصة لأعضاء مجلس الشيوخ. فرّوا في اتجاهاتٍ مختلفة، وأطلقوا صرخات تفيد بأنهم قتلوا ملكاً وطاغية. خيّمت أجواء الرعب والفوضى بعد ذلك، وافترض بعض الناس وسط هذه الصرخات أن الأمر يتعلّق بكامل أعضاء مجلس الشيوخ. أما حشود الناس التي كانت منشغلة في مسابقاتٍ قتالية في هذه المناسبة فقد خرجت إلى الشوارع. انتشرت شائعات تفيد بأن محاربين يقومون بقتل أعضاء مجلس الشيوخ، واعتقد آخرون أن جيشاً ما موجود في المدينة،

وأنه يستعد لاستباحتها. تصاعدت في الأجواء صرخات: "اهربوا! أغلِقوا الأبواب! أغلِقوا الأبواب!". بدأت مصاريع النوافذ بالانغلاق، وتراجعت روما إلى ما وراء الأقفال سواء أكان في البيوت أم في ورش العمل، وتحولت الضوضاء إلى شللٍ على الفور. تحول المشهد من "امتلاء المكان بأكمله بأناسٍ يركضون ويصرخون"، إلى "مدينة بدت وكأن جيشاً عدواً قد احتلّها". أمّا في قاعة الاجتماعات فاستلقى جثمان قيصر لساعاتٍ عدة وحيداً ومضرجاً بالدماء، ومن دون أن يقترب منه أحد، إذ لم يجرؤ أحد على لمسه. لكن ثلاثة صبيان من العبيد حضروا في وقتٍ متأخرٍ من المساء وحملوه بعيداً وسط أصوات البكاء الهستيري والعويل التي تصاعدت من المداخل ومن السقوف.

لم يتأثر أحد بهذه الأخبار بمثل ما تأثرت بها كليوباترا، لكن ربما باستثناء كالبورنيا التي تسلمت جثته المشوهة. لقد مثّل موت قيصر ضربة سياسية كارثية بغض النظر عن تأثيره في المستوى الشخصي بالنسبة إليها. فقدت كليوباترا بطلها، أما وضعها فلم يعد مضموناً في أفضل الأحوال، وكان قلقها عظيماً، فتساءلت عما إذا كان القتل سوف يصيب أصدقاءه وأقرباءه، وكان ذلك على الأقل ما افترضه مارك أنطونيو، وهو الذي يليه رتبةً. اختبأ أنطونيو بعد أن تنكّر بثياب خادم، ثم ظهر مجدّداً بعد أن ارتدى دروعاً صدرية تحت عباءته، أما الذين اشتركوا في ذلك الهجوم فقد غيّروا ملابسهم واختفوا، وهو ما فعله حماتهم. (وافق شيشرون على الجريمة لكنه لم يشترك فيها، إلا أنه هرب مع ذلك). يُحتمل أن كليوباترا كانت تستعد للرحيل عن روما في منتصف شهر آذار، وذلك بالنظر إلى قرب مغادرة قيصر لهذه المدينة، ولم تتوقع قطّ هذه الخاتمة، وذلك بالرغم من تردد شائعات في السنوات السابقة عن وجود مؤامرات ضد قيصر، وهي الأحاديث التي سبقت إقامتها في المدينة. أما بالنسبة إلى التوقعات الصادرة عن الهياكل فيمكننا القول، بعد التأمل فيها، إنها لم تكن مغرضة. ويُحتمل

كذلك أن تكون هذه التوقعات قد أضيفت في وقتٍ ما في المستقبل، لكن التاريخ القديم يخلو - لغرابة الأمر - من التوقعات غير الصحيحة. يعني ذلك أن بعض الأشخاص قد أدخلوا بعد ذلك تلك الإشارات الصحيحة في مجريات الحادثة، وقد يكونون أشخاصاً صدف أنهم وثقوا أن جريمة قتل قيصر مبرّرة بقدر ما هي مقدّرة.

تراكمت التفسيرات في وقتٍ لاحق بطريقة مشابهة، ويبدو أن التاريخ ما هو إلا مشروع من التوقعات، لكن بالاتجاه المعاكس. بدأت كليوباترا، في هذه الحالة، لعب دورٍ في هذه الجريمة. وقد تطلب وجودها في روما تفسيراً ما، ولم يتأخر هذا التفسير عن الظهور: قامت بحل ألغازٍ معينة، ورتبت الدوافع المبعثرة والتفاصيل الخطرة في قصة قيصر. كانت أهم مشكلة غير منطقية هي إقامة الملكة الإسكندرانية في المدينة. كان لا بد لهذه الإقامة أن تعني شيئاً، سواء أكان ذلك بسبب نفوذ كليوباترا أم بسبب طموحاتها. نتساءل هنا: ما أهمية وجود صورتها المزخرفة إلى جانب فينوس في الفوروم؟ كثرت الألسنة المتكاسلة والأقلام المسمومة بعد 15 آذار، أي عندما تطلب الأمر الإجابة عن تساؤلاتٍ كثيرة، وعندما بدا واضحاً أكثر فأكثر أن الذين قتلوا قيصر لم يمتلكوا أي خطط جاهزة للمستقبل، وأن روما قد تعرضت بقتله إلى خسارة فظيعة. أما ما يلفت النظر هنا فهو أن الشخص الذي يُفترض به أن يتهم كليوباترا أكثر من غيره لم يفعل ذلك، أي إنها لم تظهر في لائحة شيشرون الطويلة التي أعدها عن تجاوزات قيصر وأخطائه. خاطب شيشرون روما المحزونة، واستشهد بالدمار الذي تسببت به هيلين طروادة، لكنه كان يتحدث عن أنطوني وليس عن كليوباترا.

أظهر قيصر على مدى الأشهر السابقة لقتله ميلاً مفرطاً نحو مظاهر التكريم المفرطة وغير المسبوقة، فظهر في مناسباتٍ عديدة واضعاً الأكاليل بطريقة مثيرة؛ الأكاليل المصنوعة من الأشياء التي ينفر منها أي مواطن

روماني صالح. لا نعرف بالضبط ما إذا كان قيصر قد خطّط لهذا الأمر، أم إنه فُرض عليه. بدا أن أوائل الأشخاص الذين قدّموا له مظاهر التكريم هم أوائل من أدانوه، يعني ذلك أن كل مظهر من هذه المظاهر كان يمثّل فخاً من نوعٍ ما، وذلك، "لأنهم أرادوا جعله موضع حسد وكراهية سريعاً تمهيداً للتخلّص منه في أسرع وقت". بدا قيصر في مرتبةٍ سامية، ويمكننا القول بعد مرور كل ذلك الزمن إنه من المنطقي أنه أراد أن يكون من \الأسياد في بلاده، أي مثل ما كانت كليوباترا من \الأسياد في بلدها. سرت أحاديث كثيرة في ذلك الوقت عن إعداد قانون "يسمح له بمعاشرة أي عدد يحلو له من النساء". (أوضح سويتونيوس هذه النقطة عندما قال إنه سيُسمح لقيصر بأن يتزوج من عدة نساء "بهدف إنجاب الأولاد"). لم يقتصر الأمر على السماح له باتخاذ عدة زوجات، لكن سُمح له بالزواج من عشيقته الأجنبية؛ الأمر الذي لم يكن ممكناً بحكم القانون الذي يعترف بالزواج الذي يتم بين الرومان فقط. قيل في ذلك الوقت إن قيصر كان ينوي نقل عاصمة الإمبراطورية إلى الإسكندرية، وإنه صمّم كذلك على "أخذ موارد الدولة معه، كما صمّم على أن يُثقل إيطاليا بالضرائب والرسوم تاركاً مسؤولية إدارة روما لأصدقائه". لا تنطبق هذه الرواية على كليوباترا فقط، لكنها تفسر كذلك الإهانة الكامنة التي يُمكن أن يستنتجها المرء من طموحات حبيبها المعمارية، ومن عملية إعادة التصميم المحمومة التي بدأها في مدينة روما. إننا لا نلاحظ توافقاً بين القيصرين، أي قيصر ما قبل مصر وقيصر ما بعد إسبانيا، وهو أمر ليس مفهوماً حتى الآن. ولقد وفّرت كليوباترا خطأً فاصلاً ودقيقاً، ويُحتمل أنها تفسّر ولعه بالسلطة والألقاب في الأشهر الخمسة الأخيرة من حياته، وكذلك ولعه بالبهارج الملكية والتماسه لأن يكون من \الأسياد، وبالتيجان، وذلك بالإضافة إلى السلوكيات الأتوقراطية - التفرد بالحكم - الغريبة. يمكننا القول الآن إنها تآمرت في لعبة توزيع الأكاليل، كما أنها زرعت مثال الحكم المطلق في

عقل قيصر، واستعدت لأن تصبح إمبراطورة روما. مارست كليوباترا نفوذاً حازماً ومفسداً على ذلك القائد الروماني إلى حدّ أنه وُلِد قيصر جديد في مصر. حدث ذلك إلى درجة أنها اعتُبرت بحق مؤسِّسة الإمبراطورية الرومانية.

يمكننا القول، وبكل تأكيد، إن كليوباترا ساهمت في سقوط قيصر. نقول ذلك بالرغم من أننا لا نمتلك أي دليل عن خطة ملوكية من جانبها أو من جانبه، ولا أي شيء يدل على خيانة، أو على حماسة عمياء، أو قاتلة. إن مدى الدور الذي لعبته كليوباترا ما زال موضوعاً قابلاً للنقاش. لكننا وبالرغم من كل قدرات الإقناع التي تمتلكها، نستبعد تورطها كثيراً في السياسة المحلية بأي طريقة مؤثرة. هل كانت تفكر هي وقيصر في إقامة حكم ملكي مشترك؟ يُحتمل ذلك، لكننا لا نمتلك أي دليل. إن رحلة العمل تكون مجرد رحلة عملٍ في بعض الأحيان. وقد اعترف سويتونيوس بوجود روايات تاريخية كثيرة غير موثوقة، وهي الروايات التي يقدّر لها أن تتهذب على أيدي "أشخاص سذّج، والذين سيحاولون تحوير روايته". كان نيقولا الدمشقي، وهو الرجل الموسوعي الذي علّم أولاد كليوباترا، أول من اتهم كليوباترا بالتورط. وكان لوكان الذي جاء بعده بقرنٍ من الزمان سعيداً عندما حذا حذوه، فجمع بسطرٍ واحد وبدقة التجاوزات العديدة التي قام بها قيصر: "لقد أثارت جشعه". بدت هذه المزاعم رواية أنسب من الحقيقة الواضحة التي تفيد بأن قيصر امتلك عدداً كبيراً من الأعداء ولأسباب عديدة. كانت قلة من هذه الأسباب تتعلق بالملكات المصريات، أو بالدستور الروماني. إن التعديل الذي أقدم عليه على الروزنامة - نظام التقويم - استجلب له عداوة إضافية، ويصدق الأمر ذاته على تقليصه تعيينات الرجال في مواقع السلطة. أما الذين شعروا بأنهم مدينون لقيصر، فقد عبّروا عن استيائهم من هذا الشعور، كما تألم آخرون بسبب الخسائر التي وقعت من جراء الحروب، بينما تمنى بعضهم إحداث الاضطراب

فـي النظـام. قـال أحـد المعاصريـن معترفـاً: "وهكذا اجتمعـت كل الفئات ضدّه: الكبير والصغير، الصديق والعدو، العسكريون والسياسيون، وكذلك قدّم كل شخص ذريعته الخاصة، وأصغى كل شخص إلى الاتهامات التي وجهها الآخرون إلى قيصر بكل عناية بسبب الشكاوى التي يمتلكها".

فُتحـت وصيـة قيصـر يوم 17 آذار، كمـا قُرئت بصوتٍ عالٍ في منزل مـارك أنطونيـو، وهـو منـزل كبير كان يمتلكـه بومبي فـي الماضي، والذي لجأ إليه أنطونيو. كانت كليوباترا موجودة في روما عندما حرّر قيصر تلك الوصية في منتصف شـهر أيلول لكن اسـمها لم يرد فيها. أما إذا شـعرت بخيبة الأمل، فإنها لم تكن الوحيدة في ذلك: لم يرد في تلك الوصية أي من الدوافع الشنيعة المنسوبة إلى قيصر؛ كانت الوصية أشبه ما يكون بتوبيخ طويل لقتلته. ترك قيصر المنزل الذي تقيم فيه كليوباترا والأرض المحيطة بـه لسـكان رومـا، وأوصى كذلك بإعطـاء 75 دراخما إلى كل روماني ذكرٍ بالـغ يعيـش فـي المدينـة؛ لم يكن باسـتطاعته أن يوصـي بإعطاء أيّ أجنبي المال، وهو لم يفعل ذلك. لم يبدُ ذلك الرجل غير المكترث مثل ما كان الأمر عليه في أشـهره الأخيرة. لم يذكر قيصر ابنه قيصيريون بشـيء، ولم يعترف به. أما الخطوة التي أثارت دهشـة الجميع فكانت عدم ذكره مارك أنطونيـو هـو الآخـر، وهـو الذي توقع عكس ذلـك، إذ أقدم بدلاً من ذلك علـى تسـمية غايـوس أوكتافيـوس، وهـو حفيـد والد عم والـده الذي يبلغ الثامنة عشـرة من عمره، ليكون وريثه، فتبنّى ذلك الشـاب بصورةٍ رسـمية ومنحـه ثلاثـة أربـاع ثروتـه، وكذلـك ما هو أهم من ذلك، أي اسـمه. عيّن أنطونيـو وصيـاً علـى أوكتافيـوس مع عدد من رفاق قيصـر المقربين، وهم الذين صدف أن كانوا من بين قتلته.

اعتقـد بعـض النـاس أن التجـارة والأعمـال سـوف تسـتمر في روما كالمعتاد بعد احتفال الخامس عشر من آذار، ولم يأخذ هؤلاء في الحسبان مقدرة أنطونيو على تضخيم المناسبة، فتحوّلت المدينة بعد مرور ثلاثة أيام

إلى مسرح لأعمال الشغب، وذلك بعد أن تحولت جنازة قيصر إلى مطاردة شرسة للقتلة. ألقى أنطونيو خطبة مثيرة من فوق جثمان قيصر المسجّى فوق أريكة من العاج، والذي ظهرت فيه جروحه المفتوحة. وقف بذقنه غير الحليق - وهي علامة الحداد - فوق منصة رئيس مجلس الشيوخ، ورفع عباءته كي يحرّر يديه الاثنتين. ارتسمت على وجهه "ملامح فخورة وصارمة"، وأخذ يردّد عبارات المديح لقيصر كما عدّد انتصاراته الكثيرة، كما دفع في هذه الخطبة الاتهامات التي تفيد بأن تأخّره في مصر يعود إلى أسباب عاطفية فقط. وقد نجح في تغيير نبرته بين شديدة الوضوح والحزينة، وتنقّل في خطبته هذه بين الإشفاق والاستياء. لم يكن أنطونيو ذلك الرجل الذي يتمكن من مقاومة دافع التبجّح، لذلك مضى في عرض رأس قيصر الأشيب والمضرّج بالدماء، وأقدم على خطوة تفيض بالسلبية عندما نزع الثياب الممزقة عن جسد قيصر، وهي التي أصبحت قاسية بفعل الدماء المتجمدة، وعلّقها على رأس رمحٍ ملوّحاً بها في الهواء. جنّ جنون الحشد المتجمّع، واندفع الموجودون إلى إحراق القاعة التي قُتل فيها قيصر ودمروها. انطلقت بعد ذلك موجة هستيرية من القتل والتخريب، وهي الفترة التي جرى فيها "إحراق المدينة بأكملها تقريباً، كما قُتل عدد كبير من الناس" على حد قول شيشرون. كانت روما في ذلك الوقت مكاناً غير آمن لكليوباترا، أو لأي شخصٍ آخر في الواقع، إذ أظهر الرومان كل الصفات التي نسبوها إلى الإسكندرانيين المتعصبين، والعصبيين، والمتعطشين إلى الدماء. لقي رجل كان متواجداً في السوق حتفه، وقطّعه قاتلوه عضواً عضواً.

كانت كليوباترا محظوظة من ناحية واحدة: تلكأ قاتلو قيصر عن تنفيذ خطتهم مرة بعد أخرى "لأنهم كانوا يخشونه بالرغم من كراهيتهم إياه، وظلّوا يؤجلون المسألة". أما لو تحركوا عندما أرادوا ذلك في المرة الأولى لاضطرت إلى البقاء في روما المهتاجة. كانت كليوباترا في المدينة

في أثناء العاصفة الشرسة التي أعقبت الجنازة، وكانت فيها عندما استمر المذنّب على مدى أسبوع بعبور سماء المدينة كل ليلة. تطلعت من المنزل الذي تقيم فيه إلى المدينة التي كان اللون الأسود الفاحم يغطيها عادة، لكن النيران الموقدة هنا وهناك تناثرت في أنحائها لتظل مشتعلة حتى الفجر، وذلك من أجل حفظ النظام العام. رحلت كليوباترا بعد أن حُمّلت حقائبها في عربات، ونُقلت عبر طريق تلة جانيكوليوم المتعرجة، ثم عبر طرقات ملتوية أخرى وصلت بها إلى النهر، وذلك قبل أن تصل إلى الشاطئ في نهاية المطاف. كان موسم الإبحار قد فُتح حديثاً، فتمكّنت من المغادرة بسرعة بمساعدة بعض أتباع قيصر حسبما يُفترض. تمكنت من الانطلاق بعد شهر واحد من احتفال منتصف آذار، وذلك بعد أن رصد شيشرون تحركاتها، وبعد أن نوقش مصيرها كثيراً في روما. لم تخمد هذه الأحاديث إلا في منتصف شهر أيار. انتظر شيشرون أسابيع قليلة أخرى، وهو الوقت الذي يُفترض فيه أن تكون كليوباترا قد وصلت إلى الإسكندرية، وكان الشاطئ هادئاً تماماً، قبل أن ينفس عن استيائه الشديد. قال بغضب: "إنني أكره الملكة". كانت دماؤه تغلي في ذلك الوقت، لكنه لم يتنازل بالإشارة إليها باسمها، وهو الامتياز الذي احتفظ به لأعدائه وزوجاته السابقات. شعر شيشرون بغضب شديد لأنه طلب من كليوباترا خدمةً شخصية، أو لأنه تنازل وفعل ذلك، أو لأنه عرّض نفسه للاستهزاء. كان التشهير بالملكة، وسط هذا التغيّر في مجرى الأحداث، أمراً يخدم مصالحه أكثر من أي وقتٍ مضى. نال ممثلو كليوباترا نصيبهم من غضبه العارم، واتُهموا "بالنذالة عموماً" وبالصلافة. تساءل شيشرون عن سبب تعريض نفسه لمثل هذه المعاملة القاسية من قِبَل مساعدِي الملكة، وقال غاضباً: "لا بد من أنهم اعتقدوا أنني أفتقد إلى الإرادة، وإلى الجرأة".

كان الرحيل بالنسبة إلى كليوباترا مشحوناً بالتوتر على وجه خاص، فقد أبلت بلاءً حسناً عندما وحّدت نفسها مع فينوس وإيزيس، وهي التي

كانت حاملاً مجدداً في شهر آذار، ويُحتمل أن حملها كان ظاهراً، وهكذا خرج السرّ إلى العلن. امتلك شيشرون سبباً قوياً كي يتبعها عن كثب، إذ كانت كليوباترا الحامل بالنسبة إليه بمثابة الزوجة الخطرة، والتي تستطيع تعقيد مستقبل روما إذا سمحت لها الظروف. تكوّن هذا الطفل الثاني فوق الأرض الرومانية، وهو ما يعاكس حالة قيصريون، والذي ستعرف روما بأكملها أنه طفل قيصر. ماذا سيحدث لو أن كليوباترا ولدت صبياً؟ وماذا لو أرادت دفع قضيتها قدماً؟ يُحتمل أن شيشرون قلق من احتمال تعطيلها لمسألة وراثة الحكم، وهي التي كانت في وضعٍ يؤهلها لتفعل ذلك. على أيّ حال، كان ذلك موسم خيبات الأمل بالنسبة إلى كليوباترا، وهي إما أجهضت طفلها خلال رحلة عودتها إلى موطنها، وإما فقدته في وقتٍ لاحق، فتمكن شيشرون بعد ذلك من تنفس الصعداء في روما.

نالت كليوباترا مكافأة في مجالٍ آخر. فقد وافقت كل الأطراف المعنية على أن كل "القوانين، والمكافآت، والهدايا" التي تركها قيصر ستظل على حالها. ضمنت كليوباترا، في هذه الحالة، بقاء قبرص في يدها، كما أنها سوف تظل صديقة روما وحليفتها. استعدت المدينة في هذا الوقت "لموجة من النهب، والحرق، والمذابح"، وهي الترددات الطبيعية للحرب الأهلية. وقد فُتح المجال واسعاً بعد احتفال منتصف آذار للتشهير بالغير ولتبرير الذات. كما تفشّت ظاهرة تهنئة الذات، لأن قلب الملوك عن عروشهم كان من عادات الرومان كذلك، وحيث يعتقد المتآمرون أنهم حافظوا على ذلك التقليد في ذلك الصباح الربيعي. كما شاركت الأطراف المحايدة في أعمال العنف بدورها. قال ديو: "هناك طرف كبير يحرص على رؤية جميع الذين يمسكون بالسلطة وهم في حالة صراعٍ مع بعضهم بعضاً. إنه الطرف الذي يسرّ كثيراً بعداواتهم، ويشترك في وضع الخطط ضدهم".

كانت كليوباترا تخشى منذ نعومة أظفارها من قيام روما بتفكيك بلدها، لذلك اكتفت بمراقبتها وهي تمضي في عملية تدمير ذاتها. ترنحت

روما طيلة فترة سنة بليدة، وكئيبة، وداكنة، وهي سنة رفضت الشمس الطلوع فيها، "ولم تُظهر تألقها المعتاد عند شروقها، ولم تعطِ سوى حرارة ضئيلة وخجولة". (يُحتمل أن يكون سبب ذلك تفجّر بركان جبل إتنا في صقلية، لكن يبدو أن روما تفضل التفسير السياسي لهذه الظاهرة، بالرغم من وجود عوامل أخرى). كانت كليوباترا مسرورة لأن بحراً يفصل بينها وبين مناطق الاضطراب. ويُحتمل أن تكون قد أبحرت من بيوتيولي، وسارت بمحاذاة الشاطئ الإيطالي، وعبرت مضيق ميسينا الهائج والخطر لتنطلق بعد ذلك في أرجاء البحر المتوسط. كانت الرياح خلفها، وهكذا كان الاتجاه جنوباً في غاية السهولة. يعني ذلك أن القبطان القدير يستطيع إنهاء الرحلة في غضون أقل من أسبوعين فقط. تمكنت كليوباترا في غضون أيامٍ قليلة من ترك الهواء البارد والسماء الداكنة المسيطرين على أوروبا، والوصول إلى دفء مصر الغامر. عادت الملكة في الإسكندرية المشمسة إلى روتين عملها العام، وإلى استقبالاتها الخاصة، كما ترأست مجموعة من الطقوس والمناسبات، ولم تتوجه إلى روما بعد ذلك، كما أنها لم تغادر مدينتها. لقد فرغت من لعبتها بكل ذكاءٍ ودقة، وهي فعلت ذلك بفعالية أكبر مما فعله أي شخصٍ من البطالسة من قبلها، لكنها اكتشفت أنها عادت إلى نقطة البداية، إذ توالت الأحداث التي فاجأتها على حين غرة: فوجئت بأن قوانينها قد عدّلت بشكل شامل. تساءل أحد المعاصرين: "من هو الشخص الذي يستطيع التعبير عن دهشته بصورة كافية إزاء تغيّر الحظوظ، وتجاه التقلبات الغامضة التي تحدث في شؤون البشر؟". كانت كليوباترا حينها في السادسة والعشرين من عمرها.

كانت رحلة عودتها إلى الإسكندرية في العام 44 الأبرز في حياة كليوباترا التي بالكاد تمكنت من الحفاظ عليها، والتي امتلأت بمواقف عاطفية مبالغ فيها في بعض الأحيان، وهي أكثر ما تناسب لتكون موضوعاً

للأوبـرا، لكـن لـم يعمـد أحد من كتّاب الأوبرا إلـى معالجتها، وربما يعود ذلـك إلـى عـدم وجـود نص. أما بالنسبة إلى المرأة التي يُعتـرف لها بأنها نجحـت فـي التلاعـب برومـا ببراعـة، فإن قصـة كليوباترا متروكـة بكاملها إلـى مؤرخـي تلـك المدينـة، وهي التي لا وجود فعـالاً لها من دون وجود رومانـي فـي غرفتهـا. لـم يراقب أحد فـي ذلك الربيع عندمـا أبحرت نحو منازل الإسكندرية بأسطحها الحمراء، المتناثرة حول تلك المنارة المتلألئة والتماثيل الضخمة التي أقيمت لعددٍ من الملكات السابقات اللواتي يدعين كليوباترا، ولا حتّى عندما مرّت أمام جدران كاسرات الموج الحجرية قبل أن تصل إلى مينائها الهادئ، والذي يشـير إلى هندسـةٍ رائعة. لكن، بغضّ النظر عن كيفية تبريرها لرحلتها في الداخل، وبغض النظر عن برنامجها في الخارج، فإنها لم تكن لتتصور قطّ خاتمتها الكئيبة. امتلكت الملكة أسابيع قليلة كي تسـتوعب ما مرّ معها من أحداث ولكي تخطط للمسـتقبل. كما امتلكت سـبباً للتوجس بغض النظر عما إذا كانت محزونة شـخصياً أم لا. لم يقتصر الأمر على عدم وجود شخصٍ بارزٍ يمكنه التدخل لصالحها في روما؛ وهي التي أقحمت نفسها مع ذلكَ وبشكلٍ خطرٍ، في لعبة الدم التي كانت سياسـة تلك المدينة. كان قيصيريون، وبصفته الابن الوحيد لقيصر، ورقتها الرابحة، لكنه كان عبئاً محتملاً في الوقت ذاته. كانت في خطرٍ أكبر مما كانت عليه في العام 48، وذلك عندما اكتشفت بأنها عالقة بين أجنبيَين طموحَين يتقاتلان حتى الموت.

إننا لا نعرف ما إذا كانت كليوباترا تعرف معنى ذلك الشعور المزعج الـذي يسـببه الشـك في الـذات. أما إذا كانت تعرفه فـإن هذه المعلومة قد ضاعـت فـي غياهـب التاريـخ. أما ما وصفه بلوتارك على أنـه ثقتها الفائقة بالنفـس فقـد وصـل إلينـا، وذلك بالإضافة إلى قـدرات الإقناع الفائقة التي تتمتع بها. عمدت في مناسـبة أخرى إلى اعتبار مهمةٍ معينة ناجحة تماماً، فـي حيـن أنهـا لـم تكن كذلك. يصعـب علينا التصديق، إثـر إنهائها تقديم

القرابين المعطرة على ظهر المركب في الإسكندرية، أنها عادت بأمان ملكةً مجدداً بين رعاياها المعجبين بها، وأنها عادت منتصرة(*). تحرّرت في هذا الوقت من روما الريفية، ونجت من مخاطر الأمواج الهائلة، ومن الاضطرابات في الخارج، ووصلت إلى بلاد تعترف بها كواحدة من الأسياد الأحياء، وكمساوية لفينوس في كل ناحية من النواحي. عادت إلى مدينة يتلقى الملوك فيها نصيبهم العادل، وحيث تتمكن الملكة من رفع رأسها من دون أن تتهم بالغرور، وحيث لا يسعى أحد للجلوس على مقاعد ذهبية، أو يرتجف عندما يرى منظر الأكاليل. وبالمختصر المفيد، عادت إلى بلاد الحضارة. انسحب الأمر ذاته بشكلٍ خاص على ذلك الصيف المصري، والذي كان حافلاً بالاحتفالات. قلبتْ مصر كليوباترا النظام الروماني في ما يتعلق باحتفالاتها، وكرست البلاد نفسها للغناء، والرقص، وإقامة المآدب. ورد في المثل اليوناني: "الوطن هو الأفضل"، ولا بد من أن هذا هو ما أحسّت به كليوباترا العائدة من بلاد تعرّف هذه الكلمة بطريقة مختلفة. اشتكى شيشرون قبل سنوات قليلة من أن "الإسكندرية موطن كل الخداع والزيف".

لا نعرف من أدار دفة الشؤون المصرية في أثناء غياب كليوباترا خارج البلاد، وذلك بالرغم من أنها اعتادت تكليف وزير المالية بإدارة شؤون البلاد، لكننا نعرف أن ذلك الشخص، كائناً من كان، تمكن من إدارة البلاد بطريقة تدل على حكمته. عادت كليوباترا إلى المملكة التي تنعم بالرخاء وبالسلام، وهو أمرٌ ليس بالسهل، وذلك بالنظر إلى فترة، أو فترتَي غيابها. غابت الاحتجاجات المتعلقة بجباية الضرائب، كما غاب أي نوعٍ آخر من أنواع التمرد التي كانت في استقبال والدها عند عودته. استمرت

(*) يحفل التاريخ بسوابق كثيرة تشبه هذا النوع من عدم الدقة. أقام الإسكندر الكبير احتفالاً بمناسبة غزوه الهند، وهو الأمر الذي فاجأ رجاله المنهكين وشبه الجائعين الذين بالكاد نجوا من تلك الحملة، وذلك لأنها لم تكن حملةً ناجحة.

الهياكل في الازدهار، كما أن كليوباترا عادت بهدوء إلى لعب دورها، لكن أخباراً مقلقةً وصلتها من الخارج. تابعت أرسينو، وهي شقيقة كليوباترا الصغرى خططها من منفاها للاستيلاء على العرش، وكررت محاولتها الانقلابية التي قامت بها قبل أربع سنوات، وتمكنت من حشد ما يكفي من الدعم في إفيسوس كي تعلن نفسها ملكةً على مصر. وعملها هذا يدل على إصرارها، وعلى هشاشة مركز كليوباترا خارج بلادها. كان معبد آرتميس مليئاً بكنزٍ لا يقدّر بثمن، ويبدو أن أرسينو حازت على داعمين رومانيين، كما حازت على عائلة، أو على عائلة مزيفة، متواطئة معها. وقد ظهر في هذا الوقت شخصٌ زعم أنه بطليموس الثالث عشر، وقال إنه أُنقذ بأعجوبة بعد غرقه في نهر النيل قبل ثلاث سنوات. كان من الواضح أن الشقيقتين تكرهان بعضهما بعضاً، لكن أرسينو مضت إلى حد إغواء القائد الذي عيّنته كليوباترا في قبرص، ويبدو أنه كان متذبذباً في ولائه. كانت الرحلة سهلة ما بين قبرص وإفيسوس، وعادة كان القائد في قبرص مسؤولاً رفيع المستوى. لكنّ الأمور تعقّدت أكثر عندما وقف أحد أشقاء كليوباترا - بطليموس الرابع عشر - إلى جانب أرسينو، وهو رجل عديم القيمة، وربما يخلو من الولاء. قال شيشرون: "هناك مثل شائع يوبّخ الأشخاص الذين يتعثرون بالحجر الواحد مرتين". اكتشفت كليوباترا أنها معرضة مجدداً للهجوم على جبهتين، لذلك لم تكن عرضة للتردد، فعمدت في إحدى المراحل في الصيف إلى ترتيب اغتيال بطليموس الرابع عشر، ويُقال إنها فعلت ذلك عن طريق السم(*).

كان من الواضح أن وجود ذلك الشاب الذي يبلغ الخامسة عشرة من عمره لم يكن ضرورياً، وذلك بغض النظر عما إذا كان قد اشترك في التآمر

(*) يؤكد لنا بلوتارك أن ذلك يحدث بالضرورة في أحسن العائلات، وذلك لأن الملكية "وضع غير اجتماعي مطلقاً". كما أكد لنا ذلك المؤرخ أن قواعد التخلص من النظراء الملكيين قواعد لا تتغير، أي مثل ما هي الحال في الهندسة.

مع شقيقته المنفية أم لم يشترك، لكنه كان يمثل تحدياً لاستقلالية كليوباترا. سمحت لها عملية قتل ذلك الشقيق بإعلان أن قيصيريون هو الوصي الشريك على العرش، وهو الأمر الذي فعلته في ذلك الصيف. تمت في وقت ما بعد شهر تموز - وهو شهر جديد آخر يحفل بالرموز، والذي حلّ لأول مرة في العام 44 - عملية إعلان قيصيريون فرعوناً؛ الأمر الذي دفع بشيشرون إلى أن يصرّ بأسنانه. بدأت كليوباترا مع تتويجه المرحلة الثالثة من الوصاية المشتركة على العرش. وكان الحل الذي اختارته حلاً مبتكراً ونموذجياً في الوقت ذاته، فقد ارتأت الملكة أن يصبح قيصيريون "الملك بطليموس، وقيصر في الوقت ذاته، السيّد المحب لوالده، والمحب لوالدته"، وهكذا حصلت كليوباترا على الشريك الذكر الإجباري، وجلس رجل روماني، ومبجّل من ناحيتَي الأب والأم، على عرش مصر. كان من المستبعد أن يعمد ذلك الشريك الذي يبلغ الثالثة من عمره إلى التدخل بأي طريقة كانت في برنامج عمل والدته.

لم تكن حسابات كليوباترا لامعةً من الناحية الاستراتيجية فقط، وهي التي كانت تحكم مصر تحت عباءة قيصر من الناحية الرمزية؛ وهكذا تمكنت من توقع حدوث صراعٍ عنيف، لكن هذه الحسابات كانت ذكية من الناحية الرمزية. أما إن كان قيصر قد عاد من الإسكندرية وهو أكثر ميلاً إلى الملكية من أي وقتٍ مضى، فإن كليوباترا قد عادت من روما وهي أكثر ميلاً إلى مظاهر التبجيل. تبنت دورها الجديد كإيزيس بكل حماسة، وركزت بالكامل على سيطرتها الأمومية، وهي مفهوم جديد ينتزع الارتقاء من ولادة الأطفال. ظهرت كليوباترا في الاحتفالات بكامل زيّ إيزيس الرائع. وبدا أن الأحداث التي جرت أخيراً قد وفّرت لها مساعدةً قوية، لكن يُحتمل أن يكون اغتيال قيصر قد قضى على السنوات التي شهدت خطط كليوباترا الدقيقة، إلا أن هذا الاغتيال قدّم فائدة كبيرة لصورتها الجديدة. ورد في الأسطورة أن أعداء أوزيريس - وهو شريك إيزيس في الأرض وأقوى

ذكرٍ مبجل فيها - أقدموا على تقطيع أوصاله بطريقة بشعة. ترك أوزيريس وراءه وريثاً صغيراً من الذكور، وقرينةً مخلصةً سريعة البديهة. وقد عمدت إيزيس وسط حزنها إلى تجميع الأوصال المقطعة تمهيداً لإعادة إحيائه، فدعمت حادثة الاغتيال التي جرت في احتفال منتصف آذار تلك القصة، وهكذا خرجت كليوباترا من خسارتها أكثر قوة، أي إنها أصبحت الزوجة العظيمة لأحد الأسياد المقتولين. أُعلن قيصر في اليوم الأول من العام 42 سيداً، وذلك في احتفال ديني رزين أقيم في روما؛ الأمر الذي قدّم لها فائدة إضافية.

لعبت كليوباترا في العلن دور إيزيس بوصفها مصدر الحكمة والوفرة المادية والروحية، كما روّجت لحضور قيصريون. انطلقت الملكة في برنامج بناء طموح، واستوحت الأسطورة في معظم أجزائه. بقي قيصريون ماثلاً في النقوش المرسومة على جدران هيكل دانديرا، وهو مشروع ضخم ورثه والد كليوباترا. يُحتمل أن قصد كليوباترا من هذه النقوش كان الاحتفال بتولي ابنها العرش، وهي النقوش التي أظهرته مع تيجان مصر العليا، ومصر السفلى واقفاً إلى جانبها وهو يقدم البخور إلى إيزيس، وحوروس، وأوزيريس. كان ذلك دمجاً فعالاً للمفاهيم، وهي التي تابعته بصفتها الفرعونية، وبصفتها والدة في الوقت ذاته. أظهرتها إحدى الرسومات وهي تهز أحد ثعابين إيزيس بينما وضعت على رأسها التاج المزدوج التقليدي عند الإناث من الأسياد. برز اسمها أولاً في الأسطر التي ظهرت تحت النقش، ويُحتمل أن تكون هي التي دشنت النقوش. أكملت كليوباترا عمل والدها الذي بدأه في إدفو، في مصر العليا، وهكذا يُفترض أنها نقلت إلى هذا المكان الأطقم العاملة في دانديرا؛ فشيّدت مركباً مبجّلاً في كوبتوس وهو مكان يقع على مسافة أبعد في الشمال، كما شيدت هيكلاً صغيراً مخصصاً للاحتفال بولادة الأطفال الذين يحملون صفة التبجيل، ويقع وراء الهيكل الأساسي في هيرمونثيس الواقعة قرب

الأقصر. يرتبط قيصيريون كثيراً هناك مع حوروس، وهو الذي سينتقم، وربما ليس صدفةً، لموت أبيه. يُحتمل أن كليوباترا قد بدأت بتشييد بناءٍ ضخم مكرسٍ لقيصر، وهو البناء الذي عُرف لاحقاً باسم قيصريوم، والذي يقع فوق ميناء الإسكندرية. وقد اشتمل هذا المكان في النهاية على مجمعٍ كامل بأروقته ذات الأعمدة، ومكتباته، وقاعاته، وبساتينه، وبواباته، وشوارعه الواسعة، وباحاته الداخلية المزودة بأعمال فنية رائعة. أما مشروعها الأكبر فكان معبد إيزيس الذي بنته في الإسكندرية، وهو المعبد الذي ضاع كلياً في الوقت الحالي.

شهدت المجالات الأخرى حركة نهضوية واسعة قامت بها كليوباترا، وهكذا عرفت الإسكندرية عودةً قوية للحياة الثقافية. جمعت الملكة كليوباترا حولها زمرةً من المفكرين، كما ساهمت في تكوين جماعة من المفكرين اليونانيين في المدينة التي لم تلاقِ صعوبة تُذكر في جذب الباحثين إليها. كان فيلوستراتوس من بين أصدقائها المقربين، وهو الخطيب الشهير بخطاباته الارتجالية الساحرة. يُحتمل كذلك أنه كان معلّمها الشخصي. ويُحتمل أن تكون المدرسة الفلسفية الأصلية الوحيدة هي تلك التي نشأت تحت إشراف كليوباترا. تواجد ضمن هذه المدرسة آينيسيديموس من كنوسوس؛ وهو فيلسوف ساخر جادل في نسبية المفاهيم الإنسانية واستحالة المعرفة. كما شهدت أعمال البحث في ما يتعلق بقواعد اللغة والتاريخ نهضة لافتة، وذلك بالرغم من أن هذه النهضة قد أنتجت بعض القفزات النوعية الرائعة بالنسبة إلى القرون السابقة. أما الطب والصيدلة فكانا الاستثناءَين الوحيدين. كان الأطباء، ومنذ فترة طويلة، مقربين جداً من بلاط البطالسة حيث تمتعوا بنفوذٍ كبير، وكانوا رجال دولة يهتمون بالشأن العام. كما كان هؤلاء الأطباء في عهد كليوباترا أبرز العاملين في حقولهم، كما كتبوا في حقول الطب والأمراض، وأمراض العين والرئة، وهم فعلوا ذلك بصفتهم باحثين وممارسين. أما في ميدان الجراحة على وجه الخصوص

فقد حقّق هؤلاء المفكرون خطواتٍ جريئة، وتمكنوا من تكوين مجموعة من المهارات المتخصصة. كانت أعمالهم من جهة ثانية اشتقاقية، وعقيمة في بعض الأحيان، وذلك لأنها اتجهت نحو التصنيف أكثر من اتجاهها نحو الإبداع، وقد استفاد الباحثون الإسكندرانيون المحليون كثيراً من هذه الأعمال. تمكّن ديديموس، الذي يصغر كليوباترا بأربع سنوات، وهو ابن مواطن يبيع السمك المملح، من تمييز نفسه في البلاط نتيجة ذهنه المتوقد وإنتاجه الغزير، فأعطى محاضرات قيّمة في القواميس والمعاجم، وعن هوميروس، وديموستين، وفي التاريخ، والمسرح، والشعر، كما خصّص بعض كتاباته الساخرة لشيشرون ذاته. يُعجب المرء لأنه امتلك ما يكفي من الوقت لملكته، وهو الرجل ذو الإنتاج الغزير إلى حدّ الجنون. تمكن ديديموس من كتابة ما يزيد على 3,500 موضوعٍ وتعليق؛ الأمر الذي قد يفسّر سبب عدم تذكّره أشياء سبق له أن كتبها، ما عرّضه لاتهامات منتظمة بأنه يناقض نفسه. كان هؤلاء هم الرجال الذين تتناول معهم كليوباترا طعام الغداء، والذين عاشت قريبة منهم، وكانت على صلةٍ وثيقة بهم، وتناقش معهم أمور الدولة. وكان المفكر الذي يعيش في البلاط يقوم بدور "المحفّز الفكري أو كاهن الاعتراف والضمير"، ما يعني أنه كان ناصحاً وخادماً في الوقت ذاته.

خطت الملكة أولى الخطوات في سبيل استرجاع مجد البطالسة، وقد سارت في ذلك على خطى والدها، وإن استطاعت الإتيان بنتائج أكثر قابلة للقياس، ودعمت المشروعات الفكرية بما يليق بتراثها. عُرف الملوك الهلينستيون أنهم رعاة الثقافة والبحث، وكان من بين أسلاف كليوباترا عددٌ كبير من القتلة، وأحد المؤرخين، وعالِم حيوانات، وكاتب مسرحيات، وقد كتب بطليموس الأول رواية معتبرةً عن الإسكندر الكبير. يمكننا القول بعد مضي كل هذا الزمن إننا مضطرون للحكم على سمعة كليوباترا بناءً على ما نُسب إليها زوراً. تلقت الملكة ثناءً كبيراً على ما كتبته من مجموعة أدبية

وثقافية متنوعة، الأمر الذي يسلط لنا ضوءاً على سيرة حياتها. كانت متحررة بالمعنى السلبي في الخارج، ومفكّرة معتبرة في الداخل. كما كانت مرجعاً واسعاً ومتنوعاً في أمور الطب، ويصعب علينا مع ذلك فصلها في بعض الأحيان عن موضوعات تصفيف الشعر، والتجميل، والأوزان، والمقاييس. كانت تلك هي المجالات التي بحثتها كليوباترا جيداً، وعلى الأقل على مائدة الغداء. أما بالنسبة إلى الطب فكانت الراعية العظيمة لهيكل هاثور، وهو الهيكل المخصص لصحة النساء. ويُحتمل أكثر أن تكون قد كتبت موضوعات حول الاستحمام بحليب الأتان؛ وهو احتمال مرجح أكثر من اختراعها الأسبرين.

نُسب إلى كليوباترا أنها ابتكرت علاجاً غريباً للصلع يتكوّن من معجونة مؤلفة من أجزاء متساوية من الفئران المحروقة، وقطعة قماش محروقة، وأسنان خيولٍ محروقة، وشحوم دب، ونخاع غزال، ولحاء القصب. تُمزج هذه المواد مع العسل ثم يُدهن المرهم الناتج على فروة الرأس، "ثم تُفرك حتى تبدأ الشعيرات بالظهور". يؤكد بلوتارك أنها ابتكرت "كل أنواع السموم المميتة"، وهي سموم جرّبتها على السجناء. وعندما لاحظت أن "هذه السموم السريعة تسبب الكثير من الألم"، مضت في البحث عن الحيوانات السامة. يُحتمل كثيراً أن يكون هذا الكلام صحيحاً، وذلك بالنظر إلى كثرة المختصين الطبيين وتفوقهم في بلاطها، وبالنظر إلى التقدم في هذا الحقل، والاهتمام الحيوي الذي ظهر في ميدان العلوم الطبيعية من قِبل ملوك شرقيين آخرين، وهم الذين أجرى عدد منهم التجارب العلمية وكتبوا في ميدان علم الأحياء وعلم النبات. وقد نسب إلى كليوباترا إجراء مجموعة من التجارب على نساءٍ سجينات، وذلك من "أجل تحديد النقطة التي يتحول فيها الجنين في أولى مراحله إلى جنين كامل". يمكننا الافتراض، ولأسباب مشابهة، أنّ هذه الكتابات زائفة من دون شك، إذ احتوت على تعليمات حول استخدام تحاميل مهبلية:

"استخدمتُها على الدوام، وكذلك جرّبتها شقيقتي أرسينو". يبدو هذا النص معقداً بما يكفي لأنه مكتوب باللغة اللاتينية، هذا إذا وضعنا جانباً مسألة ما إذا كانت كليوباترا وشقيقتها الصغرى الطامعة بالحكم، قد تبادلتا النصائح خلال هذه السنوات، ولم تنشغل الواحدة بالتخطيط لقتل الأخرى. يُشاع كذلك أن كليوباترا كانت ماهرة في العلوم ما فوق الطبيعة، وذلك بالرغم من أن الخيمياء الوحيدة التي عملت عليها كانت تحويل حقول مصر إلى حقول من ذهب.

استمدت كليوباترا جزءاً من ثقافتها المفترضة من العالم العربي، وهو العالم الذي نجا من اختراق الدعاية الرومانية. وقد رسخت نفسها في تلك الميادين بصفتها فيلسوفة، وطبيبة، وعالمة. كان اسمها رناناً بقوة، وبرز أكثر بسبب ارتباطها بإيزيس المولعة بعلم الصيدلة والخيمياء. حملت بعض المعلومات الصدقية، لكن يصعب علينا تحديد كم من الإنجازات المنسوبة إليها إنجازات صادقة، كما يصعب علينا كذلك تحديد مدى عبارات التملق التي أوردها بلوتارك في روايته عن تلك المرأة ذات الميول الفكرية، والتي ترتاح بمرافقة الفلاسفة والأطباء، والتي تعيش في أزمنة التنوّر. وأيضاً، يصعب علينا تحديد مدى الضرر الذي تشكّله تلك المرأة القديرة والهادئة، وهي التي يُشتبه في أنها أكثر كفاءة بالنسبة إلى مهنتها، والتي يُمكن لنا أن نعزو مواهبها فقط إلى "فنون الشعوذة". تحتاج جثث الموتى إلى الدفن في مكانٍ ما سواء أكانت مقطعة الأوصال أم لا، كما تُدفن القدور وكتب الشعوذة قربها. كانت قدرات كليوباترا عظيمة، لكن خصوبة مخيلتها تجاه الذكور كانت أعظم.

تعرضت قدراتها للامتحان في السنوات التي تلت عودتها، وذلك عندما تتالت عليها الكوارث؛ الواحدة تلو الأخرى. لم يتحرك نهر النيل في ربيع العام 43، أما في فصل الصيف فلم يرتفع قطّ. كما أعرب النهر عن عدم تعاونه في السنة التالية كذلك، فحصل نقصٌ كبير في المحاصيل

إلـى درجـة أن السـجلات التاريخيـة لم تـورد نقصاً يماثلـه؛ كانت الكارثة عامـة فـي جميـع أنحاء مصر. تمكنت كليوباترا من إدارة مملكتها من دون حوادث تُذكر خلال الأزمة المسـتمرة. مثّلت المجاعة السـابقة فشـلاً ذريعاً بالنسبة إليها، ومن المحتمل أن تكون قد أعلنت حالة الطوارئ، لأنّ شعبها كان جائعاً. لم يكن لديها سوى خياراتٍ قليلة غير فتح الأهراءات الملكية وتوزيـع الحنطـة مجاناً(*). ازدادت نسـبة التضخم كثيـراً، فأقدمت كليوباترا على تخفيض قيمة العملة مجدداً، كما ظهرت أمامها عرائض من مقاطعتين تطالـب بالتخلـص مـن جبـاة الضرائب المرتشـين. أما بالنظر إلـى "التذمّر العام"، وبسـبب "كراهيتها للشـر"، فقد أقدمت على منح مقدّمي العرائض الإعفاءات، فنشرت الملكة مذكرات عفو بشكلٍ واسع. كما وردت تقارير وسط الأزمة الزراعية تشير إلى وجود أورام في الغدد، وكذلك بثور سوداء مقرفـة. انتشـر الوبـاء، إمـا في مصـر أو وراء حدودها بقليـل. برز في تلك الفترة ديوسـكوريديس، وهو خبير غزير الإنتاج في النباتات الطبية، وكتب مـادة كافيـة يُمكـن للمـرء أن يسـتند إليهـا في كتابة أطروحـة حول طاعون الأورام ذاك.

كان توقيت هذه الأزمة مشؤوماً لأن الحرب الأهلية الرومانية عادت بـكل شراسـة إلـى شـواطئ مصـر في العام 43. ولم تسـتطع شـبه الجزيرة الإيطالية احتواء ذلك الصراع إلا بصعوبة، وهو الصراع المتقطع والشرس الذي قال عنه بلوتارك إنه "لا وجود لأي كائن حي أكثر شراسة من الإنسان عندمـا تجتمـع حماسـته مـع السـلطة". أما بالنسـبة إلى كليوباتـرا، فإن هذا

(*) اتّهمت كليوباترا أنها حجبت توزيع الحنطة عن يهود المدينة، وهو أمرٌ مستبعد، إذ كان اليهود عادة داعمين مخلصين للإناث من حكام البطالسة، وعملوا في حراسة الأنهر، وكانوا ضباطاً في الشرطة، وقادة جيوش، ومسؤولين رفيعي المستوى. كما حاربوا تحت لواء أوليتس واعتُبروا من بين داعمي كليوباترا عندما كانت في الصحراء عام 48، كما حاربوا تحت لوائها خلال حرب الإسكندرية. وقد عمد قيصر في نهاية الحرب إلى منحهم الجنسية.

الصراع الداخلي أخذ صيغة قصة خيالية غامضة: كانت تعرف أن كل الأطراف المتصارعة سوف تلجأ إليها. (يشهد عدد الطلبات المقدمة إليها على ثروتها الكبيرة). كانت تعرف كذلك أنها إذا دعمت الجهة الخطأ فمعنى ذلك استجلاب كارثة، فبقيت على اتصالٍ مع روما، لكن صعُب عليها أن تفعل ذلك من دون معرفة من يمثّل روما في واقع الأمر. كما عرفت أن الثمن الذي ستدفعه سوف يكون غالياً بغض النظر عن الجهة التي تدعمها. كانت الملكة تدرك جيداً النصيحة التي تلقاها والدها بصراحة في أثناء المفاوضات التي أجراها في روما، والتي دارت حول "الإذلال والمتاعب التي سيُقحم نفسه فيها، والرّشى التي سيضطر إلى دفعها، والشراهة للمال التي يتعيّن عليه إطفاؤها، وذلك عندما لجأ إلى الرجال البارزين في روما، وهم الذين لن تكفيهم مصر بأكملها إذا تحولت إلى فضة".

كان أفضل خيارٍ متاح أمام كليوباترا ألاّ تفعل شيئاً، فاختارت في النهاية اللجوء إلى عواطفها الطبيعية، ودفع ثمن ذلك الخيار. حاز دولابيلا مكانة عالية لدى قيصر، وكان القائد الشاب لأسطوله وخياره الأول لمنصب القنصل في العام 44. كان يميل إلى أنواع المسرات، لكنه كان قوي البنية، ومتحدثاً لبقاً، ومحبوباً لدى الجمهور. كان لا يزال في العشرينيات من عمره، كما أن كليوباترا كانت تعتبره الوريث السياسي الطبيعي لقيصر، فأرسلت إليه الجحافل الأربعة التي تركها قيصر لها، بالإضافة إلى أسطولٍ صغير. وقد ضمنت مقابل هذه المساعدة وعداً بالاعتراف بقيصيريون ملكاً على مصر؛ وهو تأكيد كان ضرورياً بالنسبة إليها. تم، لسوء الحظ، اعتراض الأسطول في عرض البحر فلجأ، ومن دون مقاومة إلى كاسيوس، وهو خصم دولابيلا، وكان قائداً بارزاً بين الذين اشتركوا في قتل قيصر. حاول كاسيوس بدوره الحصول على مساعدةٍ من كليوباترا، لكنها ما لبثت أن بعثت إليه بأعذارها، قائلةً له إن المجاعة والطاعون قد أتلفا بلدها، أي

إنهـا فقـدت كل مواردهـا. وقـد كانت كليوباترا في هـذا الوقت قد عمدت إلى تجهيز بعثة ثانية إلى دولابيلا، لكن الرياح المعاكسـة أبقت الأسـطول فـي الميـنـاء، ولهذا السـبب التقـت مجموعة من المتمرديـن. وعمد قائدها العسـكري فـي قبـرص في هـذا الوقت إلى نقض أوامرها مزّوداً كاسـيوس بسفنٍ مصرية. وتدخلت كليوباترا في وقتٍ لاحق لمحاسبته على تمرده.

لعبـت كليوباتـرا لعبـة خطـرة، ولـم تـزدد إلا خطـورة. حاصر جيش كاسـيوس جيش دولابيلا في تموز من العام 43 وسـحقه، ولم يلبث هذا الأخيـر إلا أن انتحـر. واجهـت كليوباتـرا بعـد ذلـك أعداء كاسيوس، أي أوكتافيـوس وأنطونيـو. كان الاثنـان متحالفين حتى نهاية العام 43، وصمّما على الثأر من القتلة الذين كانوا أساساً بقيادة بروتوس وكاسيوس، فجهّزت كليوباتـرا أسـطولاً قويـاً مليئـاً بالعتـاد لنصـرة أوكتافيوس، وهـو ابن قيصر بالتبني، ومستشـاره السـابق، كما رغبت الملكة في تسـليم هذا الأسـطول بنفسـها فـي اليونـان. أقدم القاتل كاسـيوس على تهديدهـا في هذا الوقت، لكنهـا رفضـت الوقـوع فـي مصيدتـه. فهدّدها مرة أخرى، ولـم يطلب منها سـوى مسـاعدته، لكن كليوباترا فضّلت مسـاعدة عدوه، إذ لـم تعد الملكة تلك الأنثى المطيعة التي روّج لها قيصر. شعر كاسيوس بالغضب الشديد، فما كان منه إلا أن أعدّ اجتياحاً عارماً لمصر. كان الوقت مناسـباً بالنسـبة إليه، لأن مصر كانت ضعيفة بسبب المجاعة، وكليوباترا ذاتها كانت ضعيفة بسـبب غيـاب جحافلهـا الرومانيـة. فأصرت في وقت لاحـق على أنها "لـم ترتعب قطّ من كاسيوس"، لكن عدم خوفها كان أمراً يتسم بالحمق. كان كاسـيوس شـخصيةً شريرة، ويتصف بالقدر نفسه من القسوة والجشع، كما عُرف عنه أنه "أكثر الرجال عدائية"، وسبق له أن كان محركاً أساسـياً بين القتلـة. امتلـك الرجـل تحت إمرته اثني عشـر جحفـلاً من الدرجة الأولى، وذلك بالإضافة إلى قوة من الرماة المهرة المحمولين. وقد أظهر قسوة لا مثيل لها في المدن التي زحف عليها، كما كان قائداً محنكاً وأميرالاً تحت

إمرة بومبي، ويُضاف إلى ذلك كلّه أنه سبق له أن حارب في الشرق من قبل. وكان قريباً جداً، أي على مقربة من الحدود المصرية بعد أن أحكم سيطرته على سوريا.

كان من حسن حظ كليوباترا أنها وجدت خلاصاً من مأزقها هذا في المصالح الرومانية المتعارضة. فقد اضطر كاسيوس إلى تعديل مساره بسبب استدعائه الملّح، وعلم أن أنطونيو وأوكتافيوس قد عبرا البحر الأدرياتيكي، وتوجّها شرقاً في محاولة منهما لتحدّيه، وهكذا اضطر كاسيوس إلى التردد قليلاً. كانت مصر غنيمة غنية على قاب قوسين أو أدنى منه. ذكّره بروتوس بأن الهدف ليس الاستيلاء على السلطة لنفسه، بل إن ذلك الهدف يجب أن يكون تحرير البلاد. خاب أمل كاسيوس، وما لبث أن عكس اتجاهه كي ينضم إلى بروتوس في اليونان. لقد تزامن تأجيل الحملة بالنسبة إلى كليوباترا مع أحداث سيئة، فخرجت بأسطولها كي تنضم إلى أنطونيو وأوكتافيوس، وكانت على رأس سفينة القيادة. تدخل الطقس السيئ مجدداً. كانت تلك السفينة العالية ذات الأشرعة المنصوبة فوق سطحها عديمة الفائدة في ذلك الطقس، وما لبثت أن انقلبت بسرعة وغرقت. عادت الملكة إلى الإسكندرية ببقايا أسطولها المنهك، وشرحت الأمر في وقتٍ لاحق وقالت إن العاصفة "لم تخرّب كل شيء فقط، لكنها أوقعتها أسيرة المرض، وكان ذلك سبب عدم خروجها إلى البحر بعد ذلك". تساءل بعض الناس عن صدقيتها، حتى إنهم شكّكوا في قصتها بسبب روايتها عن عدم رغبتها في إقحام نفسها في الصراع. (نلاحظ هنا أنه عندما لا تتعرض كليوباترا إلى النقد بسبب جرأتها الشديدة وتصرفاتها التي تشبه تصرفات الرجال، فإنها تُلام بسبب ضعفها الشديد وأنوثتها). تبدو الملكة مع ذلك صادقة في وعودها؛ كانت تعلم أنها لا تستطيع رفض تقديم المساعدة إلى الذين يعملون بنشاط من أجل الثأر لموت حبيبها. كان أحد حلفاء كاسيوس يقبع منتظراً بعد أن نصب كميناً لأسطول كليوباترا،

وهو الذي كان يمتلك ستين سفينة مجهزة، وجحفلاً من رجال كاسيوس، وذلك بالإضافة إلى مخزونٍ احتياطي من الأسهم الحارقة. سمع الاثنان بالكارثة، وشاهدا أنقاض الأسطول المصري وهي تطوف بمحاذاة شاطئ اليونان الجنوبي. عادت كليوباترا إلى مصر مترنحة وهي بصحة سيئة. ولم تكسب الملكة ولاء أحد بالرغم من كل جهودها المكلفة.

لم تقدم كليوباترا للمنتصرين أي مساعدة فعالة، وهكذا أدركت أنها سوف تُحاسَب بسرعة. وصل أحد المبعوثين إلى الإسكندرية بقصد إيصال رسالةٍ معينة، ولعله وصل في وقتٍ مبكر من العام 41. كان الرجل متأنقاً، بالإضافة إلى أنه رجل ذو ولاءات متقلبة. قد سبق لكوينتوس ديليوس أن غيّر ولاءاته ثلاث مرات في سياق الحرب الأهلية، وهكذا تنقّل بين معسكر دولابيلا ومعسكر كاسيوس، وذلك قبل أن يلجأ، مؤقتاً، إلى معسكر مارك أنطونيو. حضر الرجل إلى الإسكندرية من أجل الحصول على بعض الإجابات من ملكة مصر غير المتعاونة بشكلٍ غريب، ومعرفة سبب تعاونها مع كاسيوس، ومن أجل أن تشرح له سبب دعمها الفاتر لأنصار قيصر، وأين ولاؤها بالتحديد؟ يُحتمل أن يكون ديليوس قد حصل على معلومات مختصرة عن الأعاجيب الموجودة في الإسكندرية وعن قصرها المرصع بالجواهر، لكن ما سمعه كان أضعف من أن يحضّره للقاء كليوباترا بشكلٍ كافٍ. أدرك "بعد أن رأى وجهها، ولاحظ دهاءها ودقة حديثها" أنه يتعيّن عليه إعادة تقييم نهجه تجاهها. اتفقت كل المصادر، وبالإجماع، على تأثير كليوباترا الجذاب. وقع بلوتارك بدوره تحت تأثير جاذبيتها التي بقيت حتى بعد موتها إلى درجة أنه سرد حكايتها مع مارك أنطونيو بدءاً من لحظة وصول ديليوس.

أدرك ديليوس بسرعة أنه لن يتمكن من مساعدة ملكة متأسفة، وحزينة، ولن يتمكن من المضيّ في مساءلتها. لم تكن تلك المرأة الواقفة أمامه من ذلك النوع الذي يُمكن أن يُطلب منها تبرير نفسها. ويُحتمل

أنـه رأى، وهـو الرجـل الانتهازي، ضرورة مقاربة الوضع من زاوية أخرى. كان ديليوس ضعيفاً أمام الجمال، وكان يعرف ذوق قائده نتيجة مغامرتهما المثيـرة معـاً. ويُحتمـل إما أن يكون ديليوس قد ذاب أمام كليوباترا، أو أنه أدرك أن أنطونيو سـيفعل الأمر نفسـه، أو أدرك الأمرين معاً. كانت الجهة الأخرى من تذبذبه، ولحسن الحظ، رشاقته ومرونته. غيّر ديليوس طريقته علـى الفـور، وبسـهولةٍ كبيرة. أخـذ بإطراء الملكة والتـودد إليها، وقد فعل ذلك إلى درجة أنه لم يتضح لدينا ما إذا كان يعمل في النهاية لصالحه، أم لصالح سيّده. كانت نصيحة ديليوس، وهو الذي يستحق نقاطاً كثيرة لقدرته على إدارة اللعبة، أن تمضي الملكة في بعض التظاهر، فتعيّن على كليوباترا ارتداء أفخر ثيابها. كان وضعها هذا مشابهاً لوضع حيرا في الإلياذة، وهي التي دلّكت بشـرتها حتى أصبحت ملتمعة، ودهنت جسـمها بزيوت مغرية، كما سـرّحت شـعرها بخصلات سـاطعة، ثم لفّت جسـدها بعباءة جذابة، وربطـت مجموعـة من الخيطان الملونـة حول خصرها، كما زيّنت صدرها بدبابيس ذهبية، ووضعت قرطين من مجوهراتها تدليا من أذنيها، ثم هرعت كي تلتقي زيوس (مارك أنطونيو). تعيّن على كليوباترا أن تتوجه إلى السفينة على وجه السـرعة، وأكد لها ديليوس أنه عليها ألاّ تخشـى شـيئاً، وقال لها إن مارك أنطونيو "ألطف الرجال وأكثرهم تهذيباً".

سبق لكليوباترا قبل ثلاث سنوات أن غادرت روما على وجه السرعة في ظل سـماء نيسـان الملبدة بالغيوم، وعبرت الطرقات برفقة مسـافر حذرٍ آخـر. سـار أوكتافيـوس بصفتـه مواطناً عادياً إلى روما "برفقة حشـدٍ مذهل كان يـزداد - مثـل السـيل - عـدداً يومـاً بعـد يوم"، وقـد رافقته في رحلته هذه موجة من التمنيات الطيبة. لقي الرجل في ذلك الوقت ترحيباً يوازي المؤثرات الخاصة في هذه الأيام، ويُحتمل أن هذه المعلومة قد أضيفت في وقتٍ لاحق. اقترب من طريق آبيان فانقشع الضباب، وما لبثت أن ظهرت

هالة عظيمة مليئة بألوان قوس القزح، وأحاطت بالشمس بكاملها"، الأمر الذي لم يُرَ مثيل له منذ أسابيع. لم يكن لأتباع قيصر معرفة بوريثه، وهو من جهته لم يعرفهم، لكنهم توافدوا لتأييده، وكان أشدهم حماسة الجنود الذين حاربوا إلى جانب قيصر في حملاته، لكن الجميع توقعوا أن يقوم ذلك الشاب الذي كان في الثامنة عشرة من عمره بالثأر "للمجزرة التي وقعت في مجلس الشيوخ". غير أنه كان غامضاً من تلك الناحية، ومضى "بدهاءٍ وصبر" آخذاً بنصيحة والدته؛ فعل ذلك على الأقل حتى وصل إلى منزل أنطونيو. وبالكاد تمكّن ذلك المراهق الشاحب والريفي، ذو الشعر الأشقر المجعد، والحاجبين اللذين يلتقيان فوق جسر أنفه، من تمييز نفسه. سبق للفتى أن أمضى وقتاً قليلاً في روما، كما افتقد إلى الخبرة العسكرية والسلطة السياسية. كانت بنيته الجسدية ضعيفة، وكان يفتقد إلى الجاذبية. وصل ذلك الشاب للمطالبة بأكبر إرثٍ في عصره.

ظهر أوكتافيوس في وقتٍ باكر من صباح اليوم التالي المشرق في الفوروم كي يقبل تبني قيصر له. وتقدّم بعد ذلك نحو حديقة منزل مارك أنطونيو الرائع طالباً مقابلته، لكنه لم يدخل المنزل إلا بعد تأخير مطولٍ ترافق مع بعض الإذلال. أعطاه أتباعه لقب قيصر من دون أن يكترثوا باللقب الذي أطلقه على نفسه، وبدا أن اللقاء سوف يكون ملتهباً. كان ظهور أوكتافيوس في روما غير مريحٍ بالنسبة إلى كليوباترا، لكنه كان إهانة بالنسبة إلى مارك أنطونيو. جرت بعد ذلك محادثة تميّزت بالتوتر بين الرجلين، أو بين رجلٍ وولد على حد تعبير أنطونيو الذي كان في الأربعين من عمره، وهما اللذان شعرا بأنهما يمتلكان حقوقاً متساوية لوراثة قيصر. كان أوكتافيوس دقيقاً وحذراً في كلامه، وهو الذي أصبح في ما بعد مهووساً بضبط كلامه، ومن المؤكد أنه كان يتمرّن على قراءة ملاحظاته سلفاً. (حتى عندما كان يريد التحدث إلى زوجته، كان يفضّل كتابة أفكاره مسبقاً وقراءتها بصوت عالٍ). عرض أوكتافيوس أفكاره في

العام 44 بثقةٍ وصراحةٍ عاليتين: لماذا أخفق أنطونيو في ملاحقة القتلة؟ (حثّ الجميع على منحهم العفو حرصاً على استعادة النظام، وقد ترأس أنطونيو مجلس الشيوخ بعد منح العفو). لم يكن المتآمرون الأساسيون أحياء فحسب، لكنهم كوفئوا بمناصب إدارية محلية ومناصب عسكرية رفيعة. ناشد أوكتافيوس الرجل الذي يكبره سناً أن يقف وراءه ويساعده على الانتقام من المجرمين. أما إذا لم يستطع فعل ذلك، فهل يستطيع أن يتفضّل بالتنحي جانباً وبكل احترام؟ كان يمكن لأنطونيو أن يكون الوريث السياسي لقيصر لو أنه سلك مسلكاً أكثر تعقلاً. أما في ما يتعلق بالإرث، فهل يستطيع أنطونيو تسليم الذهب الذي تركه قيصر كي يوزّع بحسب وصيته؟ أضاف أوكتافيوس أنه باستطاعة أنطونيو إبقاء "الأشياء والحلي الثمينة" معه؛ كان ذلك اتهاماً أكثر منه دعوة.

كان مارك أنطونيو يكبر أوكتافيوس بأكثر من ضعف سنّه، وكان يمتلك "أكبر قدرٍ من الهيبة نتيجة خدمته الطويلة مع قيصر". مارس أنطونيو خلال السنتين الماضيتين سلطة كبيرةً، ولو أنها لم تكن مهذبة على الدوام. يُضاف إلى ذلك أنه عمد إلى تسييل إرث أوكتافيوس، وكذلك أقدم في وقتٍ لاحق على تحويل منزل بومبي السابق إلى مكانٍ تسوده الفوضى، كما وهب أصدقاءه الأقمشة الفاخرة وقطع الأثاث. لم يكن أنطونيو بحاجة إلى من يذكّره بأنه ضيّع فرصة التبني من قبل رجلٍ كان معجباً به بشكلٍ يفوق الآخرين، كما لم يكن بحاجة أيضاً إلى شابٍ مبتدئ ضئيل البنية ويعتقد أنه على حق كي يلقي عليه محاضرة. فوجئ مارك كثيراً، ومضى كي يذكّر ذلك الشاب الواقف أمامه، والذي يعتقد أنه هو الذي تسبّب في قتل قيصر بأن القيادة السياسية في روما ليست وراثية. خاطر أنطونيو بالكثير كي يتأكد من دفن قيصر بكل مظاهر التكريم، كما فعل الكثير من أجل تكريم ذكراه. وذكّر أوكتافيوس كذلك بأن كل ذلك حدث بفضله، وأضاف قائلاً له: "إنك تمتلك في واقع الأمر كل الامتيازات العائدة لقيصر، مثل العائلة، والاسم،

والرتبة، والثروة". لم يكن أنطونيو يدين بتقديم أي تفسيرات، وهو "يستحق الثناء بدلاً من اللوم"، ولم يتردد، كعادته، من إضافة القليل من السم إلى الرسالة التي يريد إيصالها، وألقى باللائمة على ذلك الشاب بسبب عدم الاحترام الذي أظهره: "أنت ما زلت شاباً، وأنا أكبر منك سناً". يُضاف إلى ذلك أن أوكتافيوس قد أخطأ حين اعتقد أن أنطونيو يسعى إلى الحصول على السلطة السياسية، أو أنه استاء من موقف ذلك الوافد الجديد. قال أنطونيو بغضب: "يكفيني فخراً أنني تحدرت من سلالة هرقل". بدا أنطونيو على هذه الحال من الفخر بكتفيه العريضتين، ورقبته المنتفخة، وبوسامته الشديدة، وضفائر شعره المنسدلة، وبملامحه الشبيهة بالنسر. قال أنطونيو إنه بالنسبة إلى الأموال، فإنه لا يمتلك أياً منها بين يديه، وأضاف أن والد أوكتافيوس اللامع قد ترك الخزانة فارغة.

كان ذلك اللقاء متفجراً، لكن مجلس الشيوخ شعر بالارتياح، وهو المجلس الذي كان يواجه خطراً واحداً أكبر من هذا الصراع العلني الذي يجري بين قيصرين. أمسك أنطونيو بزمام السلطة السياسية، أما أوكتافيوس فكان يحظى بالاحترام وبشعبية مدهشة، فكانت المظاهرات الترحيبية ترافقه في جولاته. اعتقد كثيرون أنه من الأفضل أن يقف الرجلان على طرفي نقيض من أن يتحالفا. ولاحظ أنطونيو هذا الأمر في حديقته في ذلك الصباح الربيعي. كان أوكتافيوس قد فرغ لتوه من دراساته، ولا بد من أنه تعلّم في سياق هذه الدراسات أن عامة الناس يعتبرون أن مصلحتهم تكمن في إطالة أمد النزاع، وهم الذين يصنعون القادة الدكتاتوريين فقط كي يستمتعوا بقلبهم عن الحكم، ويشجعوهم على تدمير بعضهم بعضاً. كان محقاً في هذا ولا شك، كما أن أحداً لم يكن أفضل منه في التسبب بخلافات سوى شيشرون، وهو الذي يُعتمد عليه على الدوام، وعلى حدّ تعبير أحد المعاصرين، في التشهير بشخصيات بارزة، وكذلك في ابتزاز الأقوياء ذوي السلطة، وفي تشويه سمعة المميزين من الناس، وها هو الآن

مضطر إلى فعل ذلك بجرأة.

اعتبر شيشرون أن هذه المنافسة الجارية بين الضعف والخبث منافسة مدمرة، أما في واقع الأمر فإن عدداً من الخيارات الغامضة كان مطروحاً في ذلك الحين. كان بروتوس وكاسيوس الوحيدين البارزين على مسرح الأحداث، واللذين كانا من بين قتلة قيصر. أما ذلك الشاب الشجاع الذي يمتلك موهبة تجميع الجيوش، أي ابن بومبي، فقد كان في إسبانيا مع معظم الأسطول الروماني. تمتع سيكستوس بومبي بسمعة والده التي كانت لا تزال مشرقة، وكان يتطلع بدوره إلى الثأر لأبيه وإلى استعادة إرثه. (يُحتمل أنه امتلك حقاً أكبر في الأخذ بالثأر، فقد شهد هذا الشاب في مراهقته عملية قطع رأس والده على شاطئ مصر. خلف القنصل ماركوس آيميليوس ليبيدوس، أنطونيو في المركز الثاني في القيادة بعد قيصر، وذلك بعد أن تناول طعام العشاء مع قيصر في الليلة التي سبقت مقتله، وكان هو الآخر يحلم بخلافة قيصر. تمكّن ماركوس من السيطرة على جناح من أجنحة جيش قيصر، وكانت جحافل أخرى تحت إمرة قناصل إضافيين. كما تمكن بروتوس، وبشكلٍ مفاجئ، من تجميع جيشه في وقتٍ قياسي(*). ووقف أوكتافيوس وحيداً في النهاية.

ألفى أكثر الرجال نفوذاً في روما في فترة ما بعد احتفال منتصف آذار، أي شيشرون، نفسه في الورطة ذاتها التي كانت كليوباترا تعانيها. ما هي الجهة التي يجب عليه الوقوف معها؟ أدرك أنه من غير الممكن الوقوف على الحياد في هذا الوضع، أي في الحرب الأهلية الخامسة التي يشهدها في حياته. كان يعرف في الوقت ذاته كل الأطراف المعنيين بالصراع، ولم يكن مأخوذاً بأي منهم. اعتبر شيشرون أوكتافيوس في العام 44 مجرد

(*) مما زاد الأمور تعقيداً وجود قتلة وقتلة محتملين، وهم الذين كانوا المقاومين الفرنسيين في أيامهم، وهكذا دخلوا اللائحة". زاد من تعقيد الأمور كذلك أن ليبيدوس وكاسيوس كانا نسيبين. إذ ارتبطا ببعضهما من خلال علاقات الزواج وكذلك الحال مع بروتوس.

طالب مدرسة، بدلاً من كونه مشروع قائد. قال شيشرون مشتكياً: "لا أثق بمن هو في مثل عمره، كما أنني لا أعرف ما يسعى إليه". كان من الصعب تصوّر أوكتافيوس، وهو المراهق شاحب الوجه في مدينة تفضل أن تكون ملامح القائد الأعلى متوردة. قدّم نفسه على أساس أنه القائد، لكنه كان ساذجاً إلى درجة اعتقاده أن روما تحفظ الأسرار! (من المدهش أن عدداً قليلاً من الناس تجرأ على أخذ أوكتافيوس بجدية وهو ما زال في عمر الثامنة عشرة؛ وهو عمر كليوباترا عندما حكمت مصر).

شعر شيشرون في أيار من العام 44 بأن روما لم تعد مكاناً آمناً بالنسبة إليه، وهكذا أقام عند دولابيلا، وإن كان قد فعل ذلك بصعوبة في البداية. تحوّل ذلك القائد الجسور إلى صهر شيشرون قبل أربع سنوات. فسخ دولابيلا وابنة شيشرون زواجهما في أثناء فترة حملها، لكن دولابيلا تباطأ في دفع مهرها المتوجب عليه. كان دولابيلا من أتباع قيصر المتحمسين ذات يوم، لكنه انقلب بعد احتفال منتصف آذار ضد الرجل الذي أحسن إليه في السابق. ووصل به الأمر إلى حدّ الزعم أنه كان طرفاً في مؤامرة القتل، وهو الأمر الذي أكّده علناً. هلّل شيشرون من بعيد وبصوتٍ عالٍ لهذا التطور، وتحوّل زوج ابنته السابق بدءاً من 1 أيار إلى "عزيزي دولابيلا الرائع". ألقى دولابيلا ممتلئ الجسم، وذو الشعر الطويل خطبةً شديدة الروعة، وقد ابتهج شيشرون إعجاباً بها، لأن دولابيلا دافع عن القتلة بفصاحة. فعل ذلك إلى درجة أن بروتوس شعر بأنه يستطيع وضع التاج على رأسه! أكد له شيشرون أن دولابيلا يعرف مدى تقديره له. (لكن الاحتمال الأقرب إلى الواقع هو أن دولابيلا يعرف عكس ذلك). أقدم دولابيلا على تحطيم عمود شيّد حديثاً لتخليد ذكرى قيصر، كما أقدم على قمع مظاهرة مؤيدة له. ازداد التقدير الذي يتمتع به شيشرون في هذه الفترة، وهو الذي قال: "ليس هناك من إعجاب أكثر حماسة من هذا". وقد رست الجمهورية في هذا الوقت على كتفي دولابيلا.

لم يمضِ أكثر من أسبوعٍ واحد حتى ساءت العلاقات بين شيشرون وصهره السابق، ثم قال عنه ساخطاً: "يا له من رجل!"، وما لبث أن ناصبه العداء. ما الذي حدث في هذه الفترة القصيرة؟ أهمل دولابيلا دفع الدّين (المهر) المستحق عليه بالرغم من موجة المديح التي انهالت عليه. وبعد ذلك، مرت فترة هدنة لم يستطع شيشرون بعدها إلا تهنئة دولابيلا على شتائمه اللامعة التي كالها ضد أنطونيو؛ وهو الأمر المحبّب إلى قلب شيشرون. تفوقت الخصومات الشخصية في ذلك المجال على القضايا السياسية. ظلّ الشريكان المؤتمنان لقيصر، أي دولابيلا ومارك أنطونيو على خصومة مستمرة بعد إهانة أقدمت عليها زوجة أنطونيو في ذلك الحين. (أصبحت بعد ذلك، وللسبب ذاته زوجته السابقة). بدا الأمر في بعض الأحيان وكأن روما لا تحتوي إلا على عشر نساء، لكن شيشرون اعتبر أن مارك أنطونيو قد عاشر كل واحدةٍ منهن.

عُرِّفت السياسة منذ القدم على أنها "التنظيم الممنهج للأحقاد". لا يتواجد، بالتأكيد، أي وصفٍ أفضل لروما في الأعوام التي تلت احتفال منتصف آذار، أي عندما تفرق قتلة قيصر بسبب الخصومات، وليس بسبب القضايا العالقة. كان الأمر كذلك مع ورثة قيصر، ومع آخر أنصار بومبي، وهم الذين كان كل واحد منهم يمتلك لنفسه جيشاً، وبرنامجاً، وطموحاتٍ خاصة به. لم تكن هناك أي خصومة من بين الخصومات الكثيرة السائدة أكثر شراسة من تلك التي كانت بين شيشرون ومارك أنطونيو؛ وقد استمر الحقد فترة عقودٍ من السنين. مات والد أنطونيو عندما كان ابنه لا يزال في العاشرة من عمره تاركاً وراءه ديوناً كانت من الكثرة إلى حدّ جعلت أنطونيو يتخلى عن إرثه. أما زوج والدته وهو خطيب شهير، فقد حُكم عليه بالإعدام بناءً على أوامر قيصر. ورث أنطونيو عن والده مزاجاً مرحاً ومتقلباً، وهكذا تقلب بين فترات الصمت العميق وفترات الحركة النشطة. أما والدته، وهي قوة من قوى الطبيعة من كل النواحي، فبدا أنها غرست

في ذهن ابنها ميلاً نحو النساء القديرات والعنيدات. يُحتمل أنه لولاها لكان أنطونيو قد امتلك إرادة محطّمة قبل آذار من العام 44 بوقتٍ طويل؛ كانت حياته الشخصية نوعاً من المأساة. عزّز أنطونيو سمعة العائلة وميلها نحو الإفلاس عندما كان في سنوات مراهقته، أما سمعته العسكرية الممتازة فقد خفتت بسبب ميله المفرط نحو اللهو وأسباب المسرات. وقد تسبب إفراطه في احتساء الشراب في جعل معلّميه في حالة إنهاكٍ دائم. مال الرجل إلى الحياة المرفهة، والحفلات الكبيرة، والنساء السيئات، لكنه في المقابل، كان متسامحاً تجاه الأخطاء، وكان الأمر أسهل بالنسبة إليه إذا كان المرء يشي بمنزل غيره. أما ما قيل عن أحد النواب المنتخبين السابقين فكان يصدق أكثر على أنطونيو: "كان مبذراً للمال وللعفة، سواء أكان ذلك بالنسبة إلى نسائه، أم إلى نساء غيره". امتلك ذلك الفارس اللامع كل جاذبية قيصر، لكنه لم يمتلك ميزته في ضبط نفسه. وقد اعتبره المتآمرون في العام 44 متذبذباً إلى درجة أنه أعجز من أن يكون خطِراً.

كان مارك أنطونيو بعد احتفال منتصف آذار في عزّ مجده، أي إنه كان رجل الساعة، وعلى الأقل إلى حين وصول أوكتافيوس. لم تكن كليوباترا قد استقرت على عرشها في الإسكندرية مجدداً حين بدأ أوّل التوترات في الظهور، وكانت تلك التوترات علنية بالكامل. يقول آبيان: "كان أوكتافيوس يصعد إلى كل بقعة مرتفعة في كل أنحاء المدينة ويأخذ في كيل الاتهامات لأنطونيو بأعلى صوته". قال أوكتافيوس بصوتٍ راعد إنه يُمكن لأنطونيو أن يعامله بإذلال كما يشاء، ويمكنه أن يفرض عليه حياة الفقر، ولكن أيستطيع من فضله، "التوقف عن استباحة ممتلكاته حتى ينال المواطنون نصيبهم"؟ وبعد ذلك يمكنه أن يأخذ كل ما تبقى. ردّ أنطونيو عليه بعنف، وكال له الإهانات، وفرض عليه المعوقات كلما استطاع ذلك. لم يفعل مجلس الشيوخ شيئاً لتهدئة أي من الرجلين، وفضّل بدلاً من ذلك – وعلى حد قول ديو، وكما توقع أنطونيو – "الإبقاء على الخصومة بينهما". ضغط

رجال أنطونيو من أجل المصالحة، وهي التي أصبحت ضرورية لأن القتلة عزّزوا قواهم. قدّم أنطونيو اعتذاراته ووعد بضبط أعصابه شـرط أن يفعل أوكتافيـوس الأمـر ذاتـه. حدثـت هدنـة قلقة إثر أخرى. وبعـد ذلك، خرق أنطونيو الهدنة الثانية باتهام مثير: اتهم في شـهر تشـرين الأول أوكتافيوس برشوة حرّاسه الشخصيين كَي يقتلوه. (الواقع أن أوكتافيوس حاول رشوتهم كـي يتخلـوا عـن سـيّدهم، وهي محـاولات كرّرها بانتظام في مـا بعد. أما بالنسـبة إلـى سـلامة مـارك أنطونيـو، فـإن أوكتافيوس عـرض أن يقف هو شـخصياً حارسـاً إلـى جانـب سـريره). اعتبـر كثيرون الاتهام غيـر معقول، لكن بعضهم لم يعتبروه كذلك، الأمر الذي جعل أوكتافيوس يغضب أشد الغضـب إلـى حـدّ أنـه أقدم في بعـض المرات على لكم بـاب منزل مارك أنطونيو المقفل محاولاً رفع الاتهام عنه، وشـتم بكل شـدة الخدم، وألواح الباب الخشبي.

تـودّد أوكتافيـوس بـكل حـذر إلى شيشـرون، فراح يكاتبـه يومياً، أما شيشرون فكان يلعب على عامل الوقت؛ كان ذلك أمراً في غاية الدقة. كان يعرف أنه إذا وصل أوكتافيوس إلى السلطة فمعنى ذلك نهاية القتلة. يُضاف إلى ذلك أن أوكتافيوس كان حساساً جداً ومقاوماً شديداً للنصائح الصادرة من الأشخاص الأكبر سناً منه. أما شيشرون فقد كان يعاني حساسية محددة من الثناء الغزير الذي كان يغدقه ذلك الشـاب على قيصر. قال شيشـرون مجـادلاً: "أمـا إذا هُـزم، مـن الجهـة الأخرى، فيمكننا ملاحظـة أن أنطونيو لا يُحتمل، وهكذا يصعب على المرء تقرير الشـخص الذي يفضّله". كان أنطونيـو ميـالاً إلـى السـلب، أمـا أوكتافيوس فقـد أعمى الثـأر قلبه. أرغى شيشـرون وأزبـد، لكنـه ثبـت أخيـراً علـى أمر محقـق، وهو مـا ردّده مراراً كالتعويـذة: "إن الرجـل الـذي يسـحق مارك أنطونيو هو الذي سـينهي هذه الحرب الفظيعة والخطرة". تحوّل الدفاع عن الجمهورية - أو ما تبقى منها - بالنسبة إلى شيشرون، إلى توجيه اللوم الشديد إلى أنطونيو، كما تصدى

له خلال الأشهر الستة التالية. علقت كليوباترا خلال تلك الأسابيع الفظيعة مع أعداء أنطونيو وأوكتافيوس الحقيقيين، وهم الذين كانوا يتعاونون، كما فعلت هي وبشكلٍ صريح وغير صريح، مع دولابيلا وكاسيوس.

مضى شيشرون بخطاباته اللاذعة في تحطيم المساعد الأول السابق لقيصر، فأظهره شيشرون في أفضل حالاته أنه "نذل جريء، وفي أسوأ حالاته أنه رجل مجنون، وعصبي، وثمل، وقذر، ووقح، ومفسد، وفاجر، وسارق". قال شيشرون مؤكّداً: "في الواقع، يجب علينا ألاّ نفكّر فيه على أنه إنسان، بل بوصفه وحشاً شرساً إلى أبعد الحدود". كان من المؤكد أن أنطونيو قد وفّر موضوعات كثيرة لشيشرون كي يعمل عليها، وهو الذي أساء إدارة الأموال، كما تورط في قضايا مشينة. استولى أنطونيو كذلك على بعض الممتلكات، كما أحب لفت الأنظار إليه، حتى قيل إنه عمد ذات مرة إلى ربط أسودٍ بعربة كي يقوم بجولة ممتعة له في شوارع روما. كانت الوفرة والمرح مرادفين لاسمه، وكانت مغامراته المثيرة سبباً أساسياً في شعبيته، وهو الذي كان صاحب شخصية لا تقاوم بالنسبة إلى رجاله. أفرط الرجل في احتساء الشراب، لكن "رائحة الفساد" لم تلتصق بأنطونيو بالشدة ذاتها التي أصرّ عليها شيشرون، وهو الذي كان سعيداً بتفصيل الروايات التي تدور حول الأعمال المشينة التي قام بها أنطونيو وتضخيمها. لم يتمكن شيشرون من التغاضي عمّا حدث في ذلك الصباح الذي فتح فيه أنطونيو فمه ليتكلم في مجلس الشيوخ، لكنه بدلاً من أن يتكلّم تقيأ في حضنه ما تبقى في معدته من وليمة زفاف كان قد دُعي إليها. تحوّل أنطونيو منذ ذلك الحين إلى "ذلك الرجل الشرس الذي يتقيأ"، وهو المعرّض "للتقيّؤ أكثر من الكلام"، كما أنه لا يمتلك أي طموح غير تغذية الممثلين، والمقامرين، والقوّادين في روما. استفاض شيشرون في التحدث عن هذه الموضوعات، وهو الذي سبق له أن اعترف قبل ذلك بوقتٍ طويل قائلاً: "يسهل عليّ انتقاد الخلاعة، لكنني إذا أردت

كشف كل شيء يُمكن أن يقال عن ذلك الموضوع، أي الإغواء، والزنا، والشهوانية، والتبذير، فإن هذه الموضوعات لامحدودة إلى درجة أن ضوء النهار سيطلع عليّ قبل أن أنتهي منها"(*). وقد برهن صحة قوله هذا في موضوع مارك أنطونيو.

توالت هذه الاتهامات. ولكن، برز معها موضوعان جديدان: تحوّل أوكتافيوس أخيراً من كونه "الولد" إلى "الصديق الشاب"، و"ذلك الشاب الاستثنائي"، وإلى "ذلك الشاب الذي أُرسِل"، والذي يحمل على كتفيه آمال روما. اكتسب أنطونيو، وبحسب ما صرّح به شيشرون، شريكة في الجريمة. شمل شيشرون فولفيا، زوجة أنطونيو لفترة ثلاث سنوات، في حملات شجبه المتطرفة التي ضمّنها كل شذرة من شذرات الأدلة، والشائعات، والإساءات المبطنة، فأكّد أن فولفيا شاركت في توزيع التعيينات، وبيع المقاطعات بالمزاد، وسرقة أموال الدولة. كما أشار بشكل خاص إلى جشعها، وطموحها، وقسوتها، ومكرها، كما ألصق بأنطونيو أسوأ تهمة يُمكن أن تُلصق بمساعد قيصر السابق. قال ذلك الخطيب المفوّه، وبصوتٍ عالٍ، إن مارك أنطونيو "يفضّل الإصغاء إلى أكثر النساء جرأة على أن يصغي إلى مجلس الشيوخ والشعب الروماني". أعطى شيشرون أوكتافيوس مخزوناً لا يقدّر بثمن نتيجة هذا الهجوم اللاذع الذي يجرد أنطونيو من أي ذرة احترام، فتمكن أوكتافيوس بعد ذلك من الاستفادة

(*) إن الرجل البليغ حقًا هو ذلك الذي يتمكن من المجادلة في جانبَي قضية معينة بالطريقة اللامعة ذاتها. وقال شيشرون في الخطاب ذاته: "وهكذا، إذا حصل صدفة أن وجدت أي شخص يمقت رؤية الأشياء الجميلة، ولا يتأثر بالعطر، ولا باللمس، ولا بالمذاق، ويصم أذنيه عن كل الأصوات العذبة، فإن مثل هذا الرجل لن ينال الرّضا، لكنه في أغلب الاحتمالات سوف ينال السخط". كان شيشرون يعيش في أحد أفخم القصور الواقعة في أفخم مناطق روما، وهو الذي دفع ثمنه مبلغاً خيالياً. كان مسروراً بأن يتمتّع أحد منازله "بجاذبية رائعة تدحض التبذير المفرط في المنازل الريفية الأخرى"، إلا أنه اضطر إلى الاعتراف بأن تحسينه سوف يكون رائعاً جداً.

من كل سطرٍ من هذه الأسطر، لكن من دون أن يعطي الفضل في ذلك، ولو مرة واحدة، لأفضل كاتب مشارك في التاريخ.

لم يجد أوكتافيوس وأنطونيو بدًّا في شهر تشرين الأول من العام 43 من تحالفهما. تحالف في ذلك الشتاء بروتوس وكاسيوس في شرق بحر إيجة، وذلك بعد أن تخلى كاسيوس عن حملته ضد كليوباترا. كان القتلة مسلحين تسليحاً جيداً بالإضافة إلى تمويلهم الكافي. انحنى أنطونيو وأوكتافيوس للضرورة التي يفرضها الوضع، وتناسيا ازدراءهما المتبادل لبعضهما بعضاً، ثم اتفقا على التحالف رسمياً. شمل ذلك التحالف ليبيدوس الذي كان يقود جيشاً قوياً بشكلٍ خاص. اجتمع الثلاثة في نهاية ذلك الشهر في جزيرة صغيرة تقع في وسط بولونا الحالية، "من أجل استبدال العداوة بالصداقة". فتش الثلاثة بعضهم بعضاً بحثاً عن خناجر يُحتمل أن تكون مخفية، ثم جلسوا لتبادل الحديث على مرأى من جيوشهم. أمضوا هناك يومين في المناقشات التي استمرت من الفجر وحتى آخر ساعات المساء، الأمر الذي لا يشكّل مفاجأة بالنظر إلى برامجهم المتعارضة. قال المؤرخ الروماني فلوروس بعد ذلك بوقتٍ طويل: "كان ليبيدوس مندفعاً برغبته في تحصيل ثروة؛ الأمر الذي قد يتوقعه نتيجة نشوب الفوضى في الدولة. أما أنطونيو فكان يرغب في الثأر من الذين أعلنوه عدواً لهم. أما قيصر - أوكتافيوس - فكان مدفوعاً بفكرة أن موت أبيه ما زال من دون ثأر، وأن بقاء كاسيوس وبروتوس على قيد الحياة إهانة لروحه التي غادرت الأرض". توصّل المجتمعون الثلاثة في نهاية هذين اليومين إلى اتفاقية تنص على تعيين أنفسهم دكتاتوريين لمدة خمس سنوات، وعلى تقسيم الإمبراطورية في ما بينهم. أقسم كل واحدٍ منهم على احترام بنود الاتفاقية وعلى التعاون. أما في البر الإيطالي فإن جنودهم المبتهجين بهذه الاتفاقية أخذوا بتحية بعضهم بعضاً. عُرفت الاتفاقية في ما بعد على أنها اتفاقية الأطراف الثلاثة الثانية،

وكان من المتوقع أن يبدأ تنفيذها في شهر كانون الثاني من العام 42. شعرت كليوباترا بالارتياح الشديد، لأن أوكتافيوس وأنطونيو يمتلكان فرصة كبيرة للنجاح معاً، لكنها لم تكن في موقعٍ يسمح لها بمواجهة القوات المشتركة لبروتوس وكاسيوس اللذين لن يُظهِرا أي رأفة لحليفة قيصر، واللذين أظهرا في ما بعد رأفة أقل تجاه امرأة تحكم مع ابنه.

عالجت اتفاقية الأطراف الثلاثة مسائل ملحة بالنسبة إلى التمويل. كانت كل الأموال في آسيا حيث كانت تنساب بسهولة إلى خزائن القتلة، أما في روما فقد بقيت خزنة الدولة فارغة. أدت الأوضاع السائدة إلى موضوع العداوات الشخصية الشائك. انسحب الرجال الثلاثة كي يصلوا إلى تكوين لائحةٍ في السر، وجرت بعض المقايضات الهامة قبل أن يعرضوا تبادل "أصدقائهم الأكثر وفاء مقابل ألد أعدائهم"، وقد ضحى أنطونيو بهذه الطريقة بخاله الذي يحبه كثيراً مقابل شيشرون، أما ليبيدوس فقد تخلى عن شقيق له. كانت فرص المرء في البقاء على قيد الحياة ضئيلة جداً إذا كان يمتلك أموالاً تحت تصرفه. "كان الثلاثة يضيفون أسماء أخرى إلى اللائحة، وبشكلٍ مستمر. قال لنا آبيان إن بعض هذه الأسماء أضيفت بسبب العداوة، وأضيفت أسماء أخرى بسبب كون أصحابها مصدر إزعاج، أو لأنهم كانوا أصدقاء لأعداء، أو أعداء لأصدقاء، أو لأنهم أثرياء بشكلٍ ملحوظ". عجّل المتحالفون الثلاثة في استقدام جنودهم إلى روما، لكنهم فعلوا ذلك بشكلٍ منفصل، ثم أشرفوا على فصلٍ جديد من فصول إراقة الدماء. قال ديو: "امتلأت المدينة بأكملها بالجثث"، وكثيراً ما كانت هذه الجثث تترك نهباً للكلاب والطيور، أو أنها كانت تُرمى في النهر. وقد عمد بعض الفارين إلى طلب الأمان في الآبار، أو في مجاري المياه المبتذلة، لكن آخرين لجأوا إلى المداخن(*).

(*) خرجت إحدى الزوجات بحلٍّ عبقري: أدخلت زوجها في كيس من الجلد أو من القنّب؛ من ذلك النوع الذي كانت تستخدمه كليوباترا.

تخلى شيشرون في السابع من شهر كانون الأول من العام 43 عن كل خططه للهرب، ومكث في منزله الريفي الذي يقع جنوب روما، وعندما استلقى ليأخذ قسطاً من الراحة، دخل غراب من خلال نافذة المنزل وأخذ بنقر أغطية السرير. فسّر خدمه هذه الإشارة على أنها علامة على خطرٍ محدق. توسّل الخدم شيشرون ليسمح لهم بنقله نحو البحر، حيث سيكون مخبأً بأمان في الغابة الكثيفة الموجودة في الطريق. صعد بترددٍ إلى عربته حاملاً بيده نسخة من مؤلفات يوريبيديس، ولم تمضِ دقائق قليلة حتى اقتحم أحد القادة مدخل منزله وحصل على المعلومات التي يحتاج إليها، وما لبث أن هرع كي يعترض العربة في وسط الطريق. أمر شيشرون خدَمه بأن يضعوه بين الأشجار لأنه أراد أن يحدّق إلى عينَي قاتله. كان ذلك الرجل العظيم في حالة يُرثى لها ومنهكاً، و"كانت ملامح وجهه تشع بالقلق". فتح شيشرون الستائر إلى أقصى حدٍّ، ومدّ رقبته قدر استطاعته كي تُقطع بالطريقة الصحيحة. ظنّ شيشرون أنه واقعٌ بين يدَي أحد المبتدئين، وكان الواقع هكذا بالفعل، فقطع رأس شيشرون عن جسمه بضرباتٍ غير خبيرة. سبق لأنطونيو أن أصدر أوامره بإرسال اليد التي كانت تكتب تلك الخطابات اللاذعة من جانب البحر كي تُعرض في مجلس الشيوخ. قيل عندها إن فولفيا، وهي عدوة شيشرون منذ زمنٍ طويل ولأسبابٍ خاصةٍ بها، كانت الأولى في البصق على رأسه، كما فتحت فمه كي تغرس دبوس شعرٍ في لسانه. كانت النتيجة أن لقي ألفا روماني من الشجعان مصرعهم، بمن فيهم ما يقارب ثلث أعضاء مجلس الشيوخ. بقي المتحالفون الثلاثة من دون أي معارضة في روما، وكانوا على رأس ثلاثة وأربعين جحفلاً، كما كانوا مفلسين بعد أن تبيّن لهم أن قوانين الحرمان التي أصدروها كانت أقل ربحية لهم مما توقعوا.

التقى جيشا كاسيوس وبروتوس بعد مضي عشرة أشهر جيشي أنطونيو وأوكتافيوس قرب فيليبي، وعلى سهلٍ واسعٍ يقع في شرق مقدونيا.

نشبت معركتان بعد ذلك بضخامةٍ غير مسبوقة ونتائج مريعة. كانت إحدى الجهات تقود روما نحو الحكم الفردي، بينما الجهة الأخرى ظلّت تحارب من أجل بقاء الجمهورية. تعقّد الوضع بسبب تمتّع قوات الجهتين بخبرات وتدريباتٍ متماثلة، فكان من الصعب على أي جهة تحقيق التفوق على الجهة العدوة الأخرى التي تتكلّم اللغة ذاتها، وتستخدم الأساليب ذاتها، والتي تلقت المستوى ذاته من التدريب. التقى الجيشان اللذان بلغ تعداد جنودهما ما يزيد على 100,000 رجل في معركة شرسة ووجهاً لوجه. وقد حدث ذلك وسط سحبٍ خانقة من الغبار، وسيوف مشهرة، وأيدٍ عارية، ووسط أصوات تصادم الدروع، وكذلك وسط صرخات الإنهاك والتأوّهات المريعة. أما نتيجة المعركة فأسفرت عن خسائر جسيمة تكبدها الجانبان. لم يتمكن أوكتافيوس وأنطونيو، برجالهما الذين كانوا على شفير المجاعة، من تحقيق الانتصار على الجمهوريين إلا بعد جولة ثانية من القتال، وقد أقدم كاسيوس على الانتحار بالخنجر ذاته الذي أغمده في جسم قيصر. أما بروتوس فرمى نفسه على سيفه الشخصي، لكن المنتصرين تعاملا مع جثّته بطريقتين مختلفتين. فقد نزع أنطونيو عنه عباءته الثمينة وغطّاه بها بعناية، وأمر بأن تُدفن جثته مع زميله السابق واللامع. لم يمضِ وقت طويل حتى وصل أوكتافيوس إلى المكان، وأصدر الأمر بأن يُفصلَ رأسه عن جسده كي يُعرض في روما(*).

كانت معركة فيليبي لا تزال ميدان صراعٍ للأفكار، لأنه يمكننا القول إن الحرية والديمقراطية قد سقطتا، وإن الثأر من قتلة قيصر قد تحقق. حلق أنطونيو لحيته في ذلك الحين، وهي اللحية التي أطلقها حداداً. لم تكن هناك أي قضية تفصل مارك أنطونيو عن أوكتافيوس، وهو الذي كان عليه أن يختلق واحدة. كانا رجلين يبحثان عن صراعٍ ما. أما في الجهة الثانية من المتوسط فإن كليوباترا – التي كانت منشغلة بإدارة أزمتها الداخلية –

(*) فُقد الرأس في الطريق وقبل وصوله.

كان من حقها أن تتساءل عن سبب عدم دعم الرومانيين للنموذج الملكي، وهو الأكثر منهجية من بين الأنظمة الأخرى، وذلك نظراً إلى الدماء الكثيرة التي سالت في السنوات الماضية في سبيل مطامحهم الشخصية. لاحظ ديو في وقتٍ لاحق أن الديمقراطية تبدو جيدة ومناسبة جداً، "لكن نتائجها لا تتلاءم أحياناً مع شعاراتها. أما الملكية، في المقابل، فهي تبدو غير مريحة، لكنها أفضل صيغ الحكم التي يمكن لأي إنسان العيش في ظلها. ويرجع ذلك إلى أن العثور على شخصٍ ممتاز واحد أمرٌ أسهل بكثير من العثور على عدة أشخاصٍ ممتازين".

قسّم أوكتافيوس وأنطونيو عالم المتوسط في العام 42 مجدداً، لكنهما استبعدا ليبيدوس هذه المرة، وقد افترق الطرفان بعد أن حصل كل فريق على اتفاقية موقعة. بدا أنطونيو في عزّ مجده الأقوى بين المنتصرَين، وذلك لأن النصر العسكري كان من نصيبه، وهكذا خرج من معركة فيليبي بسمعة الرجل الذي لا يُقهر، وهو الرجل الذي أنزل الرعب في قلوب الناس لسنوات عديدة بعد ذلك. ثمّ توجّه شرقاً، وذلك كي يستعيد النظام ويجمع بعض الأموال. أما أوكتافيوس فقد أمضى القسم الأكبر من ذلك الشهر مريضاً، كما تنقّل في ميدان المعركة في عربة، وما لبث أن توجّه غرباً كي يستعيد صحته، ثمّ أقدم بعد ذلك على تسريح جيشه وتوزيع الأراضي على الجنود الذين لم يتسلموا مستحقاتهم إلا في نهاية الحملة. وقع العالم في ذلك الوقت بين يدي رجلين يقفان على طرفي نقيض من المصالح المتعارضة وذوَيْ شخصيتين مختلفتين؛ أي إن أحدهما كان قاسي القلب وحذراً وصبوراً، بينما الآخر كان عاطفياً وبسيطاً ومندفعاً. يعني ذلك أن الحرب الأهلية كانت ستظل مندلعة ما تبقى من حياة كليوباترا. أما لو لم يحدث ذلك فكان من المستبعد أن نسمع عن آخر ملكة في مصر، وهي التي لعبت دوراً بدا أنه مكتوب لها سلفاً، وكل ذلك بفضل شيشرون.

إذا أردنا الوصول إلى المرفأ فسيتعيّن علينا تغيير الأشرعة أكثر من مرة

"ما الفرق، مع ذلك، بين أن تحكم النساء وبين أن يكون الحاكمون محكومين من النساء؟ النتيجة واحدة".

أرسطو



ترددت كليوباترا حتى بعد زيارة ديليوس، وحتى بعد تلقيها التّعليمات المحددة. وقد امتلكت الملكة سبباً كافياً لتفعل ذلك؛ كانت الأوضاع متقلبة، كما أن المخاطر كانت جسيمة. تمكنت الملكة بدهائها المعروف من المناورة عبر سنوات الحرب الأهلية الرومانية المتهورة والخيانات المتكررة، ولهذا كانت تخشى أخذ خطوة متهورة. لم يضغط عليها ديليوس لتقديم تفسيرات لموقفها هذا، لكنها بقيت مضطرة إلى ذلك على أي حال. بقيت الملكة فوق الصراعات عندما احتاج إليها أنصار قيصر، لكنها لم تصدر إعلانات تفيد بوقوفها على الحياد. كما عمدت، سواء أكان ذلك عن قصد أم عن غير قصد، إلى دعم قاتلي حبيبها، وهكذا لم يبقَ لها خيار كبير غير تقديم تفسيرٍ عن موقفها هذا. أما بصفتها ملكة تعتمد على روما، وبصفتها صديقة وحليفة لها، فلم يكن أمامها خيار كبير غير تعميق معرفتها بمارك أنطونيو واسترضائه. من المحتمل أنها كانت تفضّل الابتعاد عنه، وخاصة لأنها كانت تعرف جيداً ما الذي يريده منها، لكنه كان يسيطر على الشرق، وهكذا وقعت مصر في مجال سطوته. كان بطل معركة فيليبي

المبجّل حيث بدا وكأنه، وبشكلٍ غريب، موجودٌ في كل مكان، أو أنه أنجز كل شيء مرةً واحدة. كان ذلك الرجل يُستَقبَل وجحافله بجماهير محتشدة للترحيب به في أثينا عندما كان في طريقه إلى آسيا، كما استقبلته جماهير أخرى بصفته أحد الأسياد في إفيسوس. كان أنطونيو، وهو في الثانية والأربعين من عمره، بشعره المجعّد وفكيه الواسعين، لا يزال ذلك الرجل الوسيم وعريض المنكبين، والمثل الأعلى للصحة كما هي على طبيعتها. استقر في طرسوس، وهي عاصمة قيليقيا الإدارية المزدهرة والواقعة قرب الساحل الجنوبي الشرقي لتركيا الحديثة. استدعى أنطونيو كليوباترا إلى ذلك السهل الأخضر الذي تحيط به جبال جنوب آسيا شديدة الانحدار. وصلت هذه الطلبات الكثيرة الواحد بعد الآخر، إلى أن تركتها تتراكم.

هل تعمدت التأخر في تلبية الطلب من أجل كسب الوقت، أم إنها كانت منشغلة بتحضيرات دقيقة؟ لا يمكننا أن نتهم الملكة بالتردد، وذلك بالرغم من أنه في عدة مراحل عمدت إلى الانتظار متعمّدة حتى تهدأ الأجواء، كما يُحتمل أن يكون ذلك الوقت إحدى تلك المراحل. يؤكد لنا بلوتارك أنها لم تكن خائفة، وذلك بالرغم من أن خوفها كان يحتمل التبرير في ذلك الوقت لأن أخريات قد عوقبن بسبب عدم تعاونهن. عمد أنطونيو إلى اعتبار التأخير نوعاً من الاستراتيجية. اقتنعت كليوباترا بتقارير ديليوس المطمئنة وصدّقتها، لكنها كانت مقتنعة أكثر بقواها الخاصة، وهي القوى التي تفتحت أكثر فأكثر. يؤكّد لنا بلوتارك أن قيصر عرفها "عندما كانت لا تزال صغيرة، وتفتقد إلى الخبرة في مثل هذه العلاقات، لكنها ستزور أنطونيو في وقت أصبحت فيه امرأةً تتمتّع بجمال أخّاذ، وأصبحت في ذروة سلطتها الثقافية". (لاحظ أحد النقاد الفطنين أن ذلك "يضع ذروة الجمال في وقتٍ متأخر، وهو أمرٌ إيجابي، في مواجهة ذروة القوة الفكرية في وقت مبكر جداً، وهو الأمر السلبي". لم تكن كليوباترا في هذا الوقت قد وصلت إلى عمر الثلاثين بعد)، وقد غادرت مزودة "بأكبر قدرٍ من

الثقة بنفسها، وفي جاذبية شخصيتها وسحرها". لكنها لم تفعل ذلك لأنها أصبحت جاهزة، أو أنها لم تعد قادرة على المماطلة لفترة أطول، بل فعلت ذلك لأنها كانت مدفوعة أساساً بالازدراء. تلقت الملكة رسائل عديدة من أنطونيو وكذلك من رفاقه، لكنها "لم تكترث قطّ بتلك الأوامر". يستنتج بلوتارك أن الملكة أبحرت في النهاية وكأنها تفعل ذلك "استهزاءً" برجلٍ روماني، وقد حدث ذلك في وقت متأخرٍ من الصيف.

لم تترك كليوباترا أي شيء للصدف عندما غادرت الإسكندرية، وكأنها كانت واثقة من نفسها إلى درجةٍ بدت وكأنها تحمل مشاعر الاحتقار. بدا الأمر وكأنها تتلاعب ليس فقط بمارك أنطونيو، بل بمن يتعداه كذلك. إننا متأكدون من مظاهر الترحيب الواسعة التي لقيها أنطونيو في أمكنة أخرى. لقد تبعته عبر القارة سحب البخور ووسائل الترفيه، أما في إفيسوس فإن نساء المدينة قمن بلقائه وهن يرتدين ثياب كاهنات باخوس، بينما تنكّر الرجال بأزياء أسياد الغابات والحقول، وأزياء الساطير؛ أنصاف رجال وأنصاف ماعز. ردّد الجميع مدائحهم الديونيسوسية، وتقدموه إلى المدينة بعد أن حملوا صولجاناتهم المرصّعة بالعاج، وسط أصوات النايات والزمّارات والقيثارات وصرخات المديح. وانهالت الدعوات في هذه الفترة. دفعت كل أنحاء آسيا الجزية المقررة، وراحت تتنافس في كسب رضاه. علمت الملكة من ديليوس، وكذلك من آخرين، أنها على وشك دخول نوعٍ من أنواع السباق بهدف الفوز بانتباه أنطونيو، لكنها بدت مصممة على تقديم عرضٍ مثير إلى درجة أنه سيدفع بلوتارك إلى آفاقٍ شكسبيرية، كما أنه سينتزع من شكسبير أغنى ما كتب شعراً. وبالفعلِ، قد نجحت الملكة في ذلك. أما من بين السجلات التي ذكرت كلّ ما أُدخِل بشكلٍ مستعصٍ - مثل الحصان الخشبي الذي أُدخل طروادة، ودخول بنجامين فرانكلين فيلادلفيا، ودخول هنري الرابع، وتشارلز ليندبيرغ، وتشارلز ديغول باريس، وهوارد كارتر مدفن الملك توت عنخ آمون، ودخول البيتلز مسرح

إد سوليفان - فإن كليوباترا وحدها تبرز في صفحة قزحية الألوان، ووسط سحبٍ مكلفة لا تنتهي من البخور. كانت هذه السحب المثيرة تفرض نفسها بكل ما لها من معانٍ. يُفترض أن تكون الملكة قد قطعت رحلة السبعمئة ميل عبر البحر المتوسط على متن سفينة تابعةٍ للبحرية، متوقّفةً كي تمضي الليالي في طريقها، أي كما فعلت من قبل بمحاذاة ساحل الشرق. توقفت في خليج سيدنوس حيث يتصل مع بحيرة، وهو المكان الذي يُحتمل أن تكون كليوباترا قد نقلت فيه وفدها المرافق إلى بارجة محلية. كما يُحتمل كذلك أنها تبرجت بشكلٍ رائع تمهيداً لبدء رحلتها في أعلى النهر، وهي التي قد تستغرق مسيرة أقلّ من عشرة أميال في ذلك المركب القديم. كانت السفينة بطاقمها الكامل تبحر مع 170 مجذّفاً. يُحتمل أن تكون كليوباترا قد أنقصت العدد بمقدار الثلث، ومن شأن ذلك خدمة الغرض من رحلتها. سارت وراء سفينة الملكة مجموعة من سفن التموين، كما اصطحبت معها فرقة عرضٍ كاملة. كان التطابق ما بين الحياة والأسطورة نادراً في حياة كليوباترا، لكن طرسوس كانت إحدى نقاط تطابق الواقع والأسطورة.

كان حضور ملكة مصر مناسبة بما للكلمة من معنى على الدوام، إذ حرصت على أن تكون هذه المناسبة مميزة أكثر من غيرها. تُعتبر الصور والمشاهد في هذا العالم شبه الأمي مهمة جداً. طافت الملكة على سطح مياه ذلك النهر الملتمع والصافي وسط مهرجانٍ من الألوان الوامضة التي تكاد تأخذ الأبصار، والأصوات، والروائح. لم تكن بحاجة إلى الشعوذة، وذلك بالنظر إلى دفتها المزخرفة وأشرعتها الأرجوانية العالية - لم تكن هذه طريقة تنقل الرومان - وكانت المجاذيف الفضية تلتمع بشدة في ضوء الشمس كلما غطست في المياه وخرجت منها، وكانت عندما تصفع المياه تكوّن جزءاً من إيقاع للأوركسترا المؤلفة من النايات والزمارات والقيثارات المتجمعة فوق منصة السفينة. ركزت كليوباترا في هذا الوقت كل عبقريتها على إدارة هذه الجوقة كما لم تفعل من قبل: "أما هي فقد استلقت تحت

ستارة ملتمعة بالألوان الذهبية، وكانت ترتدي الثياب التي تظهر فيها فينوس في إحدى الرسومات. كان صبيان صغار ووسماء مثل كيوبيد الذي يظهر في الرسومات يقفون إلى جانبيها محرّكين الهواء من فوقهم بأرياشٍ طويلة. وارتدت أجمل جارياتها ملابس تشبه ملابس حوريات البحر والسيدات الشقيقات الثلاث، وكانت بعضهن يمسكن بالدفة، بينما انشغلت أخريات بالعمل على الحبال. تصاعدت الروائح المدهشة من قرابين البخور، وتصاعدت عبر ضفتَي النهر". تفوّقت كليوباترا بهذا المشهد حتى على ما يُستلهم من أشعار هوميروس.

تناقلت الأخبار نبأ وصولها، وكانت أسرع في تنقّلها السريع من ذلك المشهد الخيالي المعطّر، وهو المشهد الذي كان مقصوداً بحد ذاته. تجمعت حشود الناس بمحاذاة ضفتي ذلك النهر فيروزي اللون منذ بداية الرحلة، وتبعت موكب كليوباترا. وصلت الملكة إلى عمق مدينة طرسوس وكان سكانُها قد هرعوا إلى خارج بيوتهم منتظرين رؤية ذلك المشهد الرهيب. فرغت طرسوس في النهاية من سكانها كلياً إلى حد أن أنطونيو، الذي كان منشغلاً ببعض الأعمال في السوق التي يخيّم عليها الجوّ الحار، تُرك وحيداً في منصته. أرسلت له كليوباترا الخبر، وكان بحد ذاته غاية في البراعة الدبلوماسية مثلما كان ذلك العرض الضخم، وقالت له إن فينوس قد وصلت، "كي تستمتع مع باخوس من أجل خير آسيا".

كان ذلك الخبر نهجاً مختلفاً عن ذلك الذي اتبعته الفتاة التي كانت في كيس القنّب، وذلك بالرغم من النتائج المتقاربة التي نتجت عنهما. إننا لا نمتلك أي برهانٍ عن أن كليوباترا تمتلك موهبة لغوية أفضل من تمكّنها من الانسياب بين عبارات اللغة بكل حرية. يلاحظ بلوتارك أنها كانت تمتلك موهوبة في الإطراء بشكلٍ خاص. استخدمت الملكة اللغات التي أتقنتها استخداماً ينمّ عن خبرة: "في التأثير في أغراض الحياة، ومشاغلها، وآدابها ذاتها. يبدأ المتملّق بعد ذلك، وبصورة تدريجية، في

التقـرب مـن ضحيتـه، ويسـتخدم كل معرفتـه مـن أجل التأثيـر فيها إلى أن يتمكن منها ويسيطر عليها، وعندها تتعوّد الضحية على لمساته". بدا الأمر وكأنها بذلت أقصى جهدها، وأنها تعرف مضيفيها معرفة تامةً. يُحتمل أنها التقت أنطونيو قبل سنوات عديدة، أي عندما قدم إلى الإسكندرية في أثناء حملـة إعـادة والدهـا إلى عرشـه وكانـت تبلغ الثالثة عشـرة من عمرها في ذلـك الوقـت. أرسـل مـارك أنطونيو فـي أثناء إقامة قيصر فـي مصر مبعوثاً إليـه فـي الإسـكندرية فـي مهمة شـخصية. كان مارك يشـتري آنذاك مزرعة مـن قيصـر، الأمـر الـذي لا بد مـن أن كليوباترا عرفت بـه. يُحتمل كذلك أن تكـون قـد التقـت أنطونيـو في روما، حيـث كان لكل واحد منهما عمل كثير هناك. كانت تعرف، من دون شـك، سـمعته ذائعة الصيت، كما كانت تعـرف عـن شـبابه الطائـش، وعن فترة بلوغه التي كان يشـوبها الاضطراب فـي بعـض الفتـرات. كانت تعـرف كذلك أنه مفتون بالعروض المسـرحية، وليس بالميلودراما؛ العروض الغنائية. وأيضاً كانت تُدرك أنه فطنٌ سياسـياً في أوقات معينة فقط من الأسبوع، وبمقادير متساوية من العبقرية والتهور، وكذلك من الجرأة والمخاطرة، وقد أكّد مشـهد وصولها أنها تعرف ذوقه بـكل ثقـة. كانـت كذلـك مـن بين قلائـل في هـذا العالم الذين يسـتحقون التدليـل. بقيـت أغنى شـخصٍ في المتوسـط، وذلك بالرغـم من كل معاناة السنوات السابقة.

ردّ أنطونيـو علـى بـادرة كليوباترا نحوه بدعوتها للغداء. أما ما حدث تاليـاً فقـد كان دليـلاً علـى طبيعة الفريقين، وعلى نوع ذلك السـلوك الذي كان شيشرون يكرهه في كل واحدٍ منهما. كان أنطونيو متجاوباً بدرجة أكبر قليلاً من الحد المقبول، أما كليوباترا فقد كانت متعالية بكل وضوح. كان الطرف الذي يرضخ أولاً يُثبت المركز الأرفع بين الطرفين، ولهذا أصرّت على أن يأتي هو إليها مصطحباً معه أيّ عددٍ يريده من أصدقائه. كان ذلك امتيـازاً يـدل علـى مركزها الرفيـع. بدا منذ البداية إصرارها على القيام بهذا

كي تبرهن أموراً أخرى. كانت لا تستجيب لاستدعاءات الآخرين لها، بل هي التي توجّه هذه الاستدعاءات. أخبرنا بلوتارك قائلاً: "أطاع أنطونيو على الفور، وهو الذي أراد أن يُثبت رضاه، ومشاعره الودية، وقد غادر على هذا الأساس". فعل بلوتارك هذا قبل أن يعرب عن دهشته البالغة بالمشهد إلى حد أنه افتقد إلى الكلمات، وحتى اليونانية منها، للتعبير عن هذه الدهشة. كانت التحضيرات التي أعدّتها كليوباترا تفوق الوصف، مما جعل أنطونيو يندهش بشكلٍ خاص بمجموعات المصابيح التي علّقتها بين الأغصان فوقهما. سلطتْ هذه المصابيح أشكالاً من المستطيلات والدوائر في تلك الليلة الصيفية شديدة الحرارة، الأمر الذي شكّل "منظراً من الجمال لا مثيل له". كان ذلك مشهداً مذهلاً إلى حد أن شكسبير لجأ إلى بلوتارك الذي زوّده بكل المحطات الوصفية. لا بد من أن أمراً غريباً كان جارياً حتّى اضطر أعظم شاعر من العصر الإليزابيثي إلى الاستعارة من كاتب سيرة بكل جدية.

عمدت كليوباترا في ذلك المساء، أو في مساء آخر إلى تجهيز اثنتي عشرة غرفة من غرف المآدب، فنشرت ستًّا وثلاثين أريكة مغطاة بأقمشة سميكة. كانت الستائر الأرجوانية المطرزة بخيطان ملتمعة معلقة خلفهما، وقد حرصت الملكة على أن توضع على طاولتها آنية ذهبية مزخرفة بالمجوهرات بعناية. كانت الملكة على مستوى المناسبة بدورها، ولذلك زيّنت نفسها بالمجوهرات. كان الذوق المصري يصل، إذا ما وضعنا اللآلئ جانباً، إلى الأحجار الكريمة اللامعة، مثل العقيق، واللازورد، والجمست، والعقيق الأحمر، والمرمر الأخضر، والزبرجد. كانت كل هذه الأحجار الكريمة محفوظة في أطر ذهبية، وأساور جميلة مشغولة بكل دقة، وفي قرطين طويلين ومتدليين. دُهش أنطونيو فور وصوله عندما رأى هذا العرض الاستثنائي، فابتسمت كليوباترا بكل تواضع، وشعرت بأنها كانت في عجلةٍ من أمرها، وأنها ستبذل جهداً أكبر في المرة التالية. قالت له

بعـد ذلـك، إن كل هـذه الأشياء هديـة له، ثم دعته وأصحابه وقادة جيشه لتناول الغداء معها مجدداً في اليوم التالي. ودّعت ضيوفها في نهاية المأدبة بعد أن زوّدتهم بكل ما أُعجبوا به من الأقمشة، وأدوات المائدة المرصعة بالمجوهرات، وكذلك بالأرائك.

رفعـت أدوات الشـراب بالهـدوء ذاته الذي رفعـت فيه المائدة، وهي الأدوات التي جعلت المأدبة الأساسية تبدو وكأنها متقشـفة. عاد أنطونيو في رابع أمسـية له محملاً بكمية من الورود التي يصل طولها إلى الركبة. دفـع ثمـن الـورود تالنتـاً واحـداً، أو مـا يعـادل قيمة ما يحصّله سـتة أطباء في سـنة واحدة. كانت رائحة العطور ذات تأثيرٍ سـام وسـط موجة حرارة قيليقيا الخانقة، ولم يتبق في نهاية الأمسـية سـوى الورود التي داس عليها الضيوف. عمدت كليوباترا مجدداً إلى توزيع الأثاث على ضيوفها، فتمكّن رجال أنطونيو في نهاية الأسبوع من أخذ الأرائك، وخزائن أدوات المطبخ، والسـتائر، وذلك بالإضافة إلى هدايا ثمينة بشـكلٍ خاص لبعضهم في تلك الليلـة الصيفيـة شـديدة الحـرارة: "هـذه العربات وهـؤلاء الحمالون لأجل الرجـال مـن أصحاب المراكز العالية، والخيـول المحملة بالبهارج المطلية بالفضـة مـن أجـل غالبية الباقين من الرجال". أرادت الملكة تسـهيل رحلة عودة الرجال فبعثت مع كل واحدٍ منهم عبداً أثيوبياً يحمل مصباحاً. كانت عظمـة معسـكرها "أكبـر مـن أن توصف". لـم يقصّر الأقدمون في رواية ما شـاهدوه، لكـن عـدداً قليـلاً مـن هـذه الروايات قـد أفلح فـي إعطاء تلك المشـاهد حقّها. لم تكن كليوباترا هي الوحيدة التي زارت أنطونيو محملةً بالهدايا، إذ "كان الملوك يأتون إلى أبواب أنطونيو، وكذلك زوجات الملوك اللواتـي كـن ينافسـن بعضهـن بعضاً فـي هداياهن وجمالهـن، كما ضحّين بشرفهن من أجل إرضاء رغباته". وكليوباترا فعلت ذلك أيضاً، لكن بأكبر قدرٍ من الإسـراف والمهارة. بقي قيصيريون، وهو الذي كان في السادسة من عمره في ذلك الوقت، في مصر طوال هذه الرحلة.

أرجع بلوتارك الفضل في كل ذلك إلى "جاذبية كليوباترا التي لا تُقاوَم"، وإلى "الإقناع في حديثها"، لكن بلوتارك وحده حاول إعادة إحياء الأحاديث التي تمت خلال لقاءات طرسوس. كيف برّرت كليوباترا سلوكها؟ إنها لم تبذل أي جهد من أجل الانتقام لمقتل قيصر. ساعدت الملكة دولابيلا، وهو أحد القتلة المحتملين الذي بسببه طلّق أنطونيو إحدى زوجاته؛ كان عدم تعاونها مذهلاً. لم تعمد الملكة إلى قول أي شيء يدل على الندم، كما أنها لم تقدّم أي اعتذارات، بل اكتفت برواية هذه الحقيقة كما حدثت. عمدت، وبكل فخر، إلى سرد كل ما فعلته لأنطونيو وأوكتافيوس، واعترفت أنها ساعدت دولابيلا، وأضافت أنها كانت ستقدم المزيد بسخاءٍ أكبر لو أن الطقس ساعدها، وقالت إنها حاولت شخصياً تسليم أسطولٍ ومؤن. كما قالت إنه بالرغم من التهديدات المتكررة عمدت إلى رفض طلبات كاسيوس، وإنها لم تُحجم عن مهمتها هذه بسبب معرفتها بالفخ الذي كان ينتظرها، لكنها فعلت ذلك بسبب العاصفة التي حطّمت أسطولها. وقالت أيضاً إن صحتها المعتلة آنذاك هي التي منعتها من الانطلاق مجدّداً. وبعد أن تعافت اكتشفت أن مارك أنطونيو كان بطل معركة فيليبي، فاحتفظت برباطة جأشها، وكانت سريعة البديهة، وهكذا خرجت عن نطاق اللوم بالكامل.

أثار الطرفان في إحدى المراحل مسألة الأموال، وهي العنصر الذي يفسّر إلى حدٍّ كبير سبب تمكّن كليوباترا من تجهيز هذا العرض الفخم. كانت تلك إحدى الطرائق المفتوحة أمامها كي تبرهن عن فائدتها بالنسبة إلى رجل يبحث عن مصدر يحصل منه على المال. بقيت الخزنات المالية الرومانية فارغة، إذ سبق للمتحالفين الثلاثة أن وعدوا بإعطاء كل جندي 500 دراخما، أو جزءاً واحداً من اثني عشر جزءاً من التالنت. وهكذا جنّد المتحالفون ثلاثين جحفلاً ليكونوا في خدمتهم. كانت نفقات هذه الجحافل مطلوبة بصورة أو بأخرى من وريث قيصر - هذا إذا لم يكن من

الطرف الذي انتصر في معركة فيليبي - وذلك بالإضافة إلى الحملة الهادفة إلى السيطرة على بارثيا؛ الأمر الذي قام به أنطونيو كذلك. وقف البارثيون إلى جانب القتلة، كما كانوا متعطشين إلى الحصول على الأراضي ولا يثبتون أبداً على حال. شعر أنطونيو بأنه مضطر إلى الانتقام لهزيمة رومانية مذلة نزلت به في العام 53. يُذكر أن آخر قائد روماني غامر بالذهاب إلى أبعد من ضفّتي نهر دجلة لم يعد من رحلته، وقد استخدم رأس ذلك القائد المقطوع في النسخة البارثية من أشعار يوريبيديس، وهي النسخة التي ذُكِرَت فيها جحافل ذلك القائد الأحد عشر التي أُبيدت عن بكرة أبيها. كان أنطونيو بحاجة إلى نصرٍ عسكري كاسح كي يعزّز به تفوقه في بلاده. أما عندما كان أيّ روماني يحلم في الوصول إلى بارثيا فإن أفكاره كانت تتجه، أخيراً وبالضرورة، إلى كليوباترا، وهي الحاكمة الوحيدة التي تستطيع تمويل عملية ضخمة كهذه.

تجاوب مارك أنطونيو في النهاية حين دعا كليوباترا إلى مأدبة بدوره، ولم يكن من المستغرب أنه "كان يطمح إلى التفوّق عليها بروعتها وذوقها". لم يكن من المستغرب كذلك أنه لم يوفق في هذين المجالين. قيل بعد ذلك إن كليوباترا قد تمكنت من إرباك التفكير المنطقي عند أنطونيو؛ يُمكن أن يكون ذلك صحيحاً إلى حدٍّ ما في ذلك الوقت، لأن معظم الرومانيين كانوا أذكى من أن يحاولوا التفوق على أحد البطالسة في لعبة الرفاهية والترف هذه. أثبتت كليوباترا مجدداً أنها مرنة ومتكيفة، وأثبتت أنها أكثر براعة من أنطونيو في مجال استخدام قواعد الطرف الآخر. تظاهر أنطونيو بالتهكّم على نفسه، وعلى جهوده الأقل أهمية، كما انتقص من قيمة مأدبته "الصغيرة والريفية" والتي شاركت فيها كليوباترا. لم تكترث الملكة بتوصيفاته هذه، وهي الرفيقة الجاهزة لرجلٍ خرج عن أسلوبه المعتاد بهدف إضفاء جوٍّ من المرح، والذي يهزأ من نفسه من كل قلبه كما يفعل مع الآخرين. ردّت كليوباترا على المرح الذي أبداه أنطونيو بمرحٍ

قلبيٍّ مماثل؛ "أدركت الملكة أن مداعباته كانت عامة وإجمالية، وحاولت التمتع برفقة القائد العسكري أكثر مما استمتعت معه بصفته المضيف، كما اشتركت معه في الذوق ذاته وانخرطت به على الفور، وذلك من دون أي نوع من التردد أو التحفظ". لعبت كليوباترا دور الرفيقة المرحة، وذلك بعد أن عزّزت مركزها كملكة بعد أن تباهت بثروتها. كان من المستبعد، في هذه الحالة، أن يكون أي شخص من وفدها المرافق قد رأى كليوباترا هذه بالذات.

سبق للملكة أن رسّخت سحرها الذي لا يُقاوَم، وقدرتها على الذوبان في حالةٍ معينة على الفور وبحسب ما يتطلبه الوضع، يُضاف إلى ذلك أنها كانت محظوظة في ظروفها. تشارك أنطونيو وكليوباترا في أمور كثيرة، وذلك سواء أكان الاثنان قد استمتعا بلقاءٍ عابر أم لا. كانت الملكة هي الوحيدة التي تمتلك سبباً لعدم الارتياح إزاء وصية قيصر، أو لظهور وريثه بالتبني. تمسّك كل طرف، وبكل قوة، بجزءٍ من العباءة القيصرية، وقد سبق لأنطونيو أن شهد على تبجيل قيصيريون في مجلس الشيوخ، وبدأ بتوسل هذه الصفة والترويج لنفسه، أي إن كليوباترا لم تكن الوحيدة التي تنشغل في عرض مسرحي ضخم. كان أنطونيو يمتلك تجربة طويلة مع النساء القديرات وسريعات البديهة، وهو الأمر الذي لم يتوفر لمعظم الرومانيين الآخرين. سبق لوالدة مارك أنطونيو أن تحدّته بقتلها، وذلك عندما وجد الاثنان نفسيهما في موقفين متعارضين من قضية سياسية. لم يجد أنطونيو أي مشكلة في تكريم امرأة خلال قمة سياسية، أو مؤتمر مالي، وهو التوصيف الأدق لذلك الاجتماع في طرسوس، وذلك بالرغم من جهود كليوباترا في تحويل ذلك اللقاء إلى عرضٍ ديني. كانت فولفيا ثرية ولها علاقات قوية، كما كانت فطنة وجريئة، ذلك بالإضافة إلى جمالها. اعتبرت فولفيا أن أنطونيو قد قطع علاقته مع عشيقته القديمة، وهي أكثر

الممثلات شعبية في روما. لم تكن فولفيا من ذلك النوع من النساء اللواتي يجلسن في منازلهن كي يحكن الصوف، لكنها رغبت بدلاً من ذلك في أن "تحكـم الحاكـم وأن تقـود القائـد". ولـم تكتفِ هـذه المرأة بتمثيل مصالح أنطونيو في روما خلال فترة غيابه في ذلك الشتاء، لكنها تدخلت بشكلٍ شرسٍ في القضايا العامة "إلى درجة أن مجلس الشيوخ والشعب لم يُقدما علـى أي عمـلٍ لا يرضيهـا". تنقلـت بين منازل أعضاء مجلس الشـيوخ بيتاً بيتاً نيابةً عن زوجها، كما سددت ديونه، وعملت على تجنيد ثمانية جحافل من الجنود لأجله. أما في فترة غيابه في السـنة السـابقة، فقد مثّلته سياسـياً وعسكرياً، كما ارتدت في إحدى المرات بذلة ذات دروع.

لم تؤدِّ ادعاءات كليوباترا بأنها مبجلة إلى شعور أنطونيو بالتوتر، وقد لقي كل مظاهر التكريم في طريقه إلى طرسوس. وصلت هذه المظاهر إلى حـدّ اعتبـاره ديونيسـوس الجديـد، الأمر الذي وصل إلى مسـمع كليوباترا. قـام ذلـك السـيّد بـدوره برحلـة ظافرة عبر آسـيا، ولـم يرسـل بهـذا العمل إشارة فقط إلى كليوباترا، لكنه كرّر دوراً قام به أحد البطالسة، وذلك لأن أسرتها ادّعت التحدّر من سيّد الشراب الذي يسبب النشوة، وكانت الأسرة مـن أتبـاع طائفتـه، وقد سـبق لوالد كليوباترا أن أضاف عبارة "ديونيسـوس الجديد" إلى لقبه، أما شقيقها فقد فعل ذلك بدوره لكن لفترة قصيرة. كان مسرح ديونيسوس ملحقاً بالقصر في الإسكندرية، وقد اتخذ قيصر من ذلك المسرح مركزاً لقيادته في العام 48. أما مارك أنطونيو فإنه كان من المتوقع أن يفكّر بطريقة أكثر عمقاً بشأن هذا التعريف. لكن أتباع هذه الطائفة كانوا يتمتعون بشعبية واسعة، وبينما كان السيّد اليوناني المبجّل البارز في عصره، فإن ديونيسوس كان جديداً بالنسبة إلى البانثيون حيث بقي غريباً. كان ودياً، وجدياً، وذا معنويات عالية، لكن كل حيويته، وضفائره المعطرة التي يجرّها خلفه بتثاقل ضمنت له سمعة أنّه مخنّث. كان أجنبياً بشكلٍ واضح، كما كان ألطف الأسـياد. قال أحد أجداد كليوباترا إنه يتحدر من سـلالة ديونيسـوس

من أجل تبرير غيابه عن ميدان المعركة. أما الأسوأ من ذلك كله، فهو أن ديونيسوس عمد إلى تقليل ذكاء الرجال، وعزّز ذكاء النساء. أما لو كان الشرق من نصيب أوكتافيوس بدلاً من أنطونيو بعد معركة فيليبي لكانت كليوباترا تكيفت مع هذا الواقع بلا ريب، لكنها كانت ستجد نفسها في وضعٍ أسوأ. كانت تتكلم لغاتٍ عدة، إلا أنها أتقنت بعض هذه اللغات بصورةٍ أفضل من غيرها.

لم يكن بإمكان الملكة أن تتمنى بيئة شاعرية أفضل، لأن طرسوس كانت محاطة من كل جوانبها بجبالٍ وعرة ومغطاة بغاباتٍ مليئة بالأزهار البرية. كانت المدينة مركزاً إدارياً بالإضافة إلى كونها مركزاً للتعليم، وهذا هو الوصف الذي أعطاها إياه مواطنها بولس الطرسوسي بعد جيلٍ من الزمن حين قال: "ليست بالمدينة السيئة". كانت طرسوس مشهورة بمدارس الفلسفة والخطابة فيها، كما كانت المدينة تتباهى ببركها وحماماتها، وبمكتبتها الفاخرة. يعبر المدينة نهر بمياهه السريعة والباردة، وبألوانه الزرقاء المائلة إلى الخضرة، والتي تتميز بصفائها كما تتميز مياه النيل بتعكّرها. أما عندما وصل الإسكندر الكبير إلى طرسوس قبل ثلاثة قرون، فقد أسرع إلى رمي أسلحته، ورمى نفسه في المياه المتجمدة بجسده المغطى بطبقة من الغبار والعرق. (نقله أصحابه إلى خيمته بعد أن كاد يفقد وعيه، ولم يستعد صحته إلا بعد مرور ثلاثة أيام). تحيط بالمدينة أراضٍ زراعية خصبة، وهي التي تشتهر بكروم العنب، وتشتهر كذلك بتمجيدها لأسياد الخصوبة. كانت طرسوس المكان المناسب حيث يشعر اثنان من الأسياد، أحدهما راسخ فيها والآخر شديد الطموح، بأنهما في موطنهما حيث يمكن الاستفادة منهما. كانت طرسوس ميالة إلى مشاهدة العروض، وقادرة على تسهيل إقامتها، أي إنها كانت المدينة التي يمكنك أن تطلب فيها على الفور شراء أزهار بقيمة تالنت واحد. كان سكانها رومانيين منذ فترة قريبة، لكن ثقافتها بقيت يونانية بشكلٍ صريح، وقد واجه سكانها اللغز

ذاته الذي واجهته كليوباترا، واستقبلوا كاسيوس ودولابيلا عند وصولهما، لكن هذين القائدين عاملا السكان بقسوة، غير أنهما فعلا ذلك كلاً على حدة. اجتاح كاسيوس المدينة، وصادر كمياتٍ كبيرة من المال، وأجبر سكان طرسوس على تذويب كنوز الهياكل، وعلى بيع النساء والأطفال، وحتى كبار السن من الرجال؛ الجميع تم بيعهم كالعبيد. احتفل سكان طرسوس بقدوم أعداء كاسيوس بكل حماسة، هذا عدا مشاركتهم في مهرجان العروض والأزهار الضخمة، وأقدم أنطونيو على تحرير المدينة من عبوديتها.

أمضت كليوباترا في طرسوس أسابيع قليلة فقط، لكنها لم تكن بحاجة إلى المكوث فترة أطول. كان تأثيرها في أنطونيو فورياً وصاعقاً(*). يشرح لنا بلوتارك أولاً النجاح الذي أحرزته في قيليقيا، ويعلي من منزلتها. كانت الملكة في العام 48 ق.م مجرد "مغناج جريئة"، لكنها ظهرت في العام 41 من مدرسة الإغراء التي لا تُبقي ولا تذر. كان حديثها ساحراً، وحضورها متألقاً، وصوتها حلواً، وكان تأثيرها سريعاً على أنطونيو. أما آبيان، وهو المؤرخ الأكثر تروياً، فيعترف بحصول هزيمة فورية. قال آبيان مستغرباً: "فقد أنطونيو رشده، مثل الشباب، في اللحظة التي رآها فيها، وذلك بالرغم من أنه كان في الأربعين من عمره"؛ بحسب ما ورد في النص. لا نستغرب هنا أن يتغلب الخيال على التاريخ، كما أنه من الصعب على المرء أن يتنقل بواقعية عبر ذلك البحر المتموج من الورود، وأن يستخرج الحقيقة، وعلى

(*) ليس من السهل أبداً أن يجادل المرء بأنه قاوم الملكة المصرية التي لا تقاوم، لكن ذلك حدث. جعل رونالد سايم الكبير كليوباترا مجرد علامة أخرى من العلامات التي سجّلها أنطونيو في غرامياته، ووضعها ضمن لائحة ملكاته اللواتي خضعن له، واللواتي كان يستبدلهن باستمرار. لم يرَ ذلك المؤرخ في الأمر أي غرام قط، لأن أنطونيو "تنازل ولم يستسلم". كما اعتبر أن أنطونيو لم يشعر تجاهها بأي شيء عدا عدم الاكتراث بعد شتاء العام 41 في الإسكندرية.

الأخص الحقيقة السياسية من بين هذا الكم التوصيفي الخصب. سمعنا عن غزوات أنطونيو بقدرٍ أكبر بكثير مما سمعناه عن غزوات قيصر، ويعود ذلك إلى سببٍ بسيط ألا وهو أن المؤرخين كانوا متلهفين للحديث عن أحدهما، لكنهم ترددوا في الحديث عن الآخر. بدا أنطونيو الرجل الأضعف، وهكذا أصبحت كليوباترا المرأة الأقوى. لم تظهر في العام 41 أمام جمهورٍ آخر فقط، لكنها كانت أمام جوقة مختلفة.

هل أضاف التقاء الضرورات شيئاً إلى قصة الغرام هذه؟ أضاف ذلك الالتقاء شيئاً إلى الوئام الحاصل بينهما بطبيعة الحال. وصف بلوتارك قصة غرام تاريخية أخرى على أنها علاقة غرام شديدة، "يُعتقد مع ذلك أن هذه العلاقة قد توافقت جيداً مع القضايا المطروحة". امتلكت كليوباترا سبباً محدداً لتعزيز هذه العلاقة مع هذا الروماني - أنطونيو - من بين كل الرومان في كل مدن الإمبراطورية، وقد امتلك أنطونيو كذلك سبباً مماثلاً ليفعل الأمر ذاته. كان من المناسب بالنسبة إلى كليوباترا الوقوع في حب الرجل الذي كانت مضطرة إلى الخضوع إليه سياسياً، أو الوقوع في حبائله، وكذلك كان من المناسب بالنسبة إلى أنطونيو الوقوع في حب امرأة تستطيع بمفردها ضمان تحقيق طموحاته العسكرية. كان هو بالنسبة إلى بارثيا بمثابة ضربة حظٍّ واعدة.

نعلم أن أنطونيو قد اشتاق إلى كليوباترا بعد مرور عدة أشهر، وذلك بالرغم من استحواذها على كل الثناء في هذه العلاقة. وقد أكد أحد أعدائها الألداء أنها لم تقع في غرام أنطونيو لكنها "دفعته للوقوع في غرامها". كانت النساء في العالم القديم يخطّطن كذلك، بينما كان الرجال يضعون الاستراتيجية في المقدّمة، أي أنه تواجدت هوة شاسعة - أساسية ودائمة - بين المغامِر والمغامِرة. تواجدت هذه الهوة كذلك بين الرجولة وتعدد العلاقات: ترك قيصر كليوباترا في الإسكندرية من أجل معاشرة زوجة ملك موريتانيا، أما أنطونيو فقد وصل إلى طرسوس مباشرة بعد

إنهاء علاقته بملكة كبادوكيا. نزلت كليوباترا في التاريخ بوصفها المرأة الصائدة، والسراب، والغاوية، وذلك بسبب معاشرتها رجلين شبقين يملكان الكثير من المغامرات. إن سرد مهاراتها الفائقة بالتأكيد عملية أقل إرباكاً من الاعتراف بمهاراتها الفكرية. يمكننا إرجاع قوتها هذه، بالطريقة ذاتها، إلى الألاعيب الخفية بدلاً من الحب. إننا لا نمتلك أي دليل قاطع يدل على أي منهما، لكننا نستطيع على الأقل تفسير الألاعيب الخفية لأنه يمكن للمرء أن يصادر اللعبة بدلاً من أن يخسرها. وضعت كليوباترا أنطونيو رهن إشارتها، وجعلته على أتم الاستعداد لتنفيذ كل رغبة من رغباتها، لكن "ليس فقط بسبب الأوقات الحميمة التي أمضاها معها، وإنما بسبب وقوعه تحت تأثير العقاقير"، كما قال يوسيفوس. إن ذهابه إلى هذا الحد من الزعم يعني إهانة لذكائها مثل ما هو اعتراف بقوتها.

يصعب علينا الاعتقاد أن الجنس لم يلعب دوراً في ذلك المشهد منذ البداية، وذلك بغضّ النظر عما إذا فَقَدَ أي طرفٍ رشده إزاء الآخر. كان أنطونيو وكليوباترا في ذروة نفوذهما، وكانا يحتفلان وسط تلك السحابة النفّاذة من العطور، ووسط أنغام الموسيقى العذبة، وتحت الأضواء متعددة الألوان في ليالي الصيف المثيرة تلك، وإزاء الطاولات المليئة بأفخر أنواع الأطعمة والشراب في آسيا. إننا نستبعد أن يكون أنطونيو قد وقع عبداً لغرامه بكليوباترا على حد ما يؤكد عدد من المؤرخين، وذلك لأن الواقع يؤكد أن حضور مارك أنطونيو في أي مكان كان يترافق مع الإثارة. إذ كان مستعداً على الدوام لتلبية نزواته طوال تنقله في آسيا، وهو فعل ذلك مرة واحدة على الأقل. كان أنطونيو قد قطع لتوه علاقته بملكة أخرى تحت حمايته. اعتبر بلوتارك أنه "يمتلك سمعة سيئة بسبب معرفته بزوجات رجال آخرين". قام بلوتارك بعد ذلك بتسجيل علاقته مع كليوباترا بدءاً من تلك الليلة الصيفية شديدة القيظ في طرسوس.

كانت التأثيرات الفورية لذلك اللقاء عملية جداً: مكثت كليوباترا

أسابيع قليلة لكنها أنجزت أشياء كثيرة. كان أنطونيو عند مغادرتها بحراً يمتلك لائحة بطلباتها. لا يمكننا القول إن الأمر يحمل أي غرابة بالنظر إلى ما يُفترض بأنه حصل عليه منها. يبدو أن كليوباترا لم تكن تشعر بالأمان الذي تظاهرت به، إذ كانت تعرف أن ملكة أخرى لمصر تقبع في الانتظار. لم يُضِع أنطونيو أي وقتٍ في تخليصها، وأمر أن تُنتزع أرسينو من معبد آرتميس بالقوة، وهكذا لقيت شقيقة كليوباترا مصرعها فوق الدرج الرخامي لذلك المعبد، وأمام أبوابه المزخرفة بالعاج، والتي تبرع بها والدها بوضعها في واجهة المعبد. كانت آخر الأشقاء الأربعة، وهكذا ضمنت الملكة عدم حدوث متاعب من تلك الجهة. قال أحد المؤرخين الرومان: "تمكنت كليوباترا الآن من قتل كل أشقائها حتى لم يبقَ أحد من أسرتها على قيد الحياة". كان ذلك القول صحيحاً، وذلك بالرغم من أنه من الصحيح كذلك أن أرسينو لم تترك لشقيقتها خياراً في هذا الشأن. أبقى قيصر على حياتها في روما بعد ذلك الإذلال العلني الذي تعرضت له فيها، لكنها لم تكف عن التآمر ضد كليوباترا منذ ذلك الحين. (كانت إيزيس تشعر ببعض الرحمة، وذلك لأنها سلّمت الأشرار إلى الذين تآمروا عليهم).

كانت كليوباترا قادرة على إظهار بعض الرأفة، فعندما استدعى أنطونيو الكاهن الأكبر للمعبد الذي سبق له أن أعلن أرسينو ملكة، ذُعر أهالي إفيسوس كثيراً، وأرسلوا نداءً إلى كليوباترا يتوسلون فيه إليها لتعفو عن الكاهن. حاولت كليوباترا الضغط على أنطونيو كي يُطلق سراحه، وقالت له إن هذا الكاهن لم يعد قادراً على الاعتراف بأي منفيٍّ من البطالسة، وهكذا، فهو لا يمثّل أي خطرٍ الآن. لم يُظهر أنطونيو أيّ نيةٍ للعفو عن ذلك الرجل الذي زعم بأنه بطليموس الرابع عشر، وهو الزعم الذي صدّقه بعض الناس وروّجوا له. (لم يظهر أحد بعد نهاية حرب الإسكندرية). أُعدم الكاهن، أما ذلك الوغد، أي القائد البحري المعيّن على قبرص، والذي ساند كاسيوس بالرغم من أوامر كليوباترا، والذي يُحتمل أنه تحالف

مع أرسينو، فقد هرب إلى سوريا حيث سعى إلى اللجوء إلى أحد الهياكل، لكنه أُخرج بالقوة قبل أن يُقتل. كان ذلك هو نوع السلوك الذي يُمكن أن يوحي بأن الرجل كان فاسداً. قال آبيان أخيراً: "وهكذا تشوّش، وعلى الفور، كل الجهد الذي خصّصه أنطونيو لكل مشكلةٍ من المشاكل، وكان كل ما تأمر به كليوباترا يُنفّذ على الفور، ومن دون الأخذ في الاعتبار ما هو صواب". كان ذلك السلوك يوحي بأن كليوباترا قد قطعت بعض الوعود المادية في الفترات التي فصلت بين الولائم، أما أنطونيو فلم يحد من جهته عن عاداته. كان قيصر في العام 47 قد خصّص جهوده بعد أن ترك كليوباترا للقضايا المناطقية، "ووزّع الهدايا بسخاء على الأفراد الذين يستحقونها وعلى المجتمعات على حدّ سواء، كما استمع إلى الخصومات القديمة، وأصدر القرارات بشأنها. أما أنطونيو فقد وضع تحت حمايته أولئك الملوك الذين طلبوا منه ذلك، كما جعل منهم أصدقاء مخلصين، كما وضع أسس الحكم ورفع الضرائب. أما الفرق فقد كان في ما حصل لاحقاً: أرسل أنطونيو جيشه إلى مختلف المراكز الشتائية، ثمّ توجه جنوباً كي ينضم إلى كليوباترا في مصر، وذلك بالرغم من بقاء الشؤون المناطقية في حالةٍ من الفوضى، وبالرغم من أن البارثيين قد حاموا حول ضفّتي الفرات، ووضعوا سوريا نصب أعينهم وبكل عدوانية.

يُحتمل أن تلك الشابة التي تبلغ الثامنة والعشرين من عمرها، والتي استقبلته في الإسكندرية، كانت في أوج جمالها، كما يُحتمل أنها لم تكن كذلك. كانت تلك هي اللحظة التي تُدرك فيها المرأة أن هذه الذروة أصبحت وراءها منذ سنين. وكان من الواضح أيضاً أن كليوباترا أصبحت أكثر ثقةٍ بنفسها بكثير مما كانت عليه عندما رحّبت بيوليوس قيصر قبل سبع سنوات. سافرت الملكة خلال تلك الفترة إلى خارج بلادها، كما وضعت ولداً، وحكمت بلادها من دون منازع، كما تحملت وحدها عدة عواصف

سياسـية واقتصادية. كانت سـيدةً حية ذات علاقات بقيت بعيدة عن اللوم، وكانـت فـي منزلـةٍ أعفتها من واجب الزواج مجـدّداً. تمتعت الملكة بتأييد شـعبها لهـا بالكامـل، ويُحتمـل أنها تمتعـت كذلك بإعجابـه الكامل أيضاً. شـغلت نفسـها، وبصـورة أعمـق، بالحيـاة الدينية المصريـة الأصيلة، وهي فعلـت ذلـك أكثـر مـن أي سـلفٍ لها من البطالسـة. لم يكـن من العجب، فـي هـذه الحالـة، أن يتردد صوتها، وللمرة الأولى، في الإسـكندرية ترحيباً بسيّدها وشريكها؛ إنها واثقة جداً بنفسها وبسلطتها، وكذلك بجرأتها.

يُمكننا أن نستنتج مما حدث لاحقاً أن زيارة مارك أنطونيو إلى مصر كانت بناء على اقتراح كليوباترا وإصرارها. فأقدمت الملكة بعملها هذا على اختطافـه بعبقريـة وإغـراء. قال بلوتارك: "حملها على أن تحثّه على القدوم إلـى الإسـكندرية". يُحتمـل بطبيعـة الحـال أن يكون أنطونيو هو الذي وجّه الدعوة إلى نفسه للحضور. كان الرجل يقوم في النهاية بما عزم عليه: إعادة رسـم خريطـة الشـرق وجمـع الأمـوال. لم يتمكن أنطونيـو من المضي في خططه التي وضعها لبارثيا من دون الأموال المصرية، ويُحتمل أنه شعر بأن هذه أفضل فرصة لديه لجمع الأموال التي وعدت بها ملكة ذكية من دون أن تسـلّمها فعلاً. وقد تبيّن لأنطونيو أن آسـيا أفقر مما يتوقع أي شـخص، بينمـا مصـر كانـت غنيـة. تواجد لدى أنطونيو كذلك سـبب شـرعي يدعوه إلـى اسـتطلاع مملكـة تدور في فلك روما، وعلـى الأخص تلك التي تبيّن لـه أنهـا قاعـدة نموذجية لحملته الشـرقية. كان أنطونيو يحتاج إلى أسـطولٍ قـوي، الأمـر الـذي يُمكن لكليوباترا أن تقدمه. أمـا البديل عن هذه الزيارة فقد كان الغرق إلى الأبد في القضايا المناطقية المتشـابكة، وهي المشـاكل التـي لا تخـدم قوى أنطونيو ولا مصالحه. تسـببت هـذه التفاصيل الإدارية بالملل حتى بالنسبة إلى شيشرون. وكانت الوفود تتوالى الواحد بعد الآخر تحت ضغط تلك الأوضاع، وهكذا تاق أنطونيو إلى السفر إلى إحدى دول المتوسـط القليلـة "التـي لا يحكمهـا مباشـرة". كان أنطونيـو طالباً موهوباً،

وظل كذلك بطرائقٍ متعددة، كما كان واضع استراتيجية، وذا تفكير صريح. أما لو لم تلاحقه كليوباترا فإنه كان يمتلك كل الأسباب كي يلاحقها، أو على الأقل كي يتقرّب منها بلطف ودبلوماسية، وكي يسمح لها بالشعور بأن مرتبتها كانت الأعلى، أي كما سبق له أن فعل في طرسوس بكل لطف. سبق لأنطونيو أن رأى الإسكندرية، وهي المدينة التي لا يمكن للزائر أن ينساها بسهولة، والتي استوعبت الثقافة الإغريقية بأكملها دفعة واحدة. لا يسع أي فرد يتمتع بكامل صوابه أن يفضّل تمضية الشتاء في أي مكانٍ آخر، وذلك كي يستمتع بأنوارها الملتمعة، بالرغم من الفيضانات والسيول التي تترافق مع شهر كانون الثاني، وعلى الأخص تلك التي حدثت في القرن الأول قبل الميلاد، فكيف الحال إذا نزل المرء ضيفاً على واحدة من البطالسة؟

عمد أنطونيو إلى السفر إلى مصر من دون مرافقةٍ عسكرية، أو حتى من دون الشارات التي تدل على مركزه الرسمي، وذلك إما احتراماً لسلطة كليوباترا، وإما بقصد تجنب الغلطة التي اقترفها قيصر، "مرتدياً أزياء الأشخاص العاديين، ومُتّبعاً طريقة حياتهم". لكنه في الواقع لم يعش كشخص عادي سوى لفترة قصيرة. جهدت كليوباترا كي توفر له استقبالاً ضخماً، كما حرصت على أن يمارس "الرياضات ويتمتع بوسائل اللهو التي تكون في متناول يد شاب يمضي وقتاً للراحة". حرصت كذلك على أن يعيش حياةً في الإسكندرية تليق بشهرته. توجد مدن يُمكن للمرء فيها إنفاق ثروة، وهناك مدن تسمح له بتكوين ثروة، لكن لا يسع المرء أن يقوم بالأمرين معاً إلا في هذه المدينة العظيمة والنادرة. كانت إسكندرية كليوباترا على هذه الشاكلة. فقد كانت فردوساً للبحث العلمي، وكان نبضها التجاري سريعاً، وهي مكان هادئ لتمضية الإجازات، وحيث ميل اليونانيين إلى التجارة يلتقي هوس المصريين بالضيافة، كما أنها مدينة الصباحات الوردية والمساءات الرمادية، ومدينة التدافع وزحام التناقضات، وكذلك هي المدينة

التي تفوح منها رائحة الفرص الغنية في الأجواء. أما الذين يحبون مشاهدة الناس فكانوا يشعرون بأنهم في أفضل حالاتهم هناك.

احتفل أنطونيو وكليوباترا بلقائهما البهيج بعد مشاركتهما في مأدبة مسرفة، كما احتفل الطرفان كذلك بإقامة نوعٍ من التحالف سمّياه "الكبدين الفريدين". علّق بلوتارك على هذا التحالفَ بالقول: "استضاف عضوا التحالف أحدهما الآخر مداورة كل يوم، كما أسرفا في الإنفاق إلى حدٍّ يتعدى القياس، أو التصديق". وصلتنا نظرة عن قرب لمشهد مطبخ كليوباترا في ذلك الشتاء، وكان ذلك حصيلة صداقة غريبة. وعد أحد الطهاة الملكيين بتهريب صديقه فيلوتاس إلى داخل القصر كي يشاهد التحضيرات التي كانت جارية لأحد العشاءات. دُهش هذا الصديق لما رآه من تحضيرات. كان المطبخ يعج - كما توقع - بالحركة، وتتردد فيه أصوات الصرخات والشتائم التي كانت توجّه إلى الطهاة والنُدُل، وكذلك إلى مقدمي الشراب، وكل ذلك وسط أكوامٍ من السلع. كانت ثمانية عجولٍ تدور حول أسياخها، وكانت مجموعاتٌ من العمال تجول بصخبٍ في المكان. أما فيلوتاس، وهو طالب طبٍّ شاب، فقد تساءل عن حجم هذا الحشد الكبير المتوقع في مأدبة العشاء. لم يسع صديقه إلا أن يضحك لسذاجته، وشرح له أن الأمر على العكس من ذلك، قائلاً إن ما يجري هو في غاية الدقة، ويفتقد إلى الدقة تماماً في الوقت ذاته: "الضيوف ليسوا كثيرين، أي إن عددهم يصل إلى نحو اثني عشر شخصاً، لكن أي شيء يقدّم لهم يجب أن يكون في غاية الكمال، أي إنه إذا تأخر شيء ما لدقيقة واحدة فقط فإنه سوف يُتلف. قال الطاهي الملكي كذلك إنه يُحتمل أن يتناول أنطونيو العشاء في هذا الوقت بالذات، ويُحتمل ألاّ يتناوله في هذه الساعة، أو لربما يطلب الشراب، أو يبدأ بالحديث، وهكذا يؤجّل العشاء. يعني ذلك أنه يتعيّن علينا ترتيب ليس عشاءً واحداً، لكن عشاءات عدة، وهو الأمر الذي يصعب تخمينه في هذه الساعة". تخطى فيلوتاس دهشته

وتابع ملاحظته. أنهى فيلوتاس، بعينيه الواسعتين، دراسته وأصبح طبيباً لامعاً، وهو الذي روى هذه القصة الرائعة لأحد أصدقائه، الذي رواها بدوره لحفيده الذي صودف أنه كان بلوتارك.

كان مارك أنطونيو ضيفاً سخياً بكل الحسابات، وقد قاد في فترة شبابه حملاتٍ عسكرية مع فريق من الموسيقيين والمحظيات والممثلين. قال لنا شيشرون إنه حوّل أحد المنازل السابقة لبومبي إلى قصر للمتعة، كان مليئاً بالحمامات، والراقصين، والمهرجين، وبقيت أذواق أنطونيو ثابتة على مرّ الزمن. أما كليوباترا فقد كان لها ما أرادت. "ليس من السهل فرض التناغم حيث يتواجد تناقض بين المصلحة المادية، وطبيعة الإنسان". لاحظ شيشرون قبل ذلك بسنواتٍ عديدة الفوارق العميقة بين كليوباترا وأنطونيو. وقد بذلت الملكة جهداً كبيراً كي تستضيفه، وذلك بالرغم من وجود مشاكل كثيرة كانت بانتظارها في ذلك الوقت، وهكذا كانت منشغلة طوال الوقت. زار أنطونيو هياكل الإسكندرية الذهبية، وجال على المراكز الرياضية، وشارك في مناقشات الأبحاث، لكنه أظهر اهتماماً قليلاً بالفولكلور المصري، أو بالعلامات العلمية البارزة التي تركتها حضارة متفوقة. كما أنه لم يتمكن من تجاوز زيارة قبر الإسكندر، وهو الرجل الذي يحتفظ له الرومان بتقدير عظيم. قام أنطونيو كذلك بزيارة إلى الصحراء بقصد ممارسة الصيد. يُحتمل أن كليوباترا رافقته في هذه الرحلة، كما أنه من المحتمل أنها كانت تمتطي صهوات الخيول، أو كانت تمتلك خيول سباق أو أنها ترعاها على الأقل. إننا لا نمتلك أي دليل آخر على أن أنطونيو قد غادر مصر السفلى، أو أنه جال على الأماكن الأثرية. لم يكن مثل يوليوس قيصر، أي إنه فضّل السير بين الأروقة المعمّدة التي تتردد فيها الأصوات، وبين تلك المجموعات الرائعة لتماثيل "أبو الهول" الصقيلة، وعبر الشوارع التي حملت أسماء أسلاف حبيبته العظام، وسار كذلك بين المنازل المتقاربة المشيّدة بالحجر الكلسي. كما عمد خلال

سيره إلى إطلاق دعاباته المليئة بالمرح، لكنه وصل بها إلى مستوى فني رفيع. كانت كليوباترا جاهزة طيلة الوقت، وكانت متجاوبة إلى حد أنها ساهمت "ببعض التسلية والسحر المبتكرين واللذين أضفتهما على ساعات الجد والهزل التي كان أنطونيو يمضيها". يمكننا القول إنه إذا كانت أيامها مليئة بالأعمال فإن لياليها كانت أكثر انشغالاً، وذلك بالرغم من أن ضيفها كان يحتاج إلى بعض التوجيه. كان أنطونيو رجلاً خبيراً بالمغامرات الليلية، والنزهات المسرفة، وبالحفلات التنكرية، وهو الذي أقدم في مرات سابقة على تخريب مناسبات زفاف عديدة. لكن كليوباترا لم تدعه يغيب عن ناظريها ولو للحظة واحدة؛ كان ذلك بدوره نوعاً من أنواع السياسة، وذلك لأن مملكتها كانت تستحق هذه المغامرة. قال لنا بلوتارك: "لعبت معه النرد، وتناولت الشراب معه، ومارست معه هواية الصيد، كما شاهدته وهو يمرّن نفسه على الأسلحة. أما في الليل فقد كان يمضي ليجلس أمام أبواب الناس العاديين ونوافذهم كي يتهكّم على الساكنين داخل تلك المنازل، وكانت تصحبه في جولاته هذه وتشاركه في مداعباته. وكان أنطونيو يتنكر خلال هذه الجولات بزي خادم، ويقوم خلال ذلك بجولة، أو جولات، من هذا النوع قبل رجوعه إلى القصر مزهواً بنفسه.

سارت مغامراته بشكلٍ جيد في الإسكندرية، وهي المدينة التي توافقت بكل طريقة من الطرائق مع ميوله، وهي التي فتحت له أبوابها. كانت هذه الجولات ممتعة ومليئة بالترف. كان أنطونيو رجلاً مفتول العضلات ومرحاً، ولم يكن يحب أي شيء أكثر من دفع امرأة إلى الضحك. كان معجباً منذ شبابه بكل شيء إغريقي، حتى إنه كان يتحدث بلهجة آسيوية معقدة، لكنها توحي بقدرٍ أقل من الزهو مما يوحي به الشعر. انتقد أحد الرومانيين بعد وقت طويلٍ الإسكندرانيين على إفراطهم في التهريج، إذ كانوا يمضون في الحركة فور سماعهم نغمة وتر إحدى القيثارات: "يشعر المرء بالمرح وعدم الاكتراث على الدوام، وهو لا يمل من المرح والدعابات والضحكات".

لم يكن ذلك الوضع يشكّل مشكلة بالنسبة إلى أنطونيو، وهو الذي كان يستمتع بهذه التسليات غير المكلفة، وبالموسيقيين الجوّالين في الشوارع، أو على الطرقات المخصصة للسباقات.

حمل أنطونيو بدوره ماضياً مليئاً بالإعجاب، وهو الذي طلب الصفح عندما كان ضابطاً شاباً يعمل على الحدود المصرية. حدث ذلك عندما عاد والد كليوباترا وحكم على جنوده الخونة بالموت. تدخّل أنطونيو في ذلك الوقت كي يضمن العفو عنهم. وقد سبق لأنطونيو كذلك أن عمل على ترتيبات جنازة ملكية لزوج بيرنيس، وذلك بناء على رغبة أوليتس. لم ينسَ الشعب هذه البادرة التي قام بها أنطونيو فرحب به بحرارة عند وصوله، كما شاركوه في القيام بأدواره التنكرية، ولذلك لم يتأثروا بمرحه، ولم يقعوا ضحية حيله. شاركوه في "ألعابه الخشنة" كما فعلت ملكتهم، وتجاوبوا معه في فتراته اللاهية. وأعلن سكان الإسكندرية أنهم ممتنون له كثيراً لأنه يُظهر "الوجه المأساوي مع الرومان، لكنه يُظهر وجهه المرح معهم". تمكن أنطونيو من ترويض الناس بفعالية، وهم الذين استقبلوا قيصر قبل سبع سنواتٍ فقط بالرماح والمصائد، وهو الأمر الذي يدل دلالة واضحة على قبضة كليوباترا الحازمة على السلطة مثل ما يدل على الجاذبية التي يتمتع بها أنطونيو. كان من الأسهل كثيراً التعامل مع أحد الرومان الذين لا يلعبون ورقة التفوق، كما فعل الغربيون من قبل ومنذ ذلك الحين. يُضاف إلى ذلك أن أنطونيو ظهر مرتدياً عباءة يونانية بدلاً من ارتدائه ثوب التوجا الروماني، وكان ينتعل خفاً جلدياً أبيض اللون من ذلك النوع الذي ينتعله كل كاهنٍ مصري. ترك أنطونيو انطباعاً مختلفاً جداً عن ذلك الذي تركه قائده الذي كان يرتدي عباءة حمراء، وهو القائد الذي ما زال تأثيره عالقاً بثقله في الأجواء. عزّز ذلك من جاذبية كليوباترا. أما إذا كان قيصر يشعر مع كليوباترا وكأنه بصحبة الإسكندر الكبير، علماً أنه ما من روماني زحف شرقاً من دون وضع صورة الإسكندر نُصب عينيه، فإن أنطونيو كان يشعر

وكأنه يتحدث إلى قيصر.

قال آبيان إن إقامة أنطونيو كانت محصورة برفقة كليوباترا، "وهو الذي خصّص لها إقامته بالكامل". وقد اعتبر أنطونيو أن تأثير الملكة عليه كان ضئيلاً. كان أنطونيو "يلقي أسلحته - يؤخذ بسحر الملكة - أمام كليوباترا، ويخضع نتيجة تعاويذها، كما كانت تقنعه بالانسحاب من حملاتٍ كبيرة وضرورية سبق له أن عزم عليها مقابل أن يجول ويلعب معها على شاطئ البحر". لكن العكس هو الأكثر احتمالاً، إذ كانت كليوباترا تركّز على ضيفها، وتهتم به اهتماماً شديداً، لكنها فعلت ذلك من دون التضحية بشخصيتها الميّالة إلى المنافسة، أو بميلها إلى المرح، أو ببرنامجها. كان الاثنان يسترخيان في مساءات الإسكندرية قرب النهر، أو في بحيرة مريوط في قارب صيد محاطَين بمرافقين عدة. شعر مارك أنطونيو بالإحباط في هذه الأوقات لأنه اعتاد قيادة جيوشٍ بأكملها، لكنه عجز حينها عن إغراء حتى سمكةٍ واحدة بالخروج من المياه المصرية الغنية والشهيرة بخصوبتها، وشعر بإحراجٍ أكبر بوجود كليوباترا إلى جانبه. كان التواجد قربها، مع الشعور بذلك القدر من العجز، هو العذاب بعينه بغض النظر عما إذا كان ذلك مترافقاً مع مغامرة عاطفية أم لا. فعل أنطونيو ما يفعله أي صيّاد يحترم نفسه: أمر خدمه سراً بالغطس في المياه، وتعليق بعض الأسماك التي تم صيدها سابقاً بصنارته. أخذ بجمع هذه الأسماك الواحدة بعد الأخرى مظهراً بعض الابتهاج الزائد بالفوز، وفعل ذلك تكراراً. كان رجلاً مندفعاً، وهو لذلك يمتلك شيئاً يريد برهنته، لكنه لم يُظهر براعة في الالتزام بحدود معينة. اعتادت كليوباترا ألاّ تفوتها أي حيلة، وهكذا لاحظت هذه الحيلة، ولكنّها تظاهرت بأنها معجبة بأدائه، وأن حبيبها أمهر رجل على وجه الأرض. وعمدت في وقتٍ لاحق من المساء إلى إنشاد مدائحه أمام أصدقائها الذين دعتهم من أجل مشاهدة مهارته بأنفسهم.

انطلق في اليوم التالي أسطولٌ كبير للصيد. وجّهت كليوباترا في

البداية بضعة أوامر سرية من جانبها. أنزل أنطونيو خيوطه فحصل على نتائج فورية. أحسّ بوزنٍ كبير يُثقل خيوطه فحاول انتشال صيده، لكن النتيجة كانت ضحكات مدوية: انتشل من نهر النيل سمكة رنكة مملحة ومستوردة من البحر الأسود. استفادت كليوباترا من هذه الحيلة كي تبرهن أنها تمتلك سرعة البديهة الأكثر تفوقاً، أي إن أنطونيو لم يكن الوحيد الذي شعر بأنه مضطر إلى إثارة الإعجاب، وهي فعلت ذلك من أجل تذكير حبيبها، وبذكاء، وبحزم، وبلطف، بمسؤولياته الكبرى. لم تقصد التأنيب في عملها هذا بعد أن أتقنت تلك المعادلة التي يبحث عنها كل والد، ومدرب، ومدير تنفيذي: إنها تمتلك طموحاً، وهي لا تجد ضيراً في تشجيع الطموح عند الآخرين. قالت كليوباترا محذّرةً أمام مجموعة من الرفاق: "اترك قصبة الصيد لنا أيها القائد. إن صيدك الثمين هو المدن، والممالك، والقارات". كان ذلك مزيجاً من الإطراء، وهو بذلك يتوافق تماماً مع تعريف بلوتارك عندما قال: "لأن توبيخاً كهذا يشبه قرصات امرأة جريئة؛ إنها تدغدغ وتحرّض، وهي تسبب البهجة والألم في الوقت ذاته".

اعتبرت روما أن كليوباترا عاملت أنطونيو تماماً مثل معاملتها لطالب مدرسة، وهو الذي أدار ظهره بعد ذلك لتلك الأشهر المليئة بالبهجة. احتفل أنطونيو بذكرى ميلاده الثالثة والأربعين في الإسكندرية، لكنه ميّز نفسه مع ذلك بالمرح والتسلية الكثيرة، وهو أمرٌ مثيرٌ للعجب لأن التهمة الأساسية التي وجّهها إلى أوكتافيوس كانت بأنه مجرد ولد. (كانت تلك أبرز التُهم التي تخز الرجل الروماني بعمق، وقد أغاظت هذه التهمة أوكتافيوس حيث إنه أصدر قانوناً يمنع أي شخصٍ من الإشارة إليه بهذا الوصف). استقبل أنطونيو مع نهاية ذلك الشتاء وفوداً كثيرة ذكّرته بمسؤولياته العامة، وهي التي كانت كفيلة بتذكيره بها لو أن كليوباترا أخفقت في ذلك، كما تسلّم أنطونيو خبراً من الشرق يفيد بأن البارثيين يتسببون باضطراباتٍ كبيرة. تمكن البارثيون من اجتياح سوريا حيث قتلوا الحاكم الذي عيّنه أنطونيو

حديثاً، كما جاءت أخبارٌ مقلقة من جهة الغرب كذلك. تسببت فولفيا بحدوث اضطرابٍ كبير عندما شنّت حرباً ضد أوكتافيوس بمساعدة شقيق أنطونيو، وكان أحد الأسباب لقيامها بذلك هو إبعاد زوجها عن كليوباترا. لكن الهزيمة لحقت بها فهربت إلى اليونان.

تحرك أنطونيو فعلياً في شهر نيسان - أو قبل ذلك بقليل - زاحفاً براً كي يواجه البارثيين. لم يكن قد توغّل كثيراً في شمال سوريا عندما تسلّم رسالة فولفيا التي لم تترك له خياراً غير التخلي عن هجومه، والتوجه بأسطول حديث مؤلفٍ من مئتي سفينة نحو اليونان. لم يكن أنطونيو يجهل تحركات زوجته تماماً، وهو الذي تسلم مراراً رسائل عنها، وكذلك عن الطرف الآخر. زوّده أحد المبعوثين الذين وصلوا في الشتاء بتفاصيل إضافية عن هذه التحركات، لكنه أظهر اهتماماً قليلاً بما تسلّمه من معلومات، كما لم يكن ميالاً إلى توبيخ زوجته بسبب هجومها على أوكتافيوس. كانت الاضطرابات التي تسببت بها فولفيا تكفي لإبقاء أنطونيو في الإسكندرية مثل ما فعلت كل وسائل الترفيه التي كانت كليوباترا تقدمها. تباطأ أنطونيو بالفعل في البدء بتحركه الذي قام به لاحقاً. لاحظ آبيان وبمرارة الاتصالات الحثيثة والمتكررة التي جرت فقال: "بالرغم من أنني أجريت استقصاءاتي، إلا أنني عجزت عن العثور، بشكلٍ محقق، على الأجوبة التي أعطاها أنطونيو، وعلى المسائل التي ردّ عليها". شعرت فولفيا بأنهما في خطرٍ محدق، وشعرت بالخوف على أولادهما. وقعت فولفيا في غياهب النسيان بعد قرنٍ من الزمان. أعتقد أن الأكثر دقة هو توجيه اللوم إلى أنطونيو الإسكندرية بسبب وقوعه "تحت تأثير عاطفته وثمالته إلى درجة أنه لم يعد يفكر بحلفائه ولا حتّى بأعدائه".

كان اللقاء في اليونان عاصفاً، إذ أظهر أنطونيو قسوةً شديدة مع زوجته، وقال لها إنها تعدت حدودها وإنها استغلت سلطته. اعتبر بلوتارك

أن فولفيا مدينة لكليوباترا، "بسبب تلقينها أنطونيو كيفية تحمّل تأرجح امرأة، وذلك لأنها تسلمته بعد أن أصبح طائعاً تماماً، وتعلّم كيفية إطاعة النساء". يُحتمل أن تكون فولفيا قد تمكنت من تلقين زوجها كيفية إطاعة المرأة، لكنها لم تتمكن من إقناعه بمسألة تحدي أوكتافيوس، ولا بمسألة الطموح إلى ما يتعدى نصف الإمبراطورية، وهي التي حثّته مراراً على التحالف مع سيكستوس ابن بومبي. قالت لزوجها إنهما معاً سيتمكنان من إزاحة أوكتافيوس، لكنه لم يتقبل هذا التوجّه منها، وذلك لأنه عقد معاهدة مع أوكتافيوس، وهو ليس من النوع الذي ينقض معاهداته. (واجه أنطونيو في عرض البحر، وبعد مضي أسابيع قليلة أحد قتلة قيصر. كان ذلك الرجل منفياً، وهو الذي واجه أنطونيو في معركة فيليبي، وكان يتقدم بسرعة في هذا الوقت مع أسطولٍ كامل. اقترح أحد المساعدين المرتعبين أن يتنحى أنطونيو جانباً، لكنّ أنطونيو رفض التفكير في هذه الفكرة رفضاً تاماً، وقال مقسماً: "إنّه يفضّل الموت نتيجة خرقه المعاهدة، بدلاً من أن يُقال إنّه فضّل أن يكون جباناً ليعيش". وهكذا مضى في الإبحار). أراد أنطونيو تسوية الأمور مع أوكتافيوس لذلك غادر من دون توجيه كلمة وداع. وقعت أوكتافيا فريسة المرض عندما غادر، وكان عدد من الاتهامات التي وُجّهت إليها مختلقاً، إذ كان الطعن في النساء من ذوات التفكير المستقل من بعض مشاغل المؤرخين الرومان. امتلكت فولفيا عدداً من الشركاء المتواطئين معها، ويبدو أن أحد مساعدي أنطونيو قد شجّعها على ما قامت به، كما أشار تكراراً، وبخبث، إلى أنه "إذا بقيت إيطاليا تنعم بالسلام فإن أنطونيو سوف يبقى مع كليوباترا، لكن إذا حدثت حرب فإنه سوف يعود من دون تأخير".

توجه أنطونيو بأسطوله الحديث إلى البحر الأدرياتيكي. وشعرت فولفيا نتيجة غيابه باكتئاب حاد وماتت، أما السبب المباشر فبقي غير معروف. يفترض آبيان أنها أقدمت على الانتحار، "لأنها كانت غاضبة

مـن أنطونيـو لأنـه تركهـا في أثناء مرضها". كما يُحتمل كذلك أنها أصيبت بالإجهاد الشـديد نتيجة تدخلاتها المتكررة والمسـتمرة. إننا نعرف أن خبر موتها لم يُثر موجة حزنٍ في الإسكندرية، أما أنطونيو فقد تأثر كثيراً بموتها، وهو الأمر الذي لام نفسه عليه. فهو لم يكلف نفسـه عناء الرجوع لرؤية زوجته في أثناء مرضها. في الوقت عينه، حمّله آخرون المسؤولية كذلك، وأرجعوا سـبب ذلك إلى الإهمال، كما يشير ديو بقوة إلى "عاطفته تجاه كليوباترا وإلى رغباتها". كانت فولفيا جميلة وجادة في تفكيرها ومخلصة، وقد سبق لها أن تزوجت أنطونيو وهي تمتلك المال، والأصدقاء النافذين، والحدس السياسي الدقيق، وقد أنجبت منه ولدين. أما إذا كانت امرأة جريئة فـي الواقـع، أي كمـا كان يُنظـر إليها، فإنها "كانـت على الأقل امرأة جريئة وفي غاية الإخلاص"، وخاصة أن قوة أنطونيو قد تزايدت وهو إلى جانبها.

يُحتمل أن يكون موت فولفيا أكبر عملٍ سلمي قامت به في حياتها، إذ فتح موتها باب المصالحة بين أوكتافيوس وأنطونيو، "وهو الذي تخلّص مـن امـرأة تصادمية سـمحت لغيرتها من كليوباترا بنفـخ نيران حرب رهيبة كهذه". كان من السـهل إرجاع أسـباب نشـوب حربٍ خرقاء ومكلفة في الوقـت عينـه إلـى مكائد امرأة، وهكذا كان من السـهل إرجاع سـبب إلغاء المعاهدة إلى موتها. بقي سيكسـتوس بومبي ناشـطاً في البحر، وهو الذي نجـح فـي قطـع طـرق إمدادات القمـح نحو روما بعد أن أسـفرت الحرب المسـتمرة عـن تدميـر الزراعـة الإيطالية. كانت روما في تلـك الفترة مدينة جائعـة ومنفلتـة بعـد أن وصلـت إلـى حدود تحمّلهـا. كان الريف في حال ثـورة، بينمـا كان الجنـود يعملـون مـن أجـل تحصيل جزء مـن النقود التي كسبها أنطونيو في الخارج، والتي لم يوزّعها بعد. تدخّل الأصدقاء كوسطاء من أجل مصالحة الرجلين مجدداً، فعمدا إلى تقسيم العالم بينهما مجدداً، وهكذا تمكن أوكتافيوس من كسب أشياء أكثر بكثير مما حصل عليه قبل سنتين.

كانـت تلـك معاهـدة بروندیزیوم التي وُقّعت في أوائل شـهر تشـرين الأول مـن العـام 40. قضـت المعاهـدة أن يقاتـل أنطونيـو البارثييـن، بينما تعيّن على أوكتافيوس صدّ سيكستوس بومبي، أو التوصّل إلى اتفاقية معه. تمكّن الرجال الثلاثة في وقتٍ لاحق من توقيع اتفاقية جديدة في ميسينيوم التـي تقـع فـي الجانب الآخر مـن خليج نابولي، والتي تطل على قمة جبل بومبيي. ما إن تم التوصل إلى هاتين الاتفاقيتين حتى بدأ الرجال بالتعانق، و"تصاعـدت الصيحـات العظيمـة من البرّ ومن السـفن فـي اللحظة ذاتها". ردّدت الجبـال أصـداء البهجـة والحبـور. لقـي عدد من الرجـال مصرعهم تحـت الأقـدام خـلال الفوضـى التـي حدثـت قـرب الميـنـاء، بينمـا اختنق آخـرون أو غرقـوا عندمـا "عانق كل واحد منهم الآخر وألقى سـلاحه على عنق رفيقه في أثناء غطسهم". تجنب القادة الصراع المسلّح، وذلك بالرغم من أن الاحتفالات التي استمرت ليلاً ونهاراً في بروندیزیوم أفصحت عن نفسـها بالمسـتوى ذاتـه الذي فعلتـه الاتفاقيتان ذاتهما. احتفل المعسـكران المتقابـلان، وتبـادلا التهانـي خلال يوم وليلـة. (فعل أوكتافيوس ذلك على الطريقة الرومانية، أما أنطونيو فقد احتفل على الطريقة الآسيوية والمصرية، وهو الأمر الذي لم يُثر أي تعليق). فعل الجنود الأمر ذاته في ميسـينيوم، "حيث رست سفن الطرفين جنباً إلى جنب بينما انتشر الحراس في المكان. أما الذين حضروا حفل العشـاء فقد حملوا خناجر أخفوها تحت ثيابهم". لم تختفِ المؤامرات والدسائس تماماً في أثناء هذه الاحتفالات الودية.

أراد أوكتافيوس التقرب شخصياً من الرجلين بعد بروندیزیوم، ولذلك عرض تقديم أخته غير الشقيقة، والعزيزة على قلبه، إلى أنطونيو. كان ذلك أحد المجالات التي تمثّل فيها المرأة الرومانية مكافأة: مثلت هذه الشقيقة ضمانـة شـخصية لا تقـدر بثمن، وعلى الأخـص في ما يتعلق بإتمام صفقة سياسـية. كانـت أوكتافيا، التي تبلغ التاسـعة والعشـرين مـن عمرها، حذرةً

وواعية، وتحمل معاناة طويلة من الحياة السياسية. كانت ذكية لكنها ليست مستقلة، كما أنها تصلح للعب دور الوسيط أكثر من صلاحيتها للعب دور المتآمر. درست أوكتافيا الفلسفة، لكنها لم تمتلك طموحات سياسية. كانت "امرأة مدهشة"، وذات جمالٍ أخّاذ، ورشيقة ذات ملامح جميلة، وشعرٍ رائعٍ وملتمع، وشاءت الصدف أن تترمّل قبل أشهرٍ قليلة. كانت هي المرأة التي يتطلبها الوضع في ذلك الحين، وهي المرأة المؤهلة للعب دورٍ يوازن دور كليوباترا، وهي التي يُقصد عن طريقها تحويل انتباه أنطونيو عن كليوباترا. اعترف أنطونيو بأنه بقي تحت تأثير تلك المرأة البعيدة. قال بلوتارك: "كان قلبه لا يزال يصارع حبّه"، وهو الأمر الذي أدركه رجال أنطونيو جيداً، كما عمدوا إلى إثارة موضوع تلك العلاقة معه من دون أي شفقة. كان القانون يفرض على الأرملة أن تنتظر عشرة أشهرٍ قبل أن تتزوج مجدداً، وذلك تحسباً لإمكانية وضعها أي جنين. تطلعت كلّ الأطراف المعنية إلى أوكتافيا من أجل "استعادة الوئام، وحيث تصبح هي المنقذة"، وهم فعلوا ذلك إلى درجة أن مجلس الشيوخ أقرّ قانوناً استثنائياً بهذا الصدد. انطلقت احتفالات برونديزيوم في روما بنهاية شهر كانون الأول من العام 40، وهناك احتفل أنطونيو وأوكتافيا بزواجهما.

لم تكن روما في حالةٍ تسمح لها بالاحتفال كثيراً، وهي التي كانت جائعة، ومنهوبة، ومنهكة، لكن لا بد من أن هذه الأخبار قد سببت المرارة في الإسكندرية. يُحتمل أن اتفاقيتَي العامين 40 و39 قد فاجأتا كليوباترا، لكن زواج أنطونيو شيء، والتزامه تجاه شقيق زوجته شيء آخر. لم يكن التحالف بين أنطونيو وأوكتافيوس في صالح كليوباترا، لأن أوكتافيوس كان عدوّها اللّدود، كما أنه يمثّل إهانة حيّة وخطرة بالنسبة إلى ابنها. أما من الجهة الأخرى فهي كانت تعرف رَجُلَها، وكانت تعرف أن أنطونيو سوف يعود. لم تكن الملكة بحاجة إلى القيام بأي تحركات لأنه يمكن الاعتماد على البارثيين في هذا. كما يُحتمل أنها شعرت بنوعٍ مستهجنٍ

من الامتنان تجاه البارثيين الذين شغلوا الرومان عن مصر، كما شدّدوا من أهميتها واعتبروا أن أنطونيو بالكاد يستطيع الإيفاء بما التزم به في صفقة برونديزيوم من دونها. امتلكت كليوباترا سبباً وجيهاً للاعتقاد أن المصالحة كانت هشّة للغاية هذا إذا لم تكن فارغة من مضمونها، كما اعتبرت أن أنطونيو وأوكتافيوس يستطيعان التصالح بقدر ما يريدان. أما العداوة، على حد قول فولفيا بشدة قبل أشهر، فهي لن تتلاشى أبداً. يُحتمل أن كليوباترا قد خمّنت وجود الخناجر، لكنها لم تكن مضطرة إلى ذلك، فقد امتلكت مخبرين في معسكر أنطونيو، وهم الذين كانوا ينقلون إليها الأخبار بكل تفاصيلها. كانوا ينقلون أخبار المؤامرات والمؤامرات المضادة، وأخبار المشاجرات والمآدب إلى الإسكندرية أولاً بأول.

بقيت كليوباترا على اتصالٍ مع أنطونيو، وإن كان ذلك قد حدث بشكلٍ غير مباشرٍ على الأقل. أرسلت الملكة موفداً من قِبلها إلى أنطونيو في ذلك الشتاء. كان البارثيون قد اجتاحوا فينيقيا وفلسطين وسوريا، وانتهوا إلى نهب القدس بنهاية تلك السنة. تمكّن هيرودس - وهو التيترارك، أو الأمير اليهودي الذي كان في الثانية والثلاثين من عمره، وكانت روما تعتزم تتويجه ملكاً في السنة التالية - من الهرب بطريقة فظيعة. وضع ذلك الأمير أسرته في قلعة ماسادا، ثم انطلق باحثاً عن مكان يلجأ إليه، لكنه لم يتمكن من العثور على ملجأ على الفور، لأن جيرانه ترددوا في إغضاب المحتلين. عزم هيرودس أخيراً على التوجّه إلى الإسكندرية حيث استقبلته كليوباترا بطريقتها المميزة. كانت الملكة تعرفه أساساً على أنه صديق مقرّب من أنطونيو، وبصفته حاكماً متحالفاً مع الرومان مثلها، لكنها امتلكت سبباً إضافياً للترحيب به: إذ ساعد والد هيرودس البطالسة مرتين في استعادة عرشهم، وهو الذي قدّم إليها المساعدة مرة، وكان سبق له أن ساعد والدها. عمد الأمير في العام 47 شخصياً إلى شنّ هجوم كبير تميز بالمهارة على حدوده الشرقية، كما سعى إلى وقوف يهود مصر إلى جانب

قيصر. كان هيرودس وكليوباترا من أنصار بومبي السابقين، لكنهما تحوّلا لاحقاً إلى تأييد قيصر، كما أنهما كانا يواجهان عدواً مشتركاً؛ أي البارثيين.

يُضاف إلى ذلك أن هيرودس كان جليساً مسلياً، وهادئاً، ورزيناً، لكنه كان متعصباً لولاءاته، وخبيراً في إظهار احترامه. ويبدو أن كليوباترا حاولت الاستفادة من هذا الأمير الجسور إما في مهمة خاصةٍ بها في أثيوبيا، أو مشاركاً لأنطونيو في مهمة في بارثيا. إن العرض الذي قدّمته له كليوباترا لتولي القيادة ليس بالأمر المفاجئ. سبق لضباطٍ يهود أن عملوا طويلاً في صفوف قوات البطالسة، وكان هيرودس مميزاً بينهم بشكلٍ خاص. كان الأمير فارساً خبيراً بإمكانه رمي رمحٍ بدقةٍ تخلو من الخطأ. رفض الأمير ذلك العرض، لكن كليوباترا زوّدته بسفينة في النهاية، وهكذا بدا أنها تعودت على إهداء السفن حيث يمكنه المخاطرة بعبور البحر نحو روما في الشتاء. بدا ذلك نوعاً غريباً من أنواع الضيافة، وهي الضيافة التي أسفرت عن تحطم سفينة هيرودس قبالة ساحل قبرص. (لكنه ظهر في روما بعد أسابيع قليلة فقط، كما لقي ترحيباً حاراً من أوكتافيوس وأنطونيو). يُحتمل، في أسوأ الاحتمالات، أن تكون خطوة كليوباترا هذه تكتيكاً من أجل لفت الأنظار، كما يُحتمل أنها كانت تشعر بالامتنان تجاه عائلة هيرودس، لكن لم تكن لديها مصلحة كبيرة في تشجيع صداقة جارها مع أنطونيو.

إننا لا نمتلك أي فكرة عما فعلته كليوباترا، أو كيف فعلت ذلك، قبل عبور هيرودس البحر المتوسط. أنجبت كليوباترا مع نهاية ذلك العام توأماً، لكن والدهما كان غائباً، ويُحتمل أنه كان يحتفل بزفافه من أوكتافيا في هذا الوقت، أو أنه على وشك أن يفعل ذلك. لم يكن التوأم بحاجة إلى نسبٍ رفيع، ولم تقدّم كليوباترا في تسميتهما أي تنازلات إزاء نسبهما الأبوي. كررت الملكة ما فعلته سابقاً بالنسبة إلى روما، لكنها فعلت ذلك بطريقة أفضل بكثير: أطلقت على ولدَي أنطونيو اسمَي إسكندر هيليوس، وكليوباترا سيلين، وذلك تيمناً بالشمس والقمر، كما فعلت ذلك تيمناً

بخالـة والدهـا - أو والدتهـا - ملكـة البطالسـة الشـهيرة التـي حكمت في القـرن الثانـي، وكانـت أعظم قائدة عسـكرية في زمانهـا، والتي تمكّنت من قهـر قـوى كثيـرة ومن بينهـا البارثيون، وهي الوحيدة مـن بين الملوك التي حافظت على علاقاتها مع غيرها من الحكام. يُحتمل أنه بإمكاننا القول إن كليوباتـرا، وبالنظـر إلى طريقة تجميعها للورثة، قد جهدت لتوحيد الشـرق والغرب بقدرٍ أكبر مما فعله أي شـخص آخر منذ زمن الإسـكندر الكبير. ظهرت الشمس والقمر كثيراً في ألقاب ملك البارثيين، ويُحتمل أنها كانت تبعث إليه برسالة تقول فيها إنه ما من طريقة أفضل لإطلاق عصرٍ ذهبي من السّيد الشمس. إننا لا نعرف شيئاً عن ردّ فعل أنطونيو على تلكَ الأخبار، لكننا نعرف أن ردّ فعل أوكتافيوس كان أكثر إثارة. حرصت كليوباترا على التقريـب بيـن الرجليـن مجدداً بواسـطة ولديهـا، وإن كانت قد فعلت ذلك بطريقة غير مباشرة.

لـم تكـن الملكـة مضطـرة إلى إذاعة خبـر هذه الـولادة المثيرة. كان خبر إنجاب ملكة مصر القوية لصبي أسـمته إسـكندر - والذي كان مارك أنطونيو والده، وكان الأخ غير الشقيق لابن قيصر - خبراً رئيساً في العام 39 ق.م. إلى حد أن كليوباترا أصبحت هدفاً للشائعات في العالم أجمع. إننا نستخدم هذا التعبير مع أنه شاع بعد فترة طويلة جداً.

عاشت كليوباترا من العام 40 وحتى عام 37 حياةً شبيهة بالمسرحيات الإغريقيـة حيـث كانـت المآسـي تحـدث خـارج المسـرح. كانـت التقارير تصلهـا مـن البعيـد، وكانت الملكـة تحلّلها بدقة. تنفس العالم المتوسـطي الصعـداء مـع التوصـل إلـى معاهـدة برونديزيوم، مع أن هـذه المعاهدة لم تُعجب المصريين. كان زواج أنطونيو حلاً مثيراً للشعب الروماني المنهك والمستنزَف. لقـي أنطونيـو وأوكتافيوس فـي أنحاء إيطاليا "ثنـاءً أوصلهما إلى أعالي المجد لأنهما نشـرا السـلام: تخلّص الرجال من خطر الحرب

فـي بلادهـم، وتخلصـوا كذلك من تجنيد أبنائهم، كما تخلص الشـعب من العنف الـذي يجـري في المراكز الأمامية، ومن هروب العبيد، كما تخلّص من ظاهرة نهب الأراضي الزراعية، وكذلك من انقطاع الأنشـطة الزراعية، كما تخلص من المجاعة التي أوصلته إلى آخر حدود تحمله". قام الناس فـي الأريـاف بتقديـم القرابيـن إلى "الأسـياد المنقذين"، وهـو الدور الذي تبنّاه أنطونيو وأوكتافيوس. أقيمت التماثيل تمجيداً للسلام، وضُربت النقود باسميهما. ترافقت الأحلام الكئيبة والتوقعات المثيرة مع تلك الاحتفالات. أطـل، وعلـى نحـوٍ مفاجئ عهد وردي جديد مـن الأخوّة والازدهار. كتب فرجيل في هذا الوقت القصيدة الرابعة المنمقة، ويُحتمل أنه كتبها بمناسبة زفـاف أنطونيـو وأوكتافيـا، لكن من المؤكد أنه كتبها استبشـاراً بعصرٍ ذهبي جديـد. علّـق الشـاعر آمـالاً متفائلـة - نصرانية - على طفـلٍ لم يولد بعد، وهو الذي سيبشّر بفجرٍ جديد، والذي سيحكم عالماً من التقوى، والسلام، والوفرة.

كان على العالم أن ينتظر فترة أطول بقليل قبل تحقّق هذه التوقعات الواعـدة. أنجبـت أوكتافيـا في ربيع العام 38، فوضعت بنتاً بدلاً من الصبي الـذي بشّـرت بـه التوقعات. تابـع البارثيون في ذلك الحيـن تقدمهم غرباً، وكانـوا مرتاحيـن للاسـتفادة من مشـاغل رومـا الداخلية. راقبـت كليوباترا الغـزاة بـكل حـذر، وذلـك بعد أن اقتربوا من حدودها، وهم الذين صمّموا علـى التوسـع، وعلـى الأخص لأن إمبراطورية أسـلافهم من الفرس كانت تشـمل مصـر. أوفـد أنطونيـو قائـداً موثوقـاً به كـي يشـاغل البارثيين، وقد نجـح هـذا القائـد فـي مهمته نجاحـاً رائعاً إلى درجة إثـارة انزعاج أنطونيو نفسه، وذلك لأنه حصد كل المجد الذي يصبو إليه قائده. عادت في هذا الوقت الاضطرابات إلى روما بعد تحرك سـكانها الجائعين، ووصلت إلى حدّ محاصرة السـكان الهائجين أوكتافيوس في الفوروم، ثم وبّخوه بسـبب تبديده المال العام. حاول أوكتافيوس شرح موقفه، لكنه قوبل برميه بحجارة

الشوارع. استمرت عملية قذفه بالحجارة إلى ما بعد بداية نزيف الدماء منه. تدخل أنطونيو في هذا الوقت من أجل تنفيذ عملية إنقاذ أوكتافيوس وانتشاله من بين أيدي الجمهور الغاضب، وقد نفذ أنطونيو هذه العملية مع بعض الصعوبة، ووسط الصرخات والصيحات من جانب المهاجمين، وتمكّن أخيراً من إنقاذ رفيقه في التحالف الثلاثي ومرافقته إلى منزله. كانت تلك زيارة تختلف كثيراً عن لقائهما الأول فيه.

لم يبرهن شقيق زوجة أنطونيو، في مجالات أخرى، على أنه شريك متعاون؛ وهو الأمر الذي سبق لفولفيا أن حذّرته منه، كما أن كليوباترا فعلت الأمر ذاته. بالرغم من ذلك، خيّمت روح ودية على العلاقة بين الرجلين، كما تُرجمت إلى عبارات لطيفة وتصرفات على أفضل ما يكون عليه الأمر. كان مارك أنطونيو، بطل الحروب، وصاحب أرفع منصبٍ في الدولة، وصاحب الشعبية الأعلى، إلا أنه شعر بأن شقيق زوجته عنيد وضعيف. امتلك أنطونيو سبباً كافياً كي يُدهش من مجرد قدرة أوكتافيوس على البقاء في مسرح الأحداث. وصل أوكتافيوس مرات عديدة إلى حافة الموت، كما استمر بالسعال، والعطس، وكان معرّضاً لضربات الشمس، وهكذا كان محارباً متردداً، وبالكاد يصلح لأن يكون نظيراً لمارك أنطونيو بصدره العريض وفخذيه القويتين. كان أوكتافيوس كئيباً، ومذعوراً، وصعب المراس، وقد وضع في كعبَي حذائه طبقات إضافية. تمكّن الرجل مع ذلك من إدهاش أنطونيو الذي كان ضحية ثقته الزائدة بنفسه، وكان يتصرف من منطلق ما كان يعتبره مركزه الرفيع، وهكذا كثيراً ما كان يقع فريسة التلاعب. وجد أنطونيو نفسه في منافسة لم يستعد لها مع "ولدٍ طائش" ظهر من مكانٍ ما، وهو الذي افتقد إلى مكرٍ كان يجهله عادةً. كما افتقد أوكتافيوس إلى الجاذبية كلياً، إذ كان من ذلك النوع الذي يلجأ لاحقاً إلى التفاخر بعدد الانتصارات التي سنحت أمامه لكنه لم يحتفل بها، وهو الأمر الذي يعادل الزهو بشأن تواضعه. أما أنطونيو فهو، في المقابل، لا يتردد

ولو للحظة في رفض مظاهر الشرف تلك، وهو نفسه كان يعترف بذلك.

تمكن أوكتافيوس من التفوق على منافسه الذي يكبره سناً حتى في تلك الألعاب العادية التي تتطلب المهارة والحظ. كانا إذا تراهنا على صراع الديكة، أو على لعبة الورق، أو عندما يتركان للحظ تقرير الأمور السياسية، أو إذا تبادلا الكرة في ما بينهما، فإن مارك أنطونيو يخرج منهزماً. (يسهل علينا معرفة السبب: يتمكن أوكتافيوس من تحويل كل ما يحدث لصالحه. أما إذا خسر مبالغ كبيرة فكان يعلّل ذلك بأنه "تصرّف بروح رياضية مفرطة"). وضعت كليوباترا ضالعاً إلى جانب أنطونيو، وكان كثيرون في روما يعتقدون أن الضالع يستطيع توقّع مسار حرفة الإنسان بالدقة ذاتها التي يستطيع فيها توقّع الكسوف الشمسي. تحدّث أنطونيو عن إحباطاته إلى الضالع الذي شرح له طالعه. عرض الضالع تقديم التحليل الصريح، إما لأنه يقول الحقيقة أو لأنه يريد قول الحقيقة التي تناسب من استخدمه. أما فرص أنطونيو فكانت رائعة، لكن كان من المقدّر لها أن تخبو أمام فرص أوكتافيوس. شرح الضالع أن حظ أنطونيو يعيش وسط الخوف من زملائه، "وبالرغم من أنه يمتلك كياناً روحياً سامياً عندما يكون وحده، إلا أنه عند اقتراب حظه منك فإن حظك يتراجع ويشعر بالضعة بسببه". نصحه الضالع أن يبتعد عن زميله. كان التفسير منطقياً بالنسبة إلى أنطونيو، وهو ما دفعه إلى النظر إلى الضالع بعين التقدير، كما أنه أصبح يتصرّف بحذر مستجدٍ إزاء شقيق زوجته. قدّم الضالع ما بدا أنه دعوة مستترة للذهاب إلى الإسكندرية حين نصح أنطونيو، "بالحفاظ على ما أمكنه من مسافة بينه وبين ذلك الشاب".

وصل أنطونيو إلى أثينا حيث أمضى فصل الشتاء، وجعل المدينة مقراً رسمياً له للسنتين التاليتين، فأمضى فيها شتاء العام 39 كما أمضى الشتاء السابق، أي في مدينة مريحة وحضارية مليئة بالهندسة الغنية والتماثيل الرائعة. ترك نواباً له في المدينة، لكنه لم يفعل أكثر من تفحّص

تقاريرهـم. كمـا صرف أنطونيو مرافقيـه، وأجرى جولات من المحاضرات والمهرجانات برفقة عددٍ قليلٍ من الأصدقاء والخدم، أو حتى مع أوكتافيا، وهي التي بدا معها في غاية السعادة. وعمد مجدداً إلى استبدال عباءة القائد الأرجوانية بزيٍّ شـرقي، وعاد إلى تقديم نفسـه مجدداً بوصفه ديونيسـوس، وهـو أحـب لقب لديه، وسـمح لأوكتافيا، وهـي التي لم تتأخر عن إنجاب ابنـة ثانيـة لـه، بأن تُنادى على أنها أثينا. إننا نعرف كيفية اسـتقبال كليوباترا لـكل تفصيـلٍ مـن هـذه الأنباء في الإسـكندرية، وهي التـي كانت تجمعها أولاً بـأول. كانـت هـذه الأخبار مقلقة وعلى الأخص لأنها لامسـت حدود التبجيـل والألقـاب الملكيـة. ما هو الفرق الذي يُحدثه تغيير لقب المناداة، أو حتـى تغييـر الـزوج؟ لـن يتجرأ أي روماني في العام 39 على انتقاد فترة الاسـترخاء الشـتوية التـي أمضاهـا أنطونيو في العـام 39، إذ ارتدى الأزياء اليونانيـة فـي أثينـا، وكان يلهـو مثل أي رجـلٍ يوناني، لكنه كان يفعل ذلك أمام العينين الحريصتين لأوكتافيا المستقيمة. يُضاف إلى ذلك أنه كان من الصعـب انتقـاد ادعائـه التبجيـل في حين أن أوكتافيـوس لجأ إلى التصرف ذاتـه. أقـدم أنطونيـو علـى الدعوة إلى حفلة تنكرية حيـث لبس زيّ أبولو، وأقدم كذلك على بناء كوخٍ من أغصان الشجر، وزيّنه بالطبول والدفوف، والنباتـات الخضـراء، وجلود الحيوانات، وكذلك بأغراض أخرى ترمز إلى ديونيسـوس، ثـم "مكـث داخـل الكوخ مـع أصدقائه بدءاً مـن الفجر، وبدأ بالشـرب". اسـتدعى أنطونيـو موسـيقيين مـن إيطاليـا للترفيـه عنه في مكان إقامتـه الـذي يقـع على سـفح تلة، وكان يعمد فـي بعض الأوقات إلى نقل خيمتـه إلـى الأكروبـول، "وهكـذا مـلأت الأضـواء مدينة أثينـا بأكملها من المصابيح المعلقة في سقوفها".

بقي أنطونيو على حيرته بسبب قدرة شقيق زوجته على السيطرة على الأحاديـث التـي يجريهـا. تمكّن أوكتافيـوس في العام 38 من التخلّص من زواجه في اليوم الذي وضعت فيه زوجته طفلها، وذلك بالرغم من تمتّعه

بصيتٍ واسع من الاستقامة الشديدة. لم يضيّع أوكتافيوس وقتاً قبل أن يتزوج ليفيا، وهي التي مضى على حملها من زوجها الأول ستة أشهر. وقد حمل هذا الزواج أوكتافيوس إلى المراكز الأولى في المجتمع الروماني، وهذا ما جعله نداً لأنطونيو. (لم يكن نسب أوكتافيوس نبيلاً بالرغم من قرابته مع قيصر). تمكن أوكتافيوس مراراً من تقييد صهره وإرباكه، وكان إذا وعده بشيء يعمد إلى تنفيذ شيء آخر. كما كان إذا توجّه أنطونيو شرقاً يستدعيه نحو الغرب، ولا يلبث أن يختفي. سمح أوكتافيوس كذلك بتجنيد رجال فوق التراب الإيطالي، وهو الأمر شبه المستحيل لأن أوكتافيوس هو الذي يحكم تلك المنطقة. كان ذلك الوضع يحمل توازناً دقيقاً، لكنه الوضع الذي أصرّ أنطونيو على المحافظة عليه، فابتلع كبرياءه وأخفى انزعاجه، وحتى صبره الذي وصل إلى آخر حدوده.

وصلت الأمور أخيراً إلى خواتيمها في وقتٍ متأخر من ربيع العام 37، وذلك حين التقى الرجلان بمحاذاة ضفة نهر يقع جنوب شبه الجزيرة الإيطالية، وذلك بهدف إزالة فتراتٍ من التوتر بينهما. ساعدت أوكتافيا على إعادة الوئام بينهما، وألقت عليهما ما يشبه خطاب هيلين طروادة الحماسي. كان آخر شيء ترغب في رؤيته هو رؤية زوجها وشقيقها يدمّران بعضهما بعضاً. كانت نتيجة ذلك اللقاء حلف تارينتوم. تلقى أنطونيو اعترافاً بأنه ديكتاتور في الشرق حتى شهر كانون الأول من العام 33، فخرج راضياً من ذلك اللقاء، حتى إن ديو قال: "كان كل شيء تقريباً يجري كما أراد". حضّر أنطونيو جيداً لحملته وتوجّه شرقاً نحو سوريا. ورافقته أوكتافيا وابنتاه حتى غرب اليونان حيث أمرهنّ بالرجوع. كانت أوكتافيا حاملاً مجدداً ولذلك قال لها معترضاً إن سفرها لمسافةٍ أبعد سيضرّ بصحتها. وصل عدد الأولاد الذين تعيّن على أوكتافيا رعايتهم إلى ستة، بمن فيهم أولادها من زواجٍ سابق. قال لها إنه حريص على "ألاّ تشاطره المخاطر في أثناء قتاله ضد البارثيين"، وكان ذلك صحيحاً تماماً.

إذا كان أوكتافيوس سيّد التمويه، وهو القادر على الظهور بمظهر المتعاون في حين أنه لا يفعل شيئاً للمساعدة، فإن أنطونيو كان فنان التغيّر السريع، وهو الذي يحب التغيّرات المثيرة. كان ذلك الرجل المتسكّع في أثينا، وهو الذي حضر الحفلات برفقة أوكتافيا، وإن كان قد فعل ذلك بتردد، هذا في وقتٍ كان يُهمل فيه الشأن العام، لكنه سرعان ما أعاد ترتيب خزانته، وعاد إلى ذلك الرجل العسكري ذي الذهن الثاقب، والذي يقف على أهبة الاستعداد. تحوّل إلى إعصار من النشاط والحركات الدبلوماسية، وإلى مركز الجذب في الموكب. تغيّر شيء ما في الأشهر الأخيرة من العام 37. يُحتمل أن تلك اللائحة الطويلة من الإهانات، وخيبات الأمل، والمراوغات قد زادت فجأة، ويُحتمل كذلك أنه لم يعد يتحمل مزيداً من الإحباطات. إنه يعرف أنه جندي، وأن حملته تعرضت للتأجيل مرة بعد أخرى. عرف أنطونيو أن نائبه العسكري تمكّن من حصد سلسلة من الانتصارات في الشرق، وهي الانتصارات التي يجب أن تكون من حقّه هو، ويُحتمل أن يكون أنطونيو قد أدرك أن زوجته وشقيقها يعيقان تحركاته، وأنه وقع ضحية التلاعب، وأدرك أخيراً أن التعاون أصبح أقل احتمالاً. واقتنع بأن أفضل طريقة تسمح له بأن تكون له اليد العليا داخل الوطن هي أن يحرز نصراً عسكرياً كاسحاً في الخارج. كان سحقُ البارثيين يستدعي تصفية أوكتافيوس، ولا شك في أن ذلك ما هو إلا حسابات غريبة، وهي حسابات لم تختلف كلياً عن حسابات أوليتس في روما قبل عقدين من الزمن.

قدم لنا بلوتارك تفسيراً مختلفاً لذلك التحوّل الذي حدث في العام 37، إذ اعترف بوجود الهوس لدى أنطونيو تجاه البارثيين، لكنه أشار كذلك إلى "الشر المريع الذي بقي متربصاً لوقتٍ طويل". افترض أصدقاء أنطونيو أنه تخلى عن هدفه بعد ثلاث سنوات ونصف من الإصرار عليه، وذلك بفضل جاذبية أوكتافيا، أو على الأقل، "وُضع الهدف جانباً بفعل اعتبارات

أخرى". قال بلوتارك إن الرغبة قد التهبت مجدداً بطريقة مفاجئة، وكانت تلتهـب أكثـر مـع تقـدم أنطونيو نحو الشـرق، وهناك عادت إلـى الالتهاب مـن جديـد وتفجـرت بقوةٍ أكثر. أراد بلوتارك أن يكون التاريخ الذي يكتبه صحيحـاً، لكـن يتعيّـن علينا أن نتذكر أنه جعل من حياة أنطونيو قصة ذات مغزى. إن أنطونيو الذي يُظهره لنا بلوتارك هو ذلك الرجل الموهوب الذي أدّت بـه طموحاتـه إلـى الهـلاك. يُحتمل أن يكون المغـزى أكثر أهمية من التفاصيـل. علـى أيّ حـال، وصـل أنطونيو إلى سـوريا بأمـان، لكنه تحدى حدسه السليم والنصائح الهادئة، فأرسل موفداً إلى الإسكندرية إذ أراد أن تلتقيـه كليوباتـرا فـي أنطاكيا، وهي ثالث أعظم مدينة في منطقة المتوسـط. أبحرت كليوباترا هذه المرة بأسرع ما يمكنها، ولم يمضِ وقت طويل بعد وصـول الاثنيـن إلى العاصمة السـورية حتى انتشـرت النقـود المعدنية التي تحمل صورتَي أنطونيو وكليوباترا. لا يمكننا الجزم من هو صاحب الرسم الذي أريد له أن يكون الأساس في العملة وأيهما كان البديل. كان ذلك، باختصار، هو اللغز الذي مثّلته السنوات السبع التالية؛ ولم يرَ أنطونيو وجه أوكتافيا مرة ثانية.

الفصل السابع

مادة شائعات للعالم أجمع

"إن أعظم إنجاز للمرأة هو ندرة ما يتحدث عنها الناس به".

ثيوسيديدس



لـم تكـن بحاجـة هذه المرة إلى الانشـغال بعـرض أزيائها الرائعة، إذ علمت كليوباترا قبل أن تشرع بالإبحار في ذلك الخريف أن مارك أنطونيو كان يتوجه شرقاً بهدف تسوية حسابات روما مع بارثيا، وهي الحملة التي استمر بتأجيلها منذ أربع سنوات. وقد سبق للملكة أن علمت بتصميمه هذا منذ ذلك الشتاء الصاخب الذي أمضياه معاً، كما سمعت من قيصر بعض تفاصيل الخطط الأصلية لتلك الحملة. عمد أنطونيو في أثناء مسيره نحو أنطاكيـا إلـى إعادة تنظيم آسـيا الصغرى، وأسّـس ممالـك للّذين وثق بهم، أو الذيـن قدّمـوا لـه الدعـم، كما تمكـن من تعزيز اسـتقرار الحدود، وكان من الضروري بالنسـبة إليه أن يدعّم مؤخر جيشـه قبل التقدّم شـرقاً. أقدم أنطونيـو وأوكتافيـوس علـى تثبيت هيرودس ملكاً - على اليهودية - عندما ظهر في روما في ذلك الشـتاء. تحدّر هيرودس من منشـأ أدومي وعربي، لذلك لم يكن المرشّـح المناسـب لتولي عرش اليهودية، لكن عزيمته هي التي ضمنت له العرش أكثر من نسـبه، فتمكّن من تبرير ولائه غير المقنع لكاسـيوس، ولذلك يُمكن أن يُقال عن هيرودس إنّه تسـلّل إلى السـلطة. كان أنطونيو يعرف والده الذي كان صديقاً لروما بدوره، كما سـبق له أن التقـى هيـرودس عندمـا كان مراهقاً. يُمكننا القول هنا إنّ الوئام الشـخصي

لعب دوراً كبيراً في هذا المجال.

كان هيرودس انتهازياً وفظاً ومتهوراً بشكل يلفت الأنظار، كما كان ماهراً في عملية فرارٍ بدت مستحيلة. وتشير الدلائل المتوافرة إلى تمتعه بحظوةٍ خاصة في روما، من جانب أوكتافيوس وكذلك من جانب أنطونيو. لم يكن من المصادفة أن يكون هيرودس مغامراً جسوراً عندما يتعلق الأمر بجمع الأموال، كما أنه ماهر في رمي الرّماح. امتلك الرجل موهبة مدهشة مكّنته من جمع الذهب من لا شيء. (كان رعاياه يعرفون بعض أساليبه هذه). صدّق مجلس الشيوخ بالإجماع على تثبيته ملكاً على اليهودية، وبعد ذلك عمد أوكتافيوس وأنطونيو على مرافقة هيرودس إلى الكابيتول، وهي دلالة على التكريم. تقدم الموكب القناصل وكبار القضاة. قال أنطونيو إن هذا التعيين سيكون مفيداً في الحملة الشرقية، وأقام بعد ذلك مأدبة غداء على شرف الملك الجديد. ورد في بعض الروايات أن هيرودس يدين بعرشه، وعلى نحوٍ مماثل، إلى كليوباترا. كان أعضاء مجلس الشيوخ يتصرفون بدافع الخشية منها، مثل ما كانوا يتصرفون بدافع الإعجاب به. كما كان يفضّل وجود ملكين في المنطقة بدلاً من ملكٍ واحد، وكان لديه سبب كافٍ يدعوه إلى الحذر من ملكة تابعة تحكم مملكة غنية، وتتحكم بصادرات القمح المتجهة من بلادها إلى روما.

عملت هذه الحسابات المنطقية لصالح كليوباترا، ولم يكن باستطاعة أنطونيو المخاطرة بتحمل أي حركات تمرد في مصر، لأن كليوباترا وحدها كانت مؤهلة لحكم تلك المملكة بحزم. وكان من الواضح أن قلائل هم الذين يتمكنون من حكم البلاد بطريقة أفضل. غادرت الملكة الإسكندرية كما اعتادت أن تفعل في الماضي مع علمها أن أي روماني لن يتمكن من إلحاق الهزيمة ببارثيا - وهي المملكة الغنية، والمتفوقة، والمحمية جيداً - من دون الاستعانة بمواردها المالية. يعني ذلك أنها كانت تدرك في أثناء إبحارها شمالاً بمحاذاة الشاطئ الشرقي للمتوسط المليء بالصخور

أن ميزان القوة قد تحوّل قليلاً. كانت هي التي تمتلك الكلمة الفصل بالرغم من الشجاعة التي يمتلكها أنطونيو، وبالرغم من جيشه الهائل. لم تتغيّر مظاهر الغرور كثيراً خلال السنوات الألفين الأخيرة، ولهذا يمكننا أن نفترض أنها بذلت مع مرافقيها جهوداً مضنية للحفاظ على مظهرها. مضت ثلاثة أعوام ونصف على رؤيتها لمارك أنطونيو، وهي السنوات التي ترغب أي امرأة في محو آثارها التي تتركها على جمالها. سمعت الملكة عن أوكتافيا، تلك المرأة مستديرة الوجه، وصاحبة الشعر الجميل الملتمع. لم يكن هناك من داعٍ هذه المرة للعباءات الفخمة، والهدايا المرصّعة بالجواهر، ولا للورود الّتي تملأ أرض الغرفة. لقد امتلكت كليوباترا شيئاً أفضل إذ اصطحبت معها ولديها.

التقى ألكسندر هيليوس وكليوباترا سيلين والدهما للمرة الأولى في أنطاكيا، وهي نسخة أقل تحرراً عن الإسكندرية. اعترف أنطونيو بولديه، لذلك لا يمكن أن يكون ذلك اللقاء إلا اجتماعاً مليئاً بالبهجة. كان أنطونيو يتظاهر بالهلينستية، وعلى الأخص عندما أقحم نفسه في سلالة البطالسة، كما أن ولديه أصبحا مؤهلَين لوراثة عرش مصر. يُضاف إلى ذلك أنه اكتسب ابناً جديداً، وهو الأمر الذي عجزت أوكتافيا عن منحه إياه مع أنها مثال التفوق في كل المجالات الأخرى. (كان لأنطونيو ابنان أكبر سناً أنجبهما من فولفيا). ذهب بعض الناس إلى حد اعتبار أن فشلها في إنجاب وريث ذكر - وهو الأمر الذي يحقق توقّع فرجيل، ويبشر بالتالي بقدوم العصر الذهبي الذي طال انتظاره - هو الذي دفع أنطونيو إلى ذراعي كليوباترا. كان أنطونيو يحب الأولاد عموماً، لكنه كان يعتقد أنه من المستحيل على المرء إنجاب أولاد كثر، كما كان يحبّ ترديد قول: "تتوسع العائلات النبيلة عن طريق إنجاب ملوك كُثُر". لم يكن أنطونيو من ذلك النوع من الرجال الذين يمكنهم مقاومة ولد صغير يبلغ الثالثة من عمره، ويتكلم اليونانية ويرتدي ثياب الأمراء، وهو الذي نادى أنطونيو على

أنه أبوه، والذي يشبهه كثيراً بوجهه الممتلئ وبخصلات شعره المتراقصة، هذا إذا كان لنا أن نثق بتمثاله. بقيت مسألة تأسيس أسرة مبجلة على رأس برنامج أنطونيو لسنوات عديدة، فتحرّك في ذلك السبيل منذ معركة فيليبي، وسار في ذلك على نهج قائده الشهير، فتمكّن بواسطة ولديه غير الشرعيَين من إقحام نفسه بطريقة شرعية مكان سلفه، أو من "انتعال خفّ سلفه" على حد قول أحد المؤرخين حديثاً. كان من المناسب جداً أن يفعل هذا في أنطاكيا، وهي مدينة جميلة تقع على ضفّة نهر غزير المياه، وترتاح في أسفل سفح جبلٍ مهيب، وتتميّز بشبكة طرق ذات أعمدة، وبعددٍ كبير من المدرجات والحدائق، وببرك كبيرة، وبينابيع طبيعيّة. كانت أنطاكيا مشمسة ورياحها ساكنة في الشتاء، لكن النسائم الغربية التي تهب من شهر أيار وحتى تشرين الأول زادت من روعة حمّاماتها، ومن نشاط سوقها. كما كانت ميالة نحو قيصر الذي بنى لنفسه تمثالاً فيها بعد تركه كليوباترا في العام 47، لكن هذه العاصمة السورية رحبت بالملكة الشهيرة بحرارة.

امتلكت كليوباترا كل الدوافع الشخصية للاستمتاع بإعادة جمع شمل العائلة الذي تأخر كثيراً، لكن المفاجآت السياسية كانت أكبر بكثير. تقبّل أنطونيو نصيحتها بالنسبة إلى الصيد، فانصرف إلى القيام بما شعرت - أو بما دفعته لأن يعتقد بأنها تشعر به لأسباب خاصة بها - بأنه العمل الذي يصلح له أكثر من أي شيء آخر، فكرّس أنطونيو نفسه لهواية قيّمة؛ كان يجمع "المدن، والمقاطعات، والممالك". إننا لا نجانب الصواب عندما نقول إن "الممالك والجزر كانت مثل القطع المعدنية التي تتساقط من جيبه"، على حد ما ظهر لاحقاً. كان هناك منطق قوي وراء سلوك أنطونيو. انهمك ذلك القائد بمهمة ترتيب الشرق المتململ، وهي عملية طال انتظارها بعد أن جرت محاولات كثيرة في هذا الشأن. تمكّن أنطونيو - في هذه المنطقة متعددة الأعراق والثقافات والتي تتغيّر فيها الولاءات كثيراً، وهي التي قاومت محاولات الرومان على مدى ثلاثين سنة لإعادة

تنظيمها - من ملاحظة وجود المواهب، كما كافأ أصحاب الكفاءات والولاء، وقد أحبّ القول: "لم تظهر عظمة الإمبراطورية الرومانية بالأمور التي تلقاها الرومان، لكنها ظهرت بالأشياء التي منحوها". تمكّن أنطونيو، وبمهارة لافتة، من تدعيم ممالك عدة، ودمج مقاطعات كثيرة، ومنح أراضٍ واسعة. وبعبارة أخرى، تمكّن من إعادة رسم الجغرافيا.

كان أنطونيو يتحرك في مجاله، وكان منيعاً إلى حدٍّ كبير. لم يشك أحدٌ بنصره الوشيك على البارثيين المخيفين، كما لم يسبق لأحد، إلا نادراً، أن جمع "جيشاً أكثر ميلاً إلى لفت الانتباه، وأكثر قدرةً على التحمل، أو يضج أكثر بحيوية الشباب". جعل أنطونيو "آسيا بأكملها تهتز"، إذ تمكّن من جمع أعظم قوة يمكنه جمعها تحت سيطرته، وهي القوة التي كرّس كل أفرادها أنفسهم لقائدهم المتفهم إياهم، والذي يمتلك إرادةً حرة. فضّل كل واحد من هؤلاء الرجال تنفيذ رأيه الصائب في مجريات حياتهم كافة، وهو أمر وليد الإخلاص. تحدّث بلوتارك عن "نبالة أسرته، وعن فصاحته، وإخلاصه، وانفتاحه على الآخرين، وكذلك عن عاداته المتحررة والعظيمة، وعن تمكّنه من التحدث إلى الجميع". كان مزاج أنطونيو معدياً، وهكذا ارتفعت معنويات الجنود؛ كان إعطاء الهدايا أمراً يرفع المعنويات على الدوام، أما سخاؤه فكان الأمر الذي تخصّص به بشكلٍ مميز، وكان ميله إلى العائلات الكبيرة أمراً بديهياً. مكث الاثنان في أنطاكيا المشمسة، وذلك في قصر الجزيرة الذي يقع في كنف منعطف ذلك النهر الهادئ. امتلكت كليوباترا سبباً لتهنئة نفسها، وللاعتقاد أنها امتطت صهوة الحصان الرابح بعد خمس سنوات من الفوضى والتشوّش.

قدم لها أنطونيو هدية استثنائية بعد وصولها في أواخر شهر أيار؛ فهو لم يكتفِ بالاعتراف بتوأمه البالغ من العمر ثلاث سنوات، لكنه أغدق على والدتهما مجموعة من المقاطعات الشاسعة، وثبّت سلطتها على جزيرة قبرص علماً أن قيصر ذاته لم يفعل ذلك بشكلٍ رسمي. أما الذكرى التي

نتجت عن خسارتها، ومفاعيل تلك الخسارة الجسيمة، فقد تلاشت بالكامل. كما أضاف إلى البلدان التي تسيطر عليها كليوباترا سوريا الداخلية (جزء من لبنان اليوم)، وكيرينيا (ليبيا الحديثة)، ومساحة سخية من قيليقيا (الساحل الشرقي لتركيا)، وهي الغنية بأشجار الأرز، وأقساماً من جزيرة كريت، وجميع المدن الواقعة على الساحل الفينيقي عدا اثنتين منها. عمد أنطونيو في حالات عدة إلى إقصاء ملوك لسببٍ وجيه، أو لسببٍ مزيف، وذلك كي تتمكن كليوباترا من الاستيلاء على أراضيهم. وبذلك حكمت كليوباترا منذ العام 37 الساحل المتوسطي الشرقي بأكمله تقريباً، بدءاً ممّا هي الآن منطقة شرق ليبيا في أفريقيا، ومروراً بفلسطين، ولبنان، وسوريا، وصولاً إلى جنوب تركيا، وذلك مع استثناء أقسام من مملكة اليهود.

أسهمت احتياجات أنطونيو العسكرية، وحاجة الرومان إلى تسوية الحسابات في تحديد حجم المكافأة وشكلها. ينطبق الأمر ذاته على رأيه بكليوباترا، وهي التي كانت بارعة، وموثوقة، وثرية. كان ذلك هو ما تتوقعه روما من حكامها التابعين لها، وهم الذين يتميّزون بميزاتٍ عديدة عن الحكام الذين تعيّنهم روما. لم يكن الرومان بحاجة إلى دفع رواتب للحكام المتحالفين معهم. يُضاف إلى ذلك أن أنطونيو كان يحتاج إلى أسطول بحري، فقد قام بتسليم أوكتافيوس، وبموجب معاهدة تارينتوم، مئة سفينة مزودة بمقدمات برونزية، وعشر سفن ذات ثلاثة صفوف للتجذيف. أتقنت كليوباترا عملية بناء السفن، ولهذا ليس من المستغرب أن يكون أنطونيو قد خصّص المقاطعات الغنية بالأخشاب إلى الملكة التي تمتلك الحرفيين، والموارد الكفيلة بتحويل تلك الأخشاب إلى أسطول نافع. بدت كليوباترا على هذا الصعيد أهم شخصٍ بالنسبة إليه في منطقة المتوسط بأكملها. قال بلوتارك إن هدية كليوباترا كانت من بين هدايا أخرى هامة وزّعها على الحكام الشرقيين. يُلاحظ في الوقت ذاته أن كليوباترا من بين الحكّام القلائل الذين تمكنوا من الاحتفاظ بعروشهم، وذلك لأن أنطونيو

عمد إلى تغيير السـلالات الحاكمة وإبدالها بسـلالات أخرى يعيّنها بنفسه. كانت هدية كليوباترا أسخى من أي هدية أخرى من بين تلك التي تسلّمها أي حاكم آخر. وقد تمكّنت بحلول العام 37 من إعادة تأسيس إمبراطورية سلالة البطالسة في ثالث قرن لها من المجد.

أعلنـت كليوباتـرا، ولسـببٍ وجيـه، بداية حقبة جديـدة في مصر وقد عُرفت السـنة السادسـة عشـرة من حكم كليوباترا منذ ذلك الحين على أنها السنة الأولى. واستمر هذا التأريخ المزدوج طيلة ما تبقى من فترة حكمها. أعـادت الملكـة، وهـي بعمر الثانية والثلاثين، تعريف نفسـها، وحملت لقباً أصيـلاً، كمـا حملـت امتيازات كثيرة، لكن تسـميتها نفسـها كانـت بالتأكيد مـن بيـن أهـم تلك الامتيازات، مثل اختيـار زوجها، أو التصرّف بمدخولها الخـاص. كان مـن بيـن ألقابهـا الجديـدة التي عُرفت بهـا منذ ذلك الحين: "الملكـة كليوباتـرا، السيدة، الأكثـر شـباباً، والمحبـة لوالدهـا ولأرض أجدادها". كانت الملكة متلاعبة فطنة بالأسماء مثل ما كانت حاذقة بأمورٍ كثيـرة أخـرى، كمـا قيـل الكثيـر عن لقبهـا ذاك. أعلنت كليوباتـرا مع ذلك اللقـب، ليـس فقـط عصراً جديـداً، لكنها أعلنت إعادة توجّه سياسـي على نطاقٍ واسع. يُحتمل أن قصد الملكة من تعديل التعبير الأخير كان مواجهة الشـائعات التي تحدثت عن تخلّيها للرومان عن كل شـيء، وهكذا أثبتت لرعاياها بأنها أول امرأة من الفراعنة وأبرزهم(*). أما صورتها التي ظهرت علـى نقودهـا فتُعتبـر متوافقـة مع من سـبقها من البطالسـة. تُعتبـر كليوباترا شـخصية تمتعت بالقوة ذاتها التي تمتعت بها أي شـخصية أخرى من تلك

(*) فسّر بعض الناس هذا التعالي على أنه يتوافق مع تراثها الإغريقي. إن هذه النهضة، سواء أكانت حقيقية أم لا، كان مرحّباً بها في عالم يقيس نفسه مقارنة مع الماضي. يُحتمل أن إشارتها هذه كانت موسعة وشاملة. لم تُنجب مقدونيا البطالسة فقط، لكنها أنجبت كذلك منافسيهم من سلالة السلوقيين. كان السلوقيون أقوياء في الماضي وحكموا معظم الأراضي التي أصبحت الآن بين يدي كليوباترا.

التي ظهرت على المسرح غير الروماني، وذلك بغض النظر عن الاسم الذي تطلقه على نفسها. كانت على وشك أن تصبح إمبراطورة الشرق إذا ما تمكّن أنطونيو من إلحاق الهزيمة بالبارثيين، كما أظهرت مختلف المدن الساحلية استعدادها للاعتراف بها على هذا الأساس، وكذلك لإصدار النقود على شرف أنطونيو وكليوباترا، وقد امتلكت الملكة كل الأسباب كي تكون مبتهجة، كما لم تظهر أي سحابة في الأفق.

كانت كليوباترا تأمل أن تحتفل بالفجر الجديد في الإسكندرية، إذ سبق لها أن ضحّت بكل شيء بعد احتفال منتصف آذار، لكنها لم تتمكن من تأمين موطئ قدم، حتّى نجحت بصورة أفضل هذه المرة. أما إذا وضعنا جانباً افتخارهما بهذه الإمبراطورية التي تأسست حديثاً فيمكننا أن نسأل عن موقف رعايا الملكة من تعاونها القوي مع روماني آخر. إننا لا نعثر أبداً على أي شيء يدل على فضيحة. بقي شعب الملكة على تركيزه على النتائج العملية لدبلوماسية كليوباترا. قال باحث بارز: "يبدو لي أنهم اعتبروا أن مغامرات الحب التي قامت بها فرعونتهم الأنثى والأولاد الذين أنجبتهم شؤون مبجلة، لكنهم لا يقدمون على مساءلة ملكتهم إلا حين يضغط جباة الضرائب عليهم بصرامة". تمكنت الملكة من حلّ اللغز السياسي بذكاء. أما عدم ظهور المعارضة في داخل البلاد فيُحتمل بأنه يعود إلى أنها لم تكن مفرطة في سخائها مع مارك أنطونيو. يُحتمل أن تكون الملكة قد وافقت على تحمّل نفقات الجحافل التابعة له، لكن من دون تحميل شعبها أيّ ضرائب باهظة. لم يكن هناك أي سبب للاعتقاد أن توزيع المقاطعات الذي أقدم عليه أنطونيو قد أثار الذعر في روما، وذلك لأن ذلك كان جزءاً من سياسة خارجية ثابتة أدت إلى إثراء خزنات روما، وتأمين الحدود. أما في مصر فإن شعبية كليوباترا بقيت في أعلى مستوياتها.

استنتج كثيرون، وبالنظر إلى هذه الهدية الضخمة، أن مارك أنطونيو وكليوباترا قد تزوجا في أنطاكيا في ذلك الخريف، لكن ذلك لا يعدو

عـن كونـه افتراضـاً أخرق لأن أنطونيو كان متزوجاً سـلفاً. افترض كثيرون، وبالنظر إلى سـخاء الهدية أن كليوباترا قد تمكنت من تحديد ما تريده في هـذه المناسـبة، وأن أنطونيـو قد منحها مـا أرادته. إننا لا نمتلك دليلاً على ذلك في كتابات بلوتارك، وهو المصدر الوحيد عن أنباء ذلك اللقاء، ولا فـي كتابـات المؤرخين الآخرين الذيـن أحجموا عن حذفه. اكتفى بلوتارك بالقـول إن أنطونيـو قـد اعترف بولديه مـن كليوباترا، وهو أمر يختلف كلياً عـن الـزواج. يمكننـا التأكيـد هنا أن أنطونيو كان سيكسـب كثيـراً كما هي الحـال مـع كليوباتـرا: لم يسـعَ أحـد حتى بلوتارك إلى انتقـاد تحالف أحد أقطاب المعاهدة الثلاثية مع أغنى امرأة في العالم. نلاحظ هنا أن احتياجاته الفورية والعملية قد تناسبت بشدة مع طموحات كليوباترا الاستعمارية على المدى الطويل. إننا نمتلك دلائل عن تعطش كليوباترا إلى ضم المزيد من الأراضي، وهو تعطش ظهر للمرة الأولى في ذلك الوقت، أكثر مما نمتلكه من الدلائل عن زواجها. ويُحتمل أن كليوباترا قد ألحت على أنطونيو كي يعطيها معظم مساحة اليهودية، وذلك إما في العام 37 أو في العام التالي. كما يبدو أن أنطونيو قد رفض طلبها هذا. (قيل إن إصراره من هذه الناحية دليـل علـى أنـه ليـس أداةً طيعةً بين يديهـا القويتين). حجـب أنطونيو هذه الهدية لأنه لم يفقد صوابه نتيجة الحب. وأيضاً، يُحتمل أن تكون كليوباترا قـد عرفـت حدودهـا ولـم تطلب قطّ الحصـول على مملكـة اليهود، الأمر الذي يُبقي مسـألة حالة أنطونيو العاطفية مفتوحة على مصراعيها). يُستبعَد كذلـك أن تكـون كليوباتـرا قـد اضطرت إلى المسـاومة من أجل الحصول علـى أراضٍ جديـدة، وذلـك بالرغم من أنهـا كانت في وضع يؤهلها لفعل ذلك. كان أنطونيو بحاجةٍ ماسة إلى تمويل حملته، ولدفع نفقات الجيش، وإضافة أسطولٍ جديد. أما كليوباترا فلم تكن بحاجة إلى أي شيء، وهذا يعني أنها كانت في موقفٍ تفاوضي أفضل.

اعتبر ملوك المنطقة الذين كانوا تحت حماية روما، وبغض النظر عما

حدث بين الاثنين، أن أنطونيو متعلق بكليوباترا بشـدة. كان الأكثر صعوبة معرفة ما يدور في خلدها، وعلى الأقل في العام 37، لكننا نمتلك مع ذلك بعض الإشارات القليلة في ما يتعلق بهذا الخصوص. يمكننا القول كذلك إن أنطونيـو وكليوباتـرا استأنفا علاقتهمـا مـن حيث توقفت في طرسـوس وذلك قبل، أو بعد، أن تتوسع مصر إلى مساحتها التي كانت عليها في القرن الثالـث، وقبـل أن تعيـد الملكة النظـر بالتقويم الزمني. كان حضور أنطونيو يعنـي الكثيـر بالنسـبة إلـى كليوباتـرا بالقدر ذاتـه الذي يعنيـه اعترافه بأبوته لولديه. رافقت الملكة أنطونيو في شـهر آذار أو نيسـان من العام 36 عبر الطريق العريض والممهد الذي يصل ما بين أنطاكيا وأطراف الإمبراطورية الرومانيـة، ولقـد كانـت رحلة بريـة قطعت خلالها مئـات الأميال. لم تكن هذه الرحلة ضرورية بالنسـبة إليها، وهي لـم تكن سـهلة كذلك بالنظر إلى أنهـا حملـت مجـدداً. ودّع أنطونيو وكليوباترا بعضهما بعضاً على ضفة نهر الفرات؛ حيث يضيق النهر ليصبح قناة عميقة، وفي المكان الذي هو الآن شرق تركيا. عبر أنطونيو الجسر الخشبي نحو مناطق البارثيين حيث سيبدأ الزحف شمالاً بجيشه العظيم من خلال طريق مليء بالعوائق والمنحدرات، والذي يمتدّ إلى ما وراء نهر الفرات. أما كليوباترا فقد اتجهت جنوباً.

بـدأت الملكـة رحلتهـا الطويلـة نحـو الوطن، وقامـت خلالها برحلة النصر براً على ممتلكاتها الجديدة، وقد عبّر كثيرون عن سعادتهم لرؤيتها، وكان أنطونيو قد أزاح بعض الملوك الطغاة بالنيابة عنها، فتمكّنت في ذلك الوقـت مـن السـيطرة على منطقة كانت قـد حكمتها في الماضي؛ ألا وهي قبيلة من أفراد قطاع الطرق واللصوص المهووسين بالرماية. سارت الملكة مع حاشيتها عبر التلال المتعرجة والمنحدرات الصخرية الوعرة التي تشكل هذه الأيام سـورية ولبنان. عبرت الحاشـية طرقاتٍ ملتوية ووديانـاً سـحيقة لتنتهي في القدس فوق قمم سلسلة جبال، وبين تلالٍ مرتفعة. كانت القدس

محاطةً في ذلك الحين بأسوار مزودة بمراكز مراقبة، وبسلسلة من الأبراج المربعة التي تبلغ مساحة الواحد منها نحو ثلاثين قدماً. كانت المدينة مركزاً تجارياً بارزاً، كما كانت غنية بالفنون. تحدثت كليوباترا إلى هيرودس بشأن بعض المشروعات، لكنه لم يكن متحمساً جداً لمناقشتها بالرغم من كونه من المفاوضين المثابرين.

كان هيرودس لاجئاً ومتوسلاً عندما التقيا للمرة الأخيرة، لكنه جلس الآن بقلقٍ على عرش المملكة اليهودية، وهو ملكٌ على شعب اضطر إلى قهره قبلَ أن يحكمه. يُفترض أن تكون كليوباترا قد مكثت مع حاشيتها في ضيافة الملك الذي تسلّم عرشه حديثاً، وهو الذي اشتهر بجمعه المنازل، والرجل الذي يمتلك ذوق البطالسة وميلهم نحو الترف، وذلك بالرغم من أن قصره الأسطوري الفخم، والذي بدأ بتشييده جنوب المدينة لم يكن قد انتهى بعد. يُحتمل أن تكون كليوباترا قد بقيت ضيفة هيرودس في قصره الذي يقع في أعلى مدينة القدس، وهو الذي قالت عنه إنّه أقرب إلى القلعة منه إلى القصر. التقت الملكة في سياق زيارتها عائلة هيرودس الكبيرة والقلقة، وهي الأسرة التي بقيت معها على تواصل مثير للتساؤل في ما بعد. شاء سوء حظ هيرودس أن يمكث مع أعداء له يتصفون بقساوة القلب. وكانت ألكساندرا، والدة زوجته المتعالية التي تتحدر من أسرة ثرية الأولى بينهم. كانت تلك المرأة تمثّل أحد الإزعاجات الكثيرة التي تواجدت في قصر هيرودس، وهو القصر الذي يتكوّن بمعظمه من الإناث. عاش الرجل كذلك مع والدته المحبة للتملّق، ومع شقيقته المفرطة بإخلاصها والمحبة للتذمّر، وكذلك مع مريام؛ وهي الزوجة الهادئة والجميلة بشكلٍ استثنائي، والتي تزوجته عندما كانت مراهقة. كان هيرودس يشعر بإحباطٍ دائم لأن زوجته لم تتمكن من تخطي واقع أنه قتل نصف أفراد أسرتها. وقد سبق لكليوباترا أن ساعدت هيرودس قبل ثلاث سنوات، وذلك بالرغم من أنهما يستظلان الدولة الراعية ذاتها، وكان كلاهما يسبحان في المياه الرومانية

العكِـرة ذاتهـا، لكـن كل واحـد منهما بـذل أقصى اسـتطاعته للحفاظ على بـلاده المتقلبـة والفريـدة تحت ظلال قوة عظمى ناشـئة. لم يكن هيرودس بحاجة إلى امرأة أخرى تميل إلى الاستبداد؛ وكانت تلك المرأة، وبخلاف الأخريات، تمتلك خططاً خاصة بها بشأن خزنته.

إننـا لا نمتلـك سـوى مصدرٍ واحد أشـار إلى زيـارة كليوباترا، وكان هـذا المصـدر عدائياً للشـرق الـذي ينتمي إليه، وقد تأثـر كثيراً بوجهة نظر رومـا، كمـا أخـذ - جزئيـاً علـى الأقـل - بروايـة هيـرودس. أمـا المؤرخ اليهـودي يوسـيفوس فقـد حـاول حجـب مـا ظهر إلى العلـن، وإن كان لم يسـتطع تمويهه: أمضى هيرودس وكليوباترا بعض الأوقات المكثفة، وهما يحاولان الاتفاق على تفاصيل الأمور المتوجبة عليه. سبق لأنطونيو أن منح كليوباترا الحق الحصري في استثمار القار، والذي كان عبارة عن كتلٍ دبقةٍ تطفـو علـى سـطح البحـر. كان القار ضرورياً للمـلاط، والبخور، ومبيدات الحشـرات، والتحنيط، والغراء. إن السـلة المصنوعة من القصب والمغطاة بالقار يمكنها أن تحتفظ بالمياه. يُضاف إلى ذلك أن القوارب تصبح مانعة لتسرب المياه إذا طُليت بالقار. كان ذلك الامتياز مغرياً جداً. نالت كليوباترا كذلك إيرادات أريحا، وهي المنتجع الشعبي المفضل في الشتاء بمساحاته التي تغطيها بسـاتين أشـجار البلح الخضراء وحدائق البلسـم. يُحتمل كثيراً أنهـا امتطـت صهـوة حصان عبر الصحراء شـديدة القيظ كي تتفحص تلك البقعـة التـي تبلـغ مسـاحتها مئتـي آكـر، والتـي تقـع في وادي نهـر الأردن حيـث يمتلـك هيـرودس قصـراً ثانياً. تلاشـت كل الروائـح الأخرى مقارنة مـع الروائـح العطـرة التي تتصاعد من أشـجار البلسـم، والتي تنمو حصرياً في مملكة اليهود. كان زيت الجنبة العطرية وبذورها ولحاها غالية الثمن، ولذلـك كانـت تمثّـل أغلـى صادرات المنطقة. أما بالنسـبة إلى تمور أريحا فإنهـا كانـت الفُضلـى فـي العالم القديـم، كما كانت مصدر أقوى شـراب. أما إذا أردنا استخدام التعابير الحديثة فيمكننا تشبيه الوضع وكأن كليوباترا

لـم تحصـل علـى أي جزء من أراضي الكويـت، بل حصلت على عائدات حقولها النفطية.

اعتبر هيرودس هذه العملية مجحفة بالنسـبة إليه، وذلك لأن مملكة اليهـود كانـت بلـداً فقيـراً وجافاً، كما أن الأراضـي صخرية، إضافة إلى أن هذه المملكة لم تكن تشتمل على مناطق خصبة، وتفتقد كذلك إلى وجود ميناء، وذلك بالإضافة إلى النمو المتزايد في عدد السكان. كانت العائدات التي يحصل عليها هيرودس تشكّل جزءاً ضئيلاً من العائدات التي تحصل عليها كليوباترا. كانت طموحات الملك تتجاوز كثيراً المساحة التي يسيطر عليها، كما أنه لم يرغب قطّ في أن يكون "ملك الصحراء". يبدو أن بعض النقاشـات قـد جـرت حول التعابير فـي تلك المفاوضات التي برهنت على أن كليوباترا كانت تضع نصب عينيها تسليم كميات القار أكثر من تركيزها على الإغراءات، كما أظهرت عناداً وقسوة في هذا المجال، وهكذا كانت النتيجـة فـي صالحها. وافق هيـرودس كذلك على ضمان الإيجار المترتب على احتكار القار وجمعه من جاره الملك النبطي، فأعفى بذلك نفسه من وجود وكلاء كليوباترا أو جنودها. يعني ذلك أن الاتفاقية كانت في صالحها من كل الأوجه، كما أنها جعلت الاثنين - الملكين - يشعران بالتعاسة، إذ أُجبِر هيرودس من خلالها على انتزاع الأموال من ملك رفض إيواءه خلال اجتيـاح البارثييـن للبـلاد، وهـو الـذي لا يدفع الأمـوال إلا تحت الضغط. عمدت كليوباترا قصداً، وبنجاح، إلى وضع رجلين يكرهانها، وهما يهودي وعربـي، فـي مواجهة بعضهما. (تمكـن الملك النبطي مالخوس من الأخذ بثأره في وقتٍ لاحق). تمكن هيرودس مع ذلك من الالتزام ببنود اتفاقيته مع كليوباترا، وشـعر بأنه "من غير المأمون بالنسـبة إليه إعطاؤها أي سـببٍ كي تكرهه".

كانت الزيارة غير ناجحة من الأوجه الأخرى، إذ فشل هذان الجذّابان كلياً في تحبيب أحدهما إلى الآخر. يُحتمل أن تكون كليوباترا قد تصرفت

باستعلاء تجاه زميلها الملك، إذ كان هيرودس من العامة، الأمر الذي حرصت والدة زوجته على تذكيره به من دون كلل. يُضاف إلى ذلك أنه لم يكن يهودياً تماماً، وذلك بالنظر إلى ديانة والدته، وهكذا كان هيرودس من غير اليهود في نظر شعبه، بينما كان يهودياً بالنسبة إلى الآخرين. ونتيجة لذلك، لم يكن مطمئناً على الدوام بالنسبة إلى عرشه، وهي الحالة غير المستغربة بالنسبة إلى كليوباترا، لكنها قد تكون قد فاقمت هذا الوضع. كما يُحتمل أن تكون لغتها الآرامية أفضل بكثير من لغته اليونانية، وهو الذي يكبرها بأعوام عدة لكنه لم يتلقَّ سوى قدرٍ قليل من التعليم، وكان مقصراً جداً في التاريخ والثقافة، وكان حساساً من هاتين الناحيتين. (يفسّر ذلك القرار الذي اتخذه في توظيف واحدٍ من أمهر المعلمين الذين تمكّن من إيجادهم، وهو المعلم الذي كان يمتلك أفضل المؤهلات التي يمكن الحصول عليها على الإطلاق؛ بالإضافة إلى إنجازاته في الأدب والموسيقى، وسبق له أن علّم أولاد كليوباترا). لم يكن الجهل الذي ظهر به هيرودس أمام كليوباترا المترفة عاملاً مساعداً له قطّ.

تظهر صحة نقيض البديهية العظيمة في مجال السياسة الخارجية في حال سيطرة العواطف: إن صديق صديق المرء هو عدوه. يُحتمل أن يكون هيرودس قد شعر تجاه كليوباترا مثل ما يشعر أي شخص آخر تجاه أحد الأشخاص الذي يجعل من قصره ضئيلاً. يُحتمل أن تكون قد ابتهجت كثيراً بنجاحها الذي حققته في أنطاكيا إلى حد منعها من تقديم التنازلات. كما يُحتمل أنها أوحت بأنها كانت تطمع في بلاد هيرودس. يصعب على الإنسان الاعتراف بالديون المترتبة عليه، لكن كان كل طرف يدين للآخر بشيء ما. وقد سبق لكليوباترا أن تكفلت برحلة فرار هيرودس إلى روما، كما سبق لوالده أن هبّ لنجدة قيصر في الإسكندرية. أظهر هيرودس الذي اشتُهر بحسن الضيافة رد فعلٍ عنيفاً تجاه زائرته المميزة. يمكننا التأكيد في الوقت ذاته على أنه أقام سلسلة من المآدب الملوكية تكريماً لكليوباترا.

زعم هيرودس أنه يريد تقديم خدمة للمجتمع، وأوعز إلى مجلس الدولة أن يسعى إلى اغتيالها. قال لهم إنه يسهل تنفيذ هذه الخطة في أثناء تواجدها في القدس، أي إنها كانت تحت رحمته. قال كذلك إنه سوف يقوم بتصفية جارٍ طمّاع ومخادع، لكن الجميع سوف يستفيدون من هذه العملية، وعلى الأخص أنطونيو. مضى هيرودس في شرح موقفه بحماسة: "قال إنه بهذه الطريقة سوف يخلّص كل من أساءت إليهم من شرورها العديدة التي ارتكبتها بحقهم في الماضي، أو تلك التي يُمكن أن ترتكبها في المستقبل. مضى قائلاً إن هذه العملية سوف تكون في الوقت نفسه بمثابة هدية إلى أنطونيو، وهو الذي لن يكترث بإظهار ولائها له في حال اضطرته الظروف إلى طلب هذا الولاء، أو إذا سنحت الفرصة لطلبه".

دعم هيرودس قضيته بالطريقة المعتادة وقال إن المرأة الشيطانية هي المرأة الشهوانية. يُضاف إلى ذلك أنه فسّر الوضع لمستشاريه بالقول إنّ تلك المصرية الوقحة قد "نصبت له فخاً خطراً!". فقد أعلنت الملكة أنها غارقة في حبه، ولهذا حاولت أن تفرض نفسها عليه، "وذلك لأنها اعتادت على هذا النوع من المتعة من دون مواربة". امتلك هيرودس سبباً كافياً لملاحظة أن كليوباترا كانت مفاوضةً صلبة. أما إذا تعرّض المرء للاستغلال من قِبل امرأة فإنه من المناسب تحويل تلك المرأة إلى امرأة شهوانية وقادرة على مظاهر فسادٍ لا مثيل له، و"عبدة شهواتها". (لم تمثّل تلك التعابير قفزة كبيرة، لأن كلمتَي "الشهوانية والرغبة" تمتلكان الجذر ذاته في اللغة اللاتينية). عمد هيرودس إلى نقل كل مشاعره بالمهانة إلى مجلس مستشاريه، وذلك بعد أن نجح في تجنّب تحرشاتها التي تخلو من الحياء، كما أن وقاحتها وصلت بها إلى أقصى الحدود.

توسّل المستشارون إلى هيرودس لإعادة النظر في موقفه، لكنه أظهر إصراره على الإسراع في تنفيذ مخططه. كانت المخاطر التي تقف في وجه تنفيذ الخطة كبيرة جداً لأن الحراسة حول كليوباترا كانت مشددة،

وكان رجالها يحيطون بها جيداً، كما أنه من المؤكد أنها أكثر صلابة بشأن العواقب السياسية لمطالبه، وهي الأمور التي تعلّمها جيداً. قدّم مستشارو هيرودس له درساً صغيراً في الحبّ، وهو الدرس الذي استفاد منه في وقتٍ لاحق. قال المستشارون إن أنطونيو، بالدرجة الأولى، لن يتقبل أبداً عملية قتل كليوباترا؛ حتى ولو عُرضت عليه فوائد هذه العملية. ثانياً، إنّ "حبّه سوف يتأجج بشدةٍ أكبر إذا عرف أنها أُخذت منه بالعنف والخديعة". أضاف المستشارون أنه سوف يتحوّل إلى رجلٍ أكثر هوساً، وستكون نتيجة ذلك إدانة هيرودس بشدة. ركّز مستشارو هيرودس على أنه لن يستطيع السيطرة على هذه المرأة التي تُعتبر الأكثر نفوذاً في عصرها، وهكذا طلبوا منه سلوك الطريق الصحيح.

كانت كليوباترا، بطبيعة الحال، أذكى بكثير من أن تغري، أو تحاول أن تغري، ملكاً ضئيل الشأن. لم تكن الملكة لتكسب شيئاً من إيقاع هيرودس بهذه الطريقة، وكذلك لم يكن من المحتمل أن ترمي نفسها بين ذراعي حاكم يدور في فلك الإمبراطورية التي تتبع لها. أما ما هو أبعد احتمالاً أكثر من ذلك فهو أن ترمي نفسها بين ذراعَي هيرودس في الوقت الذي تبيّن لها فيه، عند اقتراب الصيف، أنها تحمل طفل أنطونيو. كان أحد الجحافل الرومانية يتمركز في القدس من أجل تعزيز عرش هيرودس، وكان من المستبعد أن يبقى هؤلاء الجنود على صمتهم. كان هيرودس يمتلك فهماً ضئيلاً لمشاعر القلب الإنساني؛ الأمر الذي أظهرته الأحداث التي جرت لاحقاً بالرغم من المكر الذي اشتُهر به. بذل مستشاروه جهوداً مضنية من أجل إقناعه بالتخلي عن فكرة محاولة الاغتيال. لم يكن لدى هيرودس أي مبرر لوضع خطة "ضد امرأة كهذه، وهي التي تُعتبر الأرفع مركزاً في العالم من بين بنات جنسها وفي زمانها"، كما لم يكن في وضع يسمح له بإيذاء كليوباترا، أو حتى بإعطائها أيّ سبب يدفعها لكراهيته، أيَّ كان بإمكانه إيجاد طريقة لنسيان الإحراج الذي ألحقته به محاولتها الوقحة

للتحرش به(*).

كان من الصعب على كليوباترا عدم التعليق بسخرية، هذا على افتراض أن تلك المشاورات قد وصلت إلى مسمعها. لقد حازت على ثقة أنطونيو وإخلاصه، وكانت تعرف ذلك، لكنها امتلكت أسباباً أقوى تدفعها إلى التفكير في التخلص من هيرودس الذي يحول وحده بينها وبين الاستيلاء على منطقة الساحل الشرقي للبحر المتوسط بكاملها. كانت الملكة تعرف جيداً أن بلاد هذا الملك كانت تتبع في أوقاتٍ مختلفة لحكم البطالسة. وقد تمكّن مجلس مستشاري هيرودس من تهدئته في نهاية المطاف، وهكذا رافق زائرته بكل احترامٍ وتهذيب إلى الحدود المصرية، وسار معها وسط حرارة رمال صحراء سيناءَ اللاهبة. أما إذا كانت كليوباترا تعرف بالمناقشات التي جرت في بلاط هيرودس، ويصعب علينا اعتبار أنها لم تفعل، فيُحتمل أنها كانت رحلة متعبة للطرفين. يمكننا الجزم، مع ذلك، أن الرحلة كانت مرهقة لملك مملكة اليهود الساخط، وهو الذي ما لبث أن ودّع كليوباترا في بيلوسيوم. كان علامات حملها ظاهرة، وكذلك كانت محملة بالهدايا، وكانت هذه رحلة عودة تختلف كثيراً عن تلك الرحلة السرية التي قامت بها انطلاقاً من ذلك المركز الحدودي في العام 48.

وضعت الملكة طفلها الرابع في وقتٍ مبكر من ذلك الخريف المبارك بفيضان غزير. كانت الأسماء في ذلك العالم القديم تحمل أهمية أكبر مما تحمله في أي جزء آخر من العالم، وهكذا أطلقت الملكة على ابنها الجديد اسم بطليموس فيلادلفوس، وهكذا استرجعت في العام 36 أيام الأمجاد الغابرة في القرن الثالث، وهي آخر الفترات التي حكمت فيها أسرتها إمبراطورية عظيمة مثل تلك التي حكمتها كليوباترا السيدة، الشابة، المحبة لوالدها ولأرض آبائها.

(*) لم تكن اتهامات كهذه غير مألوفة، حيث وجّه ابن هيرودس في وقتٍ لاحق اتهاماً مثيراً إلى عمته لأنها "اقتحمت غرفة نومه وأقامت معه علاقة غير أخلاقية رغماً عنه".

أصيب هيرودس بالإحباط لأن التخلص من تلك السيدة الطماعة التي تمتلك عقلية عملية لم يكن بالأمر السهل. حينئذٍ، عقدت كليوباترا صداقات جديدة في أثناء وجودها في بلاط مملكة اليهود، وقدمت لاحقاً مساعدات مدمرة لأصدقائها. تلقت بعد ذلك أخباراً من ألكساندرا، وهي والدة زوجة هيرودس، وذلك بعد وقتٍ قصيرٍ من عودتها إلى مصر. وجدت تلك الأميرة اليهودية في الملكة المصرية شخصاً متعاطفاً معها، وهو سبب كافٍ بالنسبة إلى هيرودس للشعور بالكراهية تجاه تلك الزائرة الملكية، فأدانها لأنها قضت على معظم أفراد أسرتها، وكان ذلك اتهاماً مثيراً للدهشة لأنه صدر عن شخص وصل إلى العرش عن طريق الاغتيال، واستمر على النهج الدموي عقوداً من الزمن، لكنه امتلك سبباً مماثلاً كي يشعر بالغيرة منها لأنها فعلت ذلك. كانت الفوارق الطبقية والدينية هي التي وقفت وراء الكراهية المتبادلة بين هيرودس وألكساندرا. لم يقتصر الأمر على أن هيرودس كان يهودياً ينتمي إلى طرفٍ مغاير لها، بل لأن الأدوميين قد تحوّلوا حديثاً إلى الدِّين اليهودي، لكنهم لم يمثّلوا قيمة تُذكر بالنسبة إلى اليهود. أما زوجة هيرودس وأفرد أسرتها فقد تحدروا، في المقابل، من أجيال تنتمي إلى أسرٍ يهودية نبيلة من كبار الكهنة، كما يُقال إن منصب كبير الكهنة بدأ مع شقيق موسى. وقد عمد هيرودس في العام 37 إلى تعيين كبير كهنة من خارج تلك السلالة، وقد فعل ذلك بالرغم من تواجد مرشحٍ جاهز ويحظى بقبول واسع، أي شقيق مريام الذي يبلغ السادسة عشرةَ من عمره، وهو شاب طويل القامة وجذاب إلى حدٍّ بعيد ويُدعى أرسطوبولس. لكن هيرودس فضّل وضع موظفٍ مغمور في منصب مربح ومغرٍ إلى حدٍّ كبير. كانت مظاهر الترف والزخرفة تكفي لأن تسبغ على صاحبها نوعاً من أنواع السلطة. وكان الكاهن الأكبر يؤدي واجباته الدينية أمام رعيّته وهو متوّج بإكليل مرصع بالذهب ومرتدٍ عباءة مطرّزة تصل إلى الأرض، ومرصعة بدورها بالأحجار الثمينة، والأجراس الذهبيّة الرنّانة

بالإضافة إلى غطاء ينسدل على الكتفين باللونين الأرجواني والقرمزي، ومثبتٍ بدبوسين مرصعين بالمجوهرات. كان ذلك الزي يوحي للمرء بأن "صاحبه ينتمي إلى عالم مختلف".

أطلق هيرودس عاصفة من الاحتجاج داخل أسرته لأنه تجاوز شقيق زوجته الشاب. اعتبرت ألكساندرا، وهي ابنة كاهن وأرملة أمير، أن ذلك التعيين ما هو إلا "إهانة لا تُحتمل". ساعدها أحد الرحالة من عازفي الموسيقى على إيصال نبأ ذلك العمل المهين إلى كليوباترا، وهي التي شعرت بأنها تستطيع الاعتماد عليها، وأن يكون ذلك مثالاً على التعاون بين النساء، وخاصة بين اللواتي ينتمين إلى الأسر الملكية. كانت تعرف أن كليوباترا لا تطيق هيرودس، وأن كلمتها مسموعة عند أنطونيو. تساءلت ألكساندرا عما إذا كانت كليوباترا تستطيع التوسط معه من أجل تعيين ابنها في منصب الكاهن الأكبر. أما إذا تمكنت كليوباترا من القيام بهذه الوساطة، فلا بد من أن أنطونيو كان مشغولاً بأمور أكبر من المشاكل الداخلية في أسرة هيرودس، لأنه لم يبذل أي جهدٍ للتدخل، وذلك بالرغم من أن ديليوس المتذبذب ظهر في وقتٍ لاحق من العام 36 في القدس لأغراضٍ أخرى. كان ديليوس هو الذي أغرى كليوباترا بالذهاب إلى طرسوس، بينما استمر التواطؤ بين والدة الزوجة المتآمرة وذلك المستشار المتلاعب حتى وصل إلى أقصى الحدود. كان ابنا ألكساندرا وسيمين بشكل غير معتاد إلى درجة دفعت ديليوس إلى القول إنهما "أقرب إلى أن يكونا من نسل الأسياد المبجّلين من أن يكونا من نسل البشر". أطلق الجمال البشري عقله النشط، فأقنع ديليوس ألكساندرا أن تأمر برسم وجهَي مريام وأرسطوبولس وأن ترسل الرسمَين على الفور. قال ديليوس إنه ما إن تقع عينا أنطونيو - وهو شريكه في التحالف الثلاثي الروماني - على الرسمَين فإنه لن يرفض لها طلباً مهما كان.

فعلت ألكساندرا ما طلبه منها ديليوس، وهو الأمر الذي يدل إما على

سذاجة من طرفها، أو على شيء أكثر خطورة من ذلك. كان باستطاعة هذه المرأة أن ترصد المؤامرة من على بعد مئة خطوة، وأن تلفّق مؤامرة في حال عدم وجودها. أما إذا كان بإمكاننا الوثوق بما أورده يوسيفوس، فإن ديليوس أراد توظيف شريكين من الجنسين ليكونا في خدمة أنطونيو. تردد أنطونيو عند استلامه الرسمَين، أو أنه فعل ذلك على الأقل بالنسبة إلى مريام، وذلك لأنه كان يعرف أن الأمر سوف يثير غضب كليوباترا. لم يوضح لنا يوسيفوس ما إذا كان اعتراض كليوباترا ناتجاً عن أسبابٍ أخلاقية أم بسبب الغيرة، لكنها ما كانت لتتسامح مع هذه الغلطة في وقتٍ قصير. بدا أن أنطونيو لم يتردد في طلب شقيق مريام. غيّر هيرودس موقفه عند هذه النقطة، وذلك بسبب اعتباره إرسال شاب وسيم بعمر السادسة عشرة إلى أقوى رجل روماني في عصره، وذلك "لاستغلاله في أغراضٍ مثيرة" يشكّل إهانة كبيرة. عمد هيرودس بعد ذلك إلى جمع مجلس مستشاريه بالإضافة إلى أفراد أسرته، وذلك من أجل بحث مؤامرات ألكساندرا المتكررة. وصل الأمر بها إلى حد التآمر مع كليوباترا على اغتصاب عرش هيرودس بهدف وضع ابنها مكانه. وقد أعرب هيرودس عن استعداده للقيام بما هو مناسب وتعيين ابنها في منصب الكاهن الأكبر. يُحتمل هنا أن يكون اقتراح ديليوس هو الذي دفع هيرودس، وإن بشكلٍ غير مباشر، إلى تقديم هذا التنازل. وكان من شأن تعيين أرسطوبولس في هذا المنصب أن يبقيه في مملكة اليهود، أي يبقيه بعيداً عن قبضة أنطونيو، وبعيداً كذلك عن مؤامرات كليوباترا. ردّت ألكساندرا على هذه التطورات بسيلٍ من الدموع، وتوسلت إلى صهرها لمسامحتها، وقالت له إنها تتأسف على "صراحتها المعتادة" وخشونتها الناتجتين، بأسفٍ ومن دون شك، عن مركزها. قالت إنها مليئة بمشاعر الامتنان، وإنها ستكون مطيعة من كل النواحي من الآن فصاعداً.

لم يكد أرسطوبولس يرتدي عباءة الكاهن الأكبر المطرّزة والمرصّعة

بالأحجار الكريمة حتى وجدت ألكساندرا نفسها تحت الإقامة الجبرية، كما خضعت للمراقبة على مدار الساعة. أما سبب هذا التحرك فيعود إلى استمرار هيرودس في الشك في خيانة والدة زوجته. انفجرت ألكساندرا غضباً لأنها لا تريد أن تعيش بقية حياتها وسط "العبودية والخوف"، وهكذا التجأت إلى صديقتها الوحيدة. أرسلت ألكساندرا إلى كليوباترا "رسالة طويلة حافلة بالرثاء لحالتها، وألحّت عليها لتقديم أقصى قدرٍ من المساعدة التي تستطيع تقديمها". استفادت كليوباترا مجدداً من أحد أقوال يوريبيديس: "يحق للنساء الوقوف إلى جانب قضايا المرأة" فدبرت خطة هروب مبتكرة. أرسلت الملكة سفينة بهدف إيصال ألكساندرا وأرسطوبولس إلى برّ الأمان، وعزمت على منحهما حق اللجوء. أمرت ألكساندرا، إما بناءً على نصيحة كليوباترا، وإما من تلقاء نفسها، بصنع تابوتين، ساعدها خادمها هي وابنها على دخولهما ليتم نقلهما، من القدس إلى الساحل حيث كانت السفينة التي أرسلتها كليوباترا في الانتظار. شاء سوء الحظ أن يعمد أحد الخدم إلى خيانة ألكساندرا، وهكذا ما إن بدأت عملية نقل الهاربَين من القصر حتى تقدّم هيرودس من وراء الظلمة ليفاجئهما. خشي هيرودس من غضب كليوباترا فلم يعمد إلى معاقبتهما مع أنه كان يتمنى ذلك في قرارة نفسه، وهكذا تظاهر بالتسامح بينما أقسم على الانتقام في دخيلة نفسه.

فرغ صبر هيرودس من زوجته وأسرتها بحلول شهر تشرين الأول من العام 35. كان يعرف أن والدة زوجته تتآمر مع أكبر منافسةٍ له. وكان شقيق زوجته يستقطب حبّ الشعب بقدرٍ أكبر بكثير من هيرودس الذي لم يكن يطيق رؤية ذلك الشاب المتحدر من أسرة نبيلة وهو يترأس المذبح في احتفالات الحصاد اليهودية. كان الملك يعتبر أن حب رعاياه للكاهن الأكبر بمثابة شجب لعرشه. تعب هيرودس في هذا الوقت من علاقته مع زوجته التي كان "كرهها له يعادل حبه لها". لم تُظهر زوجته تلك الجرأة

التي استنكرها عند كليوباترا، والتي طالما تشكّى منها بصوتٍ عالٍ، ولم يقدر على الانتقام من والدتها، ولو بشكلٍ غير مباشر، وذلك بسبب علاقتها الوثيقة مع كليوباترا، لكن كان بإمكانه القضاء على شقيق زوجته الشاب الذي ينتظره مستقبل واعد جداً. ولذلك، دعا أرسطوبولس إلى السباحة في بركة قصره الذي تحيط به الحدائق الجميلة في أريحا بحجة شدة الحرارة غير المعتادة في ذلك الوقت من الخريف. نزل الرجلان إلى الماء مع الأصدقاء والخدم، واستمتعا باللعب وسط المياه الباردة في ذلك المساء. حلّ الليل فما كان من الخدم إلا أن أمسكوا أرسطوبولس، وهو ابن سبعة عشر عاماً، لمدة أطول قليلاً ممّا يجب تحت المياه بينما كان يلهو، وهكذا لقي الكاهن الأكبر مصرعه.

تصاعدت العواطف الزائفة من الجانبين بعد ذلك، ورتّب هيرودس لذلك الشاب جنازةً محترمة ملأتها روائح البخور الكثيفة، وأسال عليه الدموع الغزيرة وانتحب بصوتٍ عالٍ. تحملت ألكساندرا الأمر بشجاعةٍ وهدوء، وهو ما ساعدها على التفكير في الثأر لمقتل ابنها لاحقاً. (تحلّت مريام وحدها بالشجاعة، فعمدت إلى اتهام زوجها ووالدته وشقيقته اللتين تتميزان بالفظاظة). لم تُخدع ألكساندرا بالرواية التي قدّمها هيرودس عن الحادثة فكتبت إلى كليوباترا مجدداً، وسرعان ما تلقت رسالة تحمل مواساة الملكة لها. كانت تلك الخسارة كارثية ولا لزوم لها. قالت ألكساندرا إنها تضع هذه القضية بين يديها كي ترفعها إلى أنطونيو، فحثّته عندما توقف في طريق عودته من بارثيا على معاقبة قاتل أرسطوبولس. قالت له بحدة إنه "ليس من العدل في شيء أن يُسمح لهيرودس، الذي عيّنه أنطونيو ملكاً على بلاد لا يمتلك الحق في حكمها، بأن يتصرف بطريقة خارجة على القانون تجاه ملوكها الحقيقيين". كان طلب كليوباترا هذا ينصب في خانة تطبيق القوانين الصحيحة، والتزام المرء بمركزه الصحيح، وحقوق الملوك، فوافقها أنطونيو الرأي.

كان هيرودس على حق عندما خشي من نفوذ كليوباترا. لم يتأخر أمر الاستدعاء عن الوصول من الساحل السوري، وقد تعيّن على هيرودس شرح موقفه أمام أنطونيو. لم يكن هيرودس عموماً من النوع الذي يخشى السلطة، وهو الرجل الذي شقّ طريقه حتى ذلك الوقت بالرشوة والجرأة، والذي كان يحب إظهار نفسه بمظهرٍ مرح. يُقال كذلك إنه غادر مدينته متردداً، لكنه أظهر براعة في تهدئة الأوضاع تماثل تلك التي أظهرتها كليوباترا في طرسوس قبل ست سنوات. يعود هذا الأمر إما لأن مارك أنطونيو لم يكن ماهراً في استدعاء الملوك التابعين له لمحاسبتهم، وإما لأنه كان ضعيفاً أمام المتملقين. أظهرت هذه الزيارة أن أنطونيو لم يكن بأي حال من الأحوال أداة طيعة بين يدي كليوباترا. وصل هيرودس محملاً بهدايا كثيرة، وبتفسيرات مماثلة في كثرتها، وقد تمكّن الرجل على الفور من مقارعة حجج كليوباترا. طمأنه أنطونيو بدوره إلى أنه "من غير المناسب محاسبة ملك على حكمه، لأنه في تلك الحالة لا يعود ملكاً على الإطلاق. يعني ذلك أن أولئك الذين يعطون المرء منصبه وسلطاته يجب عليهم أن يسمحوا له بممارستها". يُحتمل أنه قال الكلام ذاته لكليوباترا، وهي التي من الأفضل لها ألاّ تنشغل كثيراً في شؤون هيرودس، أو هذا على الأقل ما زعمه هيرودس وهو يفاخر بمظاهر الشرف الكثيرة التي أسبغها عليه أنطونيو. كان الرجلان يتناولان الطعام معاً كل يوم. عمد أنطونيو إلى دعوة هيرودس إلى مرافقته في أثناء قيامه بعمله، وذلك "بالرغم من اتهامات كليوباترا المريرة". لم يكن بين الرجلين سوى النوايا الطيبة، وهكذا أبلغ ملك مملكة اليهود بأنه بات آمناً من تلك "المرأة الشريرة"، ومن نهمها الذي ليس له حدود.

أخطأ هيرودس قليلاً من تلك الناحية بالرغم من أنه أفلح بشكلٍ ما بانتزاع نفسه بطريقة ما من المكائد النسائية داخل مملكته. فقد أقدمت شقيقته التي اشتُهرت بحقدها اللامحدود على إقناعه بأن زوجها أقام علاقة مع مريام في غيابه. كانت تلك طريقة ذكية لتخليص الاثنين - هيرودس

وشـقيقته - مـن زوجـة شـقيق شـريرة وزوجٍ غير مرغوب فيـه. كانت هذه التهمـة مفصلـة مـن أجل إرباك رجل غير محبوب وغارق في الحب، لكن هذه الخدعة آتت ثمارها المطلوبة. (أشار يوريبيديس في إحدى مسرحياته الهلينستية المفضلة إلى أنه "من الظاهر أن النساء يستمتعن بالأحاديث السيئة عن بعضهن"). أمر هيرودس، ومن دون الكثير من المناقشة، بإعدام زوج شقيقته. أراد الملك كذلك أخذ احتياطات أكثر فأمر بسجن ألكساندرا على أسـاس أنهـا مسـؤولة، جزئيـاً علـى الأقل، عن مشـاكله. كان هيرودس من النـوع الـذي يبيـع ولاءاتـه، وهكـذا كان يفترض أن ينطبـق الأمر ذاته على الآخرين، فعمد، لهذا السبب، إلى إعادة النظر بوصيته بين الحين والآخر.

تمكنـت كليوباتـرا لسـنواتٍ عديـدة بعد ذلك من التسـبب بالمتاعب لهيـرودس، وحتـى مـن دون مسـاعدة ألكسـاندرا، أو علـى الأقـل حاولت ذلـك. قيـل كذلـك إنـه عمد إلى تحصين قلعة ماسـادا خوفـاً منها، كما أنه خـزّن الحبـوب والزيـوت والتمور والشـراب في تلك القلعـة. ولم يتمكن مـن الشـعور بالاطمئنـان بوجـود جارتـه الملكـة المصريـة(*). كمـا بقيـت

(*) حدثت دسيسة أخرى تتعلق برجلٍ يدعى كوستوبار، وهو حاكم أحد الأقاليم المجاورة إلى الجنوب من المملكة اليهوديّة. كان الرجل يدين بمنصبه إلى هيرودس لكنه كان يزدريه. لم يحمل كوستوبار في قلبه أي إعجاب تجاه اليهود، كما كان يفضل إعادة عبادة الأسياد المبجّلين إلى شعبه. عرف ذلك الحاكم جيداً الجهة التي يجب عليه اللجوء إليها، فكتب إلى كليوباترا التي كانت الواسطة التي تمر من خلالها الطلبات المقدمة إلى أنطونيو. قال لها إن بلاده كانت ملكاً لأسلافها في الماضي، وأن لا شيء يمنعها من الطلب إلى أنطونيو إعادتها إليها. أقسم ذلك الحاكم إنه مستعد لنقل ولائه إليها. ولم يفعل كوستوبار ذلك إعجاباً بكليوباترا بل كرهاً بهيرودس، لكنه لم يحصل على ما يرجوه لأن أنطونيو رفض الطلب الذي قدّمته كليوباترا. تردد هيرودس قليلاً في الثأر من كوستوبار خشية من كليوباترا، أي كما حصل سابقاً، إذ أراد تجنب أي مؤامراتٍ في المستقبل فرتّب مسألة زواج شقيقته التي ترملت حديثاً من كوستوبار، وكان هذا الزواج يشكّل نوعاً من أنواع الحكم بالإعدام. أقدمت هذه الشقيقة في النهاية على خيانة زوجها الثاني، كما فعلت مع زوجها الأول.

علاقته بزوجته مشوبة بالكراهية، وأقنعه بعضهم في نهاية الأمر أن مريام أرسلت رسمها إلى أنطونيو سراً. كان هيرودس "على استعدادٍ دائم لسماع الافتراءات"، كما أنه كان يميل دائماً إلى أصحاب هذه الافتراءات، وأحبّ أن يظهر بأنه على صواب في أوهامه المريعة هذه. صدمه هذا الاتهام "كالصاعقة"، كما دفعه إلى التوجس مجدداً من مخططات كليوباترا المميتة(*). كان متأكداً من أن هذه المؤامرة من تدبيرها: "أدرك أنه مهدد ليس فقط بفقدان زوجته، ولكن بفقدان حياته كذلك". حكم هيرودس على زوجته بالموت بسبب هذا التهديد، فتقدّمت والدة مريام منها في أثناء سوقها إلى منصة الإعدام، وأخذت بالصراخ وشدّ شعرها. قالت ألكساندرا إن ابنتها ما هي إلا امرأة شريرة ووقحة، كما أنها لم تُظهر ما يكفي من الامتنان تجاه هيرودس، وهي تستحق مصيرها. سارت مريام من دون أن تكترث لوجود والدتها، وكانت آنذاك في الثامنة والعشرين من عمرها. حدث بعد ذلك تحول في موقف هيرودس شبيه بذلك الذي يحدث في مسرحيات شكسبير. وصل الملك إلى حافة الانهيار بعد أن تعاظم شوقه إليها، فأقنع نفسه بأنها لا تزال على قيد الحياة، لكنه شعر بأنه عاجز عن فعل أي شيء. واجه هيرودس العواقب ذاتها التي توقعها مستشاروه بالنسبة إلى أنطونيو في حال حُرم من كليوباترا. فما كان من هيرودس في نهاية الأمر إلا أن غادر إلى القدس في جولة صيدٍ طويلة مخصصة للنقاهة. حاكت ألكساندرا في غيابه بضع مؤامراتٍ جديدة، فما كان من هيرودس إلا أن أمر بإعدامها فور عودته.

بعث مارك أنطونيو خلال العام 36 بتقارير مذهلة إلى روما مشيراً من خلالها إلى نجاحاته التي حققها في بارثيا. سادت المدينة احتفالات

(*) لم تشعر شقيقته بالرضا حتى انتقمت من هيرودس ومن أبناء مريام كذلك، وهي التي قتلها هيرودس لاحقاً. دُفن هؤلاء إلى جانب أرسطوبولس.

النصر، وقُدّمت القرابين تكريماً له. يبدو مع ذلك أن استخبارات كليوباترا كانت أفضل بكثير. كانت الملكة تبعد ما يزيد على ألف ميل عن مسرح الأحداث الذي تغطيه الثلوج، لكنها كانت في موقع أقرب من موقع شبه الجزيرة الإيطالية. استثمرت الملكة الكثير في انتصار أنطونيو، كما امتلكت ما يكفي من الموارد؛ ما يبرر إرسال وفود إليها. بدا أن الملكة قد فوجئت بوصول ذلك المبعوث الذي وصل إلى الإسكندرية في وقتٍ متأخر من تلك السنة، والذي حمل معه استدعاءات ملحّة لها، لكنها اختلفت هذه المرة عن تلك التي تلقتها في السابق. وضع هذا الاستدعاء حدًّا لسلسلةٍ من الاحتفالات التي استغرقت قرابة الشهر. قال المبعوث إن أنطونيو وجيشه قد عادوا من مغامرتهم في بارثيا، وهي المغامرة التي أوصلتهم إلى بحر الخزر - قزوين - أي إنهم وصلوا إلى ما يُعرف اليوم بشمال إيران. كانت مغامرتهم هذه مجرد نزهة مقارنة مع مغامرة الإسكندر الكبير، لكن الجيش قطع مع ذلك مسافة 1,800 ميلٍ. نصب هذا الجيش مخيماته في هذه الأثناء في مدينة صغيرة جنوب ما يشكل اليوم مدينة بيروت، وهي قرية تمتلك ميناءً ممتازاً، حيث تمكّنت كليوباترا من أن ترسو فيه من دون أي صعوبة. ناشد أنطونيو الملكة للانضمام إليه في أسرع وقتٍ ممكن، وطلب منها إحضار كمية محترمة من الذهب، والمؤن الغذائية، والملابس كي توزّع على الجنود. لكن الملكة لم تتوقع رؤيته بهذه السرعة، لأنّ قهرَ بارثيا يستغرق وقتاً أطول من بضعة أشهر. وقد سبق لقيصر أن توقع حملةً تستغرق ثلاث سنواتٍ على الأقل.

أورد بلوتارك في كتاباته أن كليوباترا تباطأت في القدوم، لكنه لم يوضح لنا ما إذا كانت قد تأخرت فعلياً، أم أن مارك أنطونيو أحسّ بأن قدومها لم يكن بالسرعة التي كان يتمناها. كان الشتاء قد حلّ في ذلك الوقت، وتساقطت أمطار غزيرة، كما هبّت رياح عاصفة في ذلك القسم من المتوسط. كان على الملكة تجميع كمياتٍ كبيرة من المؤن، وتجميع سفن

الأسطول، كما تعيّن عليها أيضاً إما تجميع الدنانير الفضية الموجودة في البلاد وإما سكّها. يُضاف إلى ذلك أنه لم تمضِ أكثر من شهورٍ قليلة على وضعها طفلها. كانت الملكة تعرف مع ذلك أنها سوف تسمع أخباراً مقلقة. أما أنطونيو فقد كان قلقاً ومتوتراً في تصرفاته، إلا أنه يُحتمل أن يكون بلوتارك قد أخطأ في تحديد الأسباب والنتائج، لذلك زعم أن أنطونيو كان في غاية القلق بسبب تلكؤ كليوباترا، لكن ذلك التلكؤ المزعوم ساهم بشكلٍ ضئيل في كآبته الحقيقية. حاول أنطونيو إنقاذ نفسه من ذلك الوضع عن طَريق الإفراط في الشرب، وكانت هذه هي الطريقة الشائعة آنذاك بسبب "عدم وجود علاجٍ آخر للتعاسة"، لكنه افتقد إلى الصبر الكافي للجلوس طيلة فترة تناولِ الطعام. كان يهرع خلال كل وجبة إلى الشاطئ حيث كان يتأمل الأفق مرة بعد أخرى بحثاً عن أشرعةٍ مصرية، أو عن تصرفاتٍ شاذة بين جنود المعسكر المعروفين بالانتظام الشديد حيث كان الجميع يأكلون معاً. اتهم بلوتارك كليوباترا بالتباطؤ، لكنها أتت في نهاية الأمر. كان قدومها في فصل النهارات القصيرة والليالي الطويلة، وجلبت معها المواد المطلوبة، ولعلّ وصولها كان بعد وقتٍ قصير من ذكرى ميلاد أنطونيو الثامنة والأربعين. سلّمت الملكة "كميةً كبيرة من الملابس والأموال". ردّد بلوتارك وديو شائعة مقلقة: زعم بعضهم أنها جلبت معها الملابس والمؤن لكن أنطونيو وزّع ما يمتلكه من ذهب على رجاله، وقال لهم إن الأموال أتت بمثابة هدية من كليوباترا، وهي التي لا تتعاطف كثيراً مع هوسه بالنسبة إلى بارثيا. على أيّ حال، كان أنطونيو يحاول كسب النيات الطيبة تجاه مصر، وكان من الواضح أن هذا الأمر يشكل أولوية بالنسبة إليه، لكنه فعل ذلك في وقتٍ غير مناسب، على الأقل، بالنسبة إليه.

أما إذا وضعنا قصص الملكات المصريات جانباً فيمكننا القول إن أنطونيو قد امتلك كل الأسباب التي تبرر قنوطه، إذ لم يحرز أي نجاحٍ باهرٍ في بارثيا لأن حملته كانت مثيرة للإحباط، وسرعان ما تبعها انسحاب

كارثـي. فارتكـب منـذ البداية أخطاءً استـراتيجية عديـدة، واضطر إلى ترك آلات حصـاره الثقيلـة وراءه، وذلـك نظـراً إلى حجم جيشـه وطول مسـافة الزحـف. لـم يتمكـن القائـد من العثـور على أماكن البارثييـن على الدوام، أما هم فقد نجحوا في العثور عليه ساعة شـاؤوا، وهاجموا جيشـه بشـكل جماعـاتٍ من رماة السـهام والحراب المهـرة الذين كانوا يكمنون لصفوف الرومانييـن المنتظمـة. وقـد أراد أنطونيـو الاعتماد عسـكرياً علـى الأرمن، وهـم جيـران بارثيـا من ناحيـة الغرب، لكنهم لم يبرهنوا على أنهم الحلفاء المخلصـون الذيـن توقعهـم، إذ عمـدوا أكثر من مـرة إلى دفع الرومان إلى "صحراء مفزعةٍ مترامية الأطراف"، وتركهم هناك. تبيّن للرومان بعد ذلك أن الانسـحاب هـو الأكثـر كلفـة من بين كل المعارك. سـار رجال أنطونيو المنهكـون لمسـافة ثلاثيـن ميـلاً فـي الظلمة قبل أن يرموا أنفسـهم في مياهٍ مالحة، وما لبث الجوع أن دفعهم إلى تناول النباتات السامة التي جعلتهم يترنحـون ويتقيـأون؛ لقـد سـيطرت علـى الجنـود حالات من التشـنجات، وأصابهم الزحار، وما لبثت الأوهام والتخيلات أن سيطرت عليهم. أما ما عجـزت عنـه المياه الراكدة والنباتات السـامة فقـد تكفلت به حرارة أرمينيا اللاهبـة، والثلـوج التـي لا تكف عن الهطول فـي كابادوكيا حيث تجمدت لحى الجنود بفعل الجليد الذي جمدّ أصابع الأقدام والأيدي.

خسـر أنطونيـو نحـو ثلث جيشـه المـدرب تدريباً ممتـازاً، وذلك في الوقـت الـذي وصل فيه إلى السـاحل السـوري، وفي الوقـت الذي بدأ فيه بمسـح الأفق بشـغف بحثاً عن كليوباترا بالإضافة إلى نصف عدد فرسـانه. ربـح أنطونيـو معـارك قليلـة من بين المعارك الثماني عشـرة الصغيرة، لكنه خسـر 24,000 جنـدي خـلال هذا الانسـحاب الكارثـي. تحمّلت كليوباترا ضمنياً مسـؤولية إخفاقاته في بارثيا. ويشـرح لنا بلوتارك أنه كان "متشـوقاً جداً إلى تمضية الشـتاء معها حيث بدأ الحرب قبل الوقت المناسـب، كما أنه ارتبك في إدارة كل شيء. لم يمتلك أنطونيو زمام نفسه، بل بدا وكأنه

تحـت تأثيـر عقاقيـر معينة أو ترتيبات مشـعوذة، وذلـك لأنه كان يفكر فيها على الدوام، وكان مشـتاقاً إليها إلى درجة أنه فكر في تسـريع عودته أكثر مـن تفكيـره فـي قهـر العدو". قيل مجـدداً إن كليوباترا قد فوجئت بتوقيت عودة أنطونيو، أو إنه ارتبك في تحركاته حيث تحملت كليوباترا اللوم.

ترافقـت الحملـة مـع دلالاتٍ مفيـدة، وإن كانت كارثية. وقع أنطونيو تكـراراً ضحيـة عـدوٍّ مـراوغ، كما تعرّض للخداع من قِبـل أصدقائه. كانت أشهُرُ الحملة البارثية تتميّز بالوثوق بالرجال غير الموثوقين أكثر مما تميّزت بالوقوع في غرام المرأة غير المناسبة. كان أنطونيو قائداً متعاطفاً مع جنوده إلى درجة "مقاسمته إياهم مشقات الحملة، وفترات الإحباط الناتجة عنها، كما أعطاهم كل ما أرادوه" وذلك من أجل انتزاع الولاء من الجنود الجرحى أكثـر مـن الجنـود القادريـن. بدا أن القائـد عاجز عن التفكيـر في الانتقام، وأكثر ما ظهر ذلك كان في حالة الملك الأرمني أرتافاسديس الذي شجّع أنطونيو على اجتياح ميديا (وهي أذربيجان، البلاد المليئة بالقبائل الشرسة وسلاسـل الجبال العالية) المجاورة لبلاده، ثم قام بخيانته. شـجعه رجاله علـى اسـتدعائه لمحاسـبته، وهو الأمـر الذي رفضه أنطونيـو؛ رفض القائد "محاسـبته على خيانته، كما رفض التخلي عن مشـاعر الصداقة والاحترام تجاهه". وقد عرف كيفية العزف على أوتار العاطفة، لذلك كان يعمد عند اضطـراره إلـى دفـع رجاله إلى خوض مخاطرات جسـيمة إلى ارتداء عباءةٍ داكنـة اللـون إمعانـاً منـه في التواضـع أمامهم". (نصحه أصدقـاؤه بالظهور أمـام جنـوده مرتديـاً عبـاءة القائـد الروماني الأرجوانية). أمـا أعظم ضحايا تلك الحملة فقد كانت راحة باله. وصل مرةً واحدة على الأقل إلى حافة الانتحار، إذ كان في حالة سـيئة جداً، أي كما هو متوقع من قائد سـبق له أن برهـن عـن دهائـه، وشـجاعته، وعن حضوره في كل مكان. أما الأسـوأ من ذلك كله - بعد تلك الحملة التعيسة التي أفقدته عشرات الآلاف من رجاله، وبعد أن وزّع ما بقي من أمواله، وبعد أن توسّل الموت - فهو أنه

أقنع نفسه في سوريا، ونتيجة "لتشوّشٍ كبيرٍ في ذهنه"، بأنه ربح معركته نتيجة الفرار من ميادين المعركة.

كان ذلك هو الرجل الذي وجدته كليوباترا على الشاطئ السوري. أثار وصول الملكة ارتياح الجنود الجائعين، والمحبَطين، والذين كانوا في حالةٍ يرثى لها، وذلك بالرغم من الاتهامات التي وجهتها إلى أنطونيو. لعبت كليوباترا دور إيزيس السخية والعطوف، لكننا لا نمتلك أي فكرة عن كيفية تعاطيها مع أنطونيو الذي كان غارقاً في الأوهام. صُدمت الملكة بالتأكيد عند رؤيتها الآثار التي تركتها حملة الشهور التسعة على الجيش ذي التدريب الجيّد، والذي كان مزوّداً بمؤن كثيرة. ظهرت منذ البداية توترات وخلافات في الرأي في ذلك المعسكر السوري. فقامت كليوباترا في هذا الوقت بالذات بحثّ أنطونيو على معاقبة هيرودس بسبب معاملته السيئة لألكساندرا، لكن أنطونيو أمر كليوباترا بعدم التدخل، الأمر الذي لم تتعود على سماعه. يُحتمل أنها اعتبرت أنها لا تستحق أبداً ما سمعته بالنظر إلى الظروف. ومع ذلك بقيت مع أنطونيو لأسابيع عديدة في خيمة تقع وسط خيَم متباعدة بمسافاتٍ منتظمة، وهي الخيَم التي شكلت مدينة رومانية مرتجِلة، لكنها كانت ضرورية من أجل التفكير في خطواته المقبلة. تلقى أنطونيو أخباراً تفيد بأن ملكَي الميديين والبارثيين قد تشاجرا في أعقاب انسحابه، وأن ملك ميديا المجاورة لبارثيا يقترح التعاون مع أنطونيو، فبدأ من فوره بالتحضير لحملةٍ جديدة بعد أن أنعشته هذه الأخبار.

لم تكن كليوباترا المرأة الوحيدة التي هبّت لمساعدة أنطونيو وهو الذي يمتلك زوجة في غاية الإخلاص. طلبت تلك الزوجة الإذن للسماح لها بتقديم العون إلى زوجها، وهو الإذن الذي أسرع شقيقها بتلبيته بكل سرور. كان أوكتافيوس في وضع يسمح له بإرسال المؤن، وذلك لأن حملته لاقت نجاحاً. كانت رحلةً أوكتافيا بمثابة فخ، كما أنه سبق لأوكتافيوس أن وعد أنطونيو بتزويده بعشرين ألف رجل من أجل

حملـة بارثيـا، لكنـه لـم يـفِ بوعده. عمـد أوكتافيوس إلى إرسـال 2,000 رجل من قوات النخبة مع شـقيقته، وهـم الحراس الشـخصيون المزوّدون بـدروعٍ قويـة، والذيـن جرى انتقاؤهـم بعناية. كان قبول أنطونيو لهذا العدد مـن الرِّجـال يعنـي التخلي عن 18,000 رجل، وذلك في وقتٍ كان يحتاج فيه إلى تعويض من فقدهم من جنوده. أما رفضُ الجنود فكان بمثابة إهانة لشـقيقة منافسـه. كان أوكتافيـوس فـي هذا الوقت بحاجـةٍ إلى عذرٍ معقولٍ يبرر له الانسـحاب من المعاهدة الثلاثية، وكانت تلك فرصة ثمينة بالنسـبة إليـه، كمـا أنـه عرف أن أنطونيو لن يقوم بالأمر الصائب. سـارعت أوكتافيا بالتوجـه إلـى أثينـا، كمـا أرسـلت إلى زوجهـا تعلمه بقدومهـا. قال ديو إن أنطونيو كان في الإسكندرية في ذلك الوقت، بينما يوحي بلوتارك بأنه بقي مـع كليوباتـرا في السـاحل السـوري. يمكننا مع ذلـك أن نتأكد من أمرين: كان أنطونيو وكليوباترا في هذا الوقت قريبين جداً من بعضهما بعضاً، لكن التنافر ساد بين أنطونيو وأوكتافيا، ولهذا لم تكن على استعداد للتقدم أكثر. عـزم أنطونيـو علـى المغادرة مجدداً نحو بارثيا. لم تُخدع أوكتافيا برسـالته هذه، فأرسـلت صديقاً مقرباً من أنطونيو لمتابعة المسـألة، ولتذكير أنطونيو بفضائـل زوجتـه العديـدة. سـأل ذلـك المبعوث الـذي كان مخلصاً للزوج والزوجة على حدٍّ سواء عما ستفعله أوكتافيا بالمؤن التي بحوزتها. كانت هذه هي النقطة التي تفوقت فيها على كليوباترا، ولربما كان ذلك هو بيت القصيـد. لـم تصطحـب أوكتافيا معها الحراس البريتوريين فقط، بل أخذت معها كمية محترمة من الملابس، وعدداً من الخيول، وحيوانات الحمولة، وأمـوالاً خاصـة بهـا، بالإضافـة إلى الهدايا لأنطونيو وضباطه. ماذا عسـاها تفعل بها كلها، وإلى أين سترسلها؟

وضعت أوكتافيا التحدي، وهو التحدي الذي استجابت له كليوباترا؛ وإن لـم يكـن علـى المسـتوى ذاتـه. رأت الملكـة فـي أوكتافيا منافسـةً في غايـة الخطـورة تقـف فـي مـكان ليس ببعيد جـداً عنهـا. كان مبعوث تلك

المنافسة المخلص في أرض كليوباترا، وهي التي سمعت أخباراً حول جمال أوكتافيا. كانت تعرف أن رجال الرومان يتميزون بالغيرة في بعض الأحيان، أي أن أولئك الذين يرونها سيتساءلون في ما بعد عن سبب تفضيل أنطونيو للملكة المصرية. استنتج هؤلاء أن كليوباترا "لا تتفوق على أوكتافيا بالشباب ولا بالجمال". (كانت الاثنتان في العمر ذاته). قلقت كليوباترا من أن تؤدي سلطة أوكتافيا، والنفوذ الذي يتمتع به شقيقها، "ورفقتها المحببة، واهتمامها الشديد بأنطونيو" إلى جعل أوكتافيا مغرية إلى حد لا يُقاوم. جرّبت الملكة، أو قيل إنها جرّبت، وسيلة أخرى فلجأت إلى النشيج بصوتٍ عالٍ، واعتمدت في بعض المناسبات السلاح الأول، أو الأخير، في ترسانة سلاح المرأة. شكّ بلوتارك في أن تكون كليوباترا قد تظاهرت بأنها مغرمة بأنطونيو. أوردت إحدى الروايات الرومانية أن الملكة عاجزة عن الشعور برابطة عاطفية صادقة، أما إذا كان لنا أن نصدّق هذه الرواية، والتي يبدو أنها مجتزأة بشكلٍ يثير الشك، فيمكننا القول إنها كانت فعّالة كامرأة مثلما كانت فعالة كملكة. كان باستطاعة الملكة تلقين أوكتافيا درساً قيّماً في هذا المجال، إذ لم تعتد التوسّل ولا المساومة، كما أنها لم تعتد رفع صوتها. بل عمدت، بدلاً من ذلك، إلى رفض تناول الطعام، وبدت منهكة بسبب حبّها، ومحطّمة نتيجة شوقها لأنطونيو. (كان الإضراب عن الطعام من أقدم الحيَل التي سجّلتها الكتب. سبق أن عمدت ميديا، وهي إحدى بطلات يوريبيديس، إلى الإعلان عن إضراب كهذا، وذلك كي تستعيد زوجها الذي أفلت من قبضتها). أما كليوباترا فكانت تبدو في غاية السعادة عندما يقترب منها أنطونيو، بينما كانت تظهر الكآبة وفقدان الوعي عندما يبتعد عنها. كانت تسير متثاقلةً ودموعها تنهال فوق خدّيها، ثم لا تلبث أن تتظاهر بتجفيفها ما إن يظهر أنطونيو، أي إنها كانت تريد إعفاءه من الشعور بالكآبة.

اعتادت كليوباترا على عدم القيام بأي شيء بمفردها إلا في ما ندر،

وهكذا وظّفت في عروض بكائها ونحيبها مجموعة من المساعدين. عمل أفراد حاشيتها نيابة عنها لأوقاتٍ إضافية، إذ عمد هؤلاء إلى تأنيب أنطونيو غالباً، وتساءلوا عن سبب كونه قاسي القلب هكذا إلى حد تحطيم "عشيقة أخلصت له وحده". تساءلوا كذلك عما إذا كان لم يتمكن من فهم الفرق بين المرأتين. قالوا له أيضاً إن أوكتافيا قد تزوجته نتيجة المتطلبات السياسية ومن أجل شقيقها، كما أنها تمتعت بلقب السيدة المتزوجة. أضاف هؤلاء كذلك أنها بالكاد تتمكن من الصمود في حال إجراء مقارنة بينها وبين كليوباترا التي وإن كانت حاكمة بلادٍ كبيرة، وملكة على ملايين الناس، "فقد حملت لقب عشيقة أنطونيو، أي إنها لم تنكر اسمه ولا أظهرت الازدراء تجاهه طالما أنها تتمكن من رؤيته والعيش معه". كما قالوا له إن تضحيتها من أنبل التضحيات لأنها أهملت مملكة عظيمة، وتخلّت عن مسؤولياتها العديدة، وهي "تضحي بحياتها وترافقك في حملاتك متخفية بشكل محظية". هل تمكّن أنطونيو من أن يبقى على حاله من اللامبالاة، أم إنه لا مجال للمقارنة بين المرأتين؟ كانت كليوباترا قادرة على التضحية بكل شيء، "طالما أنها تتمكن من رؤيته والعيش معه، لكنها لن تستطيع الاستمرار بالحياة إذا أُبعدَت عنه"، وهو الاستنتاج الذي دعمته بفعالية من خلال زفراتها وارتجافاتها وحماقاتها. كما تدخل أشخاص عديدون في هذه المسألة، ومنهم أصدقاء مارك أنطونيو المقرّبون، وهم الذين سحرتهم كليوباترا والذين أدركوا جيداً ميول أنطونيو الحقيقية.

تضمّن الوضع حدوث مناوشات وإن لم تصل إلى حد الصدامات المباشرة، كما ساد التوتر الشديد في الجو المخيّم على أنطونيو وكليوباترا. أما تلك الانفعالات المصطنعة التي أظهرتها كليوباترا فقد تمكنت من خلالها من إذابة قلب أنطونيو، كما أن التأنيب الذي لقيه من أصدقائه أثّر فيه كثيراً، وهو الرجل الذي تتأجج في قلبه العواطف المشوشة. يبدو كذلك أن أنطونيو اعتمد على التوبيخ الذي تجاوب معه بشجاعة. كان

أنطونيو سعيداً بخضوعه، ويُحتمل أنه كان في أفضل حالاته عندما لعب ذلك الدور. أظهره بلوتارك على أنه كان يشعر بالسعادة بسبب التأنيب الذي يتلقاه أكثر ممّا لو تلقى إطراء، وعلى الأخص عندما كان يسمع التأنيب على قساوة قلبه، لكنه "أخفق في إدراك أنه بهذه التحذيرات الظاهرة كان ينجذب نحوها بقوة". أقنع نفسه بأنها على استعداد لأن تقتل نفسها إذا تركها. كان من الصعب عليه بشكلٍ خاص أن يشعر بالغضب تحت هذه الظروف، وخاصة لأنه سيتحمل عندها وزر مقتل امرأة ذكية أظهرت له إخلاصاً كبيراً. يمكننا القول إن رجال أنطونيو عرفوا أنه رجلٌ، بغضّ النظر عن كل الأوصاف الأخرى التي يُمكن أن تُقال عنه. قرّر أنطونيو صدّ أوكتافيا التي ما لبثت أن عادت إلى روما امرأة مهانة في أعين الجميع ما عداها. رفضت أوكتافيا البقاء أسيرة هذه المهانة، وهكذا رفضت مغادرة بيت الزوجية عندما أمرها شقيقها بفعل ذلك. ورفضت مجدداً أن تلعب دور هيلين طروادة، وزعمت أنه "من المشين أن يُقال إن أعظم قائدَين في العالم قد أدخلا الرومان حرباً أهلية، وأن الأول قد فعل ذلك نتيجة شغفه بامرأة، والثاني بسبب استيائه من امرأة".

لم تُظهر كليوباترا عزوفها عن الأمر، لأن مشاعرها تجاه أنطونيو كانت مترافقة مع عرش مصر، وهكذا كانت خسارته لصالح أوكتافيا تعني خسارة كل شيء. كان أداء كليوباترا متقناً وترافق مع نتائج دائمة. تحوّل الاثنان بدءاً من هذه النقطة إلى ثنائي لا ينفصل، الأمر الذي عزاه ديو إلى "عواطف كليوباترا الجامحة وسحرها"، أما بلوتارك فقد عزا الأمر من جهته إلى "عقاقير معينة، أو إلى الشعوذات". أما رجال أنطونيو، وأوكتافيا كذلك، فقد اعترفوا بوجود عاطفة حقيقية بينهما، كما أن الوقائع الجغرافية أشارت إلى هذا الاستنتاج ذاته. بقي أنطونيو مع كليوباترا في الإسكندرية طيلة فصل الشتاء، وهو الذي امتلك سبباً عملياً كي يفعل ذلك بعد أن عزم على معاودة الزحف شرقاً في الربيع. يستحيل علينا إنكار وجود علاقة

حميمة تامة بين الاثنين بدءاً من شتاء العام 35، هذا إذا كنا نعني بالعلاقة الحميمة وجود ماضٍ من الود والغرام، وأسـرة مشـتركة، وسـرير مشـترك، بالإضافة إلى وجود رؤية مشتركة للمستقبل.

أسـفر أداء كليوباتـرا المتقـن لـدور الأنثى المغرمة عن صـرف انتباه أنطونيو عن شنّ هجومٍ ثانٍ ضد بارثيا، وهو الهجوم الذي أجّله كي يبقى إلـى جانبهـا. كانـت كلَيوباتـرا نحيلة وشـاحبة، كما أقلقه وضعها النفسـي، وهكـذا أربكـت برنامـج تحركاتـه عمداً. كان إحراز نصرٍ في الشـرق مهماً جـداً بالنسـبة إلـى أنطونيـو كما كان من قبل، هـذا إذا لم يصبح الأمر أكثر أهميـة. أمـا أوكتافيـوس فقـد انهمك بجمع الانتصارات بينمـا كان أنطونيو يلعـق جـراح هزيمتـه فـي بارثيـا. كما تمكّـن أوكتافيوس من سـحق قوات سيكستوس بومبي، ومن تحييد ليبيدوس. (تمكّن من تحويل ولاء جحافل ليبيـدوس إليـه مسـتخدماً الرّشـى). خلـت السـاحة لأوكتافيـوس وأنطونيو وحدهما. كان إحراز النصر النهائي في الشرق هو الضمانة الوحيدة لإنقاذ عباءة قيصر المجيدة. لم يفرغ أنطونيو في ذلك الحين من تسوية حساباته مـع الملـك الأرمنـي الـذي قرّر القائد - وإن بشـكلٍ متأخر - أنه مسـؤول عـن الانسـحاب الكارثـي. لم تُظهر الملكة رضاها عـن طموحات أنطونيو العسـكرية، وذلك لأنها أرادته أن يركّز على مجالاتٍ أخرى. كانت بارثيا أقل أهمية بالنسـبة إليها من السياسـة الرومانية، وهكذا كانت مصر محصنة تمامـاً ضـد أي اجتيـاحٍ يأتـي من الشـرق. كانت تلك المملكـة في الوقت ذاتـه ضعيفـة تمامـاً أمـام روما، كما لم تكن الأمجاد العسـكرية من ميزات حكمهـا، وهكـذا لـم تلقَ الحملة ضد بارثيا أي صدى يُذكر لعدة أسـباب. ومع ذلك، يسهل علينا سماع الحجج التي سيقت في ذلك الوقت، كما أنه من المهم جداً أن نتذكرها بوصفها من التوقّعات. كانت هناك أسباب قوية تدعـو أنطونيـو إلـى العودة إلى روما التي غاب عنها طيلة خمس سـنوات،

وقد قاومت كليوباترا هذه العودة بكل ما أوتيت من قوة التظاهر. كانت الحملة الشرقية مكلفة للغاية، لكنها اعتبرت أن عودة أنطونيو إلى روما، أي عودته إلى أوكتافيا وأوكتافيوس، ستكون أكثر كلفة بكثير.

بقي أنطونيو بحاجةٍ ماسةٍ إلى نصرٍ ما، كما كان متلهفاً إلى تسوية حساباته، فعمد "في غمرة حماسته للثأر من الملك الأرمني، ومن دون أن يكلّف نفسه الكثير من العناء" إلى إرسال ديليوس، وهو الرجل الذي لا تنقصه القدرة على الابتكار، شرقاً نحو أرمينيا. قدّم ديليوس اقتراحاً كعادته، وهو الاقتراح الذي وصل هذه المرة إلى المحاولات الدبلوماسية المعتادة. جاء الاقتراح على الشكل التالي: هل أرتافاسديس الملك الأرمني، على استعداد لتقديم وعدٍ بتزويج ابنته إلى إسكندر هيليوس، ابن كليوباترا وأنطونيو، الذي يبلغ السادسة من عمره؟ قبلت كليوباترا في ما يبدو بهذا الاقتراح، الأمر الذي يضمن جلوس أحد البطالسة على العرش الأرمني. كان من شأن اقتراحٍ كهذا ضمان تحالفٍ سلمي مع مملكةٍ جبلية، وهو أمر حيوي جداً بالنِّسبة إلى الحملة ضد بارثيا. كانت مملكة أرمينيا متذبذبة بالنسبة إلى تحالفاتها، وهي التي كانت حليفة روما مرات عدة، لكنها تعاطفت في بعض الأحيان مع بارثيا وحضارتها. لم يرُق هذا الاقتراح كثيراً لأرتافاسديس، وهو رجل الدولة الذي يتمتع بالمرونة والثبات. قاوم الملك كل محاولات التملّق والرّشى التي قدّمها ديليوس. ردّ أنطونيو عندما اجتاح أرمينيا في فصل الربيع، وتمكّن في فترة قصيرة من إخضاع البلاد، وسرعان ما أعلنها ولايةً رومانية. كان ذلك أخذاً بالثأر أكثر من كونه انتصاراً عسكرياً. كانت أرمينيا تمثل منطقة عازلة من الناحية الاستراتيجية، لكنها لم تكن قوةً عظمى بأي حالٍ من الأحوال. أدرك أنطونيو أن إحراز النصر هناك أمر مريح لرجاله الذين بقوا لأشهر عدة يصرحون بأن أرتافاسديس هو السبب في عدم تحقيقهم النصر على بارثيا. وأراد في هذا الوقت شنّ حملةٍ أكبر، فعمد إلى إبقاء القسم الأكبر من

جيشه في الشرق بانتظار قدوم الشتاء، وعاد إلى الإسكندرية منتصراً، ولم يصطحب معه كنوز أرمينيا فقط، لكنه اصطحب الملك وزوجته وأولادهما، هذا بالإضافة إلى حكام الأقاليم. لم يحترم أنطونيو مركز العائلة المالكة فعمد إلى تقييد أفرادها بأصفادٍ من الذهب.

تسلمت كليوباترا هذه المرة رسالة تفيض بالابتهاج والحبور من عشيقها فأمرت بإقامة احتفالات باذخة احتفاءً بعودته. أتت دوافع الملكة هذه المرة من أنطونيو، لأن أسلافها المتأخرين لم يكونوا من الفاتحين، لكن المواكب الحاشدة كانت مع ذلك من اختصاص البطالسة. كانت شوارع الإسكندرية التي تحيط بها تماثيل "أبو الهول" مصممة لمثل هذه المواكب الحاشدة، كما أن مواكب النصر الرومانية كانت مستقاة منها؛ كان خريف العام 34 مثيراً. أرسل أنطونيو أسراه كي يدخلوا قبله المدينة التي ما لبث أن دخلها بعباءته الأرجوانية في عربة. يُفترض أن موكب أنطونيو قد سار من أمام الأعمدة الرخامية، وأمام أبواب المتاجر التي تعلوها المظلات، وفوق الطريق المظلّل، وهو الطريق الذي ازدان بالرايات المرفرفة والجماهير المبتهجة. برع البطالسة كثيراً في هذه العروض، لكن أنطونيو وكليوباترا أضافا نكهةً جديدة إلى هذا الاحتفال، إذ عمد أنطونيو بعد فراغه من استعراض غنائمه - وأسراه - في قلب المدينة إلى تقديمها إلى ملكة مصر، وهي التي ارتدت زيّاً مخصّصاً للاحتفالات بعد أن جلست وسط رعاياها الذين تتمتع بحبهم فوق عرشٍ عالٍ وُضع فوق منصةٍ مطلية بالفضة.

عُرف أنطونيو بمهارته في إظهار تقديره لعشيقاته، لكن كليوباترا لم تتسلم فقط غنائم حملته، وخزنة أرمينيا الملكية، والرسميين من موظفي المملكة، لكنها تسلّمت الملك الأرمني الفخور وأسرته، وهم الذين كانوا جميعاً مقيدين بأغلالهم الذهبية. تغيّر جو الاحتفال عندما وقف أرتافاسديس

أمامها، وكانت تلك هي المرة الأولى التي تراه فيها. لم يكن الملك الأرمني مغفلاً ولا جاهلاً، إذ سبق لهذا الملك أن كتب عن الأحداث التاريخية، ودبّج الخطابات المعقدة. دأب الملك، وعلى مدى سنواتٍ عدة، على وضع بارثيا وروما ضد بعضهما بعضاً. محافظاً على مظهره المهيب، تقدّم الملك لكن من دون الركوع على ركبتيه، ومن دون أن يعترف بمركزها؛ إذ عمد بدلاً من ذلك إلى مخاطبتها بالاسم. فشلت كل محاولات الضغط عليه بالرغم من قساوتها، وهكذا رفض كل أفراد الأسرة الملكية الأرمنية الركوع أمام ملكة مصر. (يلاحَظ هنا أن أرتافاسديس قد تمكّن من الإفلات من نتائج تصرفاته هذه التي تميزت بالصفاقة. لم يكن الملوك الأسرى في روما محظوظين إلى هذه الدرجة إلا في ما ندر، وذلك بغض النظر عن السلوك الحسن الذي يظهرونه). كانت تلك هي المرة الأولى التي تشاهد فيها كليوباترا إذلالاً لأسرة ملكية، وهذه المقاومة الفخورة لملك. تركت هذه الحادثة انطباعاً شديداً عندها ولأسباب مفهومة. تبعت ذلك مأدبة مسرفة لشعب الإسكندرية، كما أُقيمت الاحتفالات في القصر وسط أعمال التسلية المخصصة للحاضرين. وزّعت كليوباترا بعد ذلك النقود والطعام على الحضور.

كان ذلك الموكب العسكري أمراً غريباً بالنسبة إلى أهالي الإسكندرية، وذلك رغم جذوره التي تعود إلى البطالسة. أما الاحتفال الفخم الذي جرى بعد ذلك فلم يسبق له مثيل. تدفقت الحشود بعد أيام قليلة إلى جمنازيوم الإسكندرية؛ أي المركز الرياضي فيها الذي يتميزّ بصفوفٍ من الأعمدة، وهو الذي يقع إلى الغرب من تقاطعات المدينة الرئيسة، ولا يبعد عن القصر سوى مسيرة دقائق قليلة. كان الجمنازيوم الذي يقع وسط الإسكندرية، والذي يبلغ طوله ستمئة قدم، أكبر مباني المدينة، ويُعتبر مركز المدينة الثقافي والترفيهي. كان ذلك المركز بمثابة قاعة أوبرا في أيامه، وكان وجود ذلك المركز هو الذي يجعل من بلدةٍ

ما مدينة. لاحظ سكان الإسكندرية في ذلك اليوم الخريفي وجود منصة أخرى مطليّة بالفضّة في الباحة المفتوحة لذلك المجمّع وقد وُضع فوقها عرشان ذهبيان ضخمان. احتل مارك أنطونيو أحد هذين العرشين، وما لبث أن خاطب كليوباترا بصفتها إيزيس الجديدة ثم دعاها إلى الانضمام إليه إلى العرش الآخر. ظهرت الملكة في زيّ تلك \السيدة الكامل، والذي اشتمل على عباءة مثنية وملتمعةٍ بتخطيطاتها، والتي وصلت بأطرافها إلى كاحليها. يُحتمل أنها وضعت على رأسها التاج الملكي الثلاثي والتقليدي؛ ذاك الذي يمثّل أفاعيَ مع رأس عقاب. أوردت إحدى الروايات أن أنطونيو كان يرتدي يومها زي ديونيسوس الذي يشتمل على رداءٍ مطرز بالذهب وينتعل حذاء يونانيًّا عالي السّاق. أمسك أنطونيو بيديه عصا الشمّار العائدة لذلك \السيّد، وكان إكليلٌ من العاج يحيط برأسه. بدا الأمر وكأنه مشهدٌ ثانٍ من مسرحية مرحة بدأت في طرسوس، أي عندما شقّت كليوباترا طريقها في أعلى النهر، وعندما انتشر الخبر بأن فينوس قد وصلت كي تحتفل مع ديونيسوس بالسعادة التي تغمر آسيا.

جلس أولاد كليوباترا على أربعة عروش أصغر حجماً وُضعت أمام الملك والملكة. خاطب أنطونيو الحشود المجتمعة بصوته الأجش، كما أمر أن تحمل كليوباترا منذ ذلك الحين لقب ملكة الملوك. (حملت النقود وصفها على أنها ملكة الملوك، ووالدة الملوك؛ كانت الألقاب تتغيّر بحسب المنطقة. أورد أحد النصب التذكارية في مصر العليا، والذي أُقيم بعد أربع سنوات، وصفها على أنها "والدة الملوك، وملكة الملوك، وأصغر \السيّدات سناً"). أما بالنسبة إلى شريكها في الحكم، أي قيصريون، والذي بلغ الثالثة عشرة من عمره في ذلك الوقت، فقد زاد أنطونيو رتبته إلى ملك الملوك، وهو لقب سبق للملوك الأرمن والبارثيين أن استخدموه. كما أسبغ ألقاب الشرف هذه باسم يوليوس قيصر، أي زوج كليوباترا ووالد قيصريون. تُعتبر هذه حالةً غريبة تُستعاد فيها ذكرى الحبيب المتيّم. مضى

أنطونيو كذلك، ومجدداً باسم قيصر، في تسمية أولاده من كليوباترا باسم "ملـك الملـوك"، كمـا قـدّم لكل واحد منهم مناطق واسـعة، وذلك بعد أن حملـوا ألقابـاً من وحي الشـرق. تقدّم إسـكندر هيليـوس الصغير عند تلقيه إشارة من أنطونيو، وكان يرتدي عباءة فضفاضة من ذلك النوع الذي يرتديه ملوك فارس، كما وضع درعين حول ساقيه، واعتمر عمامةً مستقيمةً ومدببةً تنتهي بريشة طاووس. امتدت الأراضي التي كان من المفترض أن يحكمها حتـى الهنـد، كمـا كان يُفتـرض بـه أن يحكم أرمينيا، وميديـا، وبارثيا، هذا إذا تمكّـن والـده مـن قهرهـا. (تلقـى ذلك الشـاب الصغير، مجـدّداً، وعداً بالـزواج مـن ابنـة ملك الميديين، وهو العدو التقليدي لأرتافاسـديس). أما فيلادلفـوس، وهـو ثمـرة تلاقـي أنطونيـو وكليوباتـرا في أنطاكيـا، فقد كان مصغـراً للإسـكندر الكبيـر. انتعـل الفتى حذاءً عالي السّـاق، وارتدى عباءة أرجوانية قصيرة، واعتمر قبعة صوفية ذات حافّة ملفوفة بإكليل، وهي القبعة التـي كان المقدونيـون يسـتخدمونها. كان مـن المفتـرض أن تكون فينيقيا، وسوريا، وقيليقيا، والبلاد الواقعة غرب الفرات، تحت حكمه. أما كليوباترا سيلين فقد كان من المفترض أن تحكم كيرينيا، والمستعمرة اليونانية التي أصبحت تُعرف الآن بشرق ليبيا، وذلك بالإضافة إلى مئات الأميال الممتدة عبر الصحراء. نهض الولدان الصغيران بعد الانتهاء من توزيع الممالك كي يقبّلا والديهما. أحاطت كتيبة من الحراس ذوي الملابس الزاهية بالأولاد، وهي الكتيبة التي كان أفرادها من الأرمن الذين أحاطوا بالإسـكندر، ومن المقدونيين الذين أحاطوا بالبطالسة.

قسّـم أنطونيـو الشـرق بهـذه الطريقة، بما في ذلـك الأراضي التي لم يسـتحوذ عليها بعد. أما بالنسـبة إلى تلك المرأة الشـابة التي هرّبت نفسـها إلى الإسكندرية قبل أربعة عشر عاماً كي تتوسل استرجاع مملكتها الضعيفة فقد شكّل هروبها تحولاً مثيراً للأحداث. برزت كليوباترا محتفظة بتبجيلها، وقوتها التي لا تُقهر، وبدت إلى جانب القائد الروماني إمبراطورة أكثر من

كونها ملكة. امتدت الأراضي التي تحكمها فوق مساحة واسعة من آسيا، كما أن حدود مملكتها قد رُسمت وهي تنعم الآن بالسلام. كانت الملكة تحت حماية الجحافل الرومانية، وهي التي باتت تحكم الآن مع أولادها، نظرياً على الأقل، مساحةً هي الكبرى بين تلك التي حكمها أي ملكٍ من البطالسة منذ قرون. أما النقود التي سُكّت لهذه المناسبة فقد أظهرتها كأول أجنبية تظهر على نقودٍ رومانية. بدت صورة الملكة على هذه النقود مهيبة، وقوية، فقد بدت أكبر سناً، وكان فمها أكثر امتلاءً، كما بدت أكثر سمنة بشكلٍ ملحوظ، وعلى الأخص في المنطقة الممتدة حول عنقها.

يستحيل علينا تحديد الشخص الذي دفعته طموحاته إلى إقامة هذه الاحتفالات المتألقة، وهي الاحتفالات التي عُرفت في ما بعد على أنها عطايا الإسكندرية. يصعب علينا على وجه الخصوص تحديد بصمات كليوباترا في هذه الاحتفالات، وذلك لأن الحقيقة كانت تتعرض للتحوير الدائم على أيدي الرومان. كانت رسالة ذلك اليوم واضحة، وعلى الأقل جزئياً. جلس على العرشين الذهبيّين من قال عنهما بحقٍّ أحد المؤرخين العصريين من ذوي الأعصاب الباردة إنهما "الشخصان الأكثر روعة في العالم". بدا أن الاثنين قد قاما بإحياء حلم الإسكندر الكبير، وهكذا قاما بالترويج للإمبراطورية العالمية التي تتجاوز الحدود القومية، والتي تتبنى ثقافةً مشتركة تتمكن من توحيد أوروبا وآسيا، كما أعلنا عن نظامٍ جديد. ترأست كليوباترا هذه الاحتفالات، كما أن المآدب عمّت المدينة بعد ذلك؛ لم تفعل ذلك كملكةٍ فقط ولكن بوصفها واحدة من بين الأسياد المبجّلين. سار إلى جانبها ابن قيصر الذي أُسبغت عليه صفة التبجيل، بينما سار من الجانب الآخر أنطونيو الديونيسوسي.

اعتاد مارك أنطونيو على التسرّع في استنتاجاته، وهكذا كانت عطايا الشرق نوعاً من أنواع التدرّب على التفكير الحالم. لم تشكّل هذه الاحتفالات أيّ فرقٍ بالنسبة إلى إدارة المناطق التي وزّعها أنطونيو؛

وهي التي كانت بمعظمها تحت إدارة حكام رومانيين. أما الملك الأرمني فقد بقي حياً، كما أنه لم يكن بوسع أنطونيو أن يمنح أحداً مملكته. لم يكن الطفل ابن العامين في مركزٍ يمكّنه من الحكم. ويمكننا القول إن احتفالاتٍ كهذه - التي كانت عملاً من أعمال الاستيعاب وتوزيع السلطات، وكانت بطلمية بالكامل نظراً إلى ضخامتها - لم تكن موجهة إلى سكان الإسكندرية فقط. لم تخلُ تلك الاحتفالات من الفخامة، لكن رعايا كليوباترا لم يكونوا بحاجة في العام 34 إلى أي تأكيدٍ على ثبات حكمها، وعلى مركزها المبجل، وعلى سيادتها، أو حتى على الدور الذي يلعبه أنطونيو في بلاطها. نظر هؤلاء الرعايا إليه بوصفه ديونيسوس أكثر من كونه حاكماً رومانياً. يُحتمل أن يكون الاثنان قد أرادا صياغة اللمسات الأخيرة لشرقٍ خاضعٍ وإن كان مليئاً بالفوضى، ويُحتمل كذلك أن يكون أنطونيو قد قصد توبيخ أولئك الملوك الذين تحدّوا سلطته في بارثيا. وأيضاً يُحتمل أن يكون أنطونيو وكليوباترا قد أرادا توجيه رسالة قوية وواضحة إلى أوكتافيوس. استمد هذا الأخير سلطته من يوليوس قيصر فقط، وكان يُمكن أن يكون ابن قيصر بالتبني، لكن كليوباترا وأنطونيو شدّدا على أن ابن قيصر الطبيعي كان حياً، وعلى وشك أن يصل إلى سن البلوغ، كما أنه أصبح ملكاً، وبشكلٍ مفاجئ، على مناطق شاسعة من الأراضي. كانت تلك الرسالة في غاية الأهمية في الوقت الذي قيل فيه إن أوكتافيوس كان مشغولاً من وراء الكواليس في محاولة إفشال الجهود التي يبذلها أنطونيو في أرمينيا، كما أنه حاول رشوة أرتافاسديس.

تعود كل الروايات المتعلقة بهذا الموضوع في جذورها إلى روما، حتى وإن كان أنطونيو وكليوباترا لم يحاولا توجيه رسالتهما إليها. يستحيل علينا في الوقت ذاته استخلاص ما أراد الاثنان إيصاله إلى العالم، وما هي الأمور التي وصلت بالفعل إلى أسماع روما، وما هي الأمور التي قام مروّجو الدعايات بتحويرها، وتضخيمها، وتشويشها. كانت لغة ذلك

العرض الضخم شرقية بالكامل، لكنها فُهمت خطأً في العام 34 على وجه الخصوص. كان يُفترض بأنطونيو أن يكون أذكى من أن يحاول التركيز على أبوة قيصيريون. (يُحتمل أنه كان يعرف ذلك، لكن بلوتارك يُغفل الملاحظات الملتهبة التي ترافقت مع هذا الموضوع). امتلك أوكتافيوس سبباً كافياً للتركيز على هذه الإهانة، كما ركّز على الفخامة غير الرومانية للاحتفالات. كان من الملزم بالنسبة إليه التخفيف من حدة الرمزية القوية التي حملتها تلك الاحتفالات، وأن يحوّل النصر العسكري، وتلك المواكب الملكية الفخمة، إلى مجرد احتفالات لمجموعة من الثملين وإلى مسرحية مضلِّلة، وإلى عرضٍ سخيفٍ للأزياء. اعتبر أوكتافيوس أنه من غير الجائز أبداً تكريم يوليوس قيصر في الإسكندرية، وأنه من غير الجائز أن يحتفل المرء بالنصر خارج روما، وبعيداً عن أسياد روما المبجّلين. لم يفهم أوكتافيوس السبب الذي دعا أنطونيو إلى الاحتفال الصاخب بالانتصار على أرمينيا، في حين أن بارثيا بقيت بعيدة عن العقاب.

أراد أنطونيو أن تكون عطايا الشرق احتفالاً رسمياً بغض النظر عن الرسالة التي أراد توجيهها. وأرسل تقاريره عن النصر والاحتفالات إلى روما كي يتم التصديق عليها في مجلس الشيوخ. تدخّل الأصدقاء المخلصون مع معرفتهم بأن أخباره سوف تُفهم في غير سياقها الصحيح. بدا أنطونيو "استعراضياً ومتغطرساً"، وهما الصفتان اللتان كلّفتا قيصر حياته. أما إذا أراد أنطونيو إدهاش مواطنيه بتلك العروض الفخمة فقد تبيّن له أن قوانين البصريات قد عملت لغير صالحه. عمدت روما إلى التعمية على وهج العروش الذهبية. واختلطت الأمور على العقل الروماني الذي لم يستوعب كيف أنه بإمكان أنطونيو أن يكون قائداً في الغرب، وملكاً في الشرق في الوقت ذاته. أقدم أنطونيو على المزج بين رموزه بطريقة خطرة. أما إذا كانت كليوباترا ملكة على تلك الأراضي الشاسعة فماذا سيتبقى من دور للقائد الروماني؟ لم يعمد أنطونيو في هذه الحالة، إلى فرض سيطرته

الشخصية على تلك الأراضي. أما لقب كليوباترا فقد كان فضفاضاً بشكلٍ غير معقول، ومثيراً للاحتجاج، كما كان يشكّل إهانةً، ليس فقط لروما، لكن لنظيراتها من الممالك. احتلّت كليوباترا لوقتٍ طويل مركزاً استثنائياً في لائحة الحكام التابعين لروما، لكنها فاقت في ذلك الوقت كل نظرائها ثروةً ونفوذاً. أما علاقتها بأنطونيو فقد كانت تشكّل معضلة بحد ذاتها. تساءل الرومان عن سبب وجود رسم تلك المرأة الأجنبية على نقودهم، كما لم يفهموا سبب وجود رسم أنطونيو مع امرأة ليست زوجته على الدنانير الرومانية. وقد بدا الأمر في ذلك الحين وكأن أنطونيو يقوم بتوزيع الأراضي الرومانية على الأجانب.

أراد شخص واحد فقط نشر رسائل أنطونيو؛ لم ينجح أوكتافيوس في ذلك بالرغم من أنه نجح في منع انتشار التقارير التي دارت حول النصر على أرمينيا. لم يرغب أوكتافيوس في منح أنطونيو نصراً رومانياً، الأمر الذي يحمل معه أهمية كبيرة. يُحتمل أن تكون احتفالات عطايا الشرق التي أُقيمت في ذلك الوقت أكثر بقليل من تمرين وسط الفخامة التي تمنحها الإسكندرية، ووسط الزهو الذي عُرف به البطالسة، أو أنها عرض استفزازي للرموز، أو أن أنطونيو أراد بواسطتها التعويض عن إقامة تمثال ذهبي لكليوباترا في الفوروم. تجاهلت تلك الاحتفالات في أفضل حالاتها الواقع المحيط بها. أما في أسوأ حالاتها فقد كانت إهانة موجهة إلى أوكتافيوس، ومسرحية سلطوية وقحة. بدت النوايا قليلة الأهمية بالنظر إلى نظرة روما إلى هذه الاحتفالات، وهي النظرة التي أرادها أوكتافيوس: إن هذه الاحتفالات ما هي إلا إشارة فارغة وهزلية أرسلها شخصان مستهتران أثملتهما السلطة، "وتهريجات ديونيسوسية قادتها ملكة شرقية". وزّع أنطونيو السخي مع احتفالات عطايا الشرق هدايا كثيرة، لكنها لم تكن أكبر من تلك التي أسبغها على أوكتافيوس.

الفصل الثامن

علاقات غير شرعية
وأولاد غير شرعيين

"لأن الكلام شر: من السهل إثارته، لكن من الصعب تحمّله، ومن الصعب التخلي عنه. ما من كلام يتم التخلص منه كلياً، لأنه ما إن يبدأ عدد كبير من الناس بالكلام حتى يصبح، بدوره، شبيهاً بالأسياد.

هيزيود



بلغت كليوباترا عامها الخامس والثلاثين من دون أي تغيير في حظوظها الهائلة والمتراكمة. كما أثبتت السنة التالية أنها من بين أسعد سنوات حكمها وأكثرها حظاً. تمكنت الملكة بفضل أسرتها الهجينة من إيجاد حلٍّ مبتكرٍ للمشكلة الرومانية، ولمشكلة العثور على زوجٍ لها، ولمشكلة إمبراطوريتها المتقلصة. لم تعد الملكة بحاجة إلى دعم الجنود الأجانب، كما لم يعد بوسع أي مواطن من الإسكندرية توجيه انتقاد معقولٍ إلى صداقتها مع رجلٍ روماني. فتمكّنت كليوباترا من الاستحواذ على السلطة، ومن توحيد مصر بمساعدة الوفرة المتواجدة فيها. لمست الملكة قدراً كبيراً من شعبيتها من خلال احتفالات عطايا الشرق، كما أن أحواض سفنها بقيت منشغلة بمضاعفة أعداد سفن أسطول أنطونيو. تدفقت المداخيل على المملكة في هذه الفترة من دمشق وبيروت في الشرق، ومن طرابلس في الغرب، كما أن مختلف المدن سكّت العملات على شرفها، فتمكّنت الملكة في هذا الوقت من تحقيق حلم أحد الشعراء الذي تحدث

فيـه عـن أحـد البطالسـة الذي حافـظ على الثروة التي ورثهـا وزادها حيث فاقـت ثـروات كل الملـوك الآخرين، وذلك بسـبب "الخيرات التي تدفقت على مدار الساعة إلى قصره الفخم من كل حدبٍ وصوب".

حقـق أنطونيـو أكبـر رغبـة للملكـة: لـم يرجـع إلـى روما بعـد انتهاء الاحتفالات، وهي العودة التي كانت سوف تسـمح له بإغناء جيشـه بالمزيد من المجنّدين حيث يتمكن من الحد من نفوذ أوكتافيوس. لم يكلّف أنطونيو نفسـه عناء الذهاب إلى أنطاكيا، وهي القاعدة الأنسـب لشـن الهجوم شرقاً. فضّل القائد الروماني، بدلاً من ذلك، المكوث في الإسكندرية، وتمضية شتاءٍ مبهـجٍ ثالـث فيهـا، وهي المدينة الملكية التـي تبدو وكأنها مركز إمبراطورية جديـدة. عمـدت كليوباتـرا إمـا إلى وضع اللمسـات النهائيـة للقيصرية التي شُيّدت حديثاً، وإما إلى الاستمتاع بها. كانت القيصرية مجمعاً ضخماً أُقيم على شاطئ البحر، ويُحتمل أنها شيّدته على طرازٍ يماثل الفوروم في روما. دمجت هذه النسـخة الإسـكندرانية من القيصرية طراز العمارة اليوناني مع طراز العمارة المصري، لكنها كانت غنية بالذهب والفضة، ومليئة باللوحات والتماثيل، وغنية "بالشرفات والمكتبات والسقائف، والقاعات، والممرات، والبساتين الرائعة، وكانت مجيدة بقدر ما يسمح به الفن والوفرة". تسلّمت كليوباتـرا زمـام قيـادة مملكـة قوية في تلك الفترة، كما سـبق لأحد الرومان القلقيـن أن توقـع قبـل قـرنٍ من الزمان أن مصر قد تصبح في يومٍ من الأيام "مملكة قوية إذا ما توفّر لها قادة مقتدرون".

تجمّعـت حـول الملكـة مجموعـة مخلصـة مـن المستشـارين الذين خدموها مدة طويلة، ومن الرومان الذين أظهروا ولاءهم لها، وكذلك أسرة كبيـرة ضمّـت فـي نهايـة ذلك العام مـارك أنطونيو أنطيلوس، وهو الشـاب المراهـق، وأكبـر أبنـاء أنطونيـو من فولفيـا. أولت كليوباتـرا تعليم الأولاد اهتماماً خاصاً، وهكذا عمدت بعد انتهاء احتفالات عطايا الشرق إلى وضع تعليمهـم، جزئيـاً، في عهدة نيقولا الدمشـقي، وهو ابن أحد الدبلوماسـيين

النحفاء، والذي يصغرها بسنواتٍ عدة بوجهه المتورد ومزاجه اللطيف الذي يذكّر بأرسطو. امتلأت جعبة نيقولا بحكايات كثيرة، كما كان من رجال المنطق الموهوبين، وهو من ذلك النوع من الرجال الذي يُمكن للمرء الاعتماد عليه في إكمال حديثه بشكلٍ مقنعٍ وفصيح، هذا إذا ما تعثّر المرء في ذلك الحديث، واستغرق في ذرف الدموع قبل الوصول إلى نهايته. وقد انتقل نيقولا للسكن في القصر، فتعلّم أولاد كليوباترا الفلسفة والبلاغة على يديه، لكنهم تعلموا التاريخ بشكلٍ خاص وهي المادة التي اعتبرها أستاذهم "الدراسة المناسبة التي تليق بالملوك". كان نيقولا حاد اللسان وعنيداً بإصرار إذا دعته الضرورة لذلك، بالرغم من كونه لطيفاً. كان يعتبر أن راحته تكمن في إضافة 25 مجلّداً إلى تاريخ العالم القديم الشامل، وهو التاريخ الذي يتألف من 140 مجلداً، والمشروع الذي قارنه مؤلفه بالجهود التي بذلها هرقل من الغرب. استمرت في هذه الأثناء الاحتفالات حول الأولاد الذين انغمس بعضهم في حياة البلاط بكل حماسة. أما لوشيوس موناشيوس بلانكوس، وهو أحد أقرب مستشاري أنطونيو وحاكم سابق لإحدى المقاطعات، فقد ظهر خلال إحدى المآدب عارياً ومطلياً باللون الأزرق. قام الرجل بتسلية ضيوف كليوباترا عندما قلّد حورية البحر متلوياً فوق أرضية القاعة على ركبتيه، وهو الذي لم يضع عليه شيئاً من الملابس سوى ذيل سمكة، وتاج من القصب.

كان الميل نحو الانغماس باللهو معدياً، أو لعله كان موروثاً. بدأ أحد مرافقي أنتيلوس من الأطباء الشبان بالتحدث بطريقة مليئة بالزهو وبشكلٍ فظ ومطوّل، وذلك خلال مأدبة أُقيمت ليلاً. تقدم طبيب آخر من البلاط لإسكاته ومنعه من إتمام حديثه الفارغ، وصدف أن كان تلميذ الطب السابق الذي جال في مطبخ كليوباترا، فما كان من أنتيلوس إلا أن صاح من فرط السرور. أشار إلى لوحة جانبية بحركةٍ من ذراعه، وصاح وهو يدفع بمجموعة من الأكواب الذهبية نحو ضيوفه الذين كان لهم من

سرعة البديهة ما يكفي لتجنب هذه الأكواب: "إنني أعطيك يا فيلوتاس كل هـذه الأكـواب". لـم يتمكـن فيلوتـاس من تصديق ما يقولـه ذلك المراهق، لكنه ما لبث أن تسـلّم كيسـاً مليئاً بتلك الأكواب القديمة المصنوعة بدقة. (فضّل الرجل تسـلّم قيمة تلك الأكواب نقداً). اسـتمرت في أحياء المدينة أصداء الموسـيقى، والتمثيليات الصامتة، والعروض المسـرحية. لاحظ أحد البنّائين الأذكياء في ذلك الوقت أن ذلك التحالف السعيد القائم بين أنطونيو وكليوباترا يستحقّ تفسيراً آخر. ظهر أحد النقوش التي يُفترض أنها بقيت من تمثالٍ لأنطونيو، والتي حملت تاريخ 28 كانون الأول من العام 34. يبدو لنا مـن خـلال هـذه الكتابات أن أهالي الإسـكندرية كانوا ينظرون إلى عواطف أنطونيـو المتأججـة بالطريقـة ذاتها التـي كانت كليوباترا تنظر إليها. كما لقي سـخاء أنطونيـو صـدى في النقـوش الحجرية، لكن ليس بصفته "الشـخص الذي لا مثيل له" - تستدعي التورية هنا كلاماً موسعاً باللغة اليونانية أكثر من اللغة الإنجليزية - وإنّما بصفته "العاشق الذي لا مثيل له".

لم يتجاهل المبتهجون الأعمال الرسـمية للمملكة، كما أن كليوباترا اسـتمرت في اسـتقبال الوفود، وفي المشاركة بالاحتفالات الدينية، وكذلك في تطبيق العدالة. كما أشرفت على المناقشات الاقتصادية، واجتمعت مع المستشـارين، وترأسـت عدداً لا يُحصى من الاحتفالات في الإسـكندرية. تضمنـت أعمـال الدولـة أعمالاً مصريـة - رومانية مشـتركة، هذا بالإضافة إلى تمركز الجنود الرومان في البلاد لفترة تقدّر بنصف العمر الذي عاشته كليوباتـرا. أوردت إحـدى الروايات أن حـرّاس الملكة من الجنود الرومان حفـروا اسـمها علـى دروعهم. وقد قضت الترتيبـات المتبادلة بين الطرفين كذلك بتقرير مصير الشـؤون الرومانية في الإسـكندرية، وذلك بدلاً من أن يحـدث العكـس. أملَـت كليوباتـرا في العام 33 مرسـوماً علـى أحد الكتبة تضمن منح أحد كبار قادة أنطونيو إعفاءات ضريبية هائلة. سبق لبوبليوس كانيديوس أن خدم في الحملة ضد بارثيا، كما قام بعملٍ مميزٍ في أرمينيا.

منحته كليوباترا لقاء خدماته هذه إعفاءات جمركية على صادراته التي تبلغ 10,000 كيس من القمح، وإعفاءات جمركية على وارداته من الشراب التي تبلغ 5,000 إناء. كما مُنح الرجل أيضاً إعفاءات ضريبية دائمة على الأراضي، وهو الامتياز الذي أعطت كليوباترا كل من يستأجر أراضيه إيّاه. أُعفيت كل مواشي كانيديوس من الضرائب أيضاً، وكذلك كانت معفاة من المصادرة والحجز(*). كانت تلك طريقة ذكية تهدف إلى إبقاء رجال أنطونيو مخلصين وعلى ولائهم، وذلك تحسباً للاحتمال البعيد بأن تكون مغريات الإسكندرية غير كافية للإبقاء على ذلك الولاء. كانت تلك طريقة أكثر فعالية من دفع الرّشى من أجل التودد إلى رجلٍ روماني، وذلك لأن دفع الرّشى يجعل الرجال، "يرغبون في الحصول على المزيد منها". اعتاد القائد الروماني، وهو العضو الثالث في مجلس قيادة البلاد، والملكة المصرية على القيام بأعمالهما معاً، "وانضمت إليه في إدارة الاحتفالات، وفي الاستماع إلى الدعاوى القضائية". تولى أنطونيو مسؤولية إدارة الجمنازيوم بناءً على إلحاحها الشديد، وهي المسؤولية ذاتها التي تولاها في أثينا. كما أدار، وبصفته قائد الأمر الواقع للجالية اليونانية، كل الأمور المالية العائدة لهذه الجالية، وأشرف على تنظيم أمورها، وتوظيف الأساتذة لها، وتنظيم المحاضرات، والمباريات الرياضية. جلس أنطونيو مع كليوباترا أمام الرسّامين والنحّاتين. كان أنطونيو بالنسبة إلى كليوباترا بمثابة أوزيريس أو ديونيسوس، أمّا هي فقد مثّلت دور إيزيس أو أفروديت. زحف أنطونيو مجدداً نحو أرمينيا في منتصف العام 33، وتمكّن هناك من ترتيب سلام مع ملك ميديا، حيث اتفق الطرفان منذ ذلك الحين على خدمة بعضهما بعضاً كحليفين ضد البارثيين، وحتى ضد أوكتافيوس إذا لزم الأمر. نعمت

(*) يتضمن حظ كانيديوس الحسن بعض المفارقة، فقد اتهم الرجل في شبابه بنقل كنز عم كليوباترا المخلوع، والذي كان ملكاً على قبرص، إلى روما. ثارت شكوك كثيرة حول إمكانية الوثوق بكانيديوس لتبرئة نفسه من ذلك العمل الشنيع.

آسيا بالهدوء في ذلك الوقت، وعاد أنطونيو إلى الإسكندرية برفقة أيوتايب، أميرة ميديا وخطيبة إسكندر هيليوس.

أرسل أنطونيو وكليوباترا من خلال إقامة احتفالات عطايا الشرق رسالة واضحة إلى أوكتافيوس. كان الرجل مستبعداً كلياً عن خططهما التي وضعاها للشرق. ومع ذلك بقي الرجلان على اتصالٍ ببعضهما، وإن كانت درجة الود قد تفاوتت بدرجة أو بأخرى. تبادل الرجلان المبعوثين والمخبرين في ما بينهما، كما واظبا على التراسل عن طريق أصدقاء مشتركين. وبقيا على تحالفهما الثلاثي حتى نهاية العام 33. (تخلّص الرجلان من ليبيدوس في ذلك الوقت، وكذلك من سيكستوس بومبي العنيد. لقي سيكستوس الهزيمة على يد أوكتافيوس، لكنه أُعدم بناءً على أوامر أنطونيو في أغلب الاحتمالات). امتلك أنطونيو ما يكفي من الأسباب التي تجعله يشعر بالمنعة، كما أنه بعث برسالة أخرى إلى أوكتافيوس في هذا الوقت، كتب له فيها أنه سوف يتخلى عن سلطاته ويستعيد الجمهورية في روما، هذا إذا كان أوكتافيوس مستعداً للقيام بالأمر ذاته. يُحتمل هنا أن يكون كل ذلك مجرد خدعة من أنطونيو، إذ بدا في واقع الأمر وكأنه يتخلى عن رأسماله السياسي الضئيل، وعن ألقابه الرومانية، وعن تأليف الحكومة الرومانية؛ فهي كلها أمورٌ ضئيلة الأهمية بالنسبة إليه في الشرق حيث بدا أنه سوف يبقى. حصل القائد على جوابٍ صريح، وهو الجواب الذي يُحتمل أنه كان يتوقعه. كان من الواضح منذ بعض الوقت أن مكوثه الطويل في الإسكندرية هو الذي يحظى بالأولوية عنده، وعلى الأخص منذ نبذه لأوكتافيا، واعترافه بقيصريون، لكن من المؤكد أن أصدقاء أنطونيو قد أبقوه مع كليوباترا، مع علمهم بالتطورات الحاصلة في روما. وقف أوكتافيوس في وقتٍ سابقٍ من تلك السنة في مجلس الشيوخ وهاجم زميله بكل قسوة. يستحيل علينا منذ تلك اللحظة تحديد أيهما أعظم أثراً: المبالغة

في المظاهر الملكية في الإسكندرية، أم ما حدث في روما رداً عليها. وهل كانت طموحات كليوباترا أهم من طموحات روما؟ أو هل كانت مشاعر أنطونيو تجاه كليوباترا أهم من نظرة روما إلى هذه المشاعر؟ يمكننا التأكيد على أنّ قصر كليوباترا كان أفخر مبنى في كل أنحاء العالم المتوسطي في العام 33، لكنه لم يبدُ أكثر روعة كما بدا من روما في ذلك الشتاء.

كان أنطونيو وأوكتافيوس يحملان مشاعر سيئة تجاه بعضهما منذ سنوات طويلة، وقد انفتح طوفان هذه المشاعر أخيراً، فأقدم كل واحدٍ منهما على اتهام الآخر بإساءة توزيع الأراضي. وقام أوكتافيوس في هذا الوقت بالمطالبة بنصيبه من غنائم أرمينيا، فردّ أنطونيو بأن رجاله لم يتسلّموا أي نصيب مما وزّعه أوكتافيوس في إيطاليا. (ردّ أوكتافيوس قائلاً إنه إذا كان أنطونيو يريد المزيد من الأراضي فباستطاعته الاستحواذ على بارثيا؛ كان ذلك اتهاماً قاسياً جداً). أدان أنطونيو أوكتافيوس بجريمة سيكستوس بومبي، وهي الجريمة ذاتها التي احتفل بها أوكتافيوس في روما، والتي حدثت إثر هزيمة سيكستوس على يدي أوكتافيوس(*). أدان

(*) عقّد سيكستوس بومبي الأمور من عدة زوايا، حيث عَقَد الرجل علاقات قوية مع عدة حكام كانوا يُعتبرون أعداء ألدّاء لروما وكليوباترا، كما كانوا مخلصين له بسبب علاقات والده معهم. (تودد سيكستوس إلى كليوباترا، الأمر الذي عمل أنطونيو على منعه. كان الرجل حكيماً بما يكفي كي يستنتج عدم إمكانية التحالف مع ملكة أجنبية وأحد مواطنيه المختالين الذي يتصرف كقرصان، وذلك بالرغم من الدعم الشعبي الكبير الذي يتمتع به في روما. كان أنطونيو مصيباً في حدسه، لأن سيكستوس الذي اشتُهر بالمغامرات، عرض تقديم المساعدة للبارثيين، وذلك من دون علم أنطونيو). أورد آبيان أن أنطونيو رفض توقيع الأمر بإعدام سيكستوس، ويعود سبب ذلك إلى شعوره بالخجل من فعل ذلك شخصياً، ولأنه يعرف أن الأمر سوف يُغضب كليوباترا، ولأنه لا يريد أن تحمّله الملكة مسؤولية الإعدام. قال آبيان كذلك إن المحاكمة كانت مطلوبة لأنه كان من الأفضل التخلّص من سيكستوس خوفاً من أن يُقدم ذلك القائد البحري الموهوب على التحالف مع كليوباترا بهدف "تخريب الاحترام الواعد الذي كان أنطونيو وأوكتافيوس يكنّانه لبعضهما بعضاً".

أنطونيو أوكتافيوس بسبب استبعاده ليبيدوس قسرياً، كما تساءل عن مصير حقّه في تجنيد المزيد من الرجال في إيطاليا. أعاق أوكتافيوس هذه الجهود لمدة طويلة، وهي الجهود التي وافق عليها بموجب معاهدة. ترك أوكتافيوس لأنطونيو حرية جمع جيش من اليونانيين والآسيويين، وتساءل في هذه المناسبة عن مصير ما تبقى من الأسطول الذي أعاره لأوكتافيوس قبل أربع سنوات، وكذلك عن الرجال البالغ عددهم 18,000 رجل والذين سبق لأوكتافيوس أن وعد بهم مقابل الأسطول. وفى أنطونيو بكل الالتزامات التي وعد بها في الاتفاقيات التي عقدها مع أوكتافيوس، لكن الأخير لم يفعل ذلك بل اكتفى بدعوة أنطونيو إلى عقد اجتماعات لم يحضرها هو نفسه. كانت الإهانات الشخصية تنجح على الدوام في هذه الحالات أكثر من أي شيء آخر، وكلما كانت أكثر بذاءة كان ذلك أفضل. عاب أنطونيو على أوكتافيوس أصوله الوضيعة، وقال إنّه تحدّر من جهة أبيه من سلالة صانعي الحبال والصرّافين، أما من جهة والدته فتحدر من خبازين، ومالكي متاجر العطور. أضاف أنطونيو إلى هذه اللائحة جَدًّا أفريقياً. أما الأسوأ من كل ذلك فهو أن أوكتافيوس، وهو الرجل حديث الثراء، كان يخفي ادعاءات بالتبجيل، كما عمد مع زوجته ليفيا إلى إقامة مأدبة مسرفة عندما حدث نقص كبير في مخزونات القمح في روما. وصل ضيوفهما إلى المأدبة بلباس \الأسياد المبجّلين، كما أسرفوا في تناول الطعام، بينما ترأس أوكتافيوس المائدة متنكراً بلباس أبولو. يُضاف إلى ذلك أن أوكتافيوس كان جباناً، وهو الذي اختفى لأيام عدة في فيليبي. أما قائده العسكري الموهوب ماركوس أغريبا فقد خاضَ المعارك بالنيابة عنه. ويُحتمل أن يكون أنطونيو قد أراد تحويل الانتباه عن كليوباترا، كما أراد تجاهل الترتيبات التي اتخذها في ميديا، لذلك أقدم على الاستهزاء بأوكتافيوس لمحاولته تزويج ابنته من رجل بربري بهدف تأمين تحالفٍ سياسي. لم تكن كل تلك الاتهامات زائفة، أو حتى حديثة العهد، إذ كان

بعضها يعود إلى العام 44، أي عندما كانت أحاديث شيشرون عن أفعال أنطونيو السيئة من الكثرة حيث إن الجميع اعترفوا أنه ما من رجلٍ يمكنه تحمّل العقوبات المترتبة على هذه الأفعال وحيداً.

اتهم أنطونيو أوكتافيوس بأنه مكبّلٌ بالخوف، بينما ردّ هذا الأخير عليه بأن الشراب قد أفسده. امتلك أوكتافيوس نقاطاً متقدمة كثيرة على أنطونيو من تلك الجهة. فقد كان معتدلاً في احتساء الشراب، أو على الأقل أعلن عن نفسه بأنه هكذا. كانت الإسكندرية مغريةً للحفلات أكثر من روما، كما أن أوكتافيوس امتلك إلى جانبه تاريخاً حافلاً. كان من السهل على أوكتافيوس الادعاء بأن أنطونيو قد تحوّل إلى أجواء الشراب، كما أن تواجد أوكتافيوس في روما، وغياب أنطونيو عنها، قد سهّل هذا الادعاء. حاول أنطونيو الردّ على هذه الهجمات بمنشورات ساخرة حول ثمالته. كان العام 33 عموماً عام الذروة بالنسبة إلى الشعراء، والساخرين من الكتّاب، والمدافعين عن عقائد معينة، والذين يكتبون على الجدران، وكذلك بالنسبة إلى كل محبي الثرثرة والقصص الغريبة. كان أوكتافيوس أكثر جاذبية في أحاديثه من أنطونيو، لكن الرجلين أظهرا موهبة قاسية في شؤون التشهير والهجاء. لجأ أوكتافيوس إلى الشعر البذيء، بينما فضّل أنطونيو توزيع منشورات مليئة بالافتراءات. كما عمد كلٌّ من الرجلين إلى استخدام رجال للقيام بنوع من الدعاية من أجله، كما أن عدداً من الممارسات التي كانت مقبولة ذات مرة أصبحت محطّ انتقادات بشكلٍ مفاجئ. تولى أنطونيو مسؤولية إدارة الجمنازيوم في الإسكندرية؛ الأمر الذي اعتُبر مخزياً، بينما لم يُثر قيامه بالدور ذاته مع أوكتافيا في أثينا، قبل خمس سنوات، أيّ انتقادات. كانت علاقة أنطونيو بكليوباترا مثار نكات بذيئة حول موائد الطعام، فكانت تلك هي الأجواء السائدة في صيف العام 39 في الاحتفالات التي أقيمت قرب نابولي، أي إن كليوباترا تواجدت عندما وصلت الأمسية إلى ذروتها، أي عندما وصلت "تلك الزمالة العميقة

إلى أوجها". لم تعد الملكة في ذلك الوقت موضوعاً للضحك والنكات.

استمرت الهجمات من الطرفين، المعتدلة منها وغير المقبولة على حدٍّ سواء. تبادل أنطونيو وأوكتافيوس الثرثرات المعتادة بين رفاق المدرسة حول الخنوثة، والشذوذ، والجبن. بدا أوكتافيوس "ضعيفاً بالفعل"، بينما بدا أنطونيو في فترة ما بعد ذروة شبابه، ولهذا لم يعد قادراً على كسب أي مبارزة عدا تلك المتعلقة بالرقص، أو بالفنون المتعلقة بالإثارة. ردّ أنطونيو بسخرية، وقال إن أوكتافيوس قد أقام علاقة مع عمّ والده ذي السمعة السيئة. أضاف إنه ما من طريقة أخرى تفسّر تبنيه المفاجئ. ردّ أوكتافيوس بأمرٍ أكثر قوة، وأكثر إقناعاً، مع أنه كان غير صحيح في الوقت ذاته: لم تُقدم كليوباترا على إقامة علاقة مع عمّ والده، كما أنَّ قيصيريون كان بالكاد الابن المبجل لقيصر؛ ووظّف أوكتافيوس كاتب منشورات كي ينشر هذا النبأ. أدان أنطونيو من جهته الزواج المتسرّع لأوكتافيوس وليفيا التي كانت حاملاً بطفل من رجلٍ آخر يوم زفافها. وشجب أنطونيو عادة أوكتافيوس بالانفراد بزوجات ضيوف مأدبته وإعادتهن إلى المائدة بمظاهر غير لائقة، كما ركّز على عادة أوكتافيوس المعروفة (والتي كانت زائفة في أغلب الاحتمالات) في تجميع العذارى، وإفقادهن عذريتهن. (قال سويتونيوس إن أوكتافيوس كان يلجأ إلى الإغراء بطريقة علمية، لأنه كان يستهدف زوجات أعدائه كي يعرف ما يقوله أزواجهن وما يفعلونه). أما في مجال الفساد فلم يكن أوكتافيوس يحتاج إلى التزييف، لأن سلاحه كان قريباً منه، فقد عمد أنطونيو إلى تحدي العادات الرومانية، وزوجته الرومانية المعصومة عن الخطأ؛ أي إن زميل أوكتافيوس في التحالف الثلاثي لجأ إلى تسلية نفسه في عاصمة أجنبية مع ملكة جشعة، والتي أضاع رشده بسببها، ونسي بسببها بلاده المجيدة، كما تخلى عما تبقى من فضائله الرجولية الرومانية. تساءل أوكتافيوس، كما فعل شيشرون، عن السبب الذي يدفع بالمواطن الروماني الذي يحترم نفسه إلى الوقوع

في حماقة تفضيل "الثروة التي لا يُحسد عليها، وشهوة الاستبداد"، على "المجد الثابت والمتين". انتهت المنافسة بطريقةٍ أو بأخرى إلى أن تكون ما بين الفخامة مقابل الزهو.

ردّ أنطونيو في وقتٍ ما من تلك السنة على أوكتافيوس شخصياً، فكتب إليه رسالة لم يسلم منها سوى جزءٍ صغير. لم يظهر أنطونيو في هذه الرسالة على أنه رجل يتوق إلى النزاع، كما لم يظهر وكأنه الرجل الذي فقد رشده بسبب الحب، أو أنه يتألم بسبب غرامه الشديد. تُرجمت الأسطر السبعة الباقية والتي أُمليَت على كليوباترا بطرائق لا حصر لها، بدءاً من الطرائق غير اللائقة، ومروراً بتلك المترافقة مع إيحاءاتٍ جنسية، ووصولاً إلى تلك الصريحة منها. يمكننا أن نعتبر أن الطريقة الأخيرة هي الأكثر دقة. لم تكن لهجة أنطونيو مفاجئة بالنسبة إلى روما حيث تسهم الاعتبارات السياسية والمالية في تقرير زيجات الطبقة العليا؛ يُمكن للمرء في تلك الظروف ممارسة الفسق في كل مكان. تساءل أنطونيو في العام 33 عما حدث لأوكتافيوس، وتساءل كذلك عن سبب ذلك الضجيج، وإن كانت "إقامته علاقة مع الملكة"، أمراً مهمًّا بحد ذاته. لم يكن أوكتافيوس زوجاً مثالياً بأي حالٍ من الأحوال، وهو أمرٌ يعرفه كلا الرجلين(*). لم يكن بريئاً كذلك، وهو الذي سبق له أن استمتع كثيراً بما سمّاه أنطونيو "مغامراتهما العاطفية ومرحهما الشبابي". تعلّق الأمر بالجنس في النهاية، أي إن الأمر لم يشكّل خبراً بحد ذاته، كما أن أوكتافيوس يعرف جيداً أن علاقة أنطونيو بكليوباترا استمرت على مدى تسع سنوات؛ معتبراً أن العلاقة بدأت منذ أيام طرسوس. لم يتضح لنا في هذا المجال ما إذا كان يريد إضفاء الشرعية على تلك العلاقة، أم الانتقاص منها. ولكن، مع ذلك يمكننا تفسير السطر التالي الذي يتحدث عن "إقامة علاقة حميمة

(*) ذكر أنطونيو ما مجموعه خمسة أسماء، لكنه ذكر في مكانٍ آخر أن أوكتافيوس قد طلّق زوجته السابقة بسبب "انحرافها الأخلاقي".

مع الملكة"، على "أنها زوجتي"، أو "هل هي زوجتي؟" وذلك نظراً إلى الوتيرة المتسارعة لتساؤلاته. يبدو لنا أن أنطونيو كان مصراً على التقليل من أهمية إقامته في مصر. كان يكتب، أولاً وقبل كل شيء، إلى شقيق زوجته. يبدو كذلك أنه يريد الإيحاء بشيء يماثل: "إنها ليست زوجتي، أليس كذلك؟"، لم تكن الإجابة عن هذا السؤال هامة بأي حالٍ من الأحوال. انتهى أنطونيو إلى القول: "هل هوية من تمارس العلاقة معه أمر مهم؟". يصعب علينا القول بالرغم من كل ذلك مدى التزام هذه الأسطر السبعة بالواقع، لأن هذه الأسطر السبعة المبتذلة التي بين أيدينا قد لا تكون سوى إعادة صياغة تتميّز بإثارة أكبر من الأسطر الأصلية. أما إذا وضعنا أوكتافيا جانباً، فيمكننا القول إن أنطونيو وكليوباترا لم يكونا متزوجين بالمعايير الرومانية؛ الأمر الذي عرفته كليوباترا جيداً. لعبت كليوباترا هنا - ومهما يكن الأمر - أعظم أدوارها، أو أُقحمت فيه إقحاماً. لم يكن أوكتافيوس بحاجة إلى أكثر من ذلك كي يُجهز على منافسه. يمكننا الاستنتاج مما تبقى بين أيدينا من أسطر أن أوكتافيوس هو الذي حوّل فترة الاستجمام التي أمضاها أنطونيو في الإسكندرية إلى علاقة غرامية ملتهبة.

بدأت عقارب الساعة تشير إلى نهاية الطرف الثالث في التحالف الثلاثي، فغادر أنطونيو وكليوباترا إلى إفيسوس التي كانت أولى المدن التي اعترفت بأنطونيو على أنه تجسيد لديونيسوس، وهي المدينة التي رحبت به عند مداخلها بصرخات الترحيب العالية وبأهازيج متنوعة. قدم أنطونيو، من بعد فيليبي، قرابين فاخرة وسخية للأشخاص الذين عذّبهم قتلة قيصر. ظلت هذه المدينة التي تضم 250,000 نسمة موالية له. كما رتّب أنطونيو مسألة ترحيب سكان إفيسوس بكليوباترا على أساس أنها سيدتهم الملكية. كانت هذه المدينة مركزاً مالياً غنياً وتتألف من شوارع ضيقة، ومن صفوفٍ من الأعمدة الرخامية؛ وهي المدينة التي كانت تزهو بموقعها الرائع. شيّدت هذه المدينة في وادٍ ذي جوانب شديدة الانحدار، وهي قريبة

من جبالٍ وعرة من إحدى الجهات، ومن البحر من جهة أخرى. كانت إفيسوس تفاخر بعدة هياكل مذهلة، وكان أكثرها شهرة هيكل آرتميس، وهو الهيكل الذي لجأ إليه والد كليوباترا وشقيقتها، وهي المدينة التي لقيت فيها شقيقتها حتفها في هذه العاصمة الأيونية الصغيرة.

تحتل مدينة إفيسوس موقعاً استراتيجياً بعيداً عن أثينا في بحر إيجة، وهي تقع على طرف ميناء جميل، كما أنها تمثل موقعاً مثالياً لإقامة قاعدة عسكرية. شرع أنطونيو، انطلاقاً من ساحل آسيا الصغرى، في تجميع أسطول بحري، كما بعث برسائل إلى كل الملوك الخاضعين لسيطرته في المنطقة. استجاب هؤلاء الملوك بإرسال أساطيلهم، كما قدّموا له قسَمَ الولاء. ساهمت كليوباترا بالقدر الأكبر من المواد، كما تكفلت بتجهيز 200 سفينة من أصل سفن أنطونيو الحربية التي بلغ عددها خمسمئة سفينة، وزوّدتها بما يكفي من الرجال، وأعطته 20,000 تالنت، وكل المؤن اللازمة لتجهيز جيش ضخم طوال فترة الحرب، وهو الجيش الذي ضمّ في ذلك الوقت 75,000 جندي، و25,000 جندي من المشاة، و12,000 من الفرسان. من غير المحتمل أن تكون الملكة قد ترددت قبل تلبية هذا الطلب، كما يُستبعد أن يكون نجم أوكتافيوس قد ارتفع مجدّداً في روما في هذه الفترة، لكنه نجح في تكديس الانتصارات بينما كان أنطونيو يتلكأ في الشرق. كان من الصعب على طَرَفي التحالف الثلاثي التعايش بسلام، كما كان من المستحيل على أوكتافيوس الطّموح وقيصيريون أن يتعايشا معاً. كانت هذه الحملة ذات أهمية حيوية بالنسبة إلى كليوباترا وكذلك بالنسبة إلى أنطونيو؛ على عكس ما كان عليه الأمر في حملة بارثيا. امتلكت الملكة كل الأسباب التي تجعلها تقحم نفسها، وكذلك مصر، في ذلك الصراع. انتهت، وبصورة رسمية، مدة المعاهدة الثلاثية في اليوم الأخير من العام 33.

عمد أحد القناصل الجدد إلى الثناء على أنطونيو في مجلس الشيوخ

بكل حماسة، وذلك في أوائل شهر كانون الثاني من العام 32. مضى القنصل في حديثه ليهاجم أوكتافيوس، فأسرع هذا الأخير إلى زيارة مجلس الشيوخ عندما علم بهذا الهجوم، واصطحب معه حارساً شخصياً وبعض المؤيدين. لم يكترث هؤلاء لخناجرهم المخبأة تحت عباءاتهم. سبق لشيشرون أن تساءل في العام 44 عمّا إذا كان ابن قيصر بالتبني يعتزم تنفيذ انقلاب، لكن الأمر بدا واضحاً هذه المرة. بدأ أوكتافيوس بكيل اتهاماته بكل حماسة، فأرغم المعارضة على السكوت بفعل الخوف. وعد أوكتافيوس بتقديم "أدلة معينة" تُثبت أن أنطونيو يشكّل خطراً على روما، وحدّد الرجل موعداً لتقديم الأدلة التي بحوزته. شاهد قناصل المعارضة الخناجر، وكانوا أذكى من أن يقبعوا بانتظار حلول موعد تلك الجلسة فعمدوا إلى الفرار سراً من المدينة. أبحر قرابة أربعمئة عضوٍ من أعضاء مجلس الشيوخ إلى إفيسوس حيث أبلغوا عن الوضع السياسي السائد في روما. من المؤكد كما يبدو أن أنطونيو قد أساء تقدير قوة أوكتافيوس الحقيقية ومتانة مركزه. يُضاف إلى ذلك أنه خاطر كثيراً بتحالفه مع كليوباترا التي سببت أضراراً خطيرة لقضيته.

جادل عدد كبير من زملاء أنطونيو، والذين كانوا يشكلون نسبة ثلث مجلس الشيوخ من الذين وقفوا معه، بضرورة التخلي عن كليوباترا. انحنى أنطونيو أمام المنطق، ووافق على استبعاد كليوباترا، وبهذا، أمر الملكة "بالإبحار إلى مصر كي تنتظر هناك نتيجة هذه الحرب". أكّد لنا بلوتارك أنها رفضت تنفيذ هذا الأمر بسبب خوفها المحتمل من تدخل أوكتافيا مجدداً كي تمنع وقوع الحرب التي تعرف كليوباترا أنها ضرورية بالنسبة إليها. يُحتمل أنها فعلت ذلك لأنها اعتقدت أنها إذا تصرّفت عكس ذلك فإن ذلك سوف يكون عملاً يخلو من المسؤولية. لم تكن كليوباترا ملكة محاربة، كما أن ملوك البطالسة الذين سبقوها مباشرة لم يظهروا ميلاً كبيراً إلى الحرب - لم يمت هؤلاء في ميادين المعارك، أي

كما جرى مع ملوك شرقيين آخرين - بل مالوا إلى الاعتقاد أنه يمكن الحفاظ على المملكة عن طريق المال بدلاً من الحصول على الأموال عن طريق إقامة إمبراطورية. كانت الملكة مع ذلك القائد الأعلى لرجالها، كما كانت مسؤولة عن تحضيرات المعارك وعملياتها. انطلق عند ذلك صراع جدّي للإرادات بين الطرفين. ابتعدت كليوباترا هذه المرة عن الإضراب عن الطعام الذي وصل بها في الماضي إلى حد الإغماء، وفضّلت اعتماد النهج المعاكس. فعلت ذلك بمساعدة كانيديوس، وهو قائد ملهم عند أنطونيو، والذي يُشاع أنه تلقى رشوة مقابل الدفاع عن موقفها. يُحتمل كذلك أنه تأثّر بها كثيراً. قال كانيديوس إنه ليس من الإنصاف استبعاد حليفة تلعب دوراً حاسماً في الحملة، وهي الحليفة التي تتكفل بإطعام الجنود، وذلك بعد أن قدّمت سفن الأسطول. أضاف كانيديوس أن الملكة أثبتت جدارتها كأي رجل، وتساءل ما إذا كان أنطونيو لا يدرك أن البحارة المصريين سيصابون بالإحباط نتيجة مغادرتها. كان هؤلاء البحّارة يشكّلون العمود الفقري لأسطول أنطونيو، وهكذا كانوا مستعدّين للقتال من أجل ملكتهم، لكنهم لم يكونوا مستعدّين بالضرورة للقتال من أجل قائدٍ روماني. أما إذا كان أنطونيو على استعداد لإنكار مشاعره تجاه الملكة المصرية، فإنه سيُلحق الأذى بحلفائه من الملوك الشرقيين. تحدّت كليوباترا أنطونيو لإثبات أنها "أدنى مستوى في الفهم من أي من الأمراء الذين يشاركون في الحملة، وهي التي حكمت بنفسها مملكة كبيرة منذ وقتٍ طويل". أرادت الملكة هنا توجيه إطراء، فأضافت، "عن طريق مشاركتها الطويلة لأنطونيو في إدارة قضايا جسيمة". نالت الملكة ما أرادت، إما لأن حججها كانت مقنعة، وإما بسبب تجهيزاتها الحربية الضخمة. أبحر أنطونيو وكليوباترا في العام 32 بصحبة رجال أنطونيو إلى جزيرة ساموس التي تقع بالقرب من شواطئ تركيا الحديثة. كانت ساموس معبراً في الطريق نحو اليونان حيث من المحتمل أن تدور رحى الحرب للسيطرة على العالم الروماني.

مكث الاثنان في تلك الجزيرة الجبلية بينما كان جنودهما يتجهون غرباً عبر بحر إيجة، وهي العملية التي كانت ستستغرق مدة شهرٍ بأكمله. عاد جنود أنطونيو من أرمينيا مصطحبين معهم من استطاعوا تجنيده من الشرقيين، وهكذا تمكّن من تجميع نحو تسعة عشر جحفلاً. إننا لم نمتلك بالتحديد تفاصيل عن الظروف العسكرية أو السياسية في ذلك الصيف، لأن بلوتارك انشغل بتقديم تفاصيل وافية عن الاحتفالات ومظاهر اللهو التي جرت في ساموس. كانت تلك الجزيرة الخصبة مكاناً مثالياً لإقامة الحفلات، كما أن أنطونيو كان في مركزٍ يؤهله لإقامتها، وهو الذي امتلك الوقت الكافي لذلك. استغل أوكتافيوس هذا الإسراف في مظاهر البذخ التي وصلتنا تفاصيلها على أنها شكل آخر من أشكال الاحتفالات الديونيسوسية. ساهم كل ملوك وأمراء الشرق بقواتٍ من عندهم في الحملة العسكرية، وكذلك فعل كل الفنانين المسرحيين الذين توافدوا جماعات إلى ساموس. قدّم عازفو العود والنايات، والممثلون، والراقصون، والبهلوانيون، والذين يقدّمون التمثيليات الصامتة، وعازفو القيثارة، والمقلّدون، والذين كانوا جميعاً "مجموعة من العارضين الآسيويين"، مهرجاناً موسيقياً ومسرحياً رائعاً ومتعدد اللغات على مدى أيام عدة. قال بلوتارك بشفتين مزمومتين: "وبينما كان العالم من حولهما مليئاً بالأنين والعويل، انفردت جزيرة واحدة، وعلى مدى أيامٍ عدة، بترجيع صدى أصوات النايات والآلات الوترية، وامتلأت المسارح، وتنافست فرق الكورال - الجوقات - في ما بينها"، كما أرسلت كل المدن حيوانات لتقديمها كقرابين، كما أن كل الملوك الذين يدورون في فلك روما، "تنافسوا في ما بينهم في تقديم الهدايا وأسباب اللهو". كان السؤال الذي يدور في كل الأذهان هو عن استطاعة أنطونيو وكليوباترا الاحتفال بالنصر بشكل يفوق ذلك الذي قدّماه في مهرجاناتهما الباذخة قبل الحرب.

أكمل أنطونيو وكليوباترا رحلتهما غرباً نحو أثينا المشيّدة على عدة تلال. تابع المحتفلون تقديم عروضهم في مسارح المدينة ومدرجاتها

الضخمة. كانت المدينة قد استقبلت أنطونيو وكأنه ديونيسوس قبل تسع سنوات، وهكذا أصبح الآن أكثر انسجاماً مع ذلك الدور. بدا أن كل القادة الذين يمرون بأثينا يسهمون بإقامة تمثالٍ، أو مسرحٍ، أو مجمعٍ رياضي باسمهم من الرخام ذي اللون الأبيض المائل إلى الصفرة. أما عندما يعجز القادة عن ذلك فإن الأثينيين كانوا يبادرون إلى إقامة التماثيل لهم. (سبق لأسلاف كليوباترا أن شيّدوا مجمعاً رياضياً يقع إلى الشرق من السوق). نجحت الرياضة والمسرحيات في تسلية أنطونيو، لكن ما لبثت قضيتان أن فرضتا وجودهما على مسرح الأحداث بتتابعٍ سريع. أمضت كليوباترا صيفها في تلك المدينة التاريخية التي أمضى فيها أنطونيو معظم أعوامه مع أوكتافيا، وهي الزوجة التي كانت تحضر المحاضرات برفقته. أنجب الزوجان طفلاً ثانياً هناك، كما أن أوكتافيا فرضت نفسها بحضورها المليء بالحيوية من خلال تماثيلها التي زيّنت تلك المدينة المهيبة، كما انتشرت في أرجائها النقوش التي تكرّم شخصها. اعتبر الأثينيون أوكتافيا من الأسياد المبجّلين، كما لقيت التكريم في الاحتفالات الدينية السنوية. كانت كل هذه الأمور غير مقبولة من جانب كليوباترا التي تغيّر الكثير بالنسبة إليها خلال السنوات الأربع عشرة التي مضت منذ أن عاشت بهدوء بعيداً عن زوجة قيصر. سمعت الملكة الكثير عن تلك التي أطلق عليها لوكان تعبير "علاقات غير شرعية وأولاد غير شرعيين". يُضاف إلى ذلك أن كليوباترا كانت أول ملكة من البطالسة تزور أثينا، وهي المدينة التي تمتلك أسباباً كثيرة للترحيب بها: سبق للمدينة أن اعتمدت على أسرتها في عدة مراحل، بالنسبة إلى القمح، وإلى المساعدات العسكرية، وإلى اللجوء السياسي على حدٍّ سواء، وذلك منذ بداية القرن الثالث. أقامت أثينا تماثيل لبطالسة سابقين بمن فيهم عمة والدة كليوباترا. ركّزت كليوباترا مع ذلك على امرأة أخرى، كما اهتمت بمعرفة المزايا التي نُسبت إلى أوكتافيا. كانت غيوراً، واعتمدت موقفاً هجومياً، وحاولت "كسب رضا الشعب عن طريق تقديم

هدايا رائعة"، وبكلماتٍ أخرى، حاولت مسح كل أثرٍ يدل على المرأة التي سبقتها. استجاب الأثينيون، وهم الذين عُرف عنهم أنهم واقعيون ومنطقيون، الأمر الذي أفرحِ أنطونيو. منح الأثينيون عشيقته مظاهر تكريم كثيرة، فأقاموا عدداً كبيراً من التماثيل لكليوباترا وأنطونيو في الأكروبول، وفي وسط المدينة. ظهر أنطونيو في إحدى المناسبات وسط وفد كبير لتكريم كليوباترا، كما ألقى خطبة بالنيابة عن المدينة.

تميّز صيف العام 32 بتقديم هديةٍ قيّمة: منح أنطونيو كليوباترا مكتبة برغاموم، وهي المجموعة الوحيدة التي تنافس مكتبة الإسكندرية. ضمّت المكتبة بغرفها الأربع، والمشيّدة فوق رابيةٍ جميلة، ما يقارب 200,000 لفافة والتي بقيت لقرون عديدة برفقة تماثيل نصفية لهوميروس وهيرودتس. جعل التاريخ من هذه الهبة هدية زفاف، أو لعل تقديمها كان بقصد التعويض عن النصوص التي أتلفها قيصر بطريقة غير مقصودة خلال حرب الإسكندرية. لم تكن هذه الهبة بحاجة إلى تفسير في ذلك السياق، كما لم تكن برغاموم بعيدة عن إفيسوس، لذلك لا يُستبعد أن يكون أنطونيو وكليوباترا قد زارا تلك المدينة وهي التي لا تبعد سوى مسيرة أيامٍ قليلة. بقيت أكثر الطرائق شيوعاً لتجميع مجموعة من الكتب هي نهب مجموعة شخصٍ آخر؛ كانت هذه العادة شائعة في روما كذلك حيث كانت المكتبات لا تزال في بداياتها.

تعود التقارير التي تدور حول الولع المهين والمربك لأنطونيو بكليوباترا إلى ذلك الصيف الذي أمضياه في أثينا. أما إذا كان أنطونيو قد نجح سابقاً في تحويل انتباه كليوباترا عن شؤون الدولة فإن الأدوار قد انقلبت في هذا الوقت. خصّص أنطونيو معظم وقته لها. قال لنا بلوتارك: "حدث أكثر من مرة أنه عندما ترأس المحكمة لإصدار الأحكام بين حكام المقاطعات والملوك، أن تسلّم منها رقاقاتٍ مثبتة على ألواحٍ من الأونيكس أو الكريستال، ومليئة بكلمات الغزل. وكان يقرأها على الفور. (لم يكن

أنطونيو أول من يتسلّم رسائل غرامية في مناسبات الدولة الرسمية. سبق لقيصر أن تسلّم رسائل مماثلة في أثناء ترؤسه جلسات مجلس الشيوخ. لكن تلك العشيقة لم تعمد إلى الكتابة على ألواح الأونيكس). حدث في إحدى المرات أن كانت كليوباترا محمولة على أكتاف خدمها بطريقة مثيرة للانتباه. سار بها الخدم أمام مجلس المحكمة حيث كان أنطونيو يترأس جلسةً للحكم في إحدى القضايا. كان أحد الخطباء الرومان والمشهورين يتكلم على المنبر، أو على الأقل بقي يتكلم إلى أن لمح أنطونيو كليوباترا، فما كان منه إلا أن "نهض من مكانه في المحكمة وتجاهل جلسة المحاكمة، ثم مشى إلى جانب الملكة، ورافقها في طريقها". كان ذلك تصرفاً يخلو من اللياقة، لأنه كان بإمكان المواطن الروماني الانغماس في حياة متنوعة وصارخة كما يشاء، لكن كان يُنتظر منه أن يكون رصيناً من دون أن ينجرف في عواطفه. يُذكر كذلك أن بومبي جعل من نفسه أضحوكة لأنه وقع في غرام زوجته. أما في القرن الثاني فقد تعرض أحد أعضاء مجلس الشيوخ للطرد لأنه قبّل زوجته علناً وأمام ابنتهما. سبق لأنطونيو كذلك أن تعرّض للتوبيخ قبل سنواتٍ عدة لأنه داعب أنف زوجته. قيل إن أنطونيو كان ينهض في تلك الأيام، وفي أثناء المآدب، كي يمسّد قدمَي كليوباترا على مرأى من ضيوفه "وذلك تنفيذاً لاتفاقية وميثاق بينهما". (سارت العلاقة بين الطرفين بحسب المواثيق، والرهانات، والمنافسات، وهي الأمور التي دأبت عليها كليوباترا على الدوام. كان أنطونيو لا يكترث كثيراً للرسميات). كانت هذه البادرة مهينة بطبيعتها لأن المرء عادة ما يكلّف أحد الخدم للقيام بهذه الخدمة. تراكمت الروايات التي كان يُمكن أن تصنّف في عصرٍ آخر في خانة الكياسة أو الوفاء، وهي روايات كانت تُعتبر في الشرق علامة على الاحترام الصحيح، وهي ذاتها كانت تُعتبر في روما من الأمور المهينة والمذلة. مضى أنطونيو في التودّد إلى كليوباترا، وهو الأمر ذاته الذي كان يفعله الخصيان. كان يلحق بموكبها عبر الشوارع وبين أفراد

حاشيتها. حدث كل ذلك بالرغم من كونها غير جميلة، وذلك على حد ما كان الرومان يصفون الملكة المصرية عندما كانوا يكيلون إليها إهاناتهم.

اعتبر أوكتافيوس أنه يصعب تصديق تلك التقارير الأثينية، وهذا أمرٌ محتمل. لم يكن هناك من سبب يدعو إلى الشقاق بين الرجلين بالرغم من كل تلك التحضيرات العسكرية، وكل تلك الاضطرابات الحكومية في روما، وذلك الجو السائد الذي يوحي بحتمية الصدام. دأب أنطونيو وأوكتافيوس على السعي وراء سبب للنزاع بينهما، وقد وجد الطرفان هذا السبب في العام 32. يبدو كذلك أن أنطونيو كان يشعر مع كليوباترا بنوعٍ من المنعة، لأنه أقدم في شهر أيار من ذلك العام على تطليق أوكتافيا. أمرَ أنطونيو أوكتافيا، وهو لا يزال في أثينا، بأن تترك منزلهما الفخم. لا يمكننا الجزم مع ذلك إن كان هذا الأمر موجهاً إلى أوكتافيا أم إلى شقيقها، لأن الأمر جاء بعد سنوات من المصالحات غير القلبية، والاتفاقيات الواهية، وبعد موسم من الافتراءات، ولهذا يُحتمل أنه استبق هجوماً من الطرف الآخر. كان يُمكن لأوكتافيا أن تختار إنهاء ذلك الزواج بنفسها، أما الطلاق بحد ذاته فقد كان بسيطاً ولا يستدعي أكثر من إجراءات غير رسمية تخلو من الأوراق. أما نتائج هذا الطلاق فقد كانت أكثر تعقيداً. علّق بلوتارك على موت زوجة بومبي وابنة قيصر، وقال إن ذلك يعني نهاية التحالف العائلي، "والذي أسهم في حجب طموح الرجلين بدلاً من كبحه تماماً". شعرت كليوباترا بسعادة كبيرة، وهي التي كلفت أحد أصدقاء أنطونيو كي يعمل على إبعاده عن التفكير بزوجته. لكن أوكتافيوس شعر بسعادة غامرة. أما أوكتافيا فقد شعرت بحزنٍ كبير، وحزمت أمتعتها وسط انهمار الدموع من عينيها، لكنها أخذت معها أولادها من أنطونيو، بالإضافة إلى ابنه الثاني الذي أنجبه من فولفيا. لم تحصل أي اتهامات مضادة من قِبل أوكتافيا التي قلقت فقط من أن يُقال عنها إنها شاركت في الحرب.

يمكننا القول الآن، وإلى الحد الذي تسمح به السجلات الخالية

من الدعاية، إن العلاقات كانت متوترة جداً في معسكر أنطونيو قبل وقوع الطلاق. اختفت في ذلك الوقت تلك المزاعم الكثيرة التي ترددت بعد ذلك عن أن كبار القوم من الرومان كانوا ضعفاء أمامها، كما غاب صوت كليوباترا القوي. كثُرت الآراء حول تلك المواجهة المحدقة بالنظر إلى تعدد مستشاري أنطونيو. استمر بعضهم، ولأسباب مختلفة كان عدد منها مشروعاً، في اعتبار كليوباترا عبئاً. قال أصحاب تلك الآراء إن المعسكرات الحربية ليست المكان المناسب لامرأة، كما أن كليوباترا كانت تشغل بال أنطونيو. قال هؤلاء المستشارون إنه يجب عدم السماح لها بالمشاركة في مجلس الحرب لأنها ليست قائدة حربية، كما أن أنطونيو لا يستطيع دخول إيطاليا مع امرأة أجنبية، وكذلك ليس من الحكمة انتظار أمرٍ كهذا. استنتج المستشارون أن أنطونيو كان يبدّد بهذا نقاط قوته بسبب المَلكة المصرية. أغفل النقاد ذكر مزاياها الحميدة، كما أقدم شركاء أنطونيو في روما على إرسال صديقه جيمينيوس إلى أثنيا من أجل عرض قضيتهم. أرسلوا إليه بأنه ينبغي لأنطونيو أن يدافع عن نفسه في بلاده حيث يواجه هجوماً مريراً من أوكتافيوس. تساءل هؤلاء الشركاء عن السبب الذي يدفعه لأن يسمح بأن يصوّره منافسوه وكأنه عدو للبلاد، وكل ذلك لأجل امرأة أجنبية. كان جيمينيوس خياراً موفقاً لمهمة دقيقة، وذلك لأنه سبق له أن جرّب بنفسه الوقوع في الحب بطريقة غير حكيمة وغير منطقية. افترضت كليوباترا أن أوكتافيا هي التي أرسلته وعاملت جيمينيوس على هذا الأساس، كما بذلت أقصى جهودها لإبقائه بعيداً عن أنطونيو. عمدت كليوباترا في إحدى المآدب إلى إجلاسه على أحد مقاعد الضيوف الأقل أهمية، كما أمطرته بكلمات التهكم والسخرية. تحمّل جيمينيوس كل هذه الإهانات بصمت، كما انتظر بصبر اجتماعه المرتقب مع مارك أنطونيو. تحدّت كليوباترا جيمينيوس قبل ذلك الاجتماع بأن يحدد مهمته، وذلك وسط تلك المأدبة الصاخبة. أجاب المبعوث بأن "تفسير مهمته يستدعي رأساً صافياً، لكنه

متأكد من شيء واحد، وذلك بغض النظر عما إذا كان ثملاً أم صاحياً، وهو أن كل شـيء سيكون على ما يرام إذا ما أُرسلت كليوباترا إلى مصر". ردّ أنطونيو عليه بغضبٍ عارم، أما كليوباترا فكانت أكثر قسوة، لكنها مدحت جيمينيوس على صراحته، كما أنه وفر عليها مشـقة تعذيبه. فرّ جيمينيوس إلى روما بعد أيام عدة وانضمّ إلى أوكتافيوس.

أخفـق أفـراد حاشـية كليوباترا في تزكية أنفسـهم أمـام الرومان الذين شـعروا بالاسـتياء من "بذاءة اللسـان، ومن حيل المصريين الثملين". عمد بلانكوس، وهو الرجل الغريب بالنسبة إلى الإسكندرانيين، إلى مغادرة أثينا والعودة إلى روما، وذلك لأسباب غير واضحة. يُحتمل أنه شعر بالاستياء، وأن مغادرته أثينا لا شأن لها بكليوباترا أو بمستشاريها. كان بلانكوس خادماً منـذ ولادتـه، وكان لا يميـل بطبعـه إلى إبداء أي مقاومة. كان يخفي شـيئاً من الخيانة عندما كان يجثو ويمسّد القدمين. قيل عنه إنه مريض بالخيانة. كان مع ذلك رجلاً يمتلك حدسـاً سياسـياً صائباً. يُحتمل أن شـيئاً ما قد حـدث وجعلـه يشـك في قدرة أنطونيـو، بالرغم من قوتـه الضخمة وهيبته وسـنوات خبرتـه الطويلـة، على الصمـود أمام أوكتافيـوس. كان بلانكوس يُعتبـر مـن مستشـاري أنطونيـو المقربيـن، وذلـك لأنـه ظل لبعـض الوقت مسـؤولاً عـن مراسـلاته. كان يعـرف أسـراره، وهكذا لجأ إلـى أوكتافيوس مـزوداً بتقاريـر مهمة حول تمسـيد الأقدام، والمآدب المسـرفة، والملكات القويـات. يُضـاف إلى كل ذلك المعلومات المتعلقة بوصية أنطونيو، والتي كان بلانكـوس شـاهداً عليهـا. عمـد أوكتافيوس إلى انتزاع تلك الوثيقة من عـذارى فيسـتا حيـث يُفترض أن تكون معهن بأيـدٍ أمينة. وجد أوكتافيوس في تلك الوصية - أو زعم أنه وجد - عدداً من المقاطع المشينة. أضاف أوكتافيوس من عنده ملاحظات إلى تلك المقاطع حتى يتمكنَ من قراءتها فـي مجلـس الشـيوخ بصـوتٍ عـالٍ. لم يرغـب عدد كبير مـن أعضاء ذلك المجلس في المشاركة في هذا العمل غير المشروع. كان يُفترض ألاّ تُفتح

وصية أي شخص إلا بعد وفاته، الأمر الذي يجعل فتح تلك الوصيّة قبل حدوث الوفاة عملاً غير شرعي مطلقاً. اختفت تلك الهواجس عندما وصل أوكتافيوس إلى نهاية حديثه، وكشف عن بندٍ شنيع. أوصى أنطونيو بنقل جثمانه، "إذا مات في روما، بكل مهابة من خلال الفوروم، وبإرساله بعد ذلك إلى كليوباترا في مصر"(*).

تسببت هذه الفقرة، وبغض النظر عن كونها صحيحة أم لا، بإثارة عاصفة شديدة وهي العاصفة التي دأب أوكتافيوس على تغذيتها. وعد أوكتافيوس مجلس الشيوخ خلال الانقلاب الذي نفذه في شهر كانون الثاني بتقديم دليلٍ موثقٍ ضد أنطونيو، وها هو الآن يعرض ذلك الدليل بكل تفاصيله. اكتسبت كل التقارير الدائرة حول المآدب المسرفة في أثينا، وخضوع أنطونيو لكليوباترا، وكل التفاصيل المثيرة والموحية، والتي كانت تُعتبر زائفة في السابق، مصداقية على شكلٍ مفاجئ. تمكنت الأحاديث التي تبدو مقنعة من التغلب على الأحداث الواقعية بهذه الطريقة، وذلك في عالم مخدرٍ بفصاحة الكلام، ومدمنٍ على "العبارات المعسولة حيث تغلّف كلَّ كلمة بحلاوة مصطنعة". امتلك أوكتافيوس مصادر عديدة كي يغرف منها. كانت المغانم الآتية من الشرق؛ تلك المنطقة المثيرة والمتوترة واللاعقلانية، توفّر كنزاً من المصادر. كانت مصر مخادعة، كملكتها تماماً، كما أن الربط الراهن ما بين الشرق والإغراء كان راسخاً في القرن الأول. كانت أفريقيا في ذلك الوقت عنواناً للانحلال الأخلاقي. لم يكن من

(*) لم يرَ الوصية شخصٌ آخر غير أوكتافيوس الذي يحتمل أن يكون قد قام بتلفيقها بنفسه. يُحتمل كذلك أن يكون بلانكوس هو الذي لفّقها، وهو الذي امتلك صلاحية التوقيع باسم أنطونيو واستخدام ختمه في بعض الأحيان. تضمنت هذه الوثيقة الحديث عن كل الهبات التي أسبغها أنطونيو على أولاد كليوباترا إضافة إلى مسألة أبوّة قيصيريون. لم يدحض أنطونيو هذه المسألة على حد علمنا، كما أن أوكتافيوس لم يفعل ذلك، وهو الذي كان أعقل من الإقدام على ذلك العمل في هذه المرحلة. يصعب علينا كذلك تصور الظروف التي تدفع بأنطونيو إلى تدوين الأمور التي تحدث عنها أوكتافيوس علناً.

الصعب، وانطلاقاً من ذلك الواقع، تحويل أنطونيو وهو بطل احتفالات عطايا الشرق إلى طاغية شرقي فاسقٍ ومهووسٍ بالسلطة: "أمسك بيديه صولجاناً ذهبياً، ووضع إلى جانبه سيفاً، وارتدى عباءة أرجوانية مرصعة بمجوهراتٍ ثمينة. كان كل ما ينقصه لجعله ملكاً يداعب ملكة هو التاج فقط". عاد الحديث مجدداً إلى الإكليل والتماثيل الذهبية. أثارت ملحقات الملوك هذه الرومان أكثر من الحكم الفردي بحد ذاته، وهو الحكم الذي احتملوه بصيغة أكثر دقة لعقدٍ من الزمان على الأقل. كان أنطونيو، وبحسب رواية أوكتافيوس، ملوثاً بشكلٍ لا رجعة عنه، بكل الأعباء التي يرزح تحتها الشرق، وبكل مظاهر الترف غير الرومانية التي يحفل بها، وهو الأمر الذي وقع فيه كلٌّ من قيصر والإسكندر الكبير قبله. لم يطُل الوقت كثيراً قبل أن يكتشف أوكتافيوس بدوره أن مصر تمنح قاهريها بركاتٍ متنوعة، وثروات لا حصر لها. كانت مصر أشبه ما يكون بصندوق ائتمانٍ ضخم يقوم بإقناع الرجال بأنهم من الأسياد المبجّلين.

حاول أوكتافيوس الاستفادة إلى أقصى حدٍّ من العلاقة التي تربط أنطونيو بكليوباترا، وقد سمحت له هذه القضية بالاستفادة من تلك المقولة القديمة: إنّ الحساسية تجاه النساء القويات أقوى حتى من الحساسية تجاه الحكم الملكي، أو حتى تجاه الشرق المفسِد. سمحت قضية كليوباترا لأوكتافيوس بالسيطرة على الأحداث بغضّ النظر عما إذا كانت كليوباترا قد سيطرت فعلاً على أنطونيو أم لا، كما امتلك أوكتافيوس تحت تصرفه مخزوناً كاملاً من تبجحات شيشرون ضد فولفيا، تلك المرأة الشرسة. وتمكّن أوكتافيوس المعروف بدهائه من تحوير تلك التبجحات لمصلحته. تحولت تلك المغامرة المصرية على يديه الخبيرتين إلى رواية من الولع الأعمى وغير المسؤول. كان أنطونيو في هذه الرواية واقعاً تحت تأثير امرأة قوية ذات تأثير ساحر، وكان "مأخوذاً بتلك المرأة المريعة". قدّم لنا فيليوس باتركيولوس، الذي كان أقرب عهداً من الأحداث، النسخة

الرسمية التي اختصرها بالأسباب والنتائج فقط. شرح لنا فيليوس، معترفاً بتبني أنطونيو عادات الشرق المنكرة: "وعندما أصبح حبه لكليوباترا أكثر قوةً، قرّر شن الحرب على بلاده". لم تُقدِم كليوباترا على إفساد أنطونيو بقدر ما "أذابته وجرّدته من فضائله الرجولية". وقد اعتبر أوكتافيوس أنها المسيطرة، وأن أنطونيو هو المتذلل، وهي رواية تختلف كثيراً عن تلك التي قدّمها أنطونيو قبل شهورٍ قليلة. يعترف كل المؤرخين بوجود سياسةٍ معينة بالرغم من اعتراف هؤلاء بوجود شكوك تحيط بالتهم الموجهة إليه. ظهر أنطونيو، لهذه الأسباب، على أنه "عبدٌ لحبه تجاه كليوباترا"، و"لم يكترث قطّ للشرف، لكنه أصبح عبداً لتلك المرأة المصرية"، كما أنه أسلم قيادته إلى امرأة إلى حدّ أنه "لم يعد سيّد نفسه". وجد هذا الادعاء نظيراً له في الأساطير القديمة؛ وهي التي لجأ إليها أوكتافيوس بشغف. سبق لأنطونيو أن ادّعى تحدّره من هرقل، وذكّر أوكتافيوس الجميع بأن هرقل أمضى ثلاث سنوات مجرداً من كل سلاح، وعبداً لملكة آسيوية ثرية تدعى أومفالين، والتي جرّدته من جلد الأسد الذي يرتديه ومن هراوته.

أضاف أوكتافيوس إلى هذه التهم منعطفاً خيالياً، وهو الذي احتاج إلى التذكير بوجود بلاد منهكة، وجائعة، ومستنزفة بعد ما يقارب عقدين من الحرب الأهلية. أضاف كذلك حوافز مثيرة إلى الحمّامات الساخنة، والشبكات التي تقي من البعوض، والملحقات الذهبية، والسيوف المرصعة بالجواهر، والعلاقات المحرمة والأولاد غير الشرعيين. قال فلورس: "طالبت تلك المرأة المصرية القائد الثمل بالإمبراطورية الرومانية، وذلك كثمن لكل العطايا التي تقدّمها إليه، فما كان منه إلا أن وعدها بها وكأن قهر الرومانيين أسهل عليه بكثير من قهر البارثيين". توصل ديو إلى الاستنتاج ذاته، لكنه فعل ذلك بمنطق أكثر دقة: "سحرت كليوباترا، وأسرت، ليس فقط أنطونيو، ولكن كل الذين يمتلكون نفوذاً عليه، حيث أملت حتى بالسيطرة على الرومان أنفسهم". حازت كليوباترا على مكتبة برغاموم،

كما حازت على حدائق هيرودس. شاعت كذلك تقارير عن أنطونيو ورد فيها أنه نهب كل الأعمال الفنية الموجودة في هياكل آسيا، بما في ذلك تماثيل هرقل، وأثينا، وزيوس العملاقة، والتي انتصبت في ساموس على مدى قرون عدة، وقد فعل كل ذلك من أجل إرضاء الملكة المصرية. هل كان أنطونيو في وضع يمكّنه من رفض أي طلبٍ لها إذا كان سيمنحها جسده؟ وهل كان بإمكانها التردد في طلب أي شيء منه؟

يبدو لنا من خلال تلك الروايات أن أوكتافيوس هو الذي قرّر أن كليوباترا قد خططت لجعل روما مقاطعة مصرية، وهي الفكرة التي نستبعد أنها خطرت في ذهنها. كان إلى جانبه تلك المرأة من النوع المألوف، أي تلك الزوجة المبذرة التي تمتلك خططها الخاصة بها، والتي لا تعتبر أن أي خاتم كبير بما يكفي، وأنه ليس هناك منزل واسع بما يكفي لها. قال يوتروبيوس بعد مضيّ قرونٍ على ذلك إن أنطونيو شرع في حربٍ بناءً على إلحاح ملكة مصر، وهي التي "امتلكت كل الرغبة الأنثوية كي تحكم في المدينة كذلك"(*). يتفق الجميع على أن "أعظم الحروب قد قامت بسبب النساء"، وأن عائلات بأكملها أصابها الخراب بسببهن. لقد ساهمت النساء المصريات بنصيبهن من المتاعب، وكان الحق في ذلك يقع على الشرق المثير، والمخادع، والمخرّب، كما مُنِحنَ توقداً نهماً، وطاقة هائلة، لذلك لم يكتفين بزوجٍ واحد، كما جذبن الرجال وحطّمنهم. اكتفى أوكتافيوس بتجميع الدلائل على كل تلك الأمور.

وجد الرجل في كل ذلك قناعاً ذكياً لشنّ حربٍ أهلية، وهي الحرب التي أعلن قبل أربع سنوات نهايتها بشكلٍ رسمي، والتي وعد بأنه لن يقود

(*) كانت تلك نقطة ضعفٍ معترفاً بها. قال بلوتوس، وهو أكثر كتاب المسرح شعبية، مدمدماً: "إنني لا أحب هؤلاء النسوة اللواتي يُقِمنَ علاقاتٍ كثيرة، ولا غطرستهن، ولا مهورهن العالية، ولا طلباتهن التي يصرّحن بها عالياً، ولا عرباتهن المرصّعة بالعاج، ولا ملابسهن، ولا أرديتهن الأرجوانية، واللواتي يحوّلن أزواجهن إلى عبيد بنفقاتهن الباهظة".

رجاله إليها أبداً. ألم يكن من الأفضل، والأكثر صدقية، أن يتحطم أنطونيو، وبفعل حبٍّ محرم بدلاً من أن يتحطم على أيدي مواطنيه؟ لم يكن من الصعب قطّ تجنيد جحافل الجنود، أو فرض ضرائب على الشعب، أو إثارة عداء الآباء ضد أولادهم، وذلك بعد الزعم أن كليوباترا تنوي قهرهم، أي كما فعلت مع أنطونيو. صاغ لوكان صيحة تلك الحرب بعد مرور قرنٍ من الزمن على الشكل التالي: "أيجدر بامرأة، وهي ليست رومانية حتى، أن تحكم العالم؟". كان هذا المنطق بسيطاً جداً، وقد سبق للملكة المصرية أن أخضعت أنطونيو، ولهذا فإن روما هي الهدف التالي. أقدم أوكتافيوس في نهاية شهر تشرين الأول على إعلان الحرب على كليوباترا.

لا يمكننا أبداً اعتبار أن ذلك الإعلان كان مفاجئاً بأي شكلٍ من الأشكال، بل لعله ترافق مع بعض الارتياح. لكن لا بد من أن كليوباترا قد فوجئت بالأسباب التي أُعطيت الحرب إياها، إلاّ أنها لم تقدم على شن أعمال عدائية ضد روما، كما أقنعت نفسها بأنها تحكم مصر تحت المظلة الرومانية، وإن كانت ملكة تتمتع بامتيازات كثيرة. كما تمكنت من حفظ النظام في مملكتها، وزوّدت روما بالمؤن عندما طُلب منها ذلك، وحضرت إلى تلك المدينة عند استدعائها إليها، كما أنها لم تهاجم أيًّا من جيرانها. فهي فعلت كلّ ما في وسعها للمساعدة، ولم تُقدم على أي شيء من شأنه التقليل من عظمة روما. جرت العادة قبل إعلان أي حرب في روما على القيام بعملية من ثلاث خطوات: يقدّم مجلس الشيوخ طلباً للتعويض، ويُتبع ذلك الطلب بعد مرور شهرٍ من الزمان بتذكيرٍ شديد اللهجة بضرورة تلبيته، ثمّ يقوم أحد المبعوثين بعد شهرٍ من الزمان بالانتقال إلى منطقة العدو من أجل البدء رسمياً بالأعمال العدائية. استدعى أوكتافيوس كليوباترا، ليس من أجل محاسبتها، ولا من أجل تلاوة الاتهامات على مسامعها، ولم يكلّف حتّى نفسه عناء التمهيد لما ينوي فعله عبر القنوات الدبلوماسية، فأصمّ أذنيه عن المقدمات التقليدية، واستغنى عن القسم

الرسـمي من العملية، وارتدى عباءة عسـكرية، وأطلق رمحاً مغمسـاً بالدم نحو الشرق، وذلك من مكانٍ مخصصٍ للطقوس الدينية، و"أرضٍ عدائية" في روما. (سـرت شـائعات بأن أوكتافيوس كان يصنع التاريخ كلما مضى في أفعاله. كان ماهراً في استعادة التقاليد، بما في ذلك تلك التي لم تكن موجودة قطّ). لم تقدّم أي اتهامات رسـمية، وذلك لسـببٍ بسـيط ألا وهو عـدمِ إمكانيـة رفـع أيٍّ منها. أما من حيث اتهام كليوباترا بالنوايا العدوانية، فقد أُدينت "على أفعالها"، وهي الأفعال التي بقيت من دون تحديد عمداً. راهن أوكتافيوس على أن أنطونيو سيبقى على ولائه لكليوباترا، وهو الولاء الذي سمح لأوكتافيوس - ضمن هذه الظروف - باتهام مواطن من بلاده بأنه "عمد طوعاً إلى أخذ جانب امرأة مصرية في الحرب ضد بلده الأم". أقـدم مجلـس الشـيوخ فـي نهايـة العام 32 علـى تجريد أنطونيـو من لقب قنصل، وأعفاه من كل مسؤولياته(*).

فعل أنطونيو وكليوباترا كل ما في وسعهما للرد على ذلك الاستفزاز المشـين، وخاصـة بعـد أن أصبحـا حليفيـن. ردّ الاثنـان فـي ذلـك الوقت بالتشكيك في قدرة أي شخص على الوثوق بإنسان يخلو من المبادئ مثل أوكتافيـوس. صـاح أنطونيـو برجالـه: "ماذا يعني بتهديدنا جميعاً بالسـلاح، في حين أعلن أنه يشـن الحرب مع بعضٍ منا دون الآخر؟". خطّط زميله المخـادع ليـس فقـط مـن أجل بذر الخلافات، بل مـن أجل الحكم كملك على الجميع. (كان محقاً في هذه النقطة بالذات، لأن أوكتافيوس كان قادراً على شن الحرب على أنطونيو؛ حتى ولو تخلى هذا الأخير عن كليوباترا). ما هو السـبب الذي يدفع أي شـخصٍ إلى الارتباط برجلٍ جرّد زميله من

(*) لم يعد أنطونيو قادراً على طلب مساعدة الدول الدائرة في فلك روما، أو على توزيع المقاطعات الرومانية، وذلك بعد تجريده من سلطاته. يمكن للمرء الاستعانة بمنطقٍ أعوج للقول إن كليوباترا قد حرضت مواطناً عادياً معادياً لروما، وأنها استولت على أراضٍ من دون وجه حقٍّ. يستدعي هذا المنطق ضمّ أنطونيو إلى اتهامٍ كهذا، الأمر الذي ينافي الواقع.

مسؤولياته من دون اكتراث، والذي استولى على وصية أحد أصدقائه، ورفاقه، وأقربائه؟ صاح أنطونيو برجاله أن أوكتافيوس يفتقد إلى الشجاعة الكافية التي تمكّنه من الإعلان عن نفسه علناً، وذلك بالرغم من أنه "شنّ حرباً ضدّي، وهو يتصرف مسبقاً ليس كأنه الرجل الذي قهرني، ولكن كأنه الرجل الذي قتلني". وقفت عوامل الخبرة، والشعبية، وأعداد الجنود إلى جانب أنطونيو، وهو الذي كان القائد المحنّك الذي وقفت إلى جانبه أقوى العائلات الحاكمة في آسيا، وامتلك تحت إمرته خمسمئة سفينة حربية، وجيشاً برياً مؤلفاً من تسعة عشر جحفلاً، وأكثر من 10,000 جندي من المشاة. يُضاف إلى ذلك أن ثلث أعضاء مجلس الشيوخ كانوا إلى جانبه.

أصرّ أنطونيو طوال اثني عشر عاماً على أن أوكتافيوس كان يخطط للقضاء عليه، كما أن كليوباترا امتلكت من الأسباب الواقعية والانتهازية ما يكفيها لموافقته الرأي. كان الاثنان على حقٍّ أخيراً، كما كان أنطونيو مصيباً بأنه واقع في منافسة تتميز بالمراوغة، ولذلك لن يتمكن من الوقوف نداً لشقيق زوجته السابقة. (يُحتمل أن كليوباترا كانت قادرة على المراوغة، لكنها تركت لأنطونيو حرية الكلام). صاح أوكتافيوس بأنه من المؤسف جداً أن يجعل أنطونيو من نفسه خائناً لروما، ولذلك هو حزين جداً للحال التي آلت إليها الأمور. أضاف أنه يحمل إليه وداً كبيراً وهو الذي أوكله قسماً من صلاحيات القيادة، وكذلك شقيقته التي يحبها كثيراً. لم يعمد أوكتافيوس إلى إعلان الحرب حتى بعد إقدام أنطونيو على إذلال تلك الشقيقة، وبعد أن وهب أولاد امرأة أخرى ممتلكاتٍ رومانية. أضاف أنه متأكد من أن أنطونيو سوف يهتدي في النهاية بنور الحقيقة. (لم يكن أوكتافيوس يأمل الأمر ذاته بالنسبة إلى كليوباترا، وأضاف باستياء: "لأنني أعتبرها عدوة بأفعالها إن لم يكن بمولدها في بلاد أجنبية"). كما أصرّ على أن أنطونيو سوف يغيّر مساره مُكرهاً إن لم يكن طواعية، وذلك نتيجة الأحكام التي صدرت ضدّها. كان أوكتافيوس يعرف جيداً أن أنطونيو لن

يُقـدم علـى عمـلٍ كهذا، لأنه تجاوز مـع كليوباترا هذه النقطة. كان أنطونيو أشد الناس إخلاصاً من بين الرجال، هذا إذا وضعنا الأمور العاطفية جانباً، أمـا وضعـه مـع أوكتافيوس فكان يصعب الدفاع عنه، كما كان من الصعب القـول إلـى أي مـن الرجليـن كانت كليوباتـرا أكثر أهمية في العام 32: هل كانت أكثر أهمية بالنسـبة إلى الرجل الذي كانت شـريكته؟ أو إلى الرجل الذي كانت مجرّد ذريعة بالنسـبة إليه؟ لم يكن باسـتطاعة أنطونيو كسـب حربٍ من دونها، كما أن أوكتافيوس لم يكن بمستطاعه شن حربٍ لولاها.

ضمنت معركة فيليبي لأنطونيو عقداً كاملاً من سنوات الشهرة، لكنّ ذلك العقد وصل الآن إلى نهايته، وانتقل بحلول الخريف مع كليوباترا غرباً نحو باتراس، وهي بلدة مغمورة تقع على مداخل خليج كورينث، وتمكن الاثنان من تأسيس خطٍّ دفاعي على طول الشاطئ الغربي لليونان، كما وزّعا الرجال بدءاً من آكتيوم شمالاً، وحتى ميثوني جنوباً. بدا أن الهدف من وراء ذلك الخط كان حماية خطوط التموين الآتية من الإسكندرية وامتداداً حتى مصـر ذاتهـا التـي أعلن أوكتافيـوس حربه عليها في نهاية الأمر. اسـتفادت كليوباترا من هذه الفترة الفاصلة فسكّت عملة معدنية جديدة ظهرت فيها وكأنهـا إيزيـس، كمـا أن أنطونيو أرسـل في ذلك الوقـت كميات كبيرة من الذهب إلى روما، ووزّع الرشى ذات اليمين وذات اليسار. ومع أنه امتلك عدداً أكبر من الجنود، لكنه حاول شراء ولاء رجال أوكتافيوس. يُفترض أن معظم الأموال التي وزّعها قد جاءته من كليوباترا، أما الضرائب التي فرضها أوكتافيـوس بسـبب الحـرب فقد أثارت أعمال شـغبٍ فـي روما. تواجدت طيلة فصل الشـتاء مجموعات من الجواسـيس، وأعضاء مجلس الشـيوخ، وهم الذين كانت ولاءاتهم هشـة ومتذبذبة للغاية، إذ سـبق لعددٍ كبير من هؤلاء أن واجهوا هذه الورطة مرة واحدة على الأقل: فقد حاروا في تحديد الطرف الذي يتعيّن عليهم الهروب من وجهه، والطرف الذي يجب عليهم السير وراءه. كان ذلك الوضع بمثابة اختبار للنفسيات أكثر مما هو اختبار

للمبادئ. وبدا الوضع في أماكن أخرى وكأن مغناطيساً يمرّر فوق العالم المتوسطي ويجذب الأطراف المتذبذبة إلى اصطفافٍ وثيق "فاق بمجموعه وحجمه أي شيء ظهر من قبل على مسرح الأحداث". أما الحكام الذين نصّبهم أنطونيو في العام 36 فقد جاءوا إليه بكل قواهم. وانضم إليه ملوك ليبيا، والبنط، وكبادوكيا بأساطيلهم، هذا بالإضافة إلى ملوكٍ آخرين.

مرّ الشتاء من دون أن يحصل أي شيء، وبدا أنطونيو، وهو المعروف بتسرعه، متردداً للمرة الثانية في إطلاق حملة عسكرية، وهي الحملة التي أظهرت تجاهها كليوباترا حماسة كبيرة، وهي التي كانت تتكبد نفقات كبيرة مع مرور كل شهر. (كان الجحفل الواحد يكلّف ما بين أربعين إلى خمسين تالنتاً كل سنة، وهو ما جعل نفقات كليوباترا على جنود المشاة فقط ولفصل الصيف تصل إلى 210 تالنت). لم يكن من الصعب على المرء أن يلاحظ في ذلك الوقت أن أنطونيو، وهو أشهر جندي على قيد الحياة، لا يرغب في شن معركة ملحمية. قيل في مناسبة سابقة إن قيصر "كان يسعى إلى الحصول على الشهرة أكثر مما كان يسعى للحصول على الأراضي"، وهو افتراض ينطبق أكثر على أنطونيو. دعا أوكتافيوس أنطونيو إلى مبارزة لا معنى لها، لكنها لم تحدث قطّ. والتزم الطرفان في معظم الأحيان بتوجيه الإهانات والتهديدات الفارغة، وذلك بالإضافة إلى "التجسس على بعضهما بعضاً". كما انتشرت الشائعات في الأجواء، لكنها كانت بمعظمها صادرة من أوكتافيوس. أقدم هذا الأخير في العام 33 على طرد مجموعات المنجمين والضالعين من روما، وذلك بذريعة القضاء على نفوذ الشرق المتزايد في المدينة، لكنه قصد في واقع الأمر تحسين سيطرته على مجرى الأحداث. كان من الأسهل على أوكتافيوس في غياب هؤلاء اختلاق كل أنواع التوقّعات التي يفضّلها، إذ أراد أن يكون الوحيد في عالم التوقّعات. قيل في هذا السياق إن تماثيل أنطونيو وكليوباترا الموجودة في الأكروبوليس قد ضربتها الصواعق كي تبقى بين الأنقاض

الكئيبة، كما ظهرت كذلك أفاعٍ برأسين وبطول خمس وثمانين قدماً. قيل كذلك إن تمثال أنطونيو الرخامي كان ينزّ دماً. كانت الغلبة من نصيب صغار أتباع أوكتافيوس عندما قسم الأولاد في روما أنفسهم ما بين أتباع أنطونيو وأتباع أوكتافيوس، وتلاحموا في معركة استمرت يومين في شوارع روما. أما الحقيقة فكانت أقرب إلى تلك التي أوحى بها غرابان متكلمان. تعلّم الغراب الأول أن يقول زاعقاً: "مرحباً قيصر، يا قائدنا المظفر". أما الغراب الثاني فقد تعلم أن يقول: "مرحباً يا أنطونيو، يا قائدنا المظفر". كان كل مواطن روماني عاقل يمتلك ما يكفي من الأسباب كي يكون حريصاً جداً في رهاناته، وكي يثق بأن أنطونيو وأوكتافيوس كانا متماثلين تماماً بخطاباتهما المتهورة، وبرامجهما الشخصية. كان أصدقاء الطرفين يعترفون بأن كل واحد منهما "كان يرغب في أن يكون الحاكم، ليس على مدينة روما فقط، بل على العالم أجمع".

كانت وفرة الأموال والتجارب تقف إلى جانب أنطونيو وكليوباترا إلى حدٍّ كبير، وكذلك كان الغموض بدءاً من مسألة زواجهما، وهي المسألة التي لم تكن أكثر شفافية في العام 32 مما هي عليه الآن. كان القانون الروماني يمنع كليوباترا من أن تكون زوجة أنطونيو، حتى بعد طلاقه، وذلك لكونها أجنبية. لكن المنطق اليوناني الشرقي الرحب اعتبر الاثنين زوجين. أما من وجهة نظر مصرية، فلم تكتسب المسألة أي أهمية. لم تكن كليوباترا بحاجة إلى الزواج من أنطونيو الذي كان يفتقد إلى منصبٍ رسمي في مصر التي كانت تحكمها مع قيصيريون. كان أنطونيو في مصر بصفته رفيق الملكة وراعيها، وليس بصفته ملكاً على البلاد. لم تشكل هذه المسألة مشكلة في مصر، لكنها كانت أمراً مربكاً في روما. هل كان يُنتظر من كليوباترا أن تلعب دوراً ما في الغرب؟ لم تكن الملكة من ضمن فئة معينة تناسبها: إذا لم تكن زوجة فهي محظية، لكن، ما هو السبب الذي دفع بأنطونيو إلى طبع صورتها على النقود الرومانية؟ ساد الإرباك

والغموض النوايا المشتركة لأنطونيو وكليوباترا. هل قصدا تحقيق حلم الإسكندر الكبير، أي ربط الناس بشكل يتجاوز الحدود القومية حيث يكونون تحت قانون مبجل واحد، وعلى حد ما جاء في أحد التوقّعات؟ أم هل أراد أنطونيو تنصيب نفسه ملكاً شرقياً، بينما تكون كليوباترا ملكة إلى جانبه؟ (سهّل أنطونيو الأمر على أوكتافيوس من هذه الناحية، لأنه حين يُقدم المواطن الروماني على الارتباط رسمياً بدولة أخرى فإنه يتخلى بذلك عن جنسيته). يمكننا تحديد برنامجهما بشكلٍ أفضل، إذ يُحتمل أنهما أرادا تأسيس عاصمتين، لكن ذلك أرهق العقل الروماني الذي يحب التصنيف الواضح. يُضاف إلى ذلك أنهما قلبا مفهوم الملوك التابعين رأساً على عقب. كان يُفترض بالأجنبي أن يكون تابعاً للروماني وليس مساوياً له، وقد وجد أوكتافيوس، في هذه الحالة، أنه من السهل عليه إقامة الدليل على وجود امرأة عدائية، ونهمة، ومصرّة على الغزو، وقد فعل ذلك بشكلٍ مقنع وحثيث. صوّر أحد أعظم الباحثين في القرن العشرين كليوباترا على أنها عملت من خلال أنطونيو - وكأنها طفيلية - على تحقيق الطموحات التي لم تكن لتفكر فيها سابقاً. كانت النوايا العسكرية غامضة تماماً، لكن ما هي الغاية الحقيقية التي يحارب أنطونيو من أجلها؟ يُحتمل أنه أراد استرجاع الجمهورية كما ادّعى. لكن ماذا أراد أن يفعل بوالدة أبنائه الثلاثة الذين يُعتبرون أنصاف رومان؟

في المقابل، فإن كل شيء كان واضحاً ومنهجياً بالنسبة إلى أوكتافيوس، أو على الأقل فإنه كان كذلك عندما وضع هذا الثأر الشخصي في خانة حربٍ خارجية. امتلكت حجته نقاطاً ناصعة وواضحة وفي غاية الشفافية، ونجح في مخاطبة مشاعر الخوف من الأجانب. كان الرجل متأكداً من "أننا نحن الرومانيين، أسياد أكبر أجزاء العالم وأفضلها"، لن نخاف من هذه المخلوقات البدائية. انقسم العالم، وللمرة الأخيرة، ما بين غربٍ ذكوري وعقلاني، وشرقٍ أنثوي وغامض، وهو العالم الذي أطلق

أوكتافيوس ضده نوعاً من أنواع الحرب الصليبية. كان أوكتافيوس يحارب ضد شيء ما، ولأجل شيء ما كذلك: كان يحارب من أجل الاستقامة، والتقوى، وضبط النفس؛ أي تلك المزايا ذاتها التي تخلى عنها زوج شقيقته السابق عندما التصق بكليوباترا. أما أنطونيو فلم يعد مواطناً رومانياً بل أصبح مصرياً، أي إنه أصبح أشبه بضارب الصنوج النحاسية، والمخنّث، وعديم الأهمية، والعاجز، "لأنه يستحيل على المرء الذي يعيش حياةً من الترف الذي ينعم به الملوك، ويحمي نفسه مثل النساء، أن يمتلك فكراً رجولياً ويُقدِم على عملٍ من أعمال الرجال"(*). هاجم أوكتافيوس أسلوب أنطونيو الأدبي وتساءل كذلك عما إذا تمكن أي شخص من ملاحظة الشراب الذي يحتسيه أنطونيو، لكنه بدأ بالتركيز بشكلٍ أقل على دوره كوريثٍ لقيصر. بدأ أوكتافيوس، بدلاً من ذلك، بالحديث عن تبجيله، وهي الأخبار التي نشرها بشكل واسع. لقد سمع معظم الناس بأمر تحدره من أبولو، وهو الذي بدأ بتشييد هيكلٍ جديد ورائع له.

نجح أوكتافيوس في تحقيق إنجاز شديد الصعوبة عندما قلّص دور أنطونيو إلى مجرد ضارب صنوج نحاسية، وأعلن على الملأ الأمور التي لاحظها الرجال الذين يواجهون النساء: يخسر المرء في مبارزاتٍ كهذه من الفخر بقدرٍ أكبر من المجد الذي يكتسبه. يصعب كثيراً بحسب الأعراف الرومانية اعتبار المرأة خصماً مساوياً للرجل. وتحدّث أوكتافيوس بحماسة عن كليوباترا قبل قيامه بتوزيع اتهام كهذا على مجموعة من الأوتار الرنانة، وذلك قبل توزيعه على أوركسترا كاملة، اتهم أوكتافيوس كليوباترا بأنها تولّت كل أنواع السلطات، وذلك بهدف تكوين صورة بشعة ودائمة عنها. لم تكن

(*) أسرع نيقولا الدمشقي للتأكيد على أنه حتى عندما كان أوكتافيوس مراهقاً، وحتى في عمر يكون الشاب فيه "طائشاً"، فقد امتنع عن تلبية رغباته الجنسية لمدة سنة كاملة. وقد جرى التأكيد على أن أوكتافيوس قد عاش ببساطة وصرامة، وذلك في غياب أي دليل على عكس ذلك. وتُظهر الوقائع أنه كان مغرماً بالأثاث الفاخر والمصنوعات البرونزية مثل قريبه تماماً، وحتى إنه كان أكثر تعلقاً منه بألعاب التسلية.

هذه الملكة المصرية القاسـية والمتعطشـة إلى الدماء النسـخة الحديثة عن فولفيا، بل كانت عدوة شريرة، وتمتلك خططاً للاستحواذ على الممتلكات الرومانية. كان من المؤكد - بحسب منطق أوكتافيوس - أن الشعب العظيم والمجيد الذي سبق له أن أخضع الجرمانيين؛ الألمان، وسحق بلاد الغال؛ فرنسا، وغزا البريطانيين، وقهر هنيبعل ثم أحرق قرطاجة، لن يرتجف أبداً أمام "هذه المرأة الوباء". ماذا سيقول الأسلاف العظام لهذا الشعب، إذا ما عرفوا أن شعباً يمتلك تلك الإنجازات الفريدة والفتوحات الضخمة، والتي خضع لها كل إقليم من أقاليم العالم، قد يقع تحت سـطوة ملكةٍ مصرية، وخصيانها، ومصففي شعرها؟ أكد أوكتافيوس لرجاله أنهم يواجهون قوى عاتيـة وضخمـة، لكـن، إذا أراد المرء الفوز بالمكافآت الكبيرة، فعليه شـن حملات كبيرة. كان شرف روما على المحك في هذا الوضع، وهكذا فإنه مـن واجـب أولئـك الذين كُتب عليهم "إخضاع الجنس البشـري وحكمه"، الحفاظ على تاريخهم المشـرّف، والانتقام من كل الذين وجهوا الإهانات إليهم "وألاّ يسمحوا لأي امرأة بأن تجعل نفسها مساوية لأي رجل"(*).

نفّـذ أغريبـا، وهو القائد البحـري الفذّ عند أوكتافيوس، عبوراً مفاجئاً وسريعاً نحو اليونان، وذلك في وقتٍ مبكرٍ من العام 31. ظل أغريبا فترة طويلة صديقاً وناصحاً لأوكتافيوس، ولذلك تمكّن من التعويض عن الفطنة العسكرية التي كان يفتقر إليها قائده. أربك أغريبا خطوط تموين أنطونيو ثم استولى على قاعدته الجنوبية. وعمد أوكتافيوس بعد ذلك إلى نقل 80,000 رجـل مـن السـاحل الأدرياتيكي عبر البحر الأيونـي، فأجبرت هذه الخطوة أنطونيو على التحرك شمالاً مع أن قوات مشاته لم تتمركز بعد في أماكنها، وهكـذا فوجـئ بهـا تماماً. حاولت كليوباترا تهدئته عن طريق التخفيف من

(*) تساءل الشاعر بروبيرتيوس في وقتٍ لاحق قائلاً: ما هو معنى تاريخنا إذا كان سيؤدي بنا إلى حكم امرأة؟

أهمية هذا الظهور المفاجئ للعدو في ميناء طبيعي رائع (يُحتمل أنه براغا الحديثة) يقع على رأسٍ يمتد في البحر بشكل ملعقة. قالت الملكة ساخرة: "وما هو المخيف في جلوس قيصر في هذه المغرفة؟". عرض أوكتافيوس البدء في القتال على الفور، لكن أنطونيو لم يكن متمكناً من المواجهة بعد، لأن عديد جنوده لم يكن قد اكتمل، لكنه أجبر أوكتافيوس على الانسحاب بحركة خادعة قام بها في الصباح الباكر. مرت أسابيع عديدة مليئة بالتأنيب والمناوشات بينما كان أوكتافيوس يجول بين موانئ اليونان الغربية بكل حرية. أما أنطونيو فقد تمكن من تثبيت جحافله فوق رأسٍ رملي يقع على المدخل الجنوبي لخليج أمبراسيا.

بدت آكتيوم ميناءً ممتازاً، وإن كانت تقع في منطقة رطبة ومنعزلة. لم يتأخر أنطونيو وكليوباترا عن إدراك أن هذه الأرض المنخفضة، والتي تكثر فيها نباتات السرخس والأعشاب أكثر ملاءمة بكثير للقتال مما هي كمكانٍ للتخييم. مرّت أسابيع أخرى في محاولات لبدء المعارك وفي اتخاذ القرارات الحذرة. لم يتمكن أوكتافيوس في هذا الوقت من إغراء أنطونيو للخروج إلى عُرض البحر، كما لم يتمكن أنطونيو من دفع أوكتافيوس إلى اليابسة، وبقي هذا الأخير مصراً على قطع خطوط تموين أنطونيو، الأمر الذي أثبت مهارته فيه مع اقتراب الربيع وأوائل الصيف. يُحتمل هنا أن تكون كليوباترا قد أظهرت عدم اكتراثٍ كامل بشأن إمكانية نزوله إلى البر، لكن واقع الحال كان يشير إلى أنه بعد سلسلة من القرارات الغامضة والبطيئة، والتي لم تكن منطقية حتى قبل أن يلاحظها المدّاحون التابعون لأوكتافيوس، بدأ أنطونيو وكليوباترا بخسارة ميزة موقعهما. ظلّت في هذا الوقت مسألة الاستراتيجية تخيّم بثقلٍ فوق رأس أنطونيو: هل ينبغي له ملاقاة أوكتافيوس في البر أم في البحر؟ واظب جيشا الفريقين على التحديق إلى بعضهما بعضاً عبر ذلك المضيق الضيّق، ومن رأسٍ مكسوٍّ بالأعشاب.

بـدا معسـكر أنطونيـو رائعـاً من بعيـد بجنوده الكثر الذيـن جاءوا من قوميات مختلفة، وبعباءاتهم الأرجوانية والحمراء الملتمعة والمطرزة بخيوطٍ مذهبة. ارتدى التراقيون طِوال القامة سترات سـوداء ودروعاً ملتمعة، في حيـن ارتـدى المقدونيـون عباءات جديدة قرمزية اللـون، أما الميديون فقد لبسوا صدرياتٍ ملونة. كانت العباءة العسكرية البطلمية المحبوكة بالذهب جديرة بالأمراء، أو بأن تُرسـم ضمن منظرٍ أسـطوري. عجّت هذه الأرض اليونانيـة المنخفضة والقاحلـة بالخوذ الملتمعة، وبدروع الصدر المزخرفة، وبالأعنـة المزخرفة بالجواهـر، وبالرِيَش المصبوغة، وبالرماح المزخرفة(*). كان معظـم الجنـود مـن الشـرقيين، وكذلـك العـدد الأكبر مـن المجذّفين، والذين كانوا بمعظمهم من المجندين الجدد. جمع الجنود معهم مجموعة واسـعة من الأسـلحة: الدروع التراقية المصنوعة من الأغصان، كما التقت السهام الرماح الرومانية، والأقواس المصنوعة في كريت، وكذلك الحراب المقدونية.

تكفلت كليوباترا بدفع جزء كبير من التكاليف، لكنها ساهمت كذلك بشيء آخر، إذ امتلكت القدرة، بخلاف أنطونيو، على التواصل مع وجهاء الشـرق المجتمعيـن. كمـا كانـت الملكة تتكلّم لغة الفرسـان الأرمن، ولغة المشـاة مـن الأثيوبيين، ولغة الوحـدات الخاصة من الميديين، وكذلك لغة المنتميـن إلـى الأسـر المالكـة. سـاد كذلك قانون سـلوكٍ خـاص بالحكام الهيلينسـتيين، وكانـوا بمعظمهـم يمتلكون خبرة مع الملـكات القويات. لم يخطئ كانيديوس عندما تكلم عن الملكة. ذكرت كليوباترا الأمراء الآخرين بحضورهـا بأنهـم يحاربون لأجل أمـورٍ تتعدى الجمهورية الرومانية، والتي

(*) لقي التفاخر في هذا المجال فقط قبولاً من الرومان. شرح بلوتارك المسألة قائلاً: "لأن التبذير في مجالات العروض الأخرى يوحي بالترف، ويزرع الشعور بالاسترخاء في قلوب الذين يستخدمونه، وكذلك لأن أموراً مثل دغدغة الأحاسيس تعيق الغايات الجدية، لذلك حين يظهر ذلك التبذير في أوقات الحرب، فإنه يقوّي الروح القتالية ويثيرها.

لا مصلحة لهم فيها. يُضاف إلى ذلك أن أولئك الأمراء لم يمتلكوا قدراً كبيراً من التعاطف مع أنطونيو أو مع أوكتافيوس، وكان من الممكن أن يتحالفوا بسهولة ضد أي واحدٍ منهما، أي كما تحالفوا في العام 89 مع ميثراديتس. كانت كليوباترا ستتخذ موقفاً مماثلاً لو لم تقحم نفسها في صميم الشؤون الرومانية بزيارتها لقيصر في العام 48. وقد عمدت هي وأنطونيو إلى إبعاد ملكٍ واحد، وكان بطبيعة الحال أشد المتحمسين في المجموعة. وصل هيرودس محملاً بالأموال، وبالعتاد بالإضافة إلى شحنة من القمح، ومع جيش جيّد للتدريب. تبرّع هيرودس كذلك بنصيحة ليست مستغربة من جانبه؛ إذا تمكّن أنطونيو من قتلِ كليوباترا، وضمِّ مصر، فإن جميع متاعبه سوف تنتهي. بقي جيش هيرودس ومؤنه في المعسكر، لكن إقامته فيه كانت قصيرة جداً، كما تلقى ذلك الملك رداً على نصيحته أمراً بمحاربة مالخوس، ملك النبطيين، وهو الذي قيل عنه إنه يتباطأ كثيراً في تسديد مدفوعات القار. وقد عمدت كليوباترا في الوقت ذاته إلى الإيعاز إلى قائدها في تلك المنطقة بإعاقة جهود الملكين معاً، وذلك لأنها تفضل أن يدمر كل واحد منهما الآخر.

لم تسر الأمور على ما يرام في النهاية، إذ أرخت فترة الانتظار بتأثيراتها في ذلك المخيّم الواسع لجنود متعددي الأعراق، وضمن تلك الظروف التي لا يُمكن أن توصف بالصحية. لقد ساءت الظروف مع ارتفاع درجات الحرارة في ذلك المعسكر، كما لم يُسهم حضور كليوباترا في رفع معنويات الجنود إلا بقدرٍ ضئيل. عزا هيرودس عملية استبعاده إليها، وكان محقاً في ذلك. كان من الواضح أن كليوباترا تحتل مركزاً حيوياً في المعسكر، وكانت تعتبر أن تحضيرات الحرب تقع على عاتقها، وخاصة لأنها القائد الأعلى للقوات المصرية. بدا أن الملكة افترضت أن أنطونيو هو الصديق الوحيد الذي تحتاج إليه، وهكذا لم تكن على استعداد لأن تلزم الصمت. كان ذلك أمراً غريباً نظراً إلى القدر الضئيل الذي بقي من

قدرتها على التعبير عن رأيها، لكنها لم تكن على استعداد لأن تلعب دور إيزابيلا ملكة إسبانيا؛ وهو الدور المفعم بالتبجيل على شاكلة: "أتسامحني جلالتك لأنني تحدثت عن أمورٍ لم أفهمها؟". يستحيل علينا تحديد من سبق الآخر؛ الإذلال الروماني بوجود كليوباترا، أم الغرور الذي كانت تبديه كليوباترا مع الرومان. قيل إن ضباط أنطونيو كانوا يخجلون منها ومن مركزها بصفتها شريكة مساوية لهم، كما أن أقرب رفاقه إليه كانوا يعترضون على السلطة التي تمتلكها. وضعت الملكة نفسها في الزاوية: إن التخلي عن حذرها يعني عودتها إلى بلادها، أما الحفاظ على ذلك الحذر فكان يُعتبر عدائياً بالنسبة إلى الآخرين. يُحتمل كذلك أنها تعرضت للاستفزاز، كما أن مشاجرات عدة وقعت بينها وبين أنطونيو.

فشلت كليوباترا على وجه الخصوص في التقرب من غنايوس دوميتيوس إينوباربوس، وهو أبرز مناصري أنطونيو. كان الرجل جمهورياً فخوراً، كما كان على رأس القناصل الذين فروا إلى إفيسوس في الربيع السابق. كان غنايوس حازماً وغير قابلٍ للإفساد. وقد نشأت المتاعب بينه وبين كليوباترا منذ البداية، وهو الذي رفض مناداتها بلقبها، وهكذا بقيت كليوباترا\ ببساطة بالنسبة إليه. حاولت الملكة شراء ولائه، لكنها اكتشفت أنه رجل مستقيم مثلما كان بلانكوس رجلاً فاسداً. بقي إينوباربوس مخلصاً لسمعته، وكان صريحاً جداً. لم يخفِ الرجل رأيه في أنها تمثّل عبئاً، وكان يعتقد أنه من الممكن تجنب هذه الحرب. تورط غنايوس في جريمة قتل قيصر وأُدين بعد ذلك ونُفي عن البلاد. حارب إينوباربوس في معركة فيليبي ضد أنطونيو، ثم تصالح الرجلان بعد ذلك، وهكذا شغل غنايوس منذ ذلك الحين مراكز عالية، وكان يُعتبر من بين أكثر المقربين لأنطونيو إخلاصاً، وكان دوره مهماً في معارضة أوكتافيوس. بذل الرجل قصارى جهده في التقليل من أهمية الأخبار التي تدور حول احتفالات عطايا الشرق. يُضاف إلى ذلك أن ابن إينوباربوس كان خطيب إحدى بنات

أنطونيو. نجا الرجلان معاً من مهالك كثيرة: كانا معاً في بارثيا حيث أثبت إينوباربوس أنه رجل مخلص وجدير بالقيادة؛ كان يخاطب الجنود نيابة عن قائده عندما لم يكن في حالة تسمح له بذلك. اتبع رجل الدولة الكبير ذاك خطأً مغايراً عندما لاحظ هبوط الروح المعنوية في آكتيوم. فقد استقلّ مركباً صغيراً انتقل به إلى معسكر أوكتافيوس. وهنا، شعر أنطونيو بالصدمة الشديدة، لكنه بقي محافظاً على الأصول، فما كان منه إلا أن أرسل إلى زميله السابق أمتعته التي بقيت في المخيم، بالإضافة إلى أصدقائه وخدمه كي يلتحقوا به، لكن شهامته هذه لم تعجب كليوباترا.

يُستبعد تماماً أنّ الملكة لم تلاحظ الإزعاج الذي يسببه حضورها في ذلك المعسكر الذي يسبب التعرّق، والمليء بالبعوض، وهو المعسكر حيث ينصب أفراد حاشيتها الخيم بشكل مميز، وحيث تجثم سفينة قيادتها الضخمة أنطونيا، والتي تضم عشرة صفوف من المجاذيف بمقدمتها المنحوتة والمزخرفة، الأمر الذي يستثير بعض الفخر. شعر الرجال بالجوع بعد تقليص حصصهم الغذائية، وتعكرت أمزجتهم. كانت كليوباترا تجلس فوق كومة أموالٍ محروسة بعناية. يُذكر أن الجندي الروماني يحب أن يرى قائده وهو يأكل الخبز المتعفن، وينام على فراش بسيط، وقد أربكت كليوباترا تلك المعادلة: كانت خيمة أنطونيو منصوبة في وسط المخيم الواسع تماماً، وسمع من خيمته أنه يتعيّن عليه إبعاد كليوباترا، لكنه أصمّ أذنيه عن هذه الالتماسات. أما كانيديوس، وهو الرجل الموثوق، والذي سبق له أن دافع عن كليوباترا، فقد رغب في ذهابها. كانت الملكة تعرف السخرية التي أثارتها فولفيا، إذ لم تتمتع القائدات من النساء بالشعبية، وهو الأمر الذي أدركته كليوباترا جيداً عندما تسلمت شقيقتها المسؤولية لفترة قصيرة في أثناء حرب الإسكندرية، لكنها لم تكن تمتلك أي خبرة في النزاعات العسكرية في مثل هذا الحجم. كانت نظرية هيرودس تشير إلى أن أنطونيو لن يُقدم على إبعادها لأنه "أصمّ أذنيه على ما يبدو وذلك

بسبب غرامه". إذاً، لماذا لا تتنحى جانباً، أي كما فعلت سابقاً مع قيصر؟

أعلـن أوكتافيـوس الحرب على كليوباترا وحدها، ولهذا امتلكت كل الأسـباب التي تدعوها إلى الانتقام، إذ سـبق للملكة أن اسـتُبعدت من قِبل المستشـارين العسـكريين، وتُركت كي تجوب في صحراء سـيناء من دون مأوى ومحرومة من حقوقها، وهي تذكر كيف عاملها الوسطاء معاملة سيئة، وهكذا كان من المسـتبعد أن تقدم على ربط مصير مصر بأنطونيو وحده. كان كل شـيء على المحك؛ أي مسـتقبل سـلالة البطالسـة. أما لو توصل أوكتافيـوس وأنطونيـو إلـى اتفاق، فإنها سـتكون الثّمن. كان اللغز الحقيقي في العام 31 يتعلّق بالسـبب الذي جعلها تُغفل ممارسـة فتنتها على ضباط أنطونيـو، أكثـر ممـا يتعلـق بالسـبب الذي جعلها تبقى، وهـي التي نجحت بمهـارة فـي تبديـد الصدامات الإثنية في مصـر، وكذلك في تهدئة مخاوف الرومانيين. وبدا وجود الملكة في ذلك المعسكر مصدراً للغضب والتعب، وقد انزعج عدد كبير من الجنود من التأنيب؛ من النوع الذي كالته كليوباترا علـى جيمينيـوس الـذي عُـرف بصراحتـه. عانـى كذلـك عدد مـن أصدقاء أنطونيو ومن القناصل الرومانيين على يديها، وجميعهم قالوا إنّ "كليوباترا أهانتهم"، إذ أظهرت قدراً من الضغينة، والصلابة، والحساسية. لم تكتسب الملكـة سلاسـة مـن تجاربها تزيد عما اتصفت بـه في مراهقتها، أي عندما كانت تتعامل مع مستشاري أشقائها. كانت معتادة على ممارسة سلطة قوية، ولـم تُحسن قطّ تلقي الأوامر. انخفضت الروح المعنوية للجنود أكثر فأكثر، في حين اشتد الطوق الذي ضربه أوكتافيوس حول الخليج، كما هاجمت أسراب البعوض المخيّم، فانتشر وباء الملاريا - كما يُعتقد - بين الجنود، وسـاءت الأوضـاع كثيـراً إلى حدٍّ يثير الحـزن. تمثلت فترة الراحة الوحيدة عند اقتراب الظهيرة، أي عندما كانت الرياح تهب من الغرب؛ كانت النسائم العليلة تهب لساعات قليلة، لكنها تقوى عندما يتحول اتجاهها من الغرب إلى الشمال، وذلك قبل أن تتلاشى مع موعد مغيب الشمس.

مرت شهور على حالة التأهب وعدم النشاط تلك، كما حملت هذه الشهور معها إعادة ترتيبٍ للأولويات، كما خيّمت على أنطونيو وكليوباترا فكـرة الإيقـاع بأوكتافيـوس في خليج أمبراسـيا، لكنهمـا علقا بعد ذلك في ذلك الخليج ذي اللون الأزرق الساطع، وأخذا بتقليب الوقائع التي أظهرا بطئـاً فـي التأقلـم معهـا. كتب بلوتارك ملاحظاً: "إن المهمة الرئيسـة للقائد الجيـد هـي إجبـار أعدائه على القتال عندما يكون في وضعٍ متفوق عليهم، وكذلك عدم الانجرار إلى القتال عندما تكون قواته في وضعٍ أضعف من وضعهم". فقَدَ أنطونيو تلك الميزة منذ وقتٍ طويل، وهكذا لَم يجد أمامه أي خيار غير تكليف بلداتٍ بأكملها بمهمة نقل المؤن براً إلى المعسـكر. كان جـدّ والـد بلوتـارك مـن بيـن الذيـن أُجبروا علـى القيام بتلـك المهمة الشـاقة، والسـير عبر الممرات الجبلية نحو الخليج محملين بأكياس القمح على أكتافهم بينما كانت السياط تُلهب ظهورهم.

تكفلـت الانشـقاقات بيـن الجنـود بالقيـام بمـا عجـز عنـه الحصـار، والأمـراض، وذلـك الخمـول المنهـك. بـدأ العبيد والملـوك التابعون على حـدٍّ سـواء بالتخلـي عـن القضيـة. وأقـدم أنطونيـو على تعذيب شـخصين وإعدامهما؛ كان أحدهما عضواً في مجلس الشـيوخ، والآخر أحد الملوك السـوريين، وكان هـذان الشـخصان قد حاولا الفرار، فـأراد بذلك جعلهما مثـالاً يُحبـط أولئـك الذين يفكرون في تقليدهما. بلغ تأثر أنطونيو بالوضع حداً جعله يحاول التجول وحيداً في طريق كاد رجال أوكتافيوس ينجحون فيه في خطفه. تأثر أنطونيو كثيراً بخيانة إينوباربوس له، وأصيب في ما بعد بالذعـر الشـديد. ورد فـي إحدى الروايـات أنه بدأ بعدم الوثوق بأحد حتى كليوباتـرا، وهـي التـي شـك في أنها كانت تحاول تسـميمه. أرادت الملكة إثبات براءتها فعمدت إلى تحضير شراب قاتل، لكنها أوقفت الكوب عندما رفعـه أنطونيـو إلـى شـفتيه، إذ أرادت بهـذا القـول إنها لمـا فعلت ذلك لو أرادت قتله. أرسلت بعد ذلك في طلب أحد السجناء وناولته الكوب حيث

فعل السم فعله. (تحوم الشكوك حول هذه الرواية لأن كليوباترا كانت عاجزة عن التحرك من دون أنطونيو. كما يُستبعد كثيراً أنه نسي ذلك حتى في وضعه المتوتر هذا). تشاجرت كليوباترا مع ديليوس كذلك، وهو الذي أمضى الصيف بأكمله في تجنيد المرتزقة. تصادم الاثنان ذات ليلة عندما اشتكى ديليوس من الشراب مدّعياً أنه فاسد بينما يحضر عمال أوكتافيوس الشراب من أفخر محاصيل الكرمة. خرج ديليوس من حفلة الشراب تلك وهو مقتنع بأن كليوباترا تريد قتله، وادعى أن أحد أطبائها اعترف بكل ذلك. كان ذلك عذراً مشروعاً بالكامل كي ينفذ ارتداده الثالث والأخير، ففرّ إلى معسكر أوكتافيوس، وهكذا انتزع من أنطونيو ما اعتبره قيصر أقوى الأسلحة: المفاجأة. وأيضاً، فقَدَ أنطونيو مع ديليوس خططه الحربية.

دعا أنطونيو إلى عقد مجلس حرب مع اقتراب نهاية شهر آب فظهرت عليه آثار ستة عشر أسبوعاً من الحصار بكل وضوح. أما الوضع فقد كان كئيباً، كما أن المؤن الباقية كانت قليلة جداً، لكن هواء الليل كان منعشاً. لم يكن الشتاء بعيداً في ذلك الوقت، ولهذا اضطر أنطونيو إلى حسم المسألة التي شلّت حركته طيلة ذلك الصيف الحار. كان تحديد التكتيكات أسهل عليه من تحديد الاستراتيجيات، ولهذا كان متردداً في اتخاذ القرارات. أخذت كليوباترا جانب نصيحة كانيديوس في هذا الوقت، إذا لم تكن قد فعلت ذلك قبلاً. فضّل الرجل الزحف شمالاً وتقرير مصير المواجهة على البر. كان الرجال رومانيين في النهاية، ولذلك اعتبر كانيديوس أن البدء بالمعركة فوق الأمواج المتلاطمة كان مجرد حماقة. لم يسبق لأنطونيو أن قاد أسطولاً بحرياً من قبل، ولذلك لم يمنعه شيء من تسليم قيادة البحر إلى أوكتافيوس، يُضاف إلى ذلك أنه كان ينتظر تجنيد المزيد من الرجال في مقدونيا وتراقيا. بطبيعة الحال، كان كانيديوس يعرف أن القتال على اليابسة يعني التغاضي عن أسطول كليوباترا، أي الاستغناء عن خدماتها، وهي التي كانت تدرك جيداً أن التضحية بأسطولها تشكل تهديداً لمصر،

كما كانت تعرف كذلك أن صناديقها التي تحتوي على الدنانير الفضية لا يمكن نقلها عبر الجبال. جادلت الملكة بشدة لصالح خوض معركة بحرية، وكانت أسبابها منطقية تماماً: كان عدد جنود أنطونيو أقل بكثير على اليابسة، كما كان عاجزاً عن عبور إيطاليا من دون أسطول بحري. كما لم يكن من السهل عليه كذلك تحريك جيش عبر الجبال، كما أن مرور خمسة أعوام لم يكن كافياً لمحو ذكرى بارثيا. تواجد اعتبار آخر في الوقت ذاته، ولم يكن بإمكان أي شخص يشارك في مناقشات آكتيوم أن يتجاهله. جمع بومبي في اليونان، في أثناء مواجهته مع قيصر، قوات كبيرة متعددة القوميات واللغات من الملوك والأمراء الآسيويين. أسهمت كليوباترا بستين سفينة في ذلك الأسطول. وكان إينوباربوس موجوداً في ذلك الحين، وكذلك والده الذي هلك في تلك المعركة، وكان أنطونيو يقود المعركة بامتيازٍ في الجانب المقابل. فضّل بومبي في آب من العام 48 تجاهل قواته البحرية، وهي التي كانت متفوقة كثيراً على قوات قيصر. لم يكن النهار قد انقضى عندما أيقن بومبي أنه أخطأ كثيراً في تفضيله المعركة البرية، وكانت النتيجة حدوث مجزرة كاملة، وعندها تحوّل إلى قائد لا يتمكن من الكلام وعاجزٍ عن الإحساس بأي شيء لأنه فقد جيشه، وذكاءه، وكبرياءه. لم تمضِ أيامٌ قليلة على هذه المعركة حتى قُطع رأسه فوق الساحل المصري.

اختار أنطونيو المعركة البحرية. قال بلوتارك إن عاطفته هي التي أقنعته بذلك، لكن الأرجح هو أن أكثر القادة خبرة في أيامه لم يرغب في تلبية طلب كليوباترا، ولا في عرض أسطولها، لكنه انحنى تحت وطأة الضرورات. كان أوكتافيوس يمتلك ليس فقط منطقاً أكثر تجانساً، لكنه امتلك قوة أكثر تماسكاً وجيشاً يتكلم اللاتينية، وجنوداً من الرومان المدربين جيداً. كان التفوق براً في صالحه، أما في البحر فكان الطرفان

متساويين. تمكن أنطونيو من شرح هذا الوضع لرجاله المتعبين، والذين كان القليلون منهم يجيدون السباحة. لم يكترث أنطونيو لإمكانية افتتاح المنازلة بهزيمة: "اخترت أن أبدأ بالسفن لأننا الأقوى، ونمتلك تفوقاً كبيراً على أعدائنا في ذلك المجال، وذلك على أمل أن يساعدنا النصر على الاستقواء على مشاتهم كذلك". (تحدث أوكتافيوس بالتفصيل عن الموضوع ذاته، لكنه برهن أنه أكثر صلابة من الناحية النفسية: "إن الطبيعة البشرية عموماً هي ذاتها في كل مكان، وهي تدلنا على أن المرء إذا فشل في أولى مبارزاته، فإنه سيشعر بالإحباط بالنسبة إلى ما سيأتي بعد ذلك"). عمد أحد الجنود المخضرمين والمثخنين بجروح المعارك إلى الاندفاع أمام أنطونيو حاملاً معه التماساً عاطفياً. تساءل الرجل عن قدرة قائده على تجاهل تلك الجروح، وعلى وضع آماله "في تلك الألواح الخشبية البائسة". توسل الجندي قائده قائلاً: "دع المصريين والفينيقيين يحاربون في البحر، لكن دع لنا القتال في البر الذي تعودنا الوقوف عليه، إما لنقهر أعداءنا وإما لنموت". لكن أنطونيو نظر إليه بعطف ومن دون أن يجيبه بشيء، وهو الذي "منحته الطبيعة أكثر من أي شخصٍ آخر في زمانه موهبة قيادة جيش بقوة الفصاحة".

حام جوٌّ مشابه فوق كليوباترا في أواخر أيام شهر آب، وفاحت مع نسائم الظهيرة الرائحة اللاذعة للأرز المحترق وصمغه فوق المخيّم. كانت تلك هي الرائحة التي تذكرتها جيداً، والتي فاحت من ميناء الإسكندرية قبل سبعة عشر عاماً. عمد أنطونيو، في ما بدا أنه تقليد روماني، إلى سحب نحو ثمانين سفينة من سفنها إلى الشاطئ وأضرم النار فيها، إذ فقد الطواقم اللازمة للعمل على هذه السفن، ولذلك لم يستطع المخاطرة في وقوع هذه السفن بين يدي أوكتافيوس. لم يعد ذلك سراً، لأن النيران كانت متقدة وساطعة ولاذعة. هبّت بعد وقتٍ قصير عاصفة أطفأت ألسنة النار المتصاعدة، وبقيت الرياح العاصفة والأمطار الغزيرة تهب وتهطل

على الساحل لمدة أربعة أيام. لم يتبقَّ مع توقف العاصفة سوى مكابس محترقة، وأدوات مشوّهة. عمد ضباط كليوباترا في الأول من شهر تموز، وتحت جنح الظلام، إلى تحميل صناديق كنوزها سراً إلى سفينة أنطونيا الضخمة، ونقلت سفن شحن أخرى أموالاً إضافية بالإضافة إلى أدوات المائدة الملكية التي لا تقدر بثمن. حملت سفن كليوباترا وأنطونيو أشرعة وسوارِي ضخمة. تمكن أنطونيو مع شروق الشمس من تحميل 20,000 جندي ومعهم آلاف الرماة، وهكذا حشر عدداً كبيراً من الرجال في حيِّزٍ ضيّق. كانت السماء صافية، بينما كان البحر صفحة ملساء عندما بدأ الرجال بالتجذيف، وترددت أصوات المجاذيف التي تدفع السفن إلى فتحة الخليج. كانت ثلاث كتائب من قوات أنطونيو متمركزةً هناك في تشكيلات تشبه شكل الهلال. وبقيت كليوباترا وسفنها الستون في الخلف، وذلك بهدف منع هروب المنشقّين، وكذلك من أجل الحماية؛ لم يكن من المفترض أن تشارك الملكة في القتال.

اكتشف رجال أنطونيو خارج المضيق أن أسطول أوكتافيوس يتجمع في تشكيلٍ مماثل على بعد نحو ميل. ضجّ الخليج بأصوات الأبواق العميقة، كما انطلق المنادون والضباط في حثّ الجنود على العمل. وقفت في ذلك الصباح 240 سفينة تابعة لأنطونيو بمجاذيفها ومقدماتها المستعدة في مواجهة 400 سفينة تابعة لأوكتافيوس على أهبة الاستعداد للقتال بعد أن اصطفت جنباً إلى جنب. كانت ثابتة في أمكنتها رغم الصرير الذي ينبعث منها، وذلك بينما كانت الجيوش البرية تراقب من الشاطئ. أمر أوكتافيوس في نهاية الأمر كتيبته المتمركزة في أقصى الشمال بالتجذيف إلى الخلف، وذلك في محاولة منه لدفع أنطونيو خارجاً. تقدمت سفنه حينها إلى المياه المفتوحة، وامتلأ الجو بالصرخات على الفور سواء أكان ذلك على الشاطئ أم فوق المياه. انهمرت موجات غزيرة من الحجارة والسهام والقطع المعدنية من فوق أبراج سفن أسطول أنطونيو. أما من

جهة أوكتافيوس فقد تحطمت المجاذيف ودفات السفن. بدت المعركة من جهة كليوباترا معركة برية عائمة بالرغم من الأمواج المتلاطمة تحت السفن. لعب رجال أوكتافيوس دور المشاة، بينما قام رجال أنطونيو بصدّ الهجوم من قلاعهم العائمة، والتي كانت أكبرها تعلو عشر أقدام عن سطح المياه. استمر الصدام الشديد والاشتباك من دون حسم حتى وقتٍ متأخرٍ من الظهيرة. تحرك الجناح الأيسر لقوات أوكتافيوس عند نحو الساعة الثالثة لتطويق قوات أنطونيو، فما كان من أنطونيو إلا أن تحرك شمالاً، وتلاشى في هذه الأثناء القسم الأوسط من خط السفن. رفعت سفن كليوباترا سواريها على نحوٍ مفاجئ وحاولت الاستفادة من اتجاه الرياح، وانسحبت ببرودة من وسط المعركة وسط القذائف الطائرة، وبمحاذاة الرماح والفؤوس المنطلقة من خطوط العدو ناشرة الذعر في كل الجهات. تطلع رجال أوكتافيوس بدهشة بينما كانت سفينة قيادة كليوباترا الضخمة تسرع جنوباً بأشرعتها الأرجوانية التي تماوجت مع الرياح. عجزت قوات العدو عن اللحاق بها، كما أن دهشة هذه القوات ازدادت عندما انتقل أنطونيو من سفينة قيادته إلى سفينة سريعة ولحق بها، بينما أحاطت به نحو أربعين سفينة من فرقته الخاصة.

قال بلوتارك إن حيرة رجال أوكتافيوس كانت أقل من اندهاشهم. فرّ أنطونيو وكليوباترا بأقل من ثلث ما تبقى من أسطولهما مصطحبين معهما كل أموالهما وكنوز الملكة. كان من الواضح أن عملية الفرار قد خُطِّط لها سلفاً، وإلا لما وُضِعت الأشياء الثمينة والأشرعة في سفن كليوباترا. تمكنت الملكة كذلك من توقيت خطوتها هذه بالشكل المناسب كي تستفيد من الزيادة في سرعة الرياح المناسبة والمنعشة. عرف أوكتافيوس من ديليوس خطة الفرار من الطوق المفروض، ولم تكن لدى أنطونيو أو كليوباترا أي نية تهدف إلى تمديد أجل المعركة، وقد سبق للاثنين في وقتٍ سابقٍ من الشهر أن حاولا شق طريقهما من خلال الحصار المفروض عليهما، لكنهما

كانـا يعرفـان أنهمـا إذا اسـتطاعا دفع أوكتافيوس إلى عُـرض البحر، فإنهما سـوف يتمكنـان مـن الفـرار إلـى مصر. قـام الاثنان بهذا التحـرك فقط كي يتمكنا من تنفيذ خطتهما. قال ديو إن خطبة أوكتافيوس التي سبقت المعركة تضمنت تحذير رجاله من إمكانية سير الأحداث على هذا المنوال، "لأنهما اعترفـا بأنهمـا أضعـف منا، ولأنهمـا يحملان غنائم الانتصار في سـفنهما، لذلـك دعونـا لا نسـمح لهما بالإبحار إلى أي مـكان، ودعونا نهزمهما هنا وعلى الفور، ونسـلبهما الكنوز التي يحملانها". انطلقت سـفينتان سريعتان وخفيفتا الوزن وقادرتان على المناورة والانسياب بخفة بالفعل في 2 أيلول.

أرسـلت كليوباترا إشـارة إلى أنطونيو في عُرض البحر، وما لبث أن صعد إلى متن أنطونيا فوق الأمواج مع مرافقين اثنين. لم يكن هذا اللقاء موفقاً، لأن أنطونيو لم يرَ كليوباترا ولم يتحدث إليها، ويبدو أن ذلك كان بفعل الخجل أكثر مما كان بسبب الغضب. سار أمر ما على غير ما يرام. يُحتمـل هنـا أن رجـال أنطونيـو لـم يقصـدوا البقاء في الخلف، وقد سـبق لكليوباتـرا أن جادلـت بضـرورة عـودة معظم الجيش معهـا إلى مصر. بقي الأسطول في مكانه إما لأنه فضّل هذا الخيار، وإما لأنه لم يكن قادراً على الفرار. ويُحتمل كذلك أن قادة الأسطول فضلوا مقاتلة أندادهم من الرومان على اتّباع امرأة أجنبية، ومن المؤكد أن شائعات عن التمرد قد سرت داخل المخيـم. ويُحتمـل أيضـاً أن تكون كليوباترا قد خططـت لهذه المناورة مع أنطونيو كي تنفذ في حال الضرورة، ولهذا تصرفا استباقياً بشكلٍ منفرد أو معاً. وكذلك، من المحتمل أن تكون كليوباترا قد بكّرت قليلاً في الرحيل، وأنها كانت تتوق إلى الإبحار إلى الإسـكندرية، وهي المدينة التي عرفت أنهـا لـن تراهـا مجـدّداً إذا لقيت الهزيمة في سـواحل اليونـان. قال ديو إن أنطونيو فرّ لأنه فسّـر - خطأً - مغادرة كليوباترا على أنها هزيمة. يُحتمل كذلـك أن الأمـور قـد سـارت كما هو مخطط لها بالتحديـد، وأن ترداداتها لـم تظهـر إلا بعـد ذلـك، وهكذا بقي علينا فهم قـرارات غامضة من خلال

روايات غير واضحة. نستبعد هنا أن يكون أنطونيو قد انحنى أمام الهزيمة لأن المواجهة - التي كانت بمثابة عراك أكثر مما هي مناوشات - استمرت لبعض الوقت من دون حسم، حتى إن أوكتافيوس عجز في نهاية اليوم عن تحديد هوية صاحب الكفة الفائزة. ساد جو متوتر وسط ذلك الهواء المنعش خلاصته: "ألم أقل لك ذلك؟"، سواء أكان الخطأ في رسم الخطة أم في تنفيذها. أما إذا كان لنا الوثوق بما قاله بلوتارك فإن أنطونيو كاد يختنق نتيجة عجزه. مضى بلوتارك بالقول إن أنطونيو تجاهل كليوباترا، "توجّه وحده نحو مقدمة السفينة، وجلس بمفرده صامتاً، ثم أمسك رأسه براحتَي يديه". لم يتحرك إلا عند حلول الظلام، أي عندما ظهرت من بعيد سفينتان تابعتان لأوكتافيوس. أمر أنطونيو سفينة القيادة بالاستدارة كي يتمكن من الوقوف، ومواجهة العدو مباشرة. وعلى الفور، بدأت المناوشة، وهي المناوشة التي نجت منها أنطونيا، لكن كليوباترا خسرت فيها سفينة قيادة وسفينة أخرى محملةً بكمية كبيرة من الأثاث الفاخر.

عاد أنطونيو إلى مقدمة السفينة بعد نجاحه في رد المعتدين، أحنى رأسه وحدّق مطولاً وبذهول إلى البحر. تحوّل بطل معركة فيليبي، وديونيسوس الجديد، إلى هيكلٍ ضخم وكئيب، وسكنت على نحو مفاجئ تانّك الذراعان وتانّك الكتفان القويتان. كان الإبحار جنوباً مريراً، كما ساده شعور متبادل بالانزعاج وبالخسارة الشخصية. كانت المواجهة هادئة كذلك. أمضى أنطونيو ثلاثة أيام وحيداً، "إما بسبب غضبه من كليوباترا، أو لأنه لم يرغب في تأنيبها"، وبدت الخطة، التي يُحتمل أنها رُسمت بدافع اليأس، معقولة في إحدى المراحل، إذ لم يعد بإمكانه في ذلك الوقت تجاهل الانطباع بأنه هجر رجاله. بقي هؤلاء الرجال على ولائهم له وثابتين في مواقعهم في حين تركه الملوك، وأعضاء مجلس الشيوخ، والضباط. ترك أنطونيو رجاله وسط معمعة المعركة، لكنه اكتشف أنه في وضعٍ لا يُحسد عليه مع كليوباترا. بقيت نتيجة معركة آكتيوم غامضة، واستمرت هكذا لأيامٍ

عدة، لكن أنطونيو أدرك عواقب ما فعله وعرف طبيعة المعركة. كان يُنتظر من القائد الروماني التأمل بالهزيمة، والمثابرة في وجه كل الاحتمالات والمخاطر المحدقة. كان التاريخ سخياً كلياً مع مارك أنطونيو، وهو الذي عاش في روما في منزل فخم تزيّنه تماثيل تسعين كبشاً برونزياً أُسرَت في البحر. (كانت هذه التماثيل ملكاً لبومبي)، وقد فهمَ أنطونيو حينئذٍ أن المجد قد أفلت من بين أصابعه إلى الأبد.

رست سفينة كليوباترا في تايناروم بعد ثلاثة أيام للتزوّد بالماء والمؤن، وهي في مكانٍ يقع في أقصى جنوب شبه جزيرة البليبيونيز. (يُذكر هنا أنها الرأس حيث يُعتقد أن هرقل فتّش عن مدخل العالم السفلي). عملت خادمتان لكليوباترا، إحداهما مصففة شعرها إيراس، والأخرى شارميون خادمتها الشخصية، على إقناعها بتحقيق مصالحة مع أنطونيو، فتمكّنت المرأتان من إقناع أنطونيو وكليوباترا بالتحدث إلى بعضهما بعضاً حتى يصلا آخر الأمر إلى "الأكل والنوم معاً". التحقت بعد ذلك سفن شحن عديدة بالقائدين. حملت سفينتان أخباراً عما حصل بعد مغادرتهما آكتيوم، وعرف أنطونيو أن المعركة قد اشتدت لساعاتٍ عدة. تمكّن أسطول أنطونيو من الصمود لفترة، لكنه تعرّض للدّمار في النهاية. بقيت الأمواج تلفظ الجثث والأخشاب لفترة من الوقت، كما لفظت المصنوعات الشرقية الأرجوانية والذهبية، هذا إذا كان لنا أن نصدّق إحدى الروايات المثيرة. تمكنت قوات أنطونيو البرية من الصمود بثبات. حاول أنطونيو في نهاية اللقاء توزيع الهدايا على رجاله، فعمد إلى توزيع المصنوعات الذهبية والفضية التي كانت إحدى سفن النقل تحملها، وكانت جزءاً من كنوز قصر كليوباترا. رفض الرجال تسلّم الهدايا بينما كانت الدموع تسيل من أعينهم، فأسمعهم قائدهم كلمات المودة بسخاء لتكون بديلاً عن الهدايا المادية، ووعدهم بترتيب مكانٍ آمن لهم كي يختبئوا فيه حتّى يصلوا إلى حلٍّ ما مع أوكتافيوس. تابع أنطونيو الرحلة مع كليوباترا عبر مياه المتوسط

حتّى وصلا إلى ساحلٍ مصري منبسطٍ، فحطّا الرحال في موقع منعزل يقع في الزاوية الشمالية الغربية من البلاد، وهناك افترقا على ذلك الشاطئ الرملي الواسع.

توجه أنطونيو إلى ليبيا حيث أمر بتمركز أربعة جحافل من الجنود. أراد القائد إعادة تجميع قواته، أما كليوباترا التي خسرت أسطولها البحري، ووزعت قسماً من أموالها، والتي تعرّض حليفها للدمار، فقد أسرعت إلى الإسكندرية، إذ تمكنت من مغادرة آكتيوم قبل أي شخصٍ آخر، وهي فعلت ذلك على متن سفينة قوية ومجهزة تجهيزاً جيداً. أدركت كليوباترا أنها إذا تمكنت من التحرك بسرعة فلربما سوف تتمكن من تحجيم أخبار الكارثة التي وقعت. كانت تعرف تماماً معنى العودة إلى مصر في ظلّ ظروفٍ كارثية، ولهذا فقد أخذت الاحتياطات اللازمة: أمرت بأن تُرتَّب صفوفٌ كثيفة من الأزهار بسرعة مناسبة. سارت الملكة أمام منارة الإسكندرية في اليوم التالي، لكنها فعلت ذلك بكلّ رزانة، في حين كانت سفنها مزينة بأكليل الزهور. رافقت الملكة في سيرها مجموعة من عازفي النايات، وكذلك جوقة كانت تُنشد أناشيد النصر من فوق سطح سفينة. تلقى أولئك المجذّفون الذين خرجوا لاستقبالها أنباء الانتصارات الاستثنائية التي نطقت بها من دون أيّ إشارة تردد من قِبلها من على متون مراكبهم. أما من جهة جحافل أنطونيو التسعة عشر، وما مجموعه 12000 فارس، والذين فقدوا الأمل بعودة قائدهم إليهم، فقد استسلموا بعد أسبوع كامل من المفاوضات مع أوكتافيوس، وهو الذي بدأ لتوّه تذوق طعم النصر ومعرفة مداه.

الفصل التاسع

المرأة الأكثر شراً في التاريخ



إن سوء الحظ يمتلك عدداً قليلاً من الأصدقاء، كما ورد في المثل. لم تنتظر كليوباترا كثيراً كي تعرف ما إذا كان ذلك المثل صحيحاً، فتأكّدت صحّته بالدماء، وبالسرعة اللازمة، وذلك حتى على افتراض أن خدعتها لم تُكتشف بعد. سبق لنخبة القوم في الإسكندرية أن أعربوا عن معارضتهم لها، ولذلك خشيت الملكة من رد فعلهم إذا علموا بالكارثة التي نزلت بها في آكتيوم. يمكن لهذه النخبة أن تتهمها بتسليم مصر إلى روما. لم يكن خوف الملكة مركّزاً على مشاهدتهم وهم يغتبطون لهزيمتها، وكذلك لم تكترث من احتمال استبدالها على عرش مصر، فانطلقت فور عودتها في موجة قتلٍ لا حدود لها، كما أمرت بإلقاء القبض على أبرز منتقديها ثمّ قامت بإعدامهم، كما سلبت الكثير من الأموال من ممتلكات هؤلاء، وإضافة إلى ذلك، صادرت أموالاً إضافية في كل مكانٍ عثرت فيه عليها، وأيضاً قامت بمصادرة أموال الهياكل وكنوزها؛ طلبت المال من أي مصدر كان. لكن، كان من المستحيل، ومهما فعلت، تجنّب ما كان أمراً محتوماً. كان لا بد من أن يأتي أوكتافيوس في طلبها. جهزت الملكة قوات جديدة كما بحثت عن المزيد من الحلفاء الذين استقبلتهم في بلاطها. أما أرتافاسديس، وهو الملك الأرمني المعروف بعصيانه، فقد بقي مسجوناً في الإسكندرية لمدة ثلاثة أعوام، وكانت أيام سجنه قد أوشكت على الانتهاء. عمدت كليوباترا إلى إرسال رأسه المقطوع مسافة 1,200 ميل شرقاً إلى

منافسه الميدي، معتقدةً أن ذلك الملك لا يحتاج إلى تشجيع أكثر من ذلك كي يهب لمساعدتها، إلاّ أنه تلكأ في ذلك.

توجهت الملكة شرقاً كما فعلت من قبل، وهي التي لها هناك علاقات تجارية ومؤيّدون متحمّسون، وحيث لا يمتلك أوكتافيوس أي نفوذ، وحيث يتواجد أنصار كثيرون للنظام الملكي. اكتشف أنطونيو عند عودته إلى الإسكندرية أن الملكة منشغلة "بأدق المهمات وأكثرها روعة". تواجد برزخ على الحدود الشرقية لمصر، وهو الذي يفصل البحر المتوسط عن خليج السويس. استخدمت كليوباترا قوى عاملة كبيرة من أجل نقل سفنها براً من البحر المتوسط لمسافة أربعين ميلاً، وذلك قبل أن تُنزلها عبر الخليج في البحر الأحمر. حاولت الملكة إقامة موطنٍ جديد لها خارج حدود مصر مستعينة برجالها وأموالها. يُحتمل هنا أنها أرادت إقامة هذا الموطن الجديد في الهند، أي "بعيداً عن الحرب والعبودية". وبدا واضحاً أن طبيعة كليوباترا تشجعها على تصوّر آفاقٍ واسعة لا حدود لها، وذلك من ضمن سياق تجاربها. وقد بلغت عظمة ذلك التصور وجرأته حداً سمح بالإيحاء بأنها فكّرت فعلاً في مهاجمة العالم الروماني.

لم تكن مغامرة كليوباترا في البحر الأحمر مستحيلة في بلادٍ بقيت على مدى قرونٍ عديدة تنقل كتلاً صخرية ضخمة لمسافاتٍ طويلة. تواجدت سفينة بطلمية ضخمة مزودة بمقدّمتين، والتي قيل إنها تبلغ نحو أربعمئة قدم طولاً وستين قدماً ارتفاعاً فوق مستوى المياه. انطلقت هذه السفينة قبلَ قرون فوق جذوع خشبية دائرية ضخمة وُضعت على مسافاتٍ متساوية فوق خندق يقع قرب أحد الموانئ. كانت الجلود المشحّمة تُستخدم لهذه الغاية في بعض المرات؛ كان يُمكن للسفن أن تُقطع إلى أقسام عدة. لم يكن هذا المشروع عملياً بالنسبة إلى ملكة أثارت عداء قبيلة تسكن على الطرف المقابل من ذلك البرزخ. صدف أن كان أفراد تلك القبيلة من النبطيين، وهم التجار الأذكياء والمنظمون جيداً، والذين أمضوا سنة في

محاربـة هيـرودس، وذلـك بفضل ما قامت به كليوباترا لإعاقة مسـاعيه. لم يكن النبطيون بحاجة إلى هيرودس - وهو الذي ألحق الهزيمة بهم لتوه - ليذكّرهم بأن كليوباترا هي عدّوتهم المشتركة، فأقدموا على إضرام النار في كل سـفينة من السـفن المصرية التي اقتربت من الشـاطئ. كان هذا الفشـل مريراً بشـكلٍ خاص بالنسبة إلى كليوباترا، وكان ذلك الموقع هو الموقع نفسه الذي انطلقت منه بنجاح في العام 48.

كان هيرودس حليفها المنطقي بطبيعة الحال، وذلك لأن أوكتافيوس لن يستطيع الصمود في وجه قواتهما المشتركة. لم يكن سوء الحظ الذي لحـق بكليوباتـرا مصـدر ارتيـاح كبيـراً لأي جهـة. وقد سـبق لكليوباترا أن منحـت هيـرودس فرصـة مغـادرة آكتيـوم، لكنه لم يُضِع وقتـاً للتصالح مع أوكتافيوس. يُحتمل أن ملك مملكة اليهود قد أظهر في رودس، وفي ذلك الخريف، قدراً كبيراً من الندم، إذ أقدم الملك على ارتداء ثياب رجلٍ عادي، ونزع إكليله ما إن وطأت قدماه الشاطئ. كان الملك صريحاً وصادقاً أمام هذا السيّد الجديد للعالم الروماني، واعترف أنه كان موالياً لأنطونيو، لأن الإخـلاص مـن طبيعتـه، كما أن النزاهة هي كل رأسـماله. شـرح هيرودس أنـه فـي عرفـه ينبغـي للصديـق أن يخاطر "بكل جزءٍ من جسـده وطبيعته"، وأكّـد أمـام أوكتافيـوس أنـه لـو لم يخـرج لمقاتلة النبطيين لـكان قد وقف إلـى جانـب أنطونيـو حتى فـي هذه اللحظة بالذات. أضاف أنه ترك صديقه العزيز منذ ما يزيد على عقدين من الزمن فقط بسبب تلك المرأة المصرية، ومضـى يكرّر نسـخة أوكتافيوس الرسـمية عن الحرب ضـد كليوباترا. قال إنـه أبلـغ أنطونيـو بضـرورة التخلـص منها. إننا لا نمتلك أي إشـارة توحي بكيفية مضيّ هيرودس في هذا الحديث بكل رزانة. صرّح أوكتافيوس في نهايـة هـذا الحديـث أنه ممتـن لكليوباترا، وأبلغ ضيفه أنهـا تنازلت له عن حليـفٍ رائـع. (امتلـك هيرودس سـبباً كافياً ليكون ممتناً لكليوباترا بشـكلٍ مضاعف، وذلك لأنه يدين بعرشـه، قبل كل شـيء، لمخاوف روما منها).

أقـدم أوكتافيـوس، وبـكل لطـفٍ على وضع الإكليل علـى رأس هيرودس، كما أرسل معه تعزيزاتٍ من الجنود الرومان عند مغادرته. تابعت كليوباترا في هذا الوقت، ومن دون كلل، اسـتقبال القبائل المجاورة وأصدقائها من الملـوك. كمـا تمكنـت أيضـاً من تجنيـد فرقة واحدة مـن المجالدين، وهـم مجموعـة مـن المحاربين الأشـداء الذين تمرنوا لمـا يُفترض أنه احتفالات النصر لكليوباترا وأنطونيو. لبّى أنطونيو نداءها فتوجها جنوباً منطلقين نحو مـا هـي الآن تركيـا الحديثـة، لكن هيـرودس حرص على عـدم تجاوزهما حدود سوريا.

فشلت كليوباترا في الشرق لكنها حوّلت نظرها إلى الاتجاه المعاكس. لم تتمكن روما بشـكلٍ كامل من قهر إسـبانيا، وهي منطقة مليئة بالقلاقل، وغنيـة جـداً بمناجـم الفضـة. كان باسـتطاعة كليوباتـرا الإبحـار غربـاً عبر المحيط الهندي والدوران حول أفريقيا، هذا في حال كان البحر المتوسط مغلقاً أمامها، وحتى لو لم تتمكن من متابعة الحرب ضد أوكتافيوس. كان باسـتطاعة الملكة وأنطونيو تحريك قبائل إسـبانيا المحلية، وتأسيس مملكة جديدة، واستخدام مواردها الضخمة؛ لم يكن ذلك حلماً يستحيل تحقيقه. كانت كليوباترا تعرف قصة ذلك القائد الفذ والمؤثر الذي يتكلم لغات عدة. تمكّن أحد الحكام الرومان الخبثاء في العام 83 من السيطرة على إسبانيا؛ الأمـر الـذي أثـار الهلع في قلوب مواطنيه. لقي سـيرتوريوس الترحيب من المجندين مـن مواطنيـه بصفتـه "هنيبعل الجديد"، كما حرّض على الثورة، وهكـذا اقتـرب ذلـك الحاكم من تأسـيس دولة رومانية مسـتقلة(*). فكّرت

(*) لم تكن كليوباترا الأولى بين الحكام الشرقيين الذين يتحالفون مع قائد روماني. إذ سبق لسيرتوريوس أن تحالف مع ميثراديتس، الملك البنطي الذي حذّر بكل وضوح في العام 69 من خطر تزايد قوة روما. تصوّر ميثراديتس هو الآخر تلك الإمبراطورية الموحدة ذاتها التي كانت تمثلها كليوباترا مع أنطونيو. صرف ذلك القائد عقوداً من الزمن في سبيل تحقيق تلك الإمبراطورية، لكن بومبي قهره، وتمكّن أيضاً من إلحاق الهزيمة بسيرتوريوس، وذلك بعد حملة عسكرية استمرت أربع سنوات.

كليوباتـرا فـي هـذه الإمكانيـة، لكن أوكتافيوس قلق من أنها سـوف تتمكن من تكرار انقلاب سيرتوريوس. كان من المستبعد حدوث عملية عسكرية داخـل رومـا، وذلـك لأنه لـم تبقَ سـوى مصر بعد ارتـداد هيرودس وجنود أنطونيو الذين كانوا متواجدين في كيرينيا. وقفت مصر وراء كليوباترا بحزم، كمـا أن رجالهـا فـي مصـر العليا عرضوا القيام بالتمرد نيابةً عنها، لكنها لم تشجعهم على ذلك، وكان من المستبعد أن تبقى على عدائها لأوكتافيوس مدة طويلة، إذ إنها لـم تمتلك في أفضل الأحوال أكثر من أربعمئة حارس شخصي شرس من الغاليين، وعددٍ متواضعٍ من الجنود، وبقايا أسطول.

لـم يكـن أي شـيء حول معركة آكتيـوم أكثر تألقاً من لهيب التجريح الـذي سـبق هـذه المعركـة. كما أن القدر الأكبر مـن الإثارة، والعدد الكبير من الإصابات، قد ظهرا بعد تكشف هذا الواقع الذي لا يدعو إلى الفخر. كانـت تلـك المعركـة مخيبـة للآمـال إلـى أقصى حـدٍّ ممكن، وهـو أمرٌ لا ينطبق على الأشـهر التالية في الإسـكندرية، حيث فشـلت خطط كليوباترا مجدداً، لكنها سـعت بنشـاط للتأكد من أنها لم تخسـر كل شـيء. اندفعت الملكـة داخـل القصر في دوامة من النشـاط الـذي لا يتوقف. قال بلوتارك إن الأمر لـم يتوقف عند طموحاتها في إسـبانيا والهند، بل وصل إلى حدّ الاختبار اليومي للسـموم المميتة، فصنعت مجموعة من هذه السـموم لغايةٍ أو لأخـرى، كمـا جرّبت هذه السـموم على السـجناء والحيوانات السـامة، وذلك كي تعرف أي سمٍّ يعطي مفعولاً أسرع وأقل إيلاماً. لم تشعر الملكة بـالإذلال أو بالصدمـة، ولكن، غمرها شـعور بالانطـلاق يماثل ذلك الذي خيّم عليها عندما بدأ القدر بمعاكسـة مسـار حياتها؛ أي حين وضعها ذلك القـدر فـي الصحـراء. لم تتأخر صفة "هائلـة" عن الالتصاق بها. كانت في تراجعها هائلةً، وكذلك في نشاطها، أو انضباطها، أو في دهائها. ولـم تصدر عن الملكة أي إشارات تدل على يأسها، أما نحن فما زلنا نسمع بعد مرور ألفي عام على تلك الواقعة ترددات ذلك العقل المتوقد بالأفكار.

ينطبق الأمر ذاته على أنطونيو الذي جال بقلق في أنحاء شمال أفريقيا، وقد فعل ذلك غالباً برفقة صديقين له، أحدهما كاتب خطابات، والآخر ضابط شديد الذكاء والصلابة. سبق لأنطونيو أن صرف بقية مرافقيه، وشعر بالراحة نتيجة وحدته النسبية. واعتمد في ذلك الوقت على وصول تعزيزاتٍ منتظرة، لكنه اكتشف في كيرينيا أن جحافله الأربعة قد تخلت عنه، فحاول نتيجة صدمته هذه الانتحار، لكن تدخّل صديقيه أنقذه من الموت، كما أوصلاه إلى الإسكندرية. وصل أنطونيو إلى القصر من دون التعزيزات المتوقعة، و"من دون أن يتمكن من إنجاز أي شيء"، على حد قول ديو. يُحتمل أن مجيئه كان في وقتٍ متأخرٍ من فصل الخريف، أي مع اقتراب انتهاء موسم الزرع. كانت كليوباترا في ذلك الوقت غارقة في مغامرتها سيئة الحظ في البحر الأحمر، وكانت مصممةً على تعزيز مداخل مصر. يُحتمل كذلك أنها كانت تأمل اغتيال أوكتافيوس. انسحب أنطونيو من المدينة ومن المجتمع بعد أن أمر ببناء ممرٍّ طويل يصل إلى ميناء الإسكندرية، كما أمرَ بتشييد كوخٍ متواضع في نهاية ذلك الممر الذي يقع أسفل المنارة، ثمّ أعلن أنه رجلٌ منفي، وأنه تيمون الأثيني في زمانه، "لأنه تعرّض للظلم، وعامله أصدقاؤه بجحود، وهو لذلك يكره كل البشر ولا يثق بهم". يضيف ديو ملاحظة تعاطف مليئة بالمرارة، وهو لا يستطيع إلا الإعراب عن اندهاشه من ذلك العدد الكبير من الناس الذين تركوا كليوباترا وأنطونيو في محنتهما بعد أن تسلموا عطايا سخية منهما. بدا أن كليوباترا لم تتمكن من تجاهل هذا الظلم، لكن مفهومها لإظهار الامتنان كان أكثر واقعية من مفهوم أنطونيو، ولا شك في أنها كانت تتقبل الحقائق المرة بسهولة أكبر مما فعل هو.

لم يصمد أنطونيو في عزلته طويلاً، ولم يلبث أن توجه إلى القصر، لكن كليوباترا دفعته عمداً إلى الخارج، أي نحو البساتين النضرة والمساكن الملكية الملونة التي أدار ظهره لها. كانت تلك المهمة من بين أسهل

المهمات في حياتها؛ هذا إذا كانت قد أقدمت عليها بالفعل. استمرت الأخبار الكئيبة في هذا الوقت بالوصول: ظهر كانيديوس في الإسكندرية كي يُبلّغ أن قوات أنطونيو البرية قد استسلمت لأوكتافيوس في النهاية، والتحق عدد كبير من هؤلاء الرجال بالجيش، وهكذا امتلك أوكتافيوس في ذلك الوقت أعداداً من الرجال تفوق حاجته، كما أقدم على إحراق ما تبقى من السفن الحربية التي استولى عليها. علم أنطونيو وكليوباترا بعد ذلك بلجوء هيرودس إلى أوكتافيوس، لكن أكثر الأمور إيلاماً كان عندما أرسلا إليه أكثر المبعوثين قدرة على الإقناع كي يناشده الاستمرار في ولائه لهما (كان ذلك المبعوث هو الصديق ذاته الذي كلّفته كليوباترا بمهمة انتزاع أوكتافيا من ذهن أنطونيو). لم يقتصر الأمر على عدم نجاحه في مهمته مع هيرودس، بل تعدّى ذلك إلى انتهازه فرصة مجيئه كي يتخلى عن ولائه لكليوباترا. كما عمد الحاكم الروماني على سوريا بدوره إلى تحويل ولائه نحو أوكتافيوس؛ وهو الأمر الذي فعله نيقولا الدمشقي أيضاً.

بقيت الاتهامات المضادة في حدّها الأدنى، وبدا أن كليوباترا كانت تتطلع إلى المستقبل بدلاً من التطلع إلى الماضي، وأدركت كذلك أن أنطونيو لم يكن ليتحمل عواقب التأنيب ووخزاته. كما بدا أنها طبّقت نصيحة بلوتارك بشأن التأنيب: يستحسن في أوقات المحن اللجوء إلى التعاطف أكثر من اللوم، لأنه "في أوقاتٍ كهذه لا تنفع نصائح الأصدقاء، أو الكلمات التي تتضمن توبيخاً لاذعاً". على أيّ حال، كان أنطونيو رجلاً مختلفاً، لأنه فقدَ جرأته المعهودة و"شجاعته التي لا تقاوَم" بعد معركة آكتيوم. بقيت في هذا الوقت مهمتان أمام كليوباترا: الأولى، مساعدة عشيقها اليائس، والثانية، التخطيط لفرارهما. تمكنت الملكة بطريقةٍ ما من تسلية أنطونيو، أو لعلها لجأت إلى تخديره كي تخفف من تأثره بالتقارير المريعة التي كانت تتوالى. عالجت كليوباترا النقاط التي تثير إحباطه، وهدأت من شكوكه، كما تعهدت بالتفكير عنهما معاً.

اكتشف أنطونيو أنه إذا تمكن من التخلي عن الأمل فسيتخلّص من القلق الذي يعتريه. عاد إلى القصر و"أقام المآدب في المدينة بأكملها، وقدّم الشراب والهدايا"، وذلك من دون الحاجة إلى وجود مناسبة. نظّم أنطونيو وكليوباترا احتفالات بمناسبة بلوغ ولديهما من زيجاتهما السابقة؛ وهما أنتيلوس الذي كان في الخامسة عشرة من عمره، وقيصيريون الذي بلغ السادسة عشرة. بلغ قيصيريون في هذا الوقت السن التي تخوّله الالتحاق بالجيش بحسب الأعراف اليونانية(*). أما أنتيلوس فقد أصبح مستعداً للتخلي عن عباءته ذات الأطراف الأرجوانية التي كان يرتديها أطفال الرومان. ساعد أنطونيو وكليوباترا ولديهما على دخول سن البلوغ عن طريق تعريفهما إلى التقاليد، ثمّ التحق الشابان بالجيش من أجل رفع معنويات المصريين. استمرت الاحتفالات ومظاهر الابتهاج في هذا الوقت بتسلية سكان المدينة. وأكد ديو أن أنطونيو وكليوباترا قد قصدا من تنظيم هذه الاحتفالات زرع روحٍ جديدة للمقاومة في نفوس الشعب. أرادت الملكة أن تقول لرعاياها إنهم "سوف يتابعون الكفاح بقيادة هذين الولدين، هذا إذا حدث أي مكروهٍ لهما"، كما أرادت القول إن الأسرة البطلمية سوف تستمر على أي حال مع هذا الحاكم الذكر. لقي قيصيريون الترحيب في واقع الأمر بوصفه فرعوناً، وذلك بحسب ما جاء في النقوش التي ظهرت في ذلك الخريف. بدا الأمر وكأن أنطونيو وكليوباترا ينثران الرمال في وجه أوكتافيوس بكل يأس، وهما اللذان يحظيان بالأولاد لضمان المستقبل، بينما هو محروم منهم.

دأبت وفود من المبعوثين في التنقل جيئة وذهاباً، وكانت محملةً بالرّشى والاقتراحات من جهة، وبالتهديدات والوعود من جهة أخرى. في الأساس، سعت كليوباترا لتحقيق الأمر الوحيد الذي كان يهمها: هل سيُسمح لها بإعطاء أولادها عرش مملكتها؟ كان فقدانها حياتها أمراً صعباً،

(*) كان من المفترض به أنه يُحضَّر في هذا الوقت لخلع والدته بحسب ما جرت العادة.

أمـا التضحيـة بأولادها، والبلاد معهم، فأمر يسـتحيل التفكير فيه. تراوحت أعمار أولادها في هذا الوقت ما بين السابعة والسابعة عشرة، وهكذا علّقت كل آمالها على قيصيريون، وهو الذي عهدت إليه بالحكم في حال غيابها. وعمدت في وقتٍ لاحق إلى إرسـال صولجان، وتاجٍ، وعرش من الذهب إلـى أوكتافيـوس. قـال ديـو إنها كانت مسـتعدة للتخلّي عـن العرش مقابل منحها الرأفة، "لأنها كانت تأمل حتى مع كراهيته أنطونيو أن يرأف بها على الأقـل". كان أنطونيـو يأمـل فـي هـذا الوقت أن يُسـمح له بالعيش في مصر كمواطنٍ عادي، أو في أثينا، إذا كان ذلك يعني أنه طلب الكثير. لم يكترث أوكتافيـوس بالـرد علـى اقتراح أنطونيو، لكنه ردّ على كليوباترا؛ فأقدم على تهديدها في العلن، أما سراً فقد أجابها بأنه سوف يتساهل معها تماماً؛ لكن بشرطٍ واحد: يتعيّن عليها ترتيب أمر إعدام أنطونيو، أو نفيه في أقل تقدير؛ وأبقـى علـى الهدايـا. حـاول أنطونيو مجدّداً الدفاع عـن علاقته بكليوباترا، وذكّـر أوكتافيـوس بروابطهما العائليـة، و"مغامراتهما العاطفية المشـتركة"، وبمقالبهمـا المتبادلـة. وأراد بذلـك إثبـات إخلاصه فعمد إلى تسـليم أحد قتلـة قيصـر الباقيـن على قيد الحياة، وهو الذي كان يعيش معه، كما اقترح أمراً آخر كذلك؛ كان على أتم الاستعداد لقتل نفسه "إذا كان من شأن ذلك إنقـاذ كليوباتـرا"، ومـع ذلـك، لم يلقَ سـوى الصمت مجـدداً مقابل عرضه هذا، لكن القاتل أُعدم.

كان الواقع المؤسف هو أن أنطونيو لم يمتلك أي شيء يمكنه تقديمه، بينما كانت كليوباترا أقوى بكنزها العظيم الذي بقي خارج سيطرة روما. أما أوكتافيوس فأدرك أنه لا يستطيع إحراز النجاح من دون ذهبها ومجوهراتها وعاجها، وهي التي أصابت شـهرة مترامية. شـكّلت كل هذه الكنوز حافزاً بالنسبة إلى رجاله، وجعلتهم، أكثر من أي شيء آخر، يتحلون بالانضباط. وقف أنطونيو وكليوباترا وحدهما، كما كثرت حالات الهروب من حكمهما إلى حدّ أنه لم يبقَ لديهما أي مبعوث يمكنهما الوثوق به لحمل رسائلهما،

كما اضطرا للضغط على أحد أساتذة أولادهما كي يبقى في وظيفته. أرفق أنطونيو مع مبادرته الثالثة ابنه أنتيلوس الذي بلغ الخامسة عشرة من عمره بالإضافة إلى كمية كبيرة من الذهب، فاحتفظ أوكتافيوس بالذهب، لكنه صرف الصبي. إننا لا نمتلك فكرة واضحة عن مدى صدق هذه الأقوال، لكن ديو يقترح أن أنطونيو وكليوباترا كانا يحاولان كسب الوقت في حين يخطّطان للأخذ بالثأر. على أي حال، لم تحمل هذه المبادرات صدقية أكبر من الردود عليها. لا يمكن لأوكتافيوس، في واقع الأمر، أن يتوقع من كليوباترا قتل أنطونيو، وعلى الأخص لأنها تعرف أن شقيقها لم يكسب شيئاً مقابل تصفية بومبي اليائس والمهزوم قبل سبعة عشر عاماً. لم تمتلك الملكة كذلك أي ضمانات بأن أوكتافيوس سوف يحترم البنود التي تتعلق به من الاتفاق. هل يُتَوَقَّع منه العفو عن امرأة سبق له أن أعلن الحرب عليها بطريقة مثيرة؟ كان من المحتمل أن تقبل كليوباترا قطع علاقتها بأنطونيو، لكن، كان المستبعد كثيراً أن تذهب أبعد من ذلك. كانت تعرف المصيدة ما إن تراها، وهكذا تعيّن على أوكتافيوس التفكير في كيفية التخلص من الزوج السابق لشقيقته بنفسه.

بعث أوكتافيوس إلى الإسكندرية مع آخر بعثةٍ أرسلتها كليوباترا مبعوثاً يتميز بذكاء كبير. (نلاحظ هنا أن أوكتافيوس أراد من هذا الترتيب استمالة كليوباترا). قال بلوتارك إن ثيرسوس كان رجلاً وسيماً ومقنعاً، وكان مؤهلاً لمفاوضة "امرأة أنيقة وفخورة بشكلٍ مذهل في أمور الجمال"، أو كما استنتج ديو "كانت تعتقد أنها تستحق الحب من الجنس البشري بأكمله". اعتبر ديو أن كليوباترا كانت مغرورة إلى درجة الوهم، وكانت مأخوذة بمفاتنها حيث سمحت لمبعوثٍ بإقناعها أن أوكتافيوس - ذلك القائد الشاب الذي لم يرها قطّ - كان مغرماً بها، وكل ذلك حدث ببساطة لأنها أرادته أن يكون كذلك، ولأنها امتلكت في الماضي تأثيراً كهذا على القادة الرومان. أمضت كليوباترا وقتاً كبيراً مع ثيرسوس؛ ذلك

الشاب فائق الذكاء، كما أسبغت عليه مظاهر تكريم كثيرة. وقد امتلكت كل الأسباب التي تمكّنها من الفوز برضاه، وهكذا فقد تحادث الاثنان مطولاً وحدهما. إننا لا نعرف طبيعة ردّ فعل ذلك المبعوث، لكننا نعرف رد فعلٍ آخر. اشتعلت نار الغيرة عند أنطونيو فأمر بالقبض على ثيرسوس، كما أمر بجلده، ثم أعاده إلى أوكتافيوس محملاً برسالة أورد فيها أن مبعوثه قد استفزه، وهو فعل ذلك في وقتٍ كان يشعر فيه بالانزعاج، كما كانت تشغله أمورٌ كثيرة. أما إذا اعترض أوكتافيوس على هذا التصرف فإن أنطونيو يقترح طريقة لتسوية المسألة. كان أحد أتباع أنطونيو موجوداً مع أوكتافيوس في آسيا؛ لجأ الرجل إليه في وقتٍ سابق. اقترح أنطونيو على أوكتافيوس "تعليقه وجلده"، وبهذه الطريقة "سوف نتساوى".

شغلت كليوباترا ذهنها بأمورٍ كثيرة، لكنها حرصت قبل كل شيء على تسلية أنطونيو، لكن يصعب علينا الجزم في مدى التأثير الذي أسهمت به هذه التسلية في هذا المنعطف، وهو الأمر الذي جعل من عنايتها به أكثر إثارة للاهتمام. هدّأته الملكة بكل الاهتمام الذي يُمكن أن يتصوره المرء، واحتفلت مع نهاية تلك السنة بذكرى ميلادها الثامنة والثلاثين بشكلٍ متواضع ومتناسب مع "حظوظها الآخذة بالهبوط". لكن الملكة لم توفر شيئاً عندما جاء دور الاحتفال بذكرى ميلاد أنطونيو في شهر كانون الثاني. بقيت عينا أنطونيو على مستقبلٍ يمكنه العيش فيه بعد ابتعاده عن الشؤون العامة، وذلك إما في أثينا أو في الإسكندرية، ولعلها كانت توقعاتٍ غير واقعية ضمن تلك الظروف. حرصت كليوباترا على أن يظهر في ذكرى ميلاده الثالثة والخمسين مرتدياً أبهى ثيابه وواضعاً أفخر زينته، وذلك بين أصدقاء لا يشكّ في ولائهم، لأن "عدداً من الذين تلقوا دعوة للعشاء دخلوا فقراء لكنهم خرجوا أغنياء".

بدت الأوضاع التي تخيّم على الإسكندرية بمظهر كئيب، واستمرّ أوكتافيوس بتهديد كليوباترا علناً بينما أرسل إليها سراً أنه سوف يمنحها

عفـوه إذا قتلـت أنطونيـو. أمـا إذا وضعنـا جانبـاً المبعوثين الذيـن يتميزون بفصاحـة اللسـان، فسـوف نتمكـن مـن القول إنها لم تمتلـك أي نية لقبول هذا العرض. استمرت الملكة في تجاربها على السموم، لكن يُحتمل أنها لم تفعل ذلك مع أفعى الكوبرا على حدّ ما أكّده بلوتارك. كانت كليوباترا تبحـث عـن سمٍّ يتمكـن من قتل الأحاسـيس بلطـفٍ ومـن دون ألم. كان يُفتـرض بضحيـة هذا السـم أن يستسـلم لما يبدو بأنه نـوم طبيعي وعميق. كانت الملكة الهلينسـتية على علم بمعظم هذه المعارف، وهي التي كانت سـمومها وأدويتها مألوفة لديها، ولذلك فقد علمت جيداً أن لدغة الكوبرا لا تتوافق مع ذلك التوصيف. كان أوليمبوس، طبيب كليوباترا الشـخصي، إلى جانبها طيلة تلك الأسـابيع، وكان بطبيعة الحال على دراية بكل تلك الأمور. كان المرء إذا أراد العثور على سمٍّ ممتاز يستطيع أن يحصل عليه في مصر، ومن طبيب إسكندري بالذات. استمرت الحفلات ومآدب الطعام والشراب، وهي التي ترافقت مع مظاهر الخلاعة، أي مثلما كان عليه الأمر فـي الماضـي، لكنهـا حدثـت هذه المرة تحـت مسـمياتٍ مختلفة. عمدت كليوباترا وأنطونيو إلى حلّ جمعية \الأكباد الفريدة\، وذلك من أجل تأسيس جمعية أخرى تماثل الجمعية الأولى في "العظمة، والترف، والتبذير". أطلق أنطونيـو وكليوباتـرا اسـم رفاق حتـى \الموت على هـذه الجمعية الجديدة، وذلك إما إمعاناً في السخرية، وإما نتيجة اليأس المفرط. أقسم الجالسون على أرائك القصر الوثيرة على الموت مع مضيفيهما. أشرفت كليوباترا في هذا الوقت على التشـييد السـريع لمبنى من طابقين ملاصقٍ لمعبد إيزيس الـذي يشـرف علـى منظـر رائـع للبحـر المتوسـط، وربما كان موقـع البناء فوق شـريط رملي تابع للقصر. كان ذلك المبنى عبارة عن "مدفنها العالي والجميل بشكلٍ لا مثيل له".

مرّت فترة من الهدوء المشـوب بالقلق طيلة فصل الشـتاء، وتبيّن أن

أوكتافيوس لا يعتزم شنّ حملةٍ عسكرية قبل أن يميل الطقس إلى الدفء، لكنّ أموراً طارئة حصلت في هذه الأثناء. عاد أوكتافيوس من ساموس إلى روما حيث جرت مظاهرات واضطرابات متنوعة. كان تسريح جيشٍ من الجيوش أمراً معقداً على الدوام، وهكذا تجمّع لدى القائد الذي كان ينقصه التمويل الكافي الآلاف من قدامى الجنود الغاضبين. لم يتحرك أوكتافيوس شرقاً في زيارة خاطفة إلا في أوائل فصل الربيع. ولم يكن موسم الإبحار قد بدأ بعد، لكنه تحرّك بسرعة كبيرة، "حيث إن أنطونيو وكليوباترا علما بمغادرته وعودته في الوقت ذاته". رحّب به صديقه الجديد واللطيف في سوريا، وهكذا، ما إن وطأ أوكتافيوس ورجاله الساحل السوري حتى ظهر هيرودس محملاً بالهدايا والمؤن، كما خصّص بيوتاً فخمة للمسافرين الذين أنهكهم السفر. حرص هيرودس على أن يحصل أوكتافيوس ومن معه على كل شيء يحتاجون إليه في سفرهم عبر الصحراء، كما ودّعه مثل ما ودّع كليوباترا قبل ست سنوات، لكنه أضاف إلى رهاناته التمنيات الطيبة والأموال. ساهم هيرودس بأموال تعادل مداخيل كليوباترا من قار أريحا لفترة أربع سنوات. (كان السبب واضحاً، إذ أراد هيرودس أن يُثبت للرومان بشكلٍ قاطع أن "مملكته كانت مقيدة جداً" مقارنةً مع الخدمات التي قدّمها لهم). توجّه أوكتافيوس إلى بيلوسيوم من دون أن يتوقف لرؤية المعالم الأثرية، وهناك تركه هيرودس. كان ذلك في وقتٍ مبكرٍ من فصل الصيف. تلخصت فكرة أوكتافيوس في مهاجمة مصر من جهتين في وقتٍ واحد، أي عبر سوريا وليبيا مستفيداً من الجحافل التي كانت مواليةً لأنطونيو في السابق والتي تتمركز في الغرب.

أما في الإسكندرية فقد تابعت كليوباترا مع أنطونيو "عيش حياة برية وغريبة"، وهي الطريقة التي ما كانت لتقدر من دونها على إعادة تأسيس إمبراطورية البطالسة؛ الأمر الذي فرض عليها خيارات مريعة. يُحتمل أن ذلك الشتاء شهد سلسلة من المفاوضات السرية. تفاوتت بشدة روايات

بلوتارك وديو عن مسيرة أوكتافيوس، لكن، كلاهما أكّدا أن عبور أوكتافيوس نحو مصر كان سهلاً، أي إنه لم يصادف أي مقاومة في الحدود الشرقية للبلاد. يعود سبب ذلك إلى أن كليوباترا هي التي رتبت الأمر على هذا النحو بشكلٍ سري. يُحتمل أن يكون مصدر الروايتين تقريراً معادياً واحداً. كانت خيانةُ كليوباترا موضوعاً خصباً أعطى الرومانيين فرصةً بالتوسّع فيه من دون كلل على مدى مئاتٍ عدة من السنين. عُرفت الملكة بازدواجيتها في التعامل، وبانحنائها أمام ما هو حتمي، وبمساومتها على نيل المسامحة، وهي التي قد سبق لها أن كانت واقعية بشدة من قبل، كما أن مصالحها قد اختلفت مع مصالح أنطونيو عند هذه النقطة؛ وهو الذي لم يكن يأمل بأكثر من تسجيل موقفٍ مشرفٍ للمرّة الأخيرة. حاربت الملكة كي تحافظ على سلالتها، هذا إذا لم تفعل ذلك للمحافظة على بلدها. (ورد في إحدى الروايات أنها قدّمت رشوة للضابط المسؤول في بيلوسيوم كي يستسلم، وسمحت لأنطونيو في الوقت ذاته بقتل أسرة الضابط بسبب الجبن الذي أبداه. بطبيعة الحال، لم يمنع هذا التواطؤ أوكتافيوس من التأكيد على أنه أخذ بيلوسيوم على حين غرة).

كانت كليوباترا تدرك جيداً أنها لا تستطيع الصمود عسكرياً أمام أوكتافيوس، لكن من المؤكد أنها أبدت نوعاً من الرضوخ، هذا إن لم يكن ذلك نوعاً من الخيانة. عمدت الملكة إلى عدم تشجيع مؤيديها في مصر العليا على التحرك دفاعاً عنها (ادّعت بأنها لا ترغب في رؤيتهم يتعرضون لمذبحة من دون مبرر، ولعلها كانت تعتمد على المفاوضات)، كما أحبطت محاولات سكان الإسكندرية للتمرد. تحدث ديو عن دافع ثانٍ أقلّ إقناعاً بكثير، وذلك عندما أكّد أنها صدّقت ثيرسوس عندما قال إن أوكتافيوس كان مفتوناً بها. لماذا يكون أوكتافيوس مختلفاً عن قيصر وأنطونيو؟ كان ديو متحمساً جداً للزهو الذي تتمتع به كليوباترا إلى حدّ نسيانه كونها سياسيةً متمرسة. قال ديو إنها سلّمت بيلوسيوم لأنها "توقعت ألاّ تحصل

فقط على المسامحة، واستمرارية حكمها للمصريين، بل على إمبراطورية الرومانيين كذلك". يُحتمل أن كليوباترا قد قامت بعملٍ يتصف بالذكاء. قال ديو إنها مع ذلك أقدمت على أمورٍ غير معقولة. كانت كليوباترا تحارب من أجل حياتها، وعرشها، وأولادها، وهي التي مضى عليها عقدان من الزمن في الحكم، وهكذا لم تعد أسيرة الأوهام. أدركت كليوباترا تمام الإدراك أن أوكتافيوس لم يكن مغرماً بها بل بثروتها. وضعت الملكة في مدفنها المجوهرات، والأحجار الثمينة، والمصنوعات الفنية، وخزائن الذهب، وعباءاتها الملكية، وكمياتٍ من القرفة والبخور، وحاجياتها الشخصية التي تُعتبر ترفاً بالنسبة إلى بقية العالم. وضعت الملكة إلى جانب هذه الكنوز كمية كبيرة من مواد الإنارة. يعني ذلك أنها إذا اختارت الاختفاء عن أنظار العالم فإن كنوز مصر سوف تختفي معها. كانت هذه الفكرة مصدر قلقٍ وعذابٍ بالنسبة إلى أوكتافيوس.

تابع أوكتافيوس تقدّمه نحو الإسكندرية في حين أحسّ أنطونيو بتدفقٍ مفاجئ للحيوية والنشاط، فجمع قواتٍ متواضعة وسار بها لملاقاة حرس عدوه المتقدم في ضواحي المدينة. كان ذلك في مكانٍ يبعد أميالاً عدة شرق البوابة المظللة. كان جيش أوكتافيوس منهكاً من طول الزحف، وهكذا انتصر فرسان أنطونيو في تلك المعركة، وتمكنوا من إلحاق الهزيمة بفرسان الأعداء وملاحقتهم حتى عودتهم إلى معسكرهم. هرع أنطونيو بسرعة البرق إلى الإسكندرية كي يزفّ الخبر: "شعر بنشوة الانتصار، وتوجه إلى القصر، وقبّل كليوباترا حاملاً كل أسلحته، وقدّم لها أحد الجنود الذين قاتلوا بأكبر قدرٍ من الجرأة". أرادت كليوباترا مكافأة الشاب الذي غطّاه الغبار، فأعطته درعاً صَدريّة مذهّبة وخوذة، فَقبِل الجندي الهديتين بكل احترام وامتنان، لكنه لجأ إلى معسكر أوكتافيوس في الليلة ذاتها. لم يشعر أنطونيو بالإحباط نتيجة هذه الخيانة، فحاول إغراء بعض رجال أوكتافيوس بالانضمام إليه، وبعضهم كانوا من رجاله في السابق. لم يكتفِ

بذلك فقط، بل أرسل دعوة إلى شقيق زوجته السابقة متحدياً إياه في مبارزة وجهاً لوجه. تلقى أنطونيو رداً هذه المرة. وبدأ أوكتافيوس، وبكل برودة، باستعراض الطرائق العديدة التي يُمكن أن يموت أنطونيو بها.

صمّم أوكتافيوس على شن هجوم آخر في البر والبحر على التوالي. سبقت مأدبة عشاء باردة ذلك الهجوم، وذلك في 31 تموز مساءً. خيّم أوكتافيوس خارج بوابات الإسكندرية الشرقية، أي قرب ميدان الخيول في المدينة. كان أسطوله راسياً خارج الميناء، كما سيطر هدوء مخيف على المدينة التي تعجّ بحركة نشطة في العادة. كان أنطونيو في القصر محاطاً بأصدقائه، فما كان منه إلا أن أمر خدمَه بتناول الشراب بكثرة. قال لهم إنها فرصة قد لا تتكرر مجدّداً في اليوم التالي حيث سيكونون في خدمة سيدٍ جديد، أما هو فسوف يكون "مومياء من دون حياة في أفضل الحالات". بكى الأصدقاء لدى سماعهم هذه الكلمات، لكن أنطونيو خفّف عنهم، وقال لهم إنه لن يقحمهم في معارك لا طائل منها. وأضاف أنه لا يطمح بأكثر من ميتة شريفة. زحف أنطونيو فجر اليوم الأول من آب بما تبقى لديه من جنود المشاة خارج بوابات المدينة، وأمرهم بالتمركز في نقطة مشرفة تمكّنهم من متابعة المواجهة التي ستجري في البحر. كان الصمت المطبق يخيّم على المدينة حولهم. وقف أنطونيو بسكون وسط هواء الصباح المنعش، لكنه كان متوتراً خلال ترقّبه النصر الوشيك. أبحر أسطوله مباشرة نحو أسطول أوكتافيوس، فما كان من السفن إلا أن رفعت المجاذيف علامةً على تحية سفن الأعداء، فما كان من سفن أوكتافيوس إلاّ أن ردّت على هذه البادرة بمثلها. راقب أنطونيو من الشاطئ الأسطولين عائدَين بسلام إلى الميناء فأصبحا بذلك أسطولاً واحداً. لم ينتظر فرسان أنطونيو طويلاً قبل تخليهم عنه. أما المشاة فقد نفذوا قتالاً فوضوياً. سارع أنطونيو إلى القصر وسط غضبٍ عارم، وصرخ قائلاً إن "كليوباترا قد غدرت به، وسلّمته إلى الأعداء الذين قاتلهم بسببها"، وقد توافقت هذه الاتهامات

مع حالته الذهنية المضطربة. وافق ديو على صحة هذه الاتهامات، وطعن بنوايا كليوباترا، وقال إنه من الواضح أن الملكة قد خدعت أنطونيو وأنها شجعت طواقم السفن على تغيير ولائهم، ممّا يعني أنها كانت متحالفة مع أوكتافيوس. لا يمكننا اعتبار كل ذلك مستحيلاً نظراً إلى إمكانية أنها - وفي آخر لحظة - رجّحت مصالحها على مصالحه، وذلك لأنها كانت في موقع يسمح لها بالتفاوض، وهو الأمر الذي يفتقده أنطونيو. لم تكن السجلات معقدة من هذه الناحية، وكانت أفضل من نفسيات المؤرّخين اللذين نستند إليهما في كتابة تاريخ كليوباترا. يُظهر ديو دهشته أمام هذه الخيانة، بينما انجرف بلوتارك بالعاطفة. وقعت المدينة المذعورة الآن بين يدي أوكتافيوس.

لم تنتظر كليوباترا عودة أنطونيو بغضّ النظر عما إذا كانت قد خانته أم لا، وقد سبق لها أن سمعت تشدّقه مراراً، لذلك لم تكن في حالةٍ تسمح لها بسماعه مجدّداً. كما أدركت الملكة في ذلك الوقت أن عشيقها قد تحطم بطريقة لا رجعة عنها ولا شفاء منها. تركت كليوباترا أنطونيو وشأنه، ثم سارعت إلى المدفن مع وصيفاتها وخدمها. أغلق الجميع الأبواب الضخمة وراءهم، ولعل هذه الأبواب كانت نوعاً من أنواع المشابك الحديدية الثقيلة التي تنزلق نزولاً، وكان من المستحيل لها أن تتزحزح ما إن تأخذ مكانها. حرصت كليوباترا بعد ذلك على إغلاق المدخل بإحكام مستعينة بالمزاليج والقضبان. اعتبر ديو أن عملية اللجوء إلى المدفن ما هي إلا نوع من التظاهر، أما أوكتافيوس فقد تابع إرسال رسائله المطمئنة. يظهر هنا أن كليوباترا قد وافقت على طلبه بالتضحية بعشيقها مقابل خلاص مصر. لذا، أقدمت على هذه الخطوة المثيرة فقط كي تشجع أنطونيو على قتل نفسه، وهنا شكّ هذا الأخير بوجود حيلةٍ ما، "لكن حبّه منعه من تصديق ذلك، إلا أنه أشفق عليها أكثر من إشفاقه على نفسه"، وقد كانت أسباب الإشفاق كثيرة جداً. سمح ديو لكليوباترا

بالانحناء قليلاً أمام الود الذي أظهره أنطونيو، وقال إنه يُحتمل أن تكون مخادعة، لكنها ليست غير مبالية مطلقاً؛ وذلك بالرغم من تشكيكه في دوافعها. كان من المؤكد أن أنطونيو سوف يُقدم على قتل نفسه عند علمه بموت كليوباترا. أقدمت الملكة بعد أن تحصنت داخل المدفن على إرسال مبعوث إلى أنطونيو كي تُعلمه بموتها.

هل أقدمت كليوباترا على خداعه عمداً؟ لحقت بالملكة اتهامات عديدة بالخيانة حيث يصعب علينا تحديد حكمنا على هذا الاتهام؛ وهو الأكثر إنسانية والأقل إدهاشاً. كان الاثنان شريكين في الموت بعد كل شيء، إذ سبق لأنطونيو أن عرض قتلَ نفسه من أجل إنقاذها. لم يعد أنطونيو ينفع أوكتافيوس في شيء، وهو أمر كان يشكّل عقبة بالنسبة إلى كليوباترا في هذه المرحلة. ولذلك تعيّن على شخص ما أن يخلّصه من محنته، وهي المهمة التي تكفّل بالقيام بها القادة المهزومون أنفسهم كما جرت العادة. يُحتمل أن تكون رسالة كليوباترا قد تعرضت للتلاعب في الطريق، أي قبل وقتٍ طويل من وصولها إلى أيدي المؤرخين. لم يُضع أنطونيو وقتاً على أي حال، وذلك لأنه فقدَ أي سببٍ للعيش في غياب كليوباترا، كما أنه لم يرغب في أن يُذَلّ من قِبَل امرأة. تلقى أنطونيو الخبر في غرفته بينما كان جالساً بين خدمه. قال بلوتارك إن أنطونيو نزع درع صدره على الفور وصاح: "آه يا كليوباترا! إنني لست حزيناً بسبب فقدانك، وذلك لأنني سوف أوافيك سريعاً، لكنني حزين لأن قائداً عظيماً مثلي كان أقل شجاعة من امرأة". سبق لأنطونيو أن رتّب الأمر حيث يقوم خادمه إيروس بقتله إذا ما دعت الحاجة، لكنه طلب في ذلك الوقت أن يقوم بنفسه بهذه المهمة. سحب إيروس سيفه وابتعد قليلاً عن سيّده، ثم طعن نفسه وانهار أمام قدمَي أنطونيو. رحب أنطونيو بشجاعته والمثال الذي أعطاه ثمّ لوّح بسيفه الذي كان نصله يصل إلى نحو قدمين ونصف، أما حدّه الطويل فكان مصنوعاً من الفولاذ وغرزه بين ضلوعه، لكنه أخطأ

قلبه وثقب بطنه. سالت الدماء بغزارة وفقد وعيه، وما لبث أن ارتمى فوق الأريكة. لم ينجح أنطونيو في مهمته، وما لبث أن استعاد وعيه بعد فترة قصيرة. لم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي يترك فيها أنطونيو مهمةً في منتصفها، فتوسّل إلى أولئك المحيطين به لإتمام طعنة الموت من أجله، لكنه اكتشف أن رجاله تركوه وفرّ كل المرافقين من الغرفة.

علت صرخة قوية، وهي الصرخة التي كانت كفيلة بإحضار كليوباترا إلى الطابق العلوي من المدفن. تطلعت الملكة من خلال نوافذ الطابق العلوي، أو من خلال السقف الذي لم ينتهِ بناؤه بعد. كانت الملكة سريعة في تشييد المبنى، لكنها لم تفعل ذلك بالسرعة الكافية. أثار ظهورها المفاجئ اضطراباً كبيراً. كان ذلك يعني أنها لم تمت. قال ديو إن أكثر المندهشين كان أنطونيو ذاته. وتتعارض في هذه النقطة روايتا بلوتارك وديو. ولم يتضح لدينا ما إذا كان أنطونيو هو الذي علم أولاً أن كليوباترا ما زالت على قيد الحياة، أم أن كليوباترا هي التي علمت أولاً أن أنطونيو شبه ميت. أمر أنطونيو خدَمه بنقله إليها، وذلك بحسب رواية ديو، أو أن كليوباترا هي التي بعثت بخدمها إليه، بحسب رواية بلوتارك. فقَدَ أنطونيو في هذه الأثناء كمية كبيرة من دمائه، لكن مساعِدة كليوباترا عثرت عليه ملقى على الأرض وهو يصرخ متلوياً من الألم.

حمل الخدم أنطونيو فوق أذرعهم إلى المدفن، وكان ينزف حتى الموت ويتألم كثيراً. أنزلت كليوباترا الحبال والأسلاك من نوافذ الطابق العلوي، وهي الحبال والأسلاك التي استُخدمت من قبل لرفع الأحجار إلى المبنى. ربط الخدم جسد أنطونيو الواهن بهذه الحبال والأسلاك، وقامت كليوباترا بنفسها بمهمة رفع عشيقها، وساعدتها على القيام بذلك إيراس وشارميون، وهما اللتان تعرفان أنطونيو حق المعرفة. يستحيل علينا إضافة شيء على الرواية التي كتبها بلوتارك عن هذه المحنة، وحتى شكسبير لم يتمكن من ذلك. قال بلوتارك نقلاً عن رواية شاهد عيان: "لم يسبق قطّ

أن حدث أمر يستحق رثاءً أكبر. كان أنطونيو ملوثاً بدمائه، ومنازعاً الموت في أثناء رفعه في الهواء. لم تكن هذه المهمة سهلة بالنسبة إلى امرأة، كما أن كليوباترا بالكاد تمكنت من رفع الحبل بيديها، بينما احتقن وجهها من فرط الجهد الذي بذلته، هذا بينما أخذ الموجودون في الأسفل بتشجيعها وشاركوها في عذابها". ما إن تمكنت من رفع أنطونيو، ووضعته على أريكة حتى بدأت في العويل وفي تمزيق ثيابها. كانت تلك إحدى مرتين فقدت فيهما السيطرة على أعصابها، وهي المعروفة بقدرتها الجبارة على السيطرة على نفسها. استسلمت كليوباترا في هذا الوقت للعواطف الصادقة، "كادت تنسى محنتها التي وقعت فيها من كثرة رثائها لحالته". بقي الاثنان جنباً إلى جنب في معظم فترة العقد الذي مضى من السنين. مسحت كليوباترا الدماء عن جسده ولوّثت بها وجهها، وأخذت كذلك تضرب صدرها وتخدشه. نادت الملكة أنطونيو على أنه سيدها، وقائدها، وزوجها، وهي التي عرفت جيداً كيفية التحدّث إلى رجل. أسكت أنطونيو صرخاتها، وطلب رشفةً من الشراب، "إما لأنه كان يشعر بالعطش، وإما لأنه يأمل بتسريع موته". ما إن احتسى رشفة من الشراب حتى شجّع كليوباترا على الاهتمام بسلامتها الشخصية، وعلى التعاون مع أوكتافيوس إلى الحد الذي يسمح به شرفها، وهي نصيحة توحي بوجود بعض الشك من جانب أنطونيو تجاه نواياها. نصحها على وجه الخصوص بالوثوق بغايوس بروكيوليوس من بين رجال أوكتافيوس، وذلك لأن الرجل كان صديقاً لأنطونيو أيضاً. نصحها كذلك بعدم الرثاء لمصيره، بل عليها أن تبتهج للسعادة والشرف اللذين كانا من نصيبه، وهو الذي كان أكثر الرجال شهرة وقوة، وها هو الآن يموت ميتة شريفة، وهو لم يُقهر في نهاية الأمر إلا على يد أحد مواطنيه الرومان. وصلت موجة الهمهمات إلى الخارج، وما لبث أنطونيو أن مات بين ذراعَي كليوباترا.

أسرع أحد حراس أنطونيو إلى معسكر أوكتافيوس الذي أُقيم خارج المدينة، وذلك بعد أن خبّأ سيف أنطونيو تحت عباءته. وصل الحارس إلى المعسكر، وأظهر نصل السيف الثقيل الذي كان لا يزال ملوثاً بالدماء، كما روى تفاصيل أولية عن عملية الانتحار الفاشلة. انسحب أوكتافيوس إلى خيمته على الفور، وذرف دموع التماسيح ذاتها التي سبق لقيصر أن ذرفها عندما بكى بومبي. قال أوكتافيوس إنه يبكي "رجلاً كان قريبه عن طريق الزواج، وزميله في الحكومة والقيادة، كما كان شريكه في عددٍ كبير من الالتزامات والنضالات". لا يُستبعد أن يكون أوكتافيوس قد شعر بقدرٍ من الارتياح لأن التخلص من أنطونيو كان مشكلة بحد ذاته. استلقى أنطونيو في أثناء احتضاره بين ذراعَي كليوباترا، بينما انشغل أوكتافيوس في إقامة حفلٍ صغير بهدف تبرئة الذات، كما أظهر نسخاً عن الرسائل التي تبادلها مع الزوج السابق لشقيقته على مدى السنوات الماضية. قرأ أوكتافيوس تلك الرسائل بصوتٍ عالٍ أمام أصدقائه المجتمعين حوله، وتساءل عما إذا لم يكن من اللافت أن "يرد أنطونيو بطريقة وقحة على رسائلي المفعمة بالود والإنصاف؟"؛ كان أوكتافيوس قد حرص في ما بعد على إحراق الرسائل التي بعثها أنطونيو. غادر بركيوليوس بعد انتهاء أوكتافيوس من قراءته المثيرة لهذه الرسائل، ووصل إلى مكان كليوباترا قبل دقائق قليلة من موت أنطونيو.

برهن أنطونيو عن وثوقه بالآخرين حتى الرمق الأخير، وهكذا ألقى مهمتين على عاتق بروكيوليوس: تعيّن عليه أن يفعل كل ما في وسعه لإخراج كليوباترا من المدفن، وكذلك التأكد من عدم ذهاب الكنز الذي يحتاج إليه أوكتافيوس بشدة طعاماً للنيران. زوّد هيرودس أوكتافيوس ببعض طباع الشرق، لذلك لم يكن في وسعه التضحية بكنز مصر الخيالي في محرقة الجنازة، وهو الكنز الذي كان محط الأحلام والمبالغات منذ أيام هوميروس. كانت الديون المترتبة على أوكتافيوس العقبةَ الوحيدة أمامه

في روما. كان يحتاج كذلك إلى ملكةٍ مصرية حية، وهو الذي ظنّ أنها "سوف تضيف قدراً كبيراً من المجد إلى انتصاراته". خصّص ديو قدراً كبيراً من اهتماماته للمظاهر التي أبدتها كليوباترا في الأيام القليلة التالية، والتي اشتملت على الإغماء، لكنه كان يعرف أنه كان يكتب عن شخصيتين مراوغتين تنشغل كل واحدة منهما بالخداع. قال ديو إن أوكتافيوس أراد الإمساك بكليوباترا وهي على قيد الحياة، "لكنه مع ذلك، لم يكن مستعداً للظهور وكأنه خدعها بنفسه". وقد تعيّن على بروكيوليوس الهادئ أن يُبقي روحها المعنوية عالية وأن يُبعد يديها عن النار.

رفضت كليوباترا مقابلة بروكيوليوس في المدفن بالرغم من الضمانات التي تلقّتها من أنطونيو. قالت له إنه إذا أراد التكلم معها فسيتعيّن عليه أن يفعل ذلك من خلال الباب المغلق بإحكام. أعطى أوكتافيوس كليوباترا وعوداً محددة، لكنها أرادت الحصول على ضمانات، وهددت بأنها قد تُقدم على إحراق كنزها إذا لم تتسلم هذه الضمانات. طلبت الملكة تكراراً أن يتمكن أولادها الثلاثة، والذين كانوا مع خدمهم تحت حراسة أمينة، من وراثة المملكة. وقد تهرّب بروكيوليوس مراراً من ذلك الطلب، لكنه أكد لها أنه لا حاجة إلى قلقها، وأن بإمكانها الوثوق كلياً بأوكتافيوس. لم تقتنع الملكة من تلك الجهة، لذلك أخذت احتياطاتٍ عديدة، فدسّت خنجراً صغيراً تحت حزامها. كان من المستبعد أن تكون تلك هي المرة الأولى التي تفعل فيها ذلك، كما سبق للملكة أن أرسلت قيصيريون قبل مدة طويلة إلى أعالي النيل. أدركت كليوباترا أنها لا تستطيع طلب أي شيء لصالح ابنها الأكبر، والذي كان يُفترض به أن يقوم وأستاذه رودون، بالرحيل براً إلى الساحل ثم الإبحار إلى الهند مزوداً بثروةٍ صغيرة. كانت الهند هي المصدر الذي يعتمد عليه البطالسة للحصول على العاج والأصباغ والتوابل وأصداف السلاحف. أحرز بروكيوليوس تقدماً صغيراً، وذلك بالرغم من أنه امتلك فرصة كافية تسمح له بتفحص المدفن. عاد إلى

المكان مع غايوس كورنيليوس غالوس، الرجل الذي دخل مصر من جهة الغرب، وكان على رأس جحافل أنطونيو، وذلك بهدف لقاء الملكة مجدّداً. كان غايوس يفوق بروكيوليوس رتبة، وهو الشاعر والمثقف المتمكن من اللغة، كما أنه رائد مراثي الحب. (قام، للمفارقة، بإهداء أعماله الأدبية إلى ممثلةٍ كانت عشيقة أنطونيو). واجه الرجل مجدداً إحدى نساء أنطونيو. كان غايوس يفضّل التفاوض معها على الاستسلام، فاجتمع مع كليوباترا خارج الباب وتحادثا مطولاً، ويُحتمل أنها كانت محادثة مختلفة عن تلك التي أجرتها مع بروكيوليوس، لكنها بقيت على عنادها.

وضع بروكيوليوس في هذه الأثناء سلماً أمام أحد جوانب المبنى وتسلق إلى نافذة الطابق العلوي، وكانت تلك هي النافذة ذاتها التي حُمل منها أنطونيو إلى الداخل، وقد سارع خادمان إلى تسلّق الجدار من ورائه. ما إن أصبح الثلاثة في الداخل حتى نزلوا إلى الطابق الأرضي حيث تسللوا إلى المكان الذي جلست فيه كليوباترا قرب باب المدفن. كانت شارميون، أو إيراس، أول من لاحظ دخول هؤلاء المتطفلين، وصرخت: "يا لكليوباترا المسكينة! لقد أمسكوا بكِ حية!". ما إن رأت كليوباترا الرومانيين الثلاثة حتى تناولت الخنجر كي تطعن نفسها، لكن بروكيوليوس كان أسرع منها. اندفع نحوها، وطوّقها بذراعيه الاثنتين، ثم انتزع خنجرها، وقام بتفتيش ثنايا ثيابها بحثاً عن السموم. واظب الرجل في هذه الأثناء على طمأنتها بكل لطف على نحو ما أُمر به. أخطأت كليوباترا بتسرّعها هذا، وهكذا ألحقت ضرراً بنفسها، وبأوكتافيوس كذلك. ماذا كان هدفها من حرمانه فرصة إثبات لطفه ونزاهته أمامها؟ كان الرجل، بعد كل شيء، "ألطف القادة" وهو الوصف الذي سبق أن سمعته من أحد المبعوثين الذين غيّروا ولاءهم عن الرجل الذي قبع جسده الذي هجرته الحياة في الطابق العلوي وسط بركة من الدماء.

كلّف أوكتافيوس أحد العبيد الذين تم إعتاقهم، ويُدعى إيبافروديتوس،

ليكون إلى جانب كليوباترا، وزوّده بتعليمات صارمة. تعيّن عليه إبقاء ملكة مصر حيّة، "وأن يكون في أقصى حالات اليقظة، لكن مع إعطائها كل التنازلات التي تطلبها، والتي من شأنها تعزيز راحتها وسرورها". صودرت من الملكة كل الأدوات التي قد تساعدها على محاولة قتل نفسها. ويُحتمل أن تكون كومة الكنز قد نُقلت بعيداً في هذا الوقت كذلك. تزودت كليوباترا بحسب طلبها بالبخور، وزيوت الأرز، والقرفة، وهي المواد الضرورية لتحضير جثة أنطونيو للدفن. أمضت الملكة يومين في تعقيم الجثة، وهو الطلب الذي لبّاه أوكتافيوس بسرور. تمكّن الرجل من كسب نقاطٍ نتيجة احترام قانون غير مكتوب من قوانين الحرب، وذلك عندما سمح بهذا الدفن غير المشرّف الذي ادّعى أن أنطونيو طلبه بنفسه. لم يعمد رجال أوكتافيوس إلى إبعاد أي من مرافقي كليوباترا أو خدمها، "وذلك كي تتمكن من حيازة أملٍ أكبر من السابق في تحقيق كل ما ترغب فيه، وحتّى لا تلحق الأذى بنفسها". لقي الأطفال معاملة متعاطفة، أي كما يليق برُتبِهم، وهو الأمر الذي أثار شعورها بالامتنان. عمد رجال أوكتافيوس إلى ملاحقة أنتيلوس الذي خانه أستاذه الذي طمع بتلك الجوهرة التي لا تقدر بثمن، والتي يضعها ابن السادسة عشرة تحت سترته. لجأ ابن أنطونيو إلى أحد الأضرحة، ولعله الضريح المتواجد ضمن القيصرية، وتوسّل للإبقاء على حياته، لكن رجال أوكتافيوس سحبوه إلى الخارج ثم قطعوا رأسه. لم يُضع الأستاذ وقتاً في انتزاع الجوهرة من تحت ملابسه؛ الأمر الذي صُلب من أجله في ما بعد.

طلبت كليوباترا الإذن كي تدفن أنطونيو بنفسها، ومُنحت ذلك الإذن. فعلت ذلك برفقة إيراس وشارميون "بطريقة ملكية وفخمة". كانت النساء في القرن الأول قبل الميلاد يعبّرن عن حزنهن بصراخٍ لافتٍ وبقرع الصدور وخدشها. لم تكن كليوباترا استثناءً من القاعدة: كان عرضها هذا شديد التطرف حيث إن صدرها التهب وتقرّح عند انتهاء مراسم الدفن.

يُحتمل أن ذلك حدث يوم 3 آب، وقد أدى الالتهاب إلى إصابتها بحمّى شديدة. كانت الملكة مسرورة بما حدث لها، وعلى الأخص لأنها رفضت تناول الطعام، وهكذا فكّرت في أنها ربما تتمكن من الحصول على ميتة هادئة لا دخل فيها للرومانيين. كانت تثق كثيراً بأوليمبوس، وهو الذي قدّم لها النصح ووعدها بتقديم المساعدة لها. لم يكن النهج الذي تبعته ناجحاً جداً، الأمر الذي سمح لأوكتافيوس بمعرفة أن حالتها ليست مرضية. امتلك أوكتافيوس ورقة رابحة تماثل في عظمتها الكنز الذي تمتلكه كليوباترا. وعمد إلى "حثّها عن طريق تهديدها بأولادها". يعترف بلوتارك أن تلك كانت حرباً من نوع آخر، لكنها كانت صيغة شديدة الفعالية، حيث اضطرت كليوباترا في النهاية إلى الرضوخ بتأثير الطعام والمعاملة.

تمكّن أوكتافيوس من كسب بعض الثقة، الأمر الذي أعطى كليوباترا بعض الاطمئنان. دعاها أوكتافيوس إلى اجتماع علني وذلك في وقت متأخر من يوم الأول من آب، وهو اليوم الذي مات فيه أنطونيو. قصد القائد المدينة مصحوباً بلفافة حضّرها في وقتٍ سابق، وهو الذي اعتاد كتابة ما يريد قوله باللغة اللاتينية، وقد تُرجم خطابه هذا إلى الإغريقية في وقتٍ لاحق. صعد أوكتافيوس إلى منصة شُيّدت خصيصاً في الميدان الذي شهد تتويج أنطونيو وكليوباترا لأولادهما. خرّ الإسكندرانيون المرتعبون راكعين أمام قدميه، لكن أوكتافيوس طلب منهم النهوض قائلاً لهم إنه لا يريد إيذاءهم، وأضاف أنه قرّر العفو عن المدينة لثلاثة أسباب: أولها تكريم الإسكندر الكبير، وثانيها إعجابه الكبير بمدينتهم؛ وهي "أغنى المدن وأعظمها"، وثالثها من أجل مكافأة آريوس، الفيلسوف اليوناني الذي يقف إلى جانبه. يعترف ديو أن حقيقة الأمر هي أن أوكتافيوس لم يجرؤ على "إنزال ضررٍ كبير بشعب كثير العدد، والذي قد يكون مفيداً جداً للرومان بطرائق متعددة".

لاحظت كليوباترا أن الأحداث تتوالى بسرعة كبيرة، ولذلك طلبت

مقابلـة أوكتافيـوس، وهـي المقابلـة التي جرت في 8 آب. تشـابهت روايتا بلوتـارك وديـو بخطوطهمـا العريضـة عن ذلك الاجتمـاع، لكن تفاصيل ما جرى فيه تفاوتت كثيراً. بدا الأمر وكأن بلوتارك يكتب بأسلوب بوتشيني، بينمـا ديـو يكتـب بأسـلوب فاغنـر. يُحتمل أن الفن غلب علـى الوقائع في الروايتين، وعلى أي حال كان الاجتماع عرضاً مهماً. (كان ذلك الاجتماع متبايناً بشكل كبير مع الاجتماع الذي جرى مع هيرودس). قال بلوتارك إن ستارة غطت كليوباترا التي كانت مستلقية فوق فراش بسيط وكانت منهكة، وقد بدا شـعرها مشـعثاً، بينما ارتدت سـترة طويلة لكن من دون أن ترتدي أي عبـاءة. أراد أوكتافيـوس أن يفاجئهـا. ومـا إن رأت الملكـة زائرها حتى نهضت ورمت بنفسها عند قدميه. بدا أن ذلك الأسبوع القاسي الذي أمضته قد ترك آثاره عليها: "كان شعرها ووجهها بحالة مريعة يُرثى لها، أما صوتها فكان مرتعشاً، وكانت عيناها غائرتين. بدت كذلك علامات واضحة من أثر الضربات القاسية التي تلقاها صدرها. يعني ذلك أن جسدها لم يكن أفضل حـالاً مـن روحهـا". يفضّـل ديـو التحدث عـن كليوباترا بعظمتهـا الملكية، وبأفضـل مـا تتمتـع بـه مـن إثارة، فقـال إنّها جهّـزت لزائرها جناحـاً فخماً وأريكة مزخرفة. كما سـرّحت شـعرها وتزيّنت بأفضل ما يكون، وظهرت بـكل الروعـة التـي سـمحت بها ثياب الحداد التي ارتدتها، و"التي ناسـبتها تمامـاً". مـا إن دخـل أوكتافيـوس حتـى نهضت بخفـةٍ مثل ما تفعل الفتيات الصغيـرات، والتقـت وجهـاً لوجه عدوها اللدود؛ وذلك للمرة الأولى على وجه التأكيد. كان أوكتافيوس جذاباً جداً بالنسبة إلى النساء حسب ما يقوله مادحوه، وذلك لأنه "يستحق النظر إليه" على حدّ ما قاله نيقولا الدمشقي في وقتٍ لاحق. يُحتمل كثيراً أن تكون كليوباترا قد شعرت ببعض الارتياح فـي هـذا الوقت. سبق لشيشـرون أن قال: "إن بقاءنـا عرضة للخوف لمدة طويلة هو بالتأكيد أمر أسوأ بكثير من واقع ما نخاف منه". رأت كليوباترا أمامها رجلاً يبلغ طوله نحو خمس أقدام وسبع بوصات، وذا شعر أشعث

وملامح بريئة، والذي يُتقن اللاتينية أكثر من إتقانه اليونانية، ويصغرها بست سنوات. كان يقف أمامها بشحوبه، وبصلابته، وكذلك بتوتره.

أقدم شخصٌ ما على التلاعب بالمصادر التي أتت على ذكر ذلك الاجتماع، ويصعب علينا عدم اعتبار أن ديو هو ذلك الشخص. كانت روايته أقرب ما يكون إلى وصفٍ مسرحي حيث تدفعنا إلى التشكيك فيها، وكانت مغرقة في ألوانها وبهرجتها حتى بالنسبة إلى ملكة هيلينستية. ومن جهة أخرى، لو كانت كليوباترا تفتقد إلى ميلها إلى التمثيل، فمن المستبعد أن تصل إلى هذا الحد. وضعت الملكة على الأريكة المجاورة لمقعدها تماثيل ولوحات تمثّل قيصر، كما وضعت فوق صدرها رسائله الغرامية. حيّت الملكة أوكتافيوس بوصفه سيّدها، لكنها تمنت عليه في الوقت ذاته ألاّ ينسى مركزها السابق. قالت إنه يتعيّن عليه أن يعرف التقدير الذي كان قيصر المبجل يكنّه لها، وهو والده وحبيبها. مضت لهذه الغاية في قراءة مقاطع من رسائله، واكتفت بأكثر المقاطع إثارة؛ لم يكن أوكتافيوس هو الشخص الوحيد الذي يُتقن انتقاء المقاطع من وثيقة ما. بدت كليوباترا خجولة، وطيبة، ورقيقة. يُضاف إلى ذلك صلة القربى التي تربط بينهما. ألم يسمع أوكتافيوس بمظاهر التكريم العديدة التي أسبغها عليها قيصر؟ إنها صديقة روما وحليفتها، كما أن قيصر قد توّجها بنفسه. وقد عمدت كليوباترا طيلة هذا اللقاء إلى "التفجّع وتقبيل الرسائل، كما انحنت مجدداً أمام كل صور قيصر وتماثيله، مبديةً الاحترام لها". عمدت كليوباترا في هذه الأثناء إلى النظر تكراراً نحو أوكتافيوس، وسدّدت نحوه نظرات تذيب الحجر، كما حاولت، وبكل رقة، استبدال قيصرٍ بآخر. كانت مغرية، وفصيحة، وجريئة، بالرغم من أنها عجزت عن مجاراة الاستقامة الرومانية التي تميّز بها أوكتافيوس؛ وهي النقطة التي يُحتمل أن ديو أراد التركيز عليها. لم يُفصح أوكتافيوس عن أي علامة تدل على مشاعره، وهو الرجل الذي تمتع بحصانة ضد النظرات الودية. كان أوكتافيوس يفتخر

بحرارة نظرته وعمقها، لكنه رفض في هذه المناسبة بالذات النظر إلى عينَي كليوباترا مباشرة، وفضّل بدلاً من ذلك التحديق إلى الأرض، كما امتنع عن إلزام نفسه بأي شيء. كان يعتزم التحدث، لكنه اعتاد التحدث بإيجاز إلى حدّ الإحراج، كما أنه لم يتجرأ على الخروج عن ملاحظاته التي حضّرها، سواء أكانت تلك المتعلقة بالحب، أو بمستقبل مصر، أو بأولاد كليوباترا. ركّز ديو على نزاهة أوكتافيوس، لكن غاب شيء آخر عن تلك المقابلة: لم تطلب كليوباترا الاعتراف لها بفضل تسليم بيلوسيوم، وكذلك تسليم أسطول أنطونيو، أو دفع أنطونيو إلى قتل نفسه. يُحتمل أنه لم يكن لها أي فضلٍ في كل تلك الأمور. يُضاف إلى ذلك أنها لو التزمت بما يخصها من الصفقة، لكانت بالتأكيد قد طلبت الحصول على مكافأتها في تلك المقابلة. اغرورقت عينا الملكة بالدموع في نهاية الأمر، وارتمت عند قدمَي أوكتافيوس قائلةً له وسط نشيجها إنها فقدت كل رغبةٍ في العيش، كما أنها فقدت القدرة على الاستمرار في هذه الحياة، ثمّ سألته ما إذا كان عاجزاً عن منحها طلباً واحداً؛ ألا تستطيع اللحاق بأنطونيو عن طريق الموت؟ قالت متوسلة: "لا تُنكر عليّ أن أُدفن معه، وذلك لأنني سوف أموت لأجله، ولأنني سوف أقطن معه حتى ولو كان ذلك في آخر الدنيا". لكن كليوباترا فشلت مجدداً في التأثير على أوكتافيوس حيث يرثي لها، أو في انتزاع أي وعدٍ منه. فهو لم يفعل أكثر من توجيه نصيحة إليها كي تهدئ من روعها، وتستعيد كل آمالها قائلاً لها إنه يريدها أن تبقى على قيد الحياة، وإنها ستكون بمثابة جوهرة انتصاراته.

أما بلوتارك فيصوّر لنا كليوباترا أكثر وهناً من الناحية الجسدية، وأكثر مهابةً من الناحية الذهنية، لكنها ليست بالضرورة أكثر دقة بحسب ما قاله طبيبها عنها، وخاصة أن الجميع أرادوا الإدلاء بدلوهم في هذا الموضوع. طلب منها أوكتافيوس، وبكل لطف العودة إلى سريرها، وجلس قربها، وما لبثت أن بدأت بسرد مجموعة من التبريرات التي تشبه تلك التي أفصحت عنها

في طرسوس، ونسبت أفعالها إلى "الضرورة والخوف من أنطونيو"، حتّى عمد أوكتافيوس إلى تفنيد حججها نقطة نقطة، وهنا غيّرت طريقتها ولجأت إلى الأسف والصلوات. توسلت الملكة في النهاية للإبقاء على حياتها. كانت يائسة، لكنها مع ذلك بدت جميلة، لكن ديو قال إنها كانت يائسة فقط. لم تتلفظ الملكة بكلمات مغرية، لكن يبدو أن بعض هذه الكلمات قد أُضيفت في ما بعد، أي عندما جعل عدد كبير من المؤرخين كليوباترا ترتمي بشدة تحت الأقدام. تنقلت كليوباترا هكذا في الروايات المتداولة أكثر مما فعلته في الحياة. أما إذا وضعنا الروايات الخيالية والتشويهات المقصودة جانباً فسوف نكتشف أن ديو وبلوتارك يتفقان في الجوهر. بقيت كليوباترا متعةً لعيون الناظرين، سواء أكان شعرها أشعث أم لا. فقد شعّ "السحر الذي اشتهرت به، وجمالها الجريء" بالرغم من محنتها، و"بان ذلك في تعابير وجهها". حافظت الملكة على رشاقتها وفطنتها، كما تلاعبت "بنبرات صوتها الموسيقية"، و"النغمات المؤثرة" بحسب ما تطلبه الوضع، وكذلك كانت الحال مع حججها. كانت شبه جائعة وعاجزة جزئياً، لكن معنوياتها بقيت عالية كما كانت على الدوام. وقد وقع أوكتافيوس في وضعٍ محرجٍ في كلتا الحالين.

فشلت توسلات كليوباترا في التأثير على أوكتافيوس، لذلك لجأت إلى ورقتها الرابحة، إذ سبق لها أن حضّرت لائحة بالكنوز التي تمتلكها، فما كان منها إلاّ أن سلّمتها إلى أوكتافيوس وكأنها تستسلم له. تفحص أوكتافيوس هذه اللائحة، لكن أحد خدم كليوباترا وهو سلوقس، تقدم إلى الأمام - كان ذلك وضعاً محرجاً بالنسبة إلى الجميع - لأنه عجز عن كتمان ملاحظته أن كليوباترا قد حذفت من اللائحة عدة أشياء قيّمةٍ جداً. اتهم الخادم ملكته، وأمام أوكتافيوس، "بسرقة بعض الأشياء الثمينة وتخبئتها". قفزت كليوباترا من فراشها عند سماعها هذه الكلمات وما لبثت أن "أمسكته من شعره وأمطرته بصفعاتٍ على وجهه". لم يتمكن

أوكتافيوس من كبح ابتسامته فنهض كي يوقفها. مثّلتها بادرتها اللافتة هذه على حقيقتهـا، كما أبرزت رشـاقتها بـكل دقة. قالت الملكة: "ألا تعتقد يا قيصـر أنـه أمـرٌ بشـع أن يعمـد أحد خدّامـي، في الوقت الـذي تلطفتَ فيه بتشـريفي بهذه الزيارة، إلى اتهامي بتخبئة بعض ما يُعتبر زينة النسـاء، وأنا لم أخبئها في الواقع لنفسـي؛ وأنا المرأة التعيسـة، بل خبأتها لتكون بعض الهدايـا التافهـة لأوكتافيـا وزوجتـك ليفيا. إنني آمل أن تنفع شـفاعتهما لي لتكون أكثر رأفةً ولطفاً تجاهي". جعل ديو بدوره كليوباترا تعود بالإشارة إلى زوجة أوكتافيوس وشقيقته، لكن ليس عن طريق المشاهد المضحكة. أشـارت كليوباترا إلى التضامن بين النسـاء عندما وعدت بتخصيص بعض المجوهرات الرائعة بشكل استثنائي كي تقدمها إلى ليفيا التي وضعت آمالاً كبيرة عليها. اشتملت المقابلتان على الخداع والحشو، وعلى مزاعم مزيفة وعواطف مصطنعة. أما إذا وضعنا كل التفاصيل المتعارضة جانباً فستتمكن من القول إنها كلها مجرد خداع وتمثيل. أراد أوكتافيوس بشـدة أن تسـير كليوباترا في شوارع روما بصفتها أسيرته، لكنه تظاهر بأمورٍ أخرى. شكّت كليوباتـرا فـي الأمـر لكنهـا رغبـت في التحامل على نفسـها كي تعيش. لم تكن لديها أدنى رغبة في العودة إلى تلك المدينة مقيدة بالأصفاد في حين أنـه سـبق لهـا العيـش فيها ذات مرة بصفتها ضيفـة قيصر المكرّمة. اعتبرت الملكة أن هذا الإذلال "أسـوأ من ألف ميتة". كانت تعرف ما الذي تعنيه رومـا بالنسبة إلـى الملوك الأسـرى، وهـم الذين إن عاشـوا فإنهم يفعلون ذلك في زنزانات الرومان. اعتاد الملوك الهلينستيون على قتل أنفسهم، كما أصيـب بعضهـم بالجنون هناك. تـرك أوكتافيوس كليوباترا وطمأنها، وذلك بعد سماعه ما قالته الملكة عن ليفيا. زاد القائد من طمأناته عندما وعدها "بمعاملـة أكثـر لطفاً مما توقعتـه"؛ غادرها مرتاحاً عند هذا الحد، "مفترضاً أنه خدعها، لكن الواقع يشير إلى أنها هي التي قامت بخداعه".

أحرزت كليوباترا نصراً أخيراً، لكنه لم يكن على حساب أوكتافيوس. اشتمل مساعدو أوكتافيوس على أحد النبلاء الشبان ويُدعى كورنيليوس دولابيلا. قال لنا بلوتارك إن دولابيلا كان يُضمر "رقةً معينة" تجاه كليوباترا، ويُحتمل كثيراً أن يكون ذلك الشعور أقرب إلى الشفقة. ألحّت عليه كليوباترا أن يبقيها على علم بكل التطورات، فما كان منه إلا أن وافق على ذلك الطلب، وهكذا أرسل إليها خبراً في 9 آب بطريقة سرية أبلغها فيه أن أوكتافيوس يعتزم مغادرة البلاد في غضون ثلاثة أيام، وكان من المفترض أن تذهب معه كليوباترا وأولادها الثلاثة. أسرعت كليوباترا بإرسال مبعوثٍ إلى أوكتافيوس كي تطلب منه السماح لها بتقديم قرابين إلى أنطونيو، فوافق أوكتافيوس على ذلك الطلب، وهكذا نقلتها عربة إلى المدفن برفقة إيراس وشارميون. عرض لنا بلوتارك حديثاً مفعماً بالنشيج والحزن، لكنه كان خطاباً بليغاً قريباً من التراجيديا اليونانية أكثر من قربه من التاريخ الهلينستي. خصص بلوتارك عشرة فصول من دون الحديث عن أنطونيو، وهو موضوعه المزعوم، لكنه تأثر قليلاً بهذا الفصل. ارتمت كليوباترا، كما صورها بلوتارك على المدفن، وضمّته بذراعيها، ثم شرحت لحبيبها الراحل بأنها سجينة، وتدفقت الدموع من عينيها، ثم أضافت أنها "محروسة بعناية مشددة حيث لا أتمكن من تشويه جسدي - وهو جسد امرأةٍ عبدة - لا بالضربات ولا بالدموع. إنني أخضع لمراقبة تمنعني من زيادة تكريمي لك بموتي". لم يتمكن أي شيء في الحياة من التفريق بينهما، لكن الموت كان على وشك أن يفعل ذلك. لفظ أنطونيو أنفاسه الأخيرة في بلاد كليوباترا، أما هي "المرأة المسكينة" فكانت على وشك أن تلقى حتفها في بلاد أنطونيو. بدا أن أسياد العالم المبجّلين قد تخلوا عنهما. كان كل ما تأمل به كليوباترا هو أن يخبئها الأسياد ويدفنوها في مصر إلى جانبه، "لأنه من بين كل المآسي العديدة التي عانيتها، لم تمر عليّ فترة قاسية ومخيفة مثل هذه الفترة التي عشتها بعيداً عنك". حفل هذا

المشهد بحديثٍ قليل عن الانتقام، لكن الحديث عن الحب كان طويلاً. تعيّن على كليوباترا بلوتارك أن تموت بسبب الحب، وليس بسبب العداء. تابعت الملكة عناقها قبر أنطونيو وتقبيله وسط سحابة من البخور. كما أبلغت كليوباترا أنطونيو أن كلماتها هذه هي آخر الكلمات التي تستطيع تقديمها له.

في ذلك المساء، عادت إلى مدفنها الذي شيدته، وما لبثت أن أمرت بتحضير حمّام لها. اضطجعت بعد ذلك أمام طاولة حيث استمتعت بوجبةٍ فاخرة. ظهر أحد الخدم خارج أبوابها في نهاية ذلك اليوم حاملاً معه سلة مليئة بالتين آتية مباشرة من الريف المصري، وقد تفحّص الحراس محتويات تلك السلة بعناية شديدة؛ كان الرومان يستمتعون بهذه الفاكهة اللذيذة. قدّم ذلك الرجل المبتسم ثماراً من تلك السلّة إلى الأشخاص المتواجدين حوله، ثمّ أُدخل بعد ذلك إلى مبنى المدفن. أقدمت كليوباترا بعد ذلك على ختم رسالةٍ كانت قد حضّرتها سلفاً، ثم استدعت إيبافروديتوس سائلةً إياه إذا كان يستطيع ترك حراسته لفترة تكفي لنقل رسالة إلى أوكتافيوس. قالت له إنها تتعلق بمسألةٍ بسيطة، ولا تتضمن أي مشكلة، فانطلق إيبافروديتوس عبر الأرض الرملية في الخارج. صرفت كليوباترا بعد ذلك كل أفراد حاشيتها ما عدا إيراس وشارميون. أغلقت النسوة الثلاث أبواب المدفن من ورائهن، وكان من المفترض أن القضبان والمزاليج قد أُزيلت مع الكنز. فرغت الخادمتان من إقفال الأبواب وانصرفتا بعد ذلك إلى إلباس كليوباترا عباءتها وثيابها الرسمية، كما أضافتا إليها بعض أدوات الزينة التي تناسب مركزها مثل العصا والمذراة الفرعونيتين. ثبتت الخادمتان بعد ذلك إكليل الملكة حول جبهتها بينما تدلت شرائط الإكليل حول عنقها.

فتح أوكتافيوس الرسالة، ولا شك في أنه لم يكن بعيداً جداً لأن أغلب الظن أنه كان في القصر. قرأ القائد طلب كليوباترا الملحّ بأن تُدفن إلى جانب أنطونيو، وخمّن على الفور ما حدث، وشعر بالصدمة. همّ

بالانطلاق بسرعة، لكنه غيّر رأيه فجأة بسبب ارتباكه، فأرسل مبعوثين كي يتحققوا مما حدث نيابةً عنه. هُرع المبعوثون إلى المدفن حيث كان حراس أوكتافيوس يقومون بمهمتهم، لكنهم كانوا رابطي الجأش من دون أن يشكّوا في شيء. عمد الجميع إلى الاندفاع من خلال الأبواب، لكنهم دخلوا متأخرين. قال لنا بلوتارك، "كانت الكارثة سريعة جداً". استلقت كليوباترا فوق الأريكة المذهبة، ولعلها كانت سريراً مصنوعاً على طراز مصري، بينما صُنعت قوائمه على شكل مخالب أسد وصُنعت زواياه على شكل رؤوس أسود. كانت الملكة مستلقية بمهابة وترتيب شديدين، "وقد ارتدت أجمل ثيابها"، وقد أمسكت بيديها عصاها ومذراتها. كانت هادئة وميتة تماماً، بينما كانت إيراس تحتضر عند قدميها. كانت شارميون تترنح بثقلٍ من دون أن تتمكن من الوقوف بثبات، وكانت تحاول بغباء، تثبيت إكليل كليوباترا حول جبهتها. صرخ أحد رجال أوكتافيوس غاضباً: "يا للعمل الرائع يا شارميون!". لم يبقَ لها من طاقة سوى المبادرة إلى توجيه ملاحظة أخيرة فقالت: "إنه عمل رائع وشديد الروعة بالفعل، وهو يليق بسليلة الملوك". انهارت شارميون على الأرض كتلةً هامدةً إلى جانب ملكتها.

لا يستطيع أحد دحض صدقية رثاء شارميون. (كما لا يُمكن لأحد أن يحسّنه، حتى إن شكسبير استخدمه كما هو). قال بلوتارك: "لا تستدعي الشجاعة بين سيّئي الحظ غير التقدير، حتى من الأعداء". ساد شعور من الإعجاب والرثاء من جهة معسكر أوكتافيوس. برهنت كليوباترا عن شجاعة منقطعة النظير، لكن الطريقة التي أنجزت بها مهمتها الأخيرة ليست واضحة بالنسبة إلينا. اعتقد أوكتافيوس، أو أنه أرادنا أن نعتقد، أنها استخدمت أفعى. وصل أوكتافيوس إلى مسرح الفاجعة بعد وصول مبعوثيه بقليل، وسارع إلى محاولة إنعاش كليوباترا، ثمّ استدعى كاهناً، وكان يُعتقد أن الليبيين الأفارقة يتمتعون بمناعة ضد سموم الأفاعي. قيل

إنهـم يسـتطيعون معرفـة نوع الأفعـى التي لدغت ضحيتهـا بمجرد تذوقهم بعضاً من سمّها، وقيل كذلك إنهم يستطيعون إبعاد الموت عن جثة متجمدة عـن طريـق التعاويذ وامتصاص السـمّ من الجـرح. لكنّ الكاهن الذي ركع إلـى جانـب كليوباتـرا لم يتمكّن من اجتراح أي أعجوبة، ولـم يتمكن أيضاً من إنعاش الملكة المصرية. لم يكن ذلك بالأمر المفاجئ كلياً. لم يتمكن بلوتـارك مـن جهتـه، ولا حتـى ديو من تأكيد وجود الأفعى داخل سلةٍ من التين، وهي التي من المؤكد أنها أُقحمت في القصة في وقتٍ لاحق، وليس في زمن كليوباترا. لم يقتنع كثيرون بهذه القصة، وحتى سترابو الذي وصل إلى مصر بعد وقتٍ قصير من موتها.

إننـا نسـتبعد إمكانيـة اسـتخدام كليوباتـرا أفعى، أو الكوبـرا المصرية في هذه المهمة لعدة أسـباب. كما نسـتبعد كذلك أن تعمد امرأة اشـتُهرت بقراراتها الدقيقة وتخطيطها الهادئ إلى عدم التردد في ربط مصيرها بمصير حيـوانٍ بـري. امتلكـت الملكة خيارات عديدة أسـرع وأقـل إيلاماً، كما أن اسـتخدام الترياق الملكي في مصر في قتل الملكة أمر لا يُعتبر لائقاً، لأن الأفعـى كانـت تمتلـك أهميـة رمزية أكثر منها أهمية عملية. يُضاف إلى كل ذلـك أنـه حتـى أقـوى أفاعـي الكوبرا تعجـز عن قتل ثلاث نسـاء بلدغاتٍ سريعة ومتتابعة، لأنّ ذلك النوع من الأفاعي معروف ببطء حركته. ويُستبعد أيضاً تخبئة الكوبرا المصرية في سـلة وأن تظل مخبأة لوقتٍ طويل، وهي المنتصبة، والصافرة، والتي ترفع نفسها بكل عَظَمة لعلو ست أقدام. كانت المهمة جسـيمة جداً والسـلة صغيرة جداً. كان السـم خياراً أكثر احتمالاً، وهـو الاحتمـال الـذي أراد بلوتـارك الإيحـاء بـه عندما اسـتعرض تجارب كليوباتـرا العديـدة. يبقـى الاحتمال الأقرب إلى الواقعية هو ابتلاعها شـراباً قاتلاً، أي إن مزيجاً من شـراب الهملوك والأفيون الذي اسـتخدمه سـقراط كان كافياً، أو لعل اسـتخدام مرهم سـامّ كان سـيعطي النتيجة نفسـها. لجأ هنيبعل إلى اسـتخدام السـم حين حُشـر في الزاوية قبل مئة وخمسين عاماً،

كما أن ميثراديتس حاول الأمر ذاته. يُضاف إلى ذلك أن عمّ كليوباترا، أي ملك قبرص، كان يعرف ما يمتلكه بالتحديد عندما طرقت القوات الرومانية أبوابه في العام 58. أما إذا كان لنا أن نفترض أن الملكة قد ماتت بالطريقة ذاتها التي أهلكت شارميون، وعلى افتراض أنها ماتت في الحالة التي اكتُشفت فيها، فيمكننا أن نفترض كذلك أنّ معاناتها كانت قليلة. لم تتعرض كليوباترا إلى نوبات تشنج من تلك التي يتسبب بها سم الأفعى في آخر مراحله. يُذكر كذلك أن السم يعطي مفعولاً تخديرياً أكثر من إعطائه مفعولاً تشنجياً، كما أن الموت الذي ينتج عنه موتٌ هادئ وسريع، والأهم من ذلك أنه يخلو من الألم. أعلن بلوتارك على مدى قرون: "لا يعرف أحد حقيقة ما جرى". لكن من دون أن يلقى آذاناً صاغية.

استُبعِدت قصة الأفعى لمدة تقارب مئتي عام، لكنها عادت لتلتصق بالقصة بشدة. كانت أفعى كليوباترا بمثابة شجرة كرز التاريخ القديم، ورواية ملائمةً، وسبباً مختصراً. أما الأهم من ذلك كله فهو أنها كانت بمثابة هدية بالنسبة إلى الرسامين والنحاتين عبر قرونٍ من الزمن، وهكذا كانت الأفعى مفهوماً شعرياً وفناً راقياً. (أي مثل ما هو الصدر العاري، والذي لم يكن جزءاً من الرواية الأصلية). تعددت على الفور القصص التي تتناول بالذكر الأفعى: تحدث هوراس عن "الثعابين ذات الأنياب الحادة" في قصيدة. ولم يتأخر فرجيل، وبروبيرتيوس، ومارشال عن أن يحذوا حذوه، وهكذا تواجدت شخصية الوحش أو الوحوش في كل القصص التي ظهرت في ذلك الوقت. حسم أوكتافيوس الأمر أكثر عندما عرض نموذجاً لكليوباترا مع أفعى في أثناء احتفاله بالنصر. لا يقتصر الأمر على كون الأفعى رمزاً فعالاً لمصر، حيث بقيت أفاعي الكوبرا الملتفة تزيّن حواجب الفراعنة منذ ألف سنة، لكن الأفاعي التفّت كذلك حول تماثيل إيزيس. يُضاف إلى ذلك أننا نجدها في طقوس عبادة ديونيسوس. أما إذا وضعنا مسألة الرموز جانباً فسوف يسهل علينا تخمين ما يريد شخص ما إيحاءه عندما يقرن صورة

سيدة ما مع أفعى. كانت والدة الإسكندر الكبير - وهي أكثر الأميرات المقدونيات ميلاً إلى القتل الذي يصل إلى حدّ الجنون من بين اللواتي ظهرن على مرّ العصور - تحتفظ بالأفاعي وكأنها حيوانات أليفة. كانت تستخدم هذه الأفاعي كي تبث الرعب في قلوب الرجال، لكنها لم تكن الوحيدة في ذلك لأن ميدوزا، وإلكترا، وإيرينيس سبقنها في ذلك. يعني ذلك أنه عندما تتحالف امرأة ما مع أفعى فإن عاصفة أخلاقية تهدد بالهبوب في مكانٍ ما. يُحتمل أن أوكتافيوس قد عقّد الأمر، وذلك عندما استدعى الكاهن. تحكّم أوكتافيوس بالسجلات التاريخية بالإحكام ذاته الذي يُقال إنه استخدمه من أجل التحكم بدوافعه الغريزيّة أيام مراهقته. لكن الأمر الأكثر احتمالاً هو أنه أبعدنا عن الحقيقة، ووجهنا إلى الاتجاه المعاكس وغير الصحيح منذ آلاف السنين.

يُحتمل أنه فعل ذلك قصداً، وذلك لأنه تتواجد لدينا رواية بديلة عن طريقة الموت، لأنه اتضح وجود نقصٍ ما في القصة. يُحتمل أن كل ذلك الحشو عن المقابلة التي جرت في 10 آب يخفي وراءه أمراً آخر بشكلٍ محكم، وهو أن أعظم سرير موت في التاريخ قد لا يكون كما جرى تصويره. تبدو كليوباترا في أول قصة نثرية "بأنها تمكنت من التغلب على يقظة حراسها" وهو الأمر الذي مكّنها من الحصول على أفعى وترتيب موتها. شعر أوكتافيوس بالانزعاج والغضب الشديد لأنها تمكنت من الإفلات من بين أصابعه، وذلك بالرغم من حيازته رجالاً أقوياء ومخلصين. كان قليلون من الناس يترددون في التعاون معه، وعلى الأخص في شهر آب من ذلك العام، وهو الأمر الذي برهن عنه خادم كليوباترا. أما إذا أمكننا القول إن كليوباترا ساذجة، فسوف يمكننا القول إن أوكتافيوس كان مهملاً. إن الرجل الذي اعتاد ختم التاريخ والوقت على رسائله لم يكن من ذلك النوع من الرجال الذي يدع أسيرة ثمينة تفلت من بين أصابعه. أما عندما تركها أوكتافيوس يوم 8 آب فربما يكون قد

ضلّل كليوباترا كي تعتقد أنها تمكنت من خداعه، وبالتالي تمكن من ترتيب موتها. لم يكن الرجل ليكترث بأن يدع امرأة تتفوق عليه في الدهاء إلا إذا كان البديل أكثر إيذاء. كانت كليوباترا تمثّل مشكلة كأسيرة مثل ما كانت تمثل خطراً عندما كانت عدوة. حضر أوكتافيوس احتفالات النصر التي أقيمت في العام 46، حتى إنه ركب في إحدى العربات التي شاركت في ذلك الاحتفال. كان على علمٍ كذلك بالمشاعر التي أثارتها شقيقة كليوباترا في تلك المناسبة. وقد عمدَ في ذلك الوقت إلى إدانة مارك أنطونيو لأنه أمر باستعراض أرتافاسديس وهو مكبل بالأصفاد. علّق أوكتافيوس موبخاً في ذلك الوقت بأن ذلك السلوك قد ألحق العار بروما. كما كانت هناك مشاكل إضافية في قضية كليوباترا: إذ كانت تلك الأسيرة بالذات عشيقة قيصر التي تتمتع بالتبجيل. يُضاف إلى ذلك أنها والدة ابن قيصر، كما أن بعض الناس كانوا يعتبرونها من \الأسياد المبجّلين. كان يتوقع أن تعيش أيامها بهدوء في أحد المواقع الآسيوية البعيدة كما عاشت شقيقتها الصغرى. حاولت كليوباترا مرتين قتل نفسها، وكان من الواضح أنها سوف تنجح في قتل نفسها آجلاً أم عاجلاً إذا لم تشدد عليها الحراسة.

كان على أوكتافيوس أن يحسب أيّ إحراجٍ هو الأكبر بالنسبة إليه: أن تفوقه امرأة ما في الذكاء، أو العودة إلى روما من دون نجمة حملته العسكرية. يصعب علينا كثيراً قياس حساسيات مواطنيه التي تكون رقيقة. في بعض الأحيان، كانوا يعاملون أولاد الملوك المهزومين بالسخرية والاستهزاء. وفي أحيان أخرى، كان هؤلاء الأبرياء يفسدون الاحتفالات ويستثيرون الدموع والانزعاج. سبق أن أُعلنَت كليوباترا عدوة للشعب، لكن يمكن لدمية أن تمثّلها جيداً في احتفالات النصر، كما سبق لدمى تمثّل أعداء الشعب الروماني أن فعلت ذلك في الماضي. خفّف موت كليوباترا من وهج النصر بعض الشيء، لكنه أزال في الوقت ذاته مجموعة من التعقيدات. يُحتمل أن يكون أوكتافيوس قد فضّل إزاحة كليوباترا عن

المسرح بدلاً من الإقدام على خطأ ما في روما. كان أوكتافيوس مرتعباً فعلاً من إمكانية إقدامها على تدمير كنزها، لكنه لم يقلق من احتمال إقدامها على قتل نفسها؛ الأمر الذي يُحتمل أنه تواطأ فيه. لم يكن دولابيلا الشاب سوى أداة في لعبة أوكتافيوس. يعني ذلك أنه من غير المحتمل أن يُقدم أحد رجاله على المخاطرة بإقامة صداقة مع كليوباترا. لم يغادر أوكتافيوس في الواقع الإسكندرية يوم 12 آب، وهو اليوم الذي أصرّ دولابيلا أنه يوم المغادرة. يُحتمل أنه أوصل رسالةً كانت نذيرة بشؤم أكثر، من أجل تسريع الأحداث. أشار كلٌّ من ديو وبلوتارك إلى الأوامر المتكررة التي أصدرها أوكتافيوس والمتعلقة بضرورة إبقاء كليوباترا حية، لكنهما لم يشيرا إلى تواطئه في مقتلها. لا يعني ذلك أبداً عدم وجود أي نوع من أنواع التواطؤ. يُحتمل وجود ضحية رابعة يوم 10 آب وهي حقيقة ماً جرى.

(أما الحجج المناقضة فكانت على الشكل التالي: حاولت كليوباترا تجويع نفسها وكذلك طعن صدرها بخنجر. ما هو السبب - في هذه الحالة - الذي دفع أوكتافيوس إلى إحباط هذه المحاولات وتعذيبها بتهديداته المتعلقة بأولادها؟ مرّت تسعة أيام بين موت أنطونيو ووفاة كليوباترا. ألم يكن من الأفضل، بالنسبة إليه، التخلص منها في ذلك الحين؟ ألم تُقسم على الموت مع أنطونيو. كان من الأرجح أنها علمت بالأزمة التي وقع فيها أوكتافيوس. كانت تعرف، مثل ما كان يعرف، الضجة التي أثارتها شقيقتها. يُحتمل كثيراً أنها راهنت على أن أوكتافيوس لن يخاطر في إجبارها على السير في استعراض النصر عبر شوارع روما مع أولادها الذين تجري في عروقهم دماء رومانية. بدا أن أوكتافيوس قد انزعج فعلاً، وبشكلٍ لا يوصف، من نبأ موت كليوباترا. لم يُظهر أوكتافيوس قدراً كبيراً من الرأفة أمامها، أي كما كان يُتوقّع منه أن يفعل، وكما اعتاد أن يفعل في السابق. تفاخر أوكتافيوس في مذكراته، وعلى عكس ما كان متوقعاً منه، بأن ملوكاً عديدين قد ساروا في ثلاثة استعراضات سبق له أن أقامها، وساروا أمام

عربته. لم يجرؤ أي مؤرخ أتى في ما بعد، حتى أولئك غير المتعاطفين مع أوكتافيوس، على تأكيد تواطئه في مقتل كليوباترا. بقيت الحقيقة ملكاً لعددٍ قليـل مـن النـاس، وذلك بالرغم من أنه يُمكن للمرء أن يجادل بأن القضية انتهـت عنـد هـذا الحد. حافـظ المؤرخون على سـعيهم الدائم في البحث عن الحقيقة. لكن أفضل ما يُمكن قوله عن آخر عملٍ لها هو أن كليوباترا قد تصرفت بشكلٍ بطولي ضمن سلسلة ظروف معاكسة لسير التاريخ، ولا يُستغرب عندها أنَ تكون من اختراع بعض خصومها. (أما العزاء الوحيد في هذا المجال فيتميز ببعض الغرابة: وثّق المؤرخون موت الإسـكندر توثيقاً جيداً، لكنه يبقى لغزاً بالرغم من ذلك).

قـال بلوتـارك إن أوكتافيـوس كان ممزقـاً بين عاطفتين في مسـاء 10 آب. فهو يظهر في الوقت ذاته "مستاءً من موت المرأة"، ويخشى العاقبة. يصـوّر ديـو بـدوره أوكتافيوس على أنه معجبٌ ومتعاطف، هذا إذا لم يكن "حزيناً جداً" لأسبابٍ تتعلق به. يعني ذلك أن انتصاره سيكون أقل عظمة. تحدث أحدهم عن مادة الهيروين، لكن لم يتضح لنا من هو الشخص الذي فعل ذلك. كان موت كليوباترا موتاً مشـرفاً، ومبجلاً، ونموذجياً. أشـرفت الملكـة علـى ترتيبـات موتها بنفسـها، وكانـت فخورة وثابتة حتـى النهاية، وهي فعلت أخيراً أمراً صائباً بحسب المفاهيم الرومانية: نُسب إليها فضل تحـدي مـا هـو متوقـعٌ من بنات جنسـها. كانت النسـاء يحصلن على نقاط إعجاب في التاريخ الروماني عندما يبتلعن قطع من الجمر أو عندما يعلقن أنفسهن من شعر رؤوسهن، أو عندما يلقين بأنفسهن من فوق السطوح، أو عندما يسلّمن الخناجر الملوثة بدمائهن إلى أزواجهن، ويرفقن ذلك بثلاث كلمات تشـجيعية هادئة: "لم يكن مؤلماً". (امتلأ المسـرح اليوناني بدوره بجثـث النسـاء، لكـن الفرق هو أن النسـاء كنّ يمتلكـن الكلمة الأخيرة في النهايـة). لـم تتأخر كلمـات المديح عن الظهور. كتب هوراس قصيدة بعد انتحـار كليوباتـرا بوقـتٍ قصير أدانها فيها على حماقتهـا وطموحاتها، لكنه

انتهى إلى رثائها. قال في آخر القصيدة معبراً عن دهشته بصفاء ذهنها، وملامحها الهادئة، وشجاعتها: "لم تكن امرأة جبانة". ولربما كان آخر عملٍ قامت به كليوباترا من أفضل أعمالها. كان ذلك هو الثمن الذي كان أوكتافيوس مستعداً لدفعه بكل سرور، إذ كان مجد كليوباترا من مجده هو، كما أن الخصم النبيل هو الخصم الجدير بالخصومة.

رتّب أوكتافيوس لكليوباترا أن تُدفن "بكل العظمة الملكية الجديرة بها". أما لو استبعد أوكتافيوس هذا الخيار لكان قد خاطر بكسب عداء سكان الإسكندرية، وهم الذين أظهروا الحداد على ملكتهم علناً بالرغم من الوجود الروماني. قال بلوتارك إن أوكتافيوس احترم كذلك طلبها بأن تُدفن إلى جانب أنطونيو. نالت إيراس، وشارميون الفصيحة دفناً رائعاً بدورهما إلى جانب ملكتهما. لا يتضح لدينا إن كانت جثث النساء الثلاث قد حُنّطت أم لا. أما المدفن الجماعي الذي ضمّ النسوة فلا بد من أنه كان مزخرفاً بالألوان، كما كانت القبور الملكية لأسلاف كليوباترا، وتضمنت نقوش هذا المدفن رموزاً رومانية. جاء في إحدى الروايات أن تمثالين لإيراس وشارميون كانا يحرسان المدفن من الخارج. قال بلوتارك إن موقع المدفن كان في وسط الإسكندرية، أي إلى جانب قبور أسلاف الملكة من البطالسة. أمر أوكتافيوس بإتمام بناء المدفن، ويُفترض أن العمل قد انتهى في تلك المدينة المقهورة والتي سحقتها ظلال الشكوك، كما أن سكان الإسكندرية تحولوا في ذلك الوقت إلى رعايا رومانيين. كان نُصُب كليوباترا مجاوراً لهيكل إيزيس، وهو الأمر الذي يعني إمكانية تواجده في أي مكان. أما أحدث نظرية في هذا الشأن فهي أن مرقد أنطونيو وكليوباترا الأخير يبعد مسافة عشرين ميلاً غرب الإسكندرية، وهو مشيّدٌ على تلة تغمرها أشعة الشمس في تابوسيريس ماغنا، وهي تلة مشرفة على البحر المتوسط. لم يُعثر على القبر ولا على الضريح (من المفترض أنهما في مكانين مختلفين).

كانت كليوباترا في التاسعة والثلاثين من عمرها عند موتها، وحكمت مدة تقرب من اثنين وعشرين عاماً، أي إنها حكمت نحو عقدٍ من الزمان أكثر من الفترة التي حكمها الإسكندر الكبير؛ وهو القائد الذي تسلمت منه الراية التي سلّمتها بدورها إلى الإمبراطورية الرومانية. وصلت سلالة البطالسة إلى نهايتها مع موت كليوباترا. عمد أوكتافيوس إلى ضم مصر بصورة رسمية في 31 آب. كانت السنة الأولى لحكمه هي سنة كليوباترا الأخيرة، وهكذا أعاد ضبط ساعة الزمن مع الأول من آب، أي تاريخ دخوله الإسكندرية. يُقال إن كليوباترا قد أسدلت الستار على حقبةٍ تاريخية، بالرغم من أنه يُمكن القول، ومن وجهة نظرٍ مصرية، إن أنطونيو هو الذي فعل ذلك. يسهل علينا كذلك القول إن كليوباترا هي التي عجّلت نهايته، وذلك مثلما يسهل علينا القول إنّه عجّل نهايتها. يُلاحَظ كذلك أن الأساتذة من البطالسة قد برهنوا عن تقلّبهم حتى النهاية. لم يتمكّن قيصيريون من الوصول إلى مكانٍ أبعد من ميناءٍ على البحر الأحمر قبل أن يُقنعه رودون بالرجوع إلى الإسكندرية نظراً إلى وجود احتمال مفاوضة أوكتافيوس على أن يأخذ مكان والدته. بدا العالم القديم في بعض الأحيان وكأنه مكان صغير لا يتسع إلا للقلائل، لأنه لم يكن في وسع أوكتافيوس السماح لقريبه بالعيش، ولم يكن في وسعه عرض ابن قيصر المبجل في احتفالات النصر. كان اسم قيصيريون وحده مشكلة بحد ذاته. لم ينجح حفل البلوغ الذي حاز على شهرة واسعة في إعطاء أي نتيجة. أعاد رجال أوكتافيوس ابن السابعة عشرة إلى الإسكندرية حيث قتلوه، ولعلهم قاموا بتعذيبه أولاً. أما إسكندر هيليوس وكليوباترا سيلين، وبطليموس فيلادلفوس، فقد عادوا إلى روما مع أوكتافيوس لأنهم لا يشكّلون أي خطرٍ حقيقي، وهناك عاشوا مع شقيقته الحنون. كبر الأولاد في منزلها الواسع والمريح مع أولاد أنطونيو من أوكتافيا، ومع من بقي حياً من أولاد أنطونيو من زيجاته السابقة. (أما أيوتايب، وهي خطيبة إسكندر هيليوس فقد عادت إلى عائلتها في ميديا).

سار من بقي حياً من أولاد كليوباترا في استعراض النصر الذي أقامه أوكتافيوس، وذلك بعد مرور سنة كاملة على موت والدتهم. كان ذلك بالتأكيد حدثاً صعباً ومحرجاً بالنسبة إلى الصغار الثلاثة الذين قيل إنهم لقوا عناية كبيرة وكأنهم أولاده. عمد أوكتافيوس في وقتٍ لاحقٍ إلى تزويج كليوباترا سيلين من جوبا الثاني، وهو الذي مشى عندما كان بعمر الخامسة في استعراض النصر الأفريقي الذي أقامه قيصر، وما لبث أن تلقى العلم في روما حيث أبدى شغفاً بدراسة التاريخ. مرّ الزوج والزوجة بتطورات متشابهة وإذلالاتٍ متماثلة، وذلك لأن الحروب الأهلية الرومانية قد سببت لهما اليتم. كان جوبا رجلٍ ثقافة ينظم الشعر في بعض الأحيان، كما كان يحظى بمحبة أوكتافيوس. أُرسل جوبا مع عروسه كي يحكم موريتانيا (أو الجزائر الحديثة). كانت ابنة كليوباترا في الخامسة عشرة من عمرها في ذلك الحين، أما جوبا فكان في الثانية والعشرين من عمره. أراد أوكتافيوس تكريم الشابين الملكيين، ولهذا أبقى على حياة شقيقي كليوباترا سيلين اللذين من الممكن أن يكونا قد سافرا معها إلى غرب أفريقيا. لم تردنا أي أخبار عن هذين الشابين بعد احتفالات النصر.

سارت كليوباترا سيلين على عرش موريتانيا على النهج الذي ورثته عن والدتها. كانت النقود التي سكّتها تشبهها وتحمل كتاباتٍ باليونانية. (أما نقود جوبا فكانت تحمل كتابات لاتينية). حوّل الزوجان عاصمتهما إلى مركز ثقافي وفني وزوّداه بمكتبة فخمة. ظهر في ذلك المكان عددٌ كبير من التماثيل المصرية، بما في ذلك تمثال يعود تاريخه إلى 31 تموز من العام 30، أي يوم دخول أوكتافيوس الإسكندرية. جمعت كليوباترا سيلين في ذلك المكان مجموعة من التماثيل النصفية التي تمثّل ملوك البطالسة، كما تابعت لعب دور إيزيس، وأطلقت اسم بطليموس على ابنها. وقد احتفظت كذلك بتماسيح مبجلة في قصرها. أما الحفيد المعروف الوحيد لكليوباترا، أي بطليموس الموريتاني فقد حكم بعد جوبا في العام 23 بعد

الميلاد. زار بطليموس روما بدعوة من كاليغولا. كان الرجلان يتحدران من مارك أنطونيو، أي إنهما كانا ابني عمٍّ من والدتين مختلفتين. رحب الإمبراطور الروماني بالملك الأفريقي ومنحه كل تكريم. حضر بطليموس ذات يوم إلى حفل مصارعة وكان مرتدياً عباءة أرجوانية في غاية الروعة. التفتت رؤوس الحشود نحوه بإعجاب، الأمر الذي أغضب كاليغولا، فأمر الإمبراطور بقتل بطليموس، وهي نهاية متوقعة لسلالة انغمست منذ البداية في أعمال القتل(*).

عمد أوكتافيوس إلى محو كل أثر يدل على أنطونيو سواء أكان ذلك في روما أم في الإسكندرية. اعتُبر يوم 14 كانون الثاني، أي اليوم الذي وُلد فيه يوماً مشؤوماً يُمنع فيه القيام بأي عملٍ رسمي، كما أصدر مجلس الشيوخ مرسوماً يقضي بعدم السماح بالجمع ما بين اسمَي "مارك" و"أنطونيو". يُضاف إلى ذلك اعتبار مارك أنطونيو مصدر حرج تاريخي. امتنع أوكتافيوس عن ذكر أنطونيو وكليوباترا بالاسم عند تحدثه عن معركة آكتيوم، كما حكم على عدة أشخاصٍ مقربين من أنطونيو بالموت، ومنهم كانيديوس، وعضو مجلس الشيوخ الروماني الذي كان يُشرف على مصانع النسيج التابعة لكليوباترا. أما الذين أقسموا على الموت مع أنطونيو وكليوباترا فقد وفّر عليهم القيام بالمهمة بأنفسهم. اختفى مؤيدون آخرون لأنطونيو كذلك. أما كاهن ممفيس الأكبر، والذي ولد في السنة ذاتها التي ولد فيها قيصيريون، وهو الذي بقي على ولائه الشخصي لكليوباترا فقد مات بطريقة غامضة قبل أيامٍ قليلة من موتها. كان من المحتم ألاّ ينجو أحد من الذين يُحتمل أن يتقلدوا السلطة، أو أن يحشدوا الناس، أو من

(*) تحدّر كاليغولا من مارك أنطونيو؛ والد جدّه لأبيه، ومن أوكتافيوس؛ والد جده لأمه. كان يزعم تحدره من كل واحد منهما بحسب برامجه. كان من السهل ارتكاب الأخطاء تحت حكمه، وكانت القرابين التي تقدّم للاحتفال بهزيمة أنطونيو تُعتبر ممنوعة في أحد الأيام، لكن في اليوم التالي كان يظهر تردد في تقديم القرابين بمناسبة انتصار أغسطوس.

الذيـن يُحتمـل إعـادة تأسيسـهم مملكـة كليوباترا. وقام رجـال أوكتافيوس بجمـع كنـوز البطالسـة من القصـر كما فرضوا غرامات فـي أنحاء المدينة، وارتكبـوا مختلـف المخالفـات أينمـا توجهوا، فصادر هـؤلاء الرجال نحو ثلثـي ممتلـكات الضحيـة، وقـد اعتُبِـر ذلك نوعاً من أنـواع النهب المنظم، الأمر الذي فهمه الرومان جيداً. أزال أوكتافيوس من الإسـكندرية التماثيل الرائعة، والقطع الفنية الثمينة التي سبق لكليوباترا وأنطونيو أن جمعاها من جميـع أنحـاء آسـيا، وقام بإعادتها في معظم الأحيـان إلى مواقعها الأصلية فـي المـدن التـي أُخـذت منهـا. بقي عدد قليـل من أروع القطـع الفنية في روما التي احتضنت منذ مدة طويلة قطعاً فنية رائعة جُلبت إليها نتيجة نهب مدينة كورينث؛ وهو النهب الذي حدث في القرن الثاني. أنهى أوكتافيوس بناء القيصرية التي اعتبر أنها أقيمت على شرفه، وهي الأعجوبة الفرعونية واليونانية، وذلك بعد مرور سبعة عشر عاماً على موت كليوباترا.

امتلكـت كليوباتـرا عـدداً كبيراً من المؤيديـن المخلصين؛ كما كانت وصيفاتهـا اللواتـي كـنّ مخلصـات لها حديث مدينة الإسـكندرية. لم تكن الخادمة على استعداد للموت من أجل سيدتها في العادة، لكن الخادمات اللواتـي أعربـن عن مناصرة ملكتهـنّ بقين مخلصات لها. حظيت كليوباترا بمحبة بلدها لأنه لم تحدث ثورات في أثناء فترة حكمها، كما أن الإسكندرية غرقت في الحداد على موت ملكتها. سارت المواكب، وارتفعت الأناشيد، وقُدّمـت القرابيـن، كمـا ارتفعـت في المدينة أصوات العويـل، بينما مزّقت نساء المدينة ثيابهن وضربن صدورهن. كما عمد أحد رجال الدين، ونيابة عـن سـكان المدينـة، إلى عرض تقديـم مبلغ 2,000 تالنت إلى أوكتافيوس مقابل حفاظه على تماثيل كليوباترا العديدة. بقيت الملكة في عداد النبلاء، حتّى وهي ميتة. كان العرض مغرياً جداً حيث عجز أوكتافيوس عن رفضه. وقد وفّر هذا الإجراء على أوكتافيوس مغبة الانغماس في إهانة إيزيس التي استمرّ تبجيلهـا لبعـض الوقـت. كان من غير الممكن فـي معظم الحالات

التفريق بين كليوباترا وتلك السيدة، كما كان من الصعب على أوكتافيوس هدم التماثيل الدينية المنتشرة في أنحاء الإسكندرية. أما تماثيل كليوباترا وأتباعها فقد بقيت لمئات السنين بعد ذلك، ولا شك في أن مقامها قد تعزز بوقفتها الصلبة الأخيرة ضد الرومانيين.

لم يتلكأ أوكتافيوس كثيراً في مصر التي أصبحت منذ ذلك الحين مقاطعة رومانية، كما أن سفر وجهاء الرومان إليها كان يستدعي إذناً صريحاً. كان أوكتافيوس من بين الإمبرياليين القلائل في العالم الذين لم يكترثوا قطّ بلعب دور الإسكندر الكبير، ولا شك في أن الأمور كانت ستأخذ منحى آخر لو أنه أبدى رغبة في ذلك. كان أوكتافيوس مهتماً بممارسة السلطة الحقيقية أكثر من اهتمامه بالزوائد التي تدل على أمجادٍ ماضية، كما أبدى أوكتافيوس اهتماماً قليلاً بالتاريخ المصري؛ الأمر الذي أثار سخط رعايا كليوباترا السابقين الذين اهتموا كثيراً بعرض آثار أسلافهم. أوضح أوكتافيوس أنه لا يهتم كثيراً بمن مات من البطالسة، لكنه أظهر احتراماً كبيراً إزاء الإسكندر الكبير الذي أُخرج من قبره لمناسبة الزيارة. وقد ورد في الرواية أنّ أوكتافيوس لمس الجثة عرضياً، ولعل ذلك حدث في أثناء زرعه بعض الزهور، لكنه أسقط في هذه العملية جزءاً من أنفه المحنط.

كان أوكتافيوس حساساً جداً لضربات الشمس، ولم يكن يذهب إلى أي مكان من دون أن يعتمر قبعته العريضة فوق رأسه، وكان ينزعج كثيراً من حرارة شهر آب في الإسكندرية، فانسحب في الخريف إلى آسيا. لم يكسب أحد من موت كليوباترا أكثر من هيرودس، وهو الذي استضاف الرومانيين مجدداً في زحفهم شمالاً. أعاد إليه أوكتافيوس بساتين النخيل والبلسم، وزاد عليها المدن الساحلية التي منح أنطونيو كليوباترا إياها، كما أضاف إليها مقاطعاتٍ أخرى. توسعت مملكة هيرودس أخيراً إلى أبعادٍ تناسبت مع إنسانيته، فتحوّل في هذا الوقت إلى الرجل المفضّل لدى الرومان من غير الرومانيين، فحصل على أربعمئة رجل من الغاليين

الذين كانوا حراس كليوباترا الشخصيين. كما تطوع نيقولا الدمشقي أيضاً ليكون أستاذه، لكنه ما لبث أن أصبح صديقه المقرب الذي يثق به. حضّر نيقولا تاريخ البلاط بطلبٍ من هيرودس، وهو التاريخ الذي استفاد منه يوسيفوس، وكان أهم مصدر مكتوب عن حياة كليوباترا. تحوّل نيقولا في منتصف حياته المهنية للتركيز على القضية الرومانية. وترك أوكتافيوس مصر في عهدة غالوس، لأنه أفضل من يتولى المسؤولية. وقد اكتشف هذا الأخير بدوره أن حكم تلك المقاطعة كان أمراً صعباً، كما أقدم في العام 29 ق.م على إخضاع السكان القاطنين حول طيبة؛ وهي "مصدر رعب كل الملوك"، والتي يفكّر الجميع في كنوزها. تجاوز غالوس صلاحياته، كما أقام تماثيل كثيرة له، ونقش أعماله العظيمة في الأهرامات، لكنه أقدم على الانتحار بعد أن أدانه مجلس الشيوخ.

جالت دمية تمثّل كليوباترا في شوارع روما، وذلك بعد مرور نحو سنة كاملة على موتها، وفي أثناء آخر استعراضات النصر التي أقامها أوكتافيوس، وأكثرها بذخاً، على مدى ثلاثة أيام. كما سار سيلٌ من الذهب، والفضة، والعاج مع دمية كليوباترا عبر شوارع فياساكرا وحتى الفوروم. قال لنا ديو إن الموكب المصري فاق كل المواكب الأخرى "في الكلفة وفي الروعة على حدٍّ سواء". سار الجنود المهزومون وراء الأسرى المميزين والمقيدين بالأصفاد، وهم التوأمان اللذان يبلغان العاشرة من العمر، وبطليموس فيلادلفوس الذي كان في السادسة من عمره، ووراء الخزائن المليئة بالذهب والفضة، والعربات المحملة بالمجوهرات، والأسلحة، والقطع الفنية، والرايات واليافطات الملونة. ظهرت دمية كليوباترا وهي على سرير موتها المصنوع من الجص والطلاء، وكذلك ظهرت الأفعى التي يُحتمل أنها كانت سبب موتها. أما أوكتافيوس الذي ارتدى عباءة أرجوانية فقد سار في الخلف محاطاً بضباطه. كانت كليوباترا مخطئة في جانب واحد من تقديرها: كان غياب أنطونيو عن هذه المناسبة ملحوظاً جداً،

لكنها كانت مصيبة في تقديرٍ آخر: قُتل الملك الوحيد الذي سار في موكب النصر، وكان حليفاً لأنطونيو بعد ذلك بوقتٍ قصير. تألقت المدينة بالغنائم المصرية فظهرت أطنان من مقتنيات البطالسة من الذهب والفضة، ودروع الصدر، وأدوات المائدة، والتيجان، والدروع، وقطع الأثاث المرصعة بالمجوهرات، واللوحات، والمنحوتات، وهي كلها رافقت أوكتافيوس في رحلة عودته، هذا بالإضافة إلى تماسيح عدة. تحدث بعضهم عن إحضار أفراس نهرٍ وكَركَدَنات ضخمة للمشاركة في احتفال النصر. لقد امتلك أوكتافيوس الموارد الكافية التي تسمح له بأن يكون سخياً، وهكذا تواجدت هدايا ثمينة في كل مكان، فكان الاحتفال بالنصر مصحوباً بحماسة منقطعة النظير، ولا يعود سبب ذلك إلى توفر الإمكانيات لذلك الاحتفال، بل لأنه كان من الضروري حجب الأنظار عن حربٍ أهلية وشيكة.

بقي تمثال كليوباترا في الفوروم، إذ كان ذلك أقل شيء يُمكن لأوكتافيوس أن يفعله تجاه المرأة التي استفاد من أرائكها الذهبية وأوانيها المرصعة بالجواهر في سبيل تمويل حكمه. سمح موت كليوباترا لأوكتافيوس بالوفاء بكل التزاماته، كما ضمن الرخاء للرومانيين. ضخّ أوكتافيان - أوكتافيوس - الأموال في اقتصاد البلاد إلى درجة دفعت بالأسعار إلى الارتفاع، كما أن أسعار الفوائد قفزت إلى ثلاثة أضعاف عمّا كانت عليه سابقاً. لخّص ديو عملية انتقال الثروة فقال إن كليوباترا ضمنت "ثراء الإمبراطورية الرومانية وتزيين هياكلها"، كما أن أعمالها الفنية ومسلاتها زيّنت شوارع المدينة. لقد حافظت كليوباترا على أمجادها بالرغم من الهزيمة الساحقة التي لحقت بها، وذلك عن طريق تحفها الجميلة التي انتشرت في مدينة أجنبية. ترافقت حمى المصريات مع ظهور هذه الثروات، فبرزت تماثيل "أبو الهول"، وانتشرت في مدينة روما عادة تربية الأفاعي، واقتناء أقراص الشمس، وأوراق الأقانثا، والهيروغليفيات. زيّنت أزهار اللوتس ورسومات العنقاء منازل كثيرة بما فيها غرفة أوكتافيوس الخاصة.

كما أحرزت كليوباترا نصراً ثانياً وإن كان غير مباشر: خيّم من بعدها عصر ذهبي للنساء في مدينة روما، فأخذت نساء الطبقة الراقية، والشقيقات من هذه الطبقة، بلعب دور في الحياة العامة، فتدخّلن مع السفراء، وقدّمن الاستشارات لأزواجهن، كما سافرن إلى خارج البلاد، وأشرفن على إقامة الهياكل والتماثيل. ظهرت في ذلك الوقت الرسومات التي تمثّل النساء في اللوحات الفنية، كما زاد ظهورهن في المجتمع، ثمّ انضمت تماثيل النساء إلى تمثال كليوباترا في الفوروم. لم يسبق أن استطاعت أي امرأة رومانية الوصول إلى هذا المركز المرموق، أو التمتع بكل الامتيازات غير المسبوقة التي كسبتها ليفيا وأوكتافيا، وهي الامتيازات التي يعود فضل الحصول عليها إلى امرأة أجنبية، وكانتا بمثابة ثقلٍ موازنٍ لها. جمعت ليفيا ممتلكات كثيرة شملت أراضي في مصر وبساتين نخيلٍ في مملكة اليهود. أما أوكتافيا فقد ضمنت لها مركزاً في التاريخ بوصفها نقيض ما تمثّله كليوباترا، أي إنها كانت مثالاً في شدة التواضع، وشدة الحذر، بالإضافة إلى تقواها.

نالت كليوباترا امتيازاً جديداً بكل معنى الكلمة. فإذا بحث المرء عن تاريخ بدء العالم الحديث، فإن تاريخ موتها هو أفضل ما يُعتمد في هذا المجال. أخذت كليوباترا معها الجمهورية الرومانية التي عمّرت أربعمئة سنة، وكذلك انتهى معها العصر الهلينستي. وأظهر أوكتافيوس أعظم المهارات التي ظهرت في التاريخ، وهو الذي تمكّن من استعادة الجمهورية بكل أمجادها، لكنه ما لبث أن حوّلها إلى ملكية؛ الأمر الذي تبيّن بجلاء أكبر في غضون عقدٍ من الزمان أو نحو ذلك. وقد فعل أوكتافيوس ذلك بمهارة شديدة لأنه نسج على منوال قيصر. لم يكن أوكتافيوس "ملكاً" قطّ، بل كان دوماً "المدير" أو "المواطن الأول"، كما أراد الحصول على لقب جديد يكون في الوقت ذاته عظيماً بما فيه الكفاية، وخالياً من الإشارات التي تدل على النظام الملكي، وهكذا لجأ إلى بلانكوس؛ الصديق السابق لكليوباترا الذي رسمها كحورية بحر. صاغ بلانكوس اسم "أغسطوس"

الـذي يوحـي بـأن الرجـل الذي كان يُعرف سـابقاً باسـم غايـوس يوليوس قيصر" كان أكثر من مجرد إنسانٍ عادي، وأنه قيّمٌ وموقّر".

هنـاك بعـض المفارقـة فـي واقع أن الغرب بدأ يشـبه شـرق كليوباترا بسـرعة، وهي المفارقة التي ظهرت أكثر عندما صوّر أوكتافيوس كليوباترا علـى أنهـا تهديـد للجمهوريـة، الأمـر الذي لـم تقصده قـطّ. تجمّع كذلك مواطنو البلاد حول أوكتافيوس، لكنه تخاصم مع كل فردٍ من أفراد عائلته تقريبـاً، كمـا أصبـح الأباطـرة الرومـان بمثابة \الأسـياد المبجّليـن، وظهرت صورهـم التـي تظهرهـم كذلـك؛ وهو الأمـر الذي أُخِذ عـن أنطونيو الذي صوّر نفسـه وكأنه ديونيسـوس. أما إذا وضعنا مزاعم التقشـف جانباً، فإن رايـة الفخامـة قـد انتقلت بسـهولة من مكانٍ إلى آخـر. يُقال إن أوكتافيوس قد ذوّب كل أدوات المائدة الذهبية الرائعة التي كانت في حوزة كليوباترا، لكن العظمة الهلينستية استمرت. جادل أحد مستشاري أوكتافيوس بالقول: "لأنـه مـن اللائـق بالنسـبة إلينا، أي الذين يحكمون عـدداً كبيراً من الناس، أن نتفوّق على كل الآخرين في كل الأمور. أما التألق من هذا القبيل فمن شـأنه بثّ الاحترام في قلوب حلفائنا، والرعب في قلوب أعدائنا". نصح هذا المستشار أوكتافيوس بعدم توفير أي شيء في هذا السبيل. مثّلت مدينة روما في هذا الوقت سوق الترف والرفاهية الجديدة، وما لبثت أن ظهرت الأعمال الحرفية والصناعات. امتلكت ليفيا فريقاً من الخدم الشخصيين بلغ تعـداده أكثـر مـن ألف رجل، كما بلغ إعجـاب أوكتافيوس بالمدفن الفخم الذي شيدته كليوباترا حداً دفعه إلى تشييد مدفنٍ شبيه به في روما، كما أن روما تدين بالفضل إلى الإسكندرية في تحوّل فن البناء فيها من الحجر إلى الرخام. مات أوكتافيوس على سـريره وهو بعمر السادسـة والسـبعين، وهو أحد الأباطرة الرومان القلائل الذي لم يُقتل على يد أحد أقربائه، وهي عادة هلينسـتية أخـرى. حكـم الرجل لمدة أربعة وأربعين عامـاً، أي لفترةٍ أطول بمرتين من الفترة التي حكمت فيها كليوباترا، وهي فترة طويلة أعطته وقتاً

كافياً لتحوير الأحداث التي أوصلته إلى السلطة(*). امتلك الرجل سبباً كافياً كي يقول: "لا يخلو أي مركزٍ رفيع من الحسد، أو الخيانة، وعلى الأخص المراكز الملكية منها". يمكنُ القول إن الأعداء سيئون، لكن ربما كان الأصدقاء أسوأ منهم. أستنتج أن مركز المسؤولية مخيفٌ جداً.

بدأت إعادة كتابة التاريخ على الفور تقريباً، ولم يقتصر الأمر على اختفاء ذكر مارك أنطونيو من السجلات التاريخية، لكن معركة آكتيوم تحوّلت بقدرة قادر إلى معركة كبيرة، وانتصارٍ مدوٍّ، وإلى نقطة تحولٍ تاريخية. تتابعت أحداث هذه المعركة من النهاية إلى البداية، كما أن أوكتافيوس أنقذ البلاد من خطرٍ كبير، ووضع حداً للحرب الأهلية، واستعاد السلم الدولي بعد قرنٍ من الاضطرابات؛ إذاً، بدأ الزمن معه من جديد. أما عند قراءتنا ما كتبه المؤرخون الرسميون فسوف يبدو الأمر وكأن شبه الجزيرة الإيطالية قد تفجرت بالألوان المتنوعة مع عودته، وذلك بعد أن أمضت قرناً كئيباً من أعمال العنف التي شلّت حركتها، وكأن محاصيل القمح الذهبية المليئة قد ارتفعت فجأة في الحقول. زعم فيليوس أن "الصلاحية عادت إلى القوانين، واستعادت المحاكم سلطاتها، كما عادت الهيبة إلى مجلس الشيوخ". صنّف فيليوس بذلك الواجبات التي أراد قيصر الاضطلاع بها في العام 46. أما كبرياء أغسطوس فقد ترسخت في الروزنامة، حيث بقيت إلى هذا اليوم بهدف إحياء ذكرى سقوط الإسكندرية وخلاص روما من خطرٍ أجنبي(**). تضمنت روزنامات ذلك الوقت ذكر

(*) لطالما كانت المرأة القوية موضع شبهة، لذا، ترددت في ذلك الوقت همسات حول أن ليفيا هي التي قامت بقتله. أما الأمر المستغرب هنا فهو القول إنها فعلت ذلك بواسطة ثمار التين المسمومة.

(**) انتهت عادة تسمية الشهور بأسماء القياصرة مع تيبيروس، وهو الذي سعى إلى وضع اسمه مكان شهر نوفمبر، لكنه لاحظ بسخرية أن مشكلة كبيرة سوف تقع إذا تواجد ثلاثة عشر قيصراً.

ذلك التاريخ بوصفه الزمن الذي تحررت فيه روما من "أعظم المخاطر التي هددتها".

حصلت كليوباترا على قدر كبير من عدم إنصاف المؤرخين لها على الأخص، وذلك لأن الانتهازيين هم الذين كتبوا التاريخ من أمثال ديليوس، وبلانكوس، وخاصة نيقولا الدمشقي. أما السنوات التي تلت آكتيوم فشهدت ثناءً مبالغاً فيه، وقدراً كبيراً من صناعة الأساطير. تصادفت فترة حكم كليوباترا مع ولادة الأدب اللاتيني، وهكذا كان هجاء كليوباترا مصدر وحي لشعراء ذلك الأدب العظماء، وهم الذين وجدوا لذة كبيرة في الاستفاضة في وصف العار الذي لحق بها، وهم فعلوا كل ذلك بلغة معادية لها ولكل ما تمثّله. أما هوراس فقد كتب باستفاضة عن آكتيوم، إذ كان أول من احتفى بنصر أوكتافيوس الرائع، وقد فعل ذلك بينما كانت كليوباترا لا تزال يائسةً وتقوم بتحصين الإسكندرية، كما استفاض في الحديث عن هزيمتها قبل حدوثها. كان فرجيل وبروبيرتيوس جاهزين للكتابة عن النصر الذي أُحرز في مصر، وهو الزمن الذي انتشرت فيه النقوش على الأحجار التي تُظهر الأفعى وخبث كليوباترا. ظهر أنطونيو في كل الروايات، وهو يفرّ من مسرح معركة آكتيوم بسبب كليوباترا التي ساعدت على تسليط الضوء على إحدى نقاط بروبيرتيوس المفضلة: إن الرجل المغرم رجلٌ ضعيف، وهو يخضع بشكلٍ مخزٍ لعشيقته. بدا الأمر وكأن أوكتافيوس قد خلّص روما من ذلك المرض، كما بدا وكأنه أعاد النظام الطبيعي إلى كل الأشياء: الرجال عادوا كي يحكموا النساء، وعادت روما لتحكم العالم؛ كانت كليوباترا ضرورية للقصة في كلتا الحالين. ألّف فرجيل الإنيادة في ذلك العقد من السنين الذي أعقب موت كليوباترا، وهكذا وضع ثعابين تحرسها حتى في معركة آكتيوم. لم يكن لكليوباترا أي نصيب من الإنصاف عند قراءة كتاب بصوتٍ عالٍ أمام أغسطوس وأوكتافيا، أي المقاطع المتعلقة بها في تلك الملحمة الشعرية. وقد قُدّر لقصتها أن تُكتب بيد روماني لم

تلتقِهِ أكثر من مرةٍ واحدة، وفي آخر أسبوعٍ من حياتها؛ وهو الشخص الذي وضعها في مصافّ الخصوم الخطرين، وفي الموقع الذي أحاطت به طبقات من الضباب السميك والأساطير الغامضة. تعدّ كليوباترا من بين الخاسرين القلائل الذين يذكرهم التاريخ، لكن ذلك حدث لأسبابٍ غير مناسبة(*). اصطف جميع صانعي الأساطير في جهة واحدة، وهكذا بقي التأثير الشرقي وتحرير المرأة موضوعين غنيّين بالنسبة إلى الساخرين من الأدباء.

تضخمت كنوز كليوباترا وتضاءلت منذ موتها بمثل الإثارة التي كانت عليها في حياتها. قيل إن قوتها كانت نابعة من قوتها الجنسية، ويعود ذلك إلى سببٍ واضح على حدّ ما لاحظه أحد قتلة قيصر: "كم من الانتباه يعيره الناس لمخاوفهم أكثر مما لذكرياتهم!". كان من السهل أن تُنسب نجاحات امرأةٍ ما إلى جمالها أكثر من عقلها، وكل ذلك من أجل حصرها في حدود حياتها الحميميّة. لا يُمكن لأحد منافسة فاتنة قوية. أما المرأة التي توقع الرجل في حبائل ذكائها الإفعواني، وفي جدائل مجوهراتها، فمن الأجدر بها امتلاك نوعٍ من أنواع الترياق. تثير كليوباترا الارتباك بوصفها حكيمة أكثر مما تفعله بوصفها فاتنة. يعني ذلك أن الاعتقاد أنها جذابة بشكلٍ مميت أسهل بكثير من الاعتقاد أنها ذكية بشكلٍ مميت. (ظلّ قول ميناندر المأثور في القرن الرابع، "إن الرجل الذي يعلّم المرأة القراءة يجب أن يعلم أنه يقدم السم إلى أفعى"، شائعاً بين طلاب المدارس بعد مئات السنين من موتها). وتتابعت بعد ذلك التعليقات المثيرة عنها، فوصفها ديو بأنها "ملكة مثيرة"، ولاحقاً "امرأة ذات شهوة لا تنتهي، ونهم لا يُمكن إشباعه". أما بوكاشيو فوصفها على أنها "ساقطة ملوك الشرق"، لكن درايدن قال إنها

(*) يُحتمل أنها كانت تعرف قصة يعسوب، عندما قال الأسد للرجل: "هناك تماثيل كثيرة لرجالٍ يقتلون أسوداً، لكن لو كانت الأسود تماثيل فقط لكان يُحتمل وجود نوعٍ آخر من التماثيل".

"مثال الحب غير الشرعي". أما بروبيرتيوس فقال عنها إنها كانت تعبث مع عبيدها، كما أكد أحد الرومانيين من القرن الأول، لكن عن خطأ، أن "الكتاب القدماء تحدثوا تكراراً عن شهوانية كليوباترا التي لا تشبع إلى حد أنها "لعبت دور الساقطة". (قيل إنها كانت جميلة جداً وقاتلة إلى حدّ أن "رجالاً كثيرين كانوا يمضون لياليَ معها لقاء حياتهم"). قدّرت إحدى نساء القرن الثامن عشر أنها كانت "مشعوذة مذهلة"، أما فلورنس نايتنجايل فقد أشارت إليها بعبارة "كليوباترا المقرفة تلك". قيل إن سيسيل ب. دوميل عندما عرض دور كليوباترا على الممثلة كلوديت كولبرت، سألها: "أترغبين في أن تكوني أكثر النساء شراً في التاريخ؟". ظهرت كليوباترا كذلك بطلة كتاب في العام 1928 بعنوان خَطَأة عبر التاريخ. ليس هناك مجال للمنافسة ما بين السيدة والأسطورة بالنسبة إلى كليوباترا.

تتغلب الحتمية الشخصية على السياسية، كما أن الإثارة تتغلب على كل ما عداها: إننا سنتذكّر أن كليوباترا قد عاشرت يوليوس قيصر ومارك أنطونيو بعد وقتٍ طويل من نسياننا ما أنجزته لقاء هاتين العلاقتين، وبعد أن ننسى أنها حافظت على إمبراطورية غنية وكثيفة السكان في آخر فترة لها، وهي فعلت ذلك تحت لواء سلالةٍ فخورة ومتحضرة. بقيت كليوباترا على خريطة التاريخ لأنها أغوت أعظم رجلين في زمانها، بينما كانت جريمتها أنها دخلت هاتين الزيجتين "المخادعتين والمشكوك فيهما"، وتُعتبَر هاتان العلاقتان من العلاقات التي يتمتع بها كل رجل يتربع على عرش السلطة. أما هي فقد فعلت ذلك بطريقة معكوسة وباسمها الخاص، وهو الأمر الذي جعلها معرقلة اجتماعياً، وامرأة غير طبيعية. أضافت كليوباترا بعض الأخطاء الأخرى إلى سجلها، أي إنها جعلت روما تشعر وكأنها غير متحضرة، وغير آمنة، وفقيرة، ما أضاف سبباً آخر إلى الأسباب التي تدعو إلى القلق منها، وذلك من دون إضافة المتعة الجسدية إلى هذا الخليط. لاحقت كليوباترا مخيلة القدماء، وكانت أشبه بقصة تحذيرية.

اكتسبت مؤسسة الزواج رونقاً تنظيمياً جديداً، وهو التطور الذي كان إشـارة سـيئة بالنسـبة إلى كليوباترا؛ المرأة التي تسببت بالإرباك، والمستبدة التي تسببت بخراب البيوت.

أحدثت كليوباترا الازدراء، واستجلبت مشاعر الحسد بمقادير متساوية مـن التحيّـز. تضمنـت قصتها الخوف الذكـوري بقدر ما تضمنته من خيال. نقـل لنـا بلوتـارك أعظم قصة حبٍّ في التاريـخ، وذلك بالرغم من أن حياة كليوباتـرا لـم تكـن مثيرة ولا رومانسـية على نحو ما جـرى تصويرها. لقد لعبت الملكة دور المرأة الفاتنة والمغرية مرتين في حياتها. وتعيّن عليها أن تكون "الملكة الشرسة" التي تخطط لخراب روما، وذلك كي تصبح آكتيوم أم المعارك. أما إذا لم يفعل أنطونيو غير الخضوع لمواطنته الرومانية، فقد تعيّن على كليوباترا أن تكون تلك الغاوية الفاتنة "التي سبق لها أن دمرته، وكانت مستعدة لإكمال ذلك التدمير". يُحتمل أنه من الصعب جداً تحديد المكان الذي ينتهي فيه الانتقام، وتحديد أين يبدأ الولاء. تعززت سـلطتها علـى الفـور لأنـه تعيّـن عليها إخضاع رجل لعبودية مذلة من أجل تسـجيل انتصارات تاريخية لرجلٍ آخر. يُمكن أن نقول عنها إنها ابنة مطيعة ومحبة لوالدها، وامرأة وطنية حامية لبلدها، وحتى إنها امتلكت شعوراً قومياً منذ نعومـة أظفارهـا، وإنها كانت رمـزاً للجرأة، وحاكمة حكيمة تمتلك أعصاباً من فولاذ، وأسـتاذة في فن تقديم ذاتها. لكن من غير الصحيح القول إنها هـي التـي شـيّدت منارة الإسـكندرية، وإنـه كان بإمكانها أن تصنع الذهب، وإنهـا كانـت امـرأة مثاليـة، علـى حـدّ ما قالـه غوته، أو إنها شـهيدة الحب كما وصفها شوسـر، أو "فتاة صغيرة وطائشـة" كما قال عنها برنارد شـو. وصفهـا أحـد أسـاقفة الأقبـاط من القرن السـابع بأنها "أكثر النساء شـهرة وحكمـة"، وأنهـا أعظـم مـن كل الملوك الذين سـبقوها. كما قيل ذات يوم إن كليوباتـرا قـد ماتـت لأجل الحب، وهو أمر ليس بالصحيح تماماً. عمد الجميـع فـي النهايـة إلى الإشـارة إليها بدءاً من مايـكل آنجلو إلى جيروم،

ومن كورنيه إلى بريخت. كان أسياد عصر النهضة مهووسين بها، وكذلك كان الرومانسيون بدرجة أكبر. ألهمت كليوباترا شكسبير ودفعته إلى قمة عطائه، فانتزعت منه أعظم بطولاته النسائية، وأعظم قصائد شعره، وفصلاً كاملاً من دون أنطونيو، على حدّ ما قاله أحد النقاد من أنها تحية صارخة للإباحية المتفلتة من كل شعورٍ بالذنب، والتي سادت في العصور الوسطى. يُحتمل أن شكسبير يستحق قسطاً كبيراً من اللوم على فقداننا أثر كليوباترا السابعة، إضافةً إلى الرطوبة السائدة في الإسكندرية، والدعاية الرومانية، وعينَي إليزابيت تايلور الزرقاوين والشفافتين.

لم تتحول الإسكندرية على الفور عن كونها مركزاً للمبارزات الفكرية والفلسفية، بل استمرت هذه المدينة في لعب دورها كدماغ للعالم المتوسطي لفترة قرنٍ آخر من الزمان أو نحو ذلك، لكنّ دورها بدأ بالتلاشي منذ ذلك الحين. أخذت الإسكندرية معها الاستقلالية القانونية للنساء، كما انتهت الأيام التي كانت المرأة فيها تستطيع مقاضاة والد زوجها بهدف استرجاع مهرها على إثر هرب زوجها المفلس، وبعد أن يكون قد أنجب ولداً من امرأة أخرى. زحف قصر كليوباترا إلى تحت سطح مياه المتوسط بعد زلزالٍ قوي وقع في القرن الخامس. أما المنارة، والمكتبة، والمتحف فقد اختفت كلها، كما أن ميناء الإسكندرية لا يحمل شبهاً بذلك الميناء الهلينستي. يُضاف إلى ذلك أن نهر النيل ذاته قد غيّر مساره، كما أن المدينة ذاتها قد غرقت بعمق عشرين قدماً. تغيّرت أشياء كثيرة بما فيها ساحل آكتيوم، الذي لا بد من أن كليوباترا تتذكره جيداً. أما مدينة الإسكندرية التي عرفتها الملكة فقد اختفت تماماً تقريباً إما تحت مياه المتوسط، وإما دُفنت تحت مدينة تضج بسكانها، والتي نسيت إلى حدٍّ كبير ماضيها الهلينستي. تبخرت حضارة البطالسة في الوقت ذاته، كما أن النسيان طال قدراً كبيراً من المعارف التي كانت في حوزة كليوباترا لمدة تقرب من ألف وخمسمئة سنة.

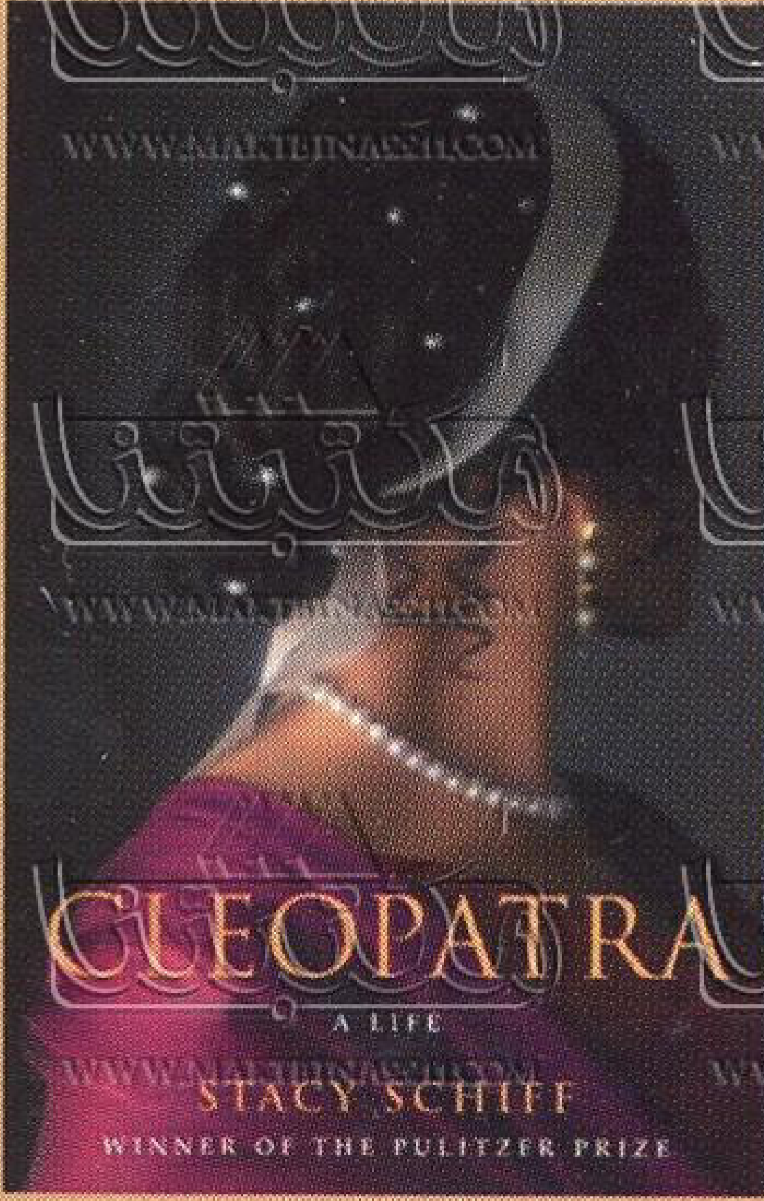
تزايد تعلقنا بكليوباترا نتيجة لذلك، كما أن اختفاءها كان أقرب إلى الأسطورة. أما الثغرات الموجودة في قصتها، فإنها توقعنا في جاذبيّتها أكثر فأكثر. تستمر كليوباترا في إرباكنا بعد مرور كل ذلك الزمن؛ فكلّ القضايا التي تقتحم موائد طعامنا، وكل تلك التي تتسلّل إلى عقولنا مثل السموم، تجتمع كلها في شخصها. أما الآن، وبعد مرور ألفي عام على تعذيبها لأوكتافيوس بنيرانها المتقدة، فإن قلة من الأشياء المترافقة معها تبهرنا مثل الثروة الخيالية، والمأساة الكارثية. إننا لا نزال نقاتل معركة الشرق والغرب، ولا نزال نتذبذب مثل شيشرون بين الإفراط في الملذات وبين ضبط النفس. وتستمرّ الحميمية والسلطة بالتفاعل بطرائق مدهشة. تستمر كذلك مسائل مثل الطموحات، والإنجازات، والسلطة الأنثوية في جعلنا نشعر بالأرق مثلما كانت تؤرق الرومان الذين كانت كليوباترا بالنسبة إليهم وحشاً أكثر مما هي فوق الطبيعة، لكن لا شك في أنها تمثل قدراً كبيراً من كليهما.

تعجز ألفا سنة من التعليقات والكتابات الساخنة عن حجب واقع أن كليوباترا كانت ملكة مقتدرة بشكلٍ مدهش، وأنها كانت متعقلة وانتهازية إلى الحد الأقصى، وكانت مخططة استراتيجية من الدرجة الأولى. بدأت كليوباترا حياتها السياسية بعملٍ فيه القدر الكثير من التحدي، وأنهتها بعملٍ مماثل. تساءل أحد شعراء اللاتينية غير المجهولين في أحد مقاطع قصيدة له: "أي امرأة، وأي سلالة متعاقبة من الرجال القدماء، كانوا بمثل عظمتها؟"، وقد أعطت تلك القصيدة كليوباترا دورها بوصفها اللاعبة الرئيسة في عصرها. أقحمت كليوباترا نفسها جسدياً وبكل جرأة في عالم السياسة، مع ما كان لذلك من عواقب كبيرة. وأقنعت شعبها بأن الغسق فجر، وسعت بكل ما أوتيت من قوة كي تجعله كذلك. عمدت في أثناء بعض الظروف اليائسة إلى الارتجال، ومضت بعد ذلك إلى الارتجال مجدداً؛ وهو الأمر الذي اعتبره بعض الناس دليلاً على العبقرية. ترافقت

قصتها مع تألقٍ وعظمة من قبل أن يعمد أوكتافيوس أو شكسبير إلى وضع أيديهما عليها. كانت قصتها قصة ذلك الحضور المُبهج، كما أنها أثّرت كثيراً في قوم بلوتارك، وذلك قبل أن يكتب عنها صفحات عديدة متأثراً بها. تبهرنا كليوباترا، منذ اللحظة الأولى التي نفكر فيها وحتى اللحظة الأخيرة، بقدرتها على تهيئة ظروف أفعالها، وهكذا ظلت حتى النهاية سيدة نفسها، وفَطِنة، ونشطة، وثرية بشكل لا يصدق، ومدلّلة جداً، وطموحةً مع ذلك.

صادفت كليوباترا في حياتها عدداً قليلاً من الأشخاص الذين يُمكن اعتبارهم مساوين لها. اعتبرها الرومان امرأة عنيدة، واستثناءً قوياً لكل قاعدة، كما بقيت امرأة تستعصي على المقارنة إلى حدٍّ كبير: امتلكت عدداً كبيراً من الأسلاف، لكنها امتلكت عدداً قليلاً من الذين ملأوا مكانها من بعدها. انتهى مع كليوباترا عصر الإمبراطورات، وهكذا لم تتمكن سوى امرأة واحدة أو امرأتين، وعلى مدى ألفَي سنة، من بسط سيادة مطلقة على مملكة مترامية الأطراف مثل مملكتها. لقد بقيت وحيدة تقريباً على مائدة ذكورية بالكامل، وهي التي امتلكت يداً مبسوطة بالثراء وإن أخطأت في بعض المواضع، وهي التي أنجزت أموراً كثيرةً بالشكل الصحيح، لكنها أخطأت في أمرٍ حاسم. يستحيل علينا كذلك فهم طبيعة شعورها مع نهاية صيف العام 30، أي عندما أطبق أوكتافيوس على مدينتها، وعندما اتضح لديها أكثر فأكثر بأن الحظ لن يحالفها مجدداً، وأن المستقبل لن يبتسم لها بعد ذلك، وأنها ضاعت إلى الأبد هي ومصر. سألت إحدى الملكات ابنها في إحدى مسرحيات يوريبيديس: "ما هو شعور المرء عندما يخسر بلده، أليس ذلك معاناة عظيمة؟". أجابها ابنها: "إنها معاناة أعظم من تلك التي يتحدث عنها الناس". قال أحد المؤرخين في القرن الثالث بعد الميلاد إنه من المؤكد أن الخوف والغضب قد حطّما كليوباترا عندما أدركت أنها المرأة التي "حطمت النظام الملكي في مصر".

Wed.
27/6/2012
Riyadh



يخطف بريق الرخام والعقيق والذهب التي تزين قصرها الأنظار، ولكن وطأة الدسائس الجنسية والمؤامرات السياسية التي تلفه تبقى أقوى بريقاً وأكثر تأثيراً، بفضل كليوباترا المخطِطة الخطرة والمفاوضة الماهرة.

ورغم أن حياتها امتدت إلى أقل من أربعين سنة، ولكنها كانت كافية لتحديد معالم العالم القديم. إذ إنها تزوجت مرتين، وفي كل منهما شقيقاً. حيث شنّت حرباً شعواء ضد الأول في سني مراهقتها، ودست السُم للآخر، وفي النهاية تخلصت من شقيقة منافسة لها، إذ إن الدسائس والاغتيالات كانتا من شيم هذه العائلة. ويظهر أن كليوباترا عاشرت رجلين فقط، وكانا على التوالي يوليوس قيصر ومارك أنطونيو أهم رجلين في الإمبراطورية الرومانية في ذاك العصر. ورغم أن الاثنين كانا متزوجين، ولكن كليوباترا كان لديها طفل من يوليوس قيصر، وارتفع عدد أولادها إلى أربعة.

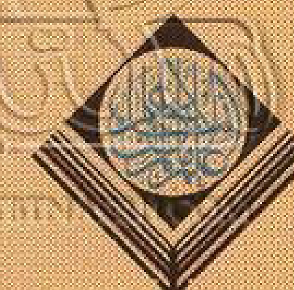
كانت أغنى حكام حوض البحر المتوسط في عصرها، كما أن علاقتها بمارك أنطونيو أكدت مقولة أنها أكثر نساء الأرض تأثيراً على الإطلاق، حيث حاولت بالاشتراك معه إنشاء إمبراطورية جديدة عبر حلف سبّب نهايتهما. ومنذ ذلك الحين تشبثت كليوباترا في خيالنا.



ستايسي شيف هي مؤلفة «فيرا» (السيدة فلاديمير نابوكوف). حازت المؤلفة على جائزة بوليتزر عن «سان إيكزوبيري»، كما وصل كتابها «الارتجال الكبير: فرنكلين، فرنسا، وولادة أمريكا» إلى نهائيات الترشح لجائزة بوليتزر. فازت المؤلفة بجائزة جورج واشنطن للكتاب وجائزة كتاب أمباسادور، وتلقت منحة من مؤسسة غوغنهايم، ومن البرنامج الوطني للمنح عن العلوم الإنسانية، ومن مركز الباحثين والكتّاب في مكتبة نيويورك العامة. تلقت شيف كذلك جائزة آكاديمي عن الأدب من الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب، كما سا... في النيويوركر، ونيويورك تايمز، وواشنطن بوست. تعيش المؤلفة حالياً في مد...


ISBN 978-614-01-0469-3
9 786140 104693

nwf.com
نيل وفرات.كوم
جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com


الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

تصميم الغلاف: سامح خلف